

# التَّعْرِيفُ بِابْنِ خَلْدُون

وَرِحَلَتُهُ غَرْبًا وَشَرْقًا



تأليف  
عبد الرحمن بن خلدون

منشورات  
دار الكتاب العربي  
للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

١٩٧٩

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً<sup>(١)</sup>

وأصل هذا البيت من إشبيلية؛ انتقل سلفنا - عند الجلاء -  
وغلب ملك الجلائقة ابن أدفونش عليها - إلى تونس في أواسط  
المائة السابعة .

### نسبه :

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد  
ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون<sup>(٢)</sup> . لا أذكر من نسبي إلى  
خلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط  
مثلهم عدداً ؛ لأنّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان  
أول الفتح فالمدّة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ؛

(١) ختم ابن خلدون الجزء الأخير من تاريخه بالتعريف بنفسه وأضاف بخطه في بعض النسخ قوله :  
« ورحلته غرباً وشرقاً » .

(٢) بفتح الحاء كما ضبطه بخطه بالقلم مراراً ، وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ١/١٤٥ .

ثلاثة لكل مائة ، كما تقدم في أول الكتاب الأول<sup>(١)</sup> .

ونَسَبْنَا حَضْرَمَوْتَ ، من عَرَبِ اليَمَنِ ، إلى وائِل بن حُجْر ،  
من أقبال العرب ، معروف وله صُحْبَةٌ . قال أبو محمد بن حَزْم<sup>(٢)</sup> في  
كتاب الجَهْرَةِ : وهو وائِل بن حُجْر بن سعيد بن مَسْرُوق بن وائِل  
ابن النُّعْمَان بن ربيعة بن الحَارِث بن عَوْف بن سعد بن عوف بن عَدِيٍّ  
ابن مالك بن شُرْحَبِيل بن الحَارِث بن مالك بن مُرَّة بن حَمِير بن  
زيد بن الحَضْرَمِيِّ بن عمرو بن عبد الله بن هَانِي ، بن عوف بن جُرْشَم  
ابن عبد شمس بن زيد بن لَآئِي بن شَبِيت<sup>(٣)</sup> بن قُدَامَةَ بن أَعْجَب بن  
مالك بن لَآئِي بن قحطَان . وابنه عَلَقَمَةُ بن وائِل وعبد الجُبَّار بن  
وائِل .

وذكره أبو عمر بن عبد البر في حرف الواو من « الاستيعاب » ،  
وأنه وفد<sup>(٤)</sup> على النبي صلى الله عليه وسلم ، فبَسَطَ له رداءه ، وأجلسه  
عليه ، وقال : « اللهم بارك في وائِل بن حُجْر وولده وولد ولده إلى يوم  
القيامة » .

(١) انظر المقدمة ص ٣٠٤ طبع دار الكتاب اللبناني . حيث قدر أعمار الدول .

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي ( ٣٨٤ - ٤٥٦ ) انظر  
الإحاطة وتاريخ الأدب العربي لبروكلمن ١/٤٠٠ ، والملحق ١/٦٩٤ .

(٣) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مشاة فوقية .

(٤) انظر قصة وفادته على النبي (ص) « عام الوفود » في القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ  
ابن خلدون ص ٨٣٥ .



وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن والاسلام ؛ فكانت له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأول خلافته وأجازه ؛ فرد عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت واقعة حُجْر بن عدي الكندي بالكوفة ، اجتمع رؤوس أهل اليمن ، وفيهم وائل هذا ، فكانوا مع زياد<sup>(١)</sup> بن أبي سفيان عليه ، حتى أوثقوه وجاؤا به إلى معاوية ، فقتله كما هو معروف .

قال ابن حزم : ويذكر بنو خلدون الاشبيليون من ولده ، وجدُّهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني . ابن الخطاب بن كريب<sup>(٢)</sup> بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حُجْر . قال : وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حزم : وأخوه محمد كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون . وبنو أبي العاصي : محمد ، وأحمد ، وعبد الله . قال : — وأخوهم عثمان ، وله ، عقب . ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس من تلاميذ مَسْلَمَة المَجْرِيْطِي<sup>(٣)</sup> ؛ وهو أبو مُسْلِم

(١) هو زياد بن أبي سفيان ، ويقال ابن أبيه ؛ أخو معاوية بن أبي سفيان .

(٢) قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٣) هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي . فلكي راصد ، له تأليف في الفلك والفلسفة والبحر

والكيمياء . انظر عيون الأنباء ٣٩/٢ .

عمر بن محمد<sup>(١)</sup> بن بَقِيَّ بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل . وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله . قال : ولم يبق من ولد كُرَيْبِ الرِّيسِ المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كُرَيْب - انتهى كلام ابن حزم .

### سلفه بالاندلس

ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس ، نزل بِقَرْمُونَةَ في رَهْط من قومه حَضْرَمَوْت ، ونَشَأَ بَيْتُ بَنِيهِ بِهَا ، ثم انتقلوا إلى إشبيلية . وكانوا في 'جند اليمَن' ، وكان لَكُرَيْب من عقبه وأخيه خالد ، الثورةُ المعروفةُ بِإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني ؛ ثار على ابن أبي عُبْدَةَ ، وملكها من يده أعواماً ، ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج ، بِإملاء الأمير عبد الله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة .

وتلخيص الخبر عن تورته<sup>(٢)</sup> ، على ما نقله ابن سعيد<sup>(٣)</sup> عن الحِجَارِي<sup>(٤)</sup>

(١) في عيون الأنباء ( ٤١/٢ ) : « عمر بن أحمد بن خلدون » . وابن خلدون هذا هو أحد أشراف إشبيلية ، وكان فيلسوفاً مهندساً طبيباً . توفي سنة ٤٤٩ هـ .

(٢) تفصيل خبر هذه الثورة في تاريخ ابن خلدون ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ .

(٣) علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي ( ٦١٠ - ٦٧٣ ) صاحب كتابي « المغرب » و « المشرق » وغيرها . يعتمد عليه ابن خلدون كثيراً في النسب والتاريخ .

(٤) أبو محمد عبد الله إبراهيم الحِجَارِي ( نسبة ) إلى وادي الحجارة ( الصنهاجي ) من أهل القرن السابع ألف كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ابتداءً فيه من فتح الأندلس وانتهى إلى سنة ٦٣٠ ، انظر نفح الطيب ١ - ٤٨٣ ، ٢ - ٤٠٦ .

وابن حَيَّان<sup>(١)</sup> وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأَشت مؤرِّخ إشبيلية: أن الأندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عَبدَة، ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عَبدَة، وكان عبد الرحمن الداخل ولي أبا عبدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة. وبيت بني خلدون هؤلاء، ورئيسهم كُريِّب المذكور، ويردِّفه أخوه خالد.

قال ابن حَيَّان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية. ثم بيت بني حجاج، ورئيسهم يومئذ عبد الله. قال ابن حَيَّان: هم - يعني بني حجاج - من لخم، ويبتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل، نابت الفرع موسوم بالرئاسة السلطانية والعلمية. فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد الله قد ولي على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً، وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر، وثاروا بمحمد بن الأمير عبد الله وبأمية

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩) مؤرخ الأندلس بلا جدال. له كتاب «المتين» أو (المبين) في التاريخ، و«المقتبس» في تاريخ الأندلس، وكتاب «معرفة الصحابة». (وفيات الأعيان لابن خلكان ١ - ٢١٠).

صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد - بابن الأمير عبد الله .  
وحاصروها في القصر ، حتى طلب منهم اللحقاق بأبيه فأخرجوه ،  
واستبدت أمية بإشبيلية ، ودس على عبد الله بن حجاج من قتله ،  
وأقام أخاه إبراهيم مكانه . وضبط إشبيلية ، واسترهن أولاد بني  
خلدون وبني حجاج ، ثم ثاروا به ، وهم بقتل أبنائهم ؛ فراجعوا  
طاعته . وحلفوا له ؛ فأطلق أبنائهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات  
وقتل حرمة ، وعقر خيوله ، وأحرق موجوده . وقاتلهم حتى قتلوه  
مقبلاً غير مدبر ، وعاشت العامة في رأسه . وكتبوا إلى الأمير عبد  
الله بأنه خلع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشام بن عبد  
الرحمن من قرابته ، فاستبدوا عليه ، وفتكروا بابنه ، وتولى كبير ذلك  
كريب بن خلدون ، واستقل بإمارتها .

وكان إبراهيم بن حجاج بعد ما قتل أخوه عبد الله - على ما  
ذكره ابن سعيد عن الحجاري - سمت نفسه إلى التفرد ، فظاهر  
ابن حفصون<sup>(١)</sup> أعظم ثوار الأندلس يومئذ ، وكان بمالقة وأعمالها إلى  
رندة ، فكان له منه ردء . ثم انصرف إلى مداراة كريب بن  
خلدون وملا بسته ، فردفه في أمره ، وشركه في سلطانه ، وكان في

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس . أول  
ثائر بالأندلس ، وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ .  
وتوفي سنة ٣٠٦ وانظر تورته في تاريخ ابن خلدون ٤ - ٢٨٦ وما بعدها .

كُريِب تحامل على الرعية وتعصَّب ، فكان يتجَهَّم لهم ، ويغلظ عليهم ، وابن حجاج يَسْلُك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده ، فانحرفوا عن كُريِب الى ابراهيم . ثم دس الى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب بولاية اشبيلية ، لتسكن اليه العامة ؛ فكتب اليه العهد بذلك . وأطلع عليه عُرفاء البلد ، مع ما أشربوا من حُبِّه ، والنفرة عن كُريِب ، ثم أجمع الثورة ، وهاجت العامة بكُريِب فقتلوه ؛ وُبعث برأسه الى الأمير عبد الله ، واستقر بإمارة اشبيلية .

قال ابن حيان : وَحَصَّن مدينة قرْمونة من أعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مُرتَبَطاً لخيوله ، وكان ينتقل بينها وبين اشبيلية . واتخذ الجند ورثتهم طبقات ، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا ، ويبعث اليه المَدَد في الصَّوائف . وكان مقصوداً مُمدِّحاً ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، وَمدَّحه الشعراء فأجازهم ، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد<sup>(٢)</sup> ، وقصده من بين سائر الثوار ، فعرَّف حقه ، وأعظم جائزته .

وَلَمْ يَزَلْ بيت بني خلدون بإشبيلية — كما ذكره ابن حيان وابن

(١) الصوائف جمع صائفة وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا يغزون صيفاً تفادياً من شدة البرد والثلج ( تاج العروس ) .  
(٢) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي ( ٢٤٦ - ٣٢٨ ) صاحب كتاب العقد الفريد ترجمته في الوفيات ٣٩/١ اليتيمة ٤١٢/١ معجم ياقوت ٦٧/٢ .

حَزَمٌ وَغَيْرُهُمَا - سَاطِرَ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَى أَزْمَانِ الطَّوَّائِفِ<sup>(١)</sup> - ،  
وَانْتَحَتْ عَنْهُمْ الْإِمَارَةُ بِمَا ذَهَبَ لَهُمْ مِنَ الشُّوْكَةِ .

وَلَمَّا عَلَا كَعْبُ بْنُ عَبَّادٍ<sup>(٢)</sup> بِإِشْبِيلِيَّةٍ ، وَاسْتَبَدَّ عَلَى أَهْلِهَا ،  
اسْتَوَزَرَ مِنْ بَنِي خَلْدُونَ هَؤُلَاءَ ، وَاسْتَعْمَلَهُمْ فِي رُتَبِ دَوْلَتِهِ ، وَحَضَرُوا  
مَعَهُ وَقَعَةَ الزَّلَاقَةِ<sup>(٣)</sup> كَانَتْ لِابْنِ عَبَّادٍ وَلِيُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ<sup>(٤)</sup> عَلَى  
مَلِكِ الْجَلَالِقَةِ ، فَاسْتَشْهَدَ فِيهَا طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ بَنِي خَلْدُونَ هَؤُلَاءَ ،  
ثَبَتُوا فِي الْجَوْلَةِ مَعَ ابْنِ عَبَّادٍ فَاسْتُلْحِمُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ . ثُمَّ كَانَ  
الظُّهُورُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ . ثُمَّ تَغَلَّبَ يُوسُفُ بْنُ  
تَاشِفِينَ وَالْمُرَابِطُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَاضْمَحَلَّتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَفَنِيَتْ  
قَبَائِلُهُمْ .

### سَلَاةٌ بِأَفْرِيقِيَّةٍ

وَلَمَّا اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ<sup>(٥)</sup> عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَمَلَكَوْهَا مِنْ يَدِ

(١) يَبْتَدِيءُ عُمُرُ مُلُوكِ الطَّوَّائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ بِنَهَايَةِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَيَنْتَهِي بِغُلْبَةِ يُوسُفِ بْنِ  
تَاشِفِينَ الْمُرَابِطِيِّ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، وَاسْتِيلَاثِهِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ . انْظُرْ تَارِيخَ ابْنِ خَلْدُونَ ٣٣٦/٤ ، وَمَا بَعْدَهَا .  
(٢) أَبُو الْقَاسِمِ الْمُعْتَمِدُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَّادٍ (٤٣١ - ٤٨٨) أَكْبَرُ مُلُوكِ الطَّوَّائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ  
تَرْجَمَتْهُ فِي : تَارِيخِ ابْنِ خَلْدُونَ ٣٤٤/٤ وَمَا بَعْدَهَا .

(٣) وَقَعَةُ الزَّلَاقَةِ هَذِهِ مِنَ الْمَعَارِكِ ذَاتِ الْإِثْرِ الْبَعِيدِ فِي الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَلِذَلِكَ أَكْثَرُ  
الْمُؤَرِّخِينَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهَا . انْظُرِ الْإِسْتِقْصَا ١١١/١ - ١١٩ .

(٤) انْظُرْ تَرْجَمَةَ يُوسُفِ بْنِ تَاشِفِينَ (٤١٠ - ٥٠٠) فِي الْوَفَايَاتِ ٤٨١/٢ .

(٥) تَبْتَدِيءُ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ سَنَةَ ٥١٤ عَلَى يَدِ مَهْدِيِّ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدِ بْنِ تُوْمَرْتٍ وَتَنْتَهِي  
سَنَةَ ٦٨٨ هـ . وَامْتَدَّ سُلْطَانُهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَنَةِ ٥٤٠ - ٦٠٩ هـ تَقْرِيْبًا انْظُرْ جُذُوءَ الْإِقْتِبَاسِ ص  
٩٧ - وَتَارِيخَ أَبِي الْفَدَاءِ ٢٤٣/٢ .

المرابطين ، وكان ملوكهم : عبد المؤمن وبنيه . وكان الشيخ أبو حفص كبير هتاتة زعيم دولتهم<sup>(١)</sup> ، وولوه على اشبيلية وغرب الأندلس مرارا ، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك ، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات ، ويُعرف بابن المحتسب ، للأمير أبي زكرياء<sup>(٢)</sup> يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم ، جارية من سبي الجلائقة ، اتخذها أم ولد ، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكريا ولي عهده الهالك في أيامه ، وأخواه : عمر وأبو بكر ، وكانت تُلقب أم الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكرياء الى ولاية إفريقية سني العشرين والستائة . ودعا لنفسه بها ، وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين . واستبد بإفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس ، وثار عليهم ابن هود<sup>(٣)</sup> . ثم هلك واضطربت الأندلس ،

(١) هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتي ، أول التابعين لمهدي الموحدين من بين قومه ، والمختص بصحابه ، ومن هنا انتظم في سلك العشرة السابقين الى دعوة ابن تومرت . وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ . والى أبي حفص هذا تنسب الدولة الحفصية بإفريقية . وليس صحيحاً ما يتوهم من انها من ذرية أبي حفص عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، انظر ابن خلدون .

(٢) هو الأمير أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي . ملك جل إفريقية ، وبايعه اهل الأندلس ، وأمله اهل شرق الأندلس لصد هجوم ملكي أرغون وقشتالة ، فأوفدوا اليه كاتب ابن مرذنيش أبا عبد الله ابن الأبار ، فانشده القصيدة السينية المشهورة :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السيل الى منجاتها درسا

(٣) محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هود الجذامي . انظر أخبار ثورته في تاريخ

ابن خلدون ٤/ ٣٦١ .

وتكالب الطاغية عليها ، وردد الغزو إلى الفرنتيرة<sup>(١)</sup> ، بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان ، وثار ابن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة ، يرجو التماسك لما بقي من رمق الأندلس . وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية . وهم بنو الباجي ، وبنو الجدة ، وبنو الوزير ، وبنو سيد الناس ، وبنو خلدون . وداخلهم في الثورة على ابن هود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة ، ويتمسكوا بالجلال الساحلية وأمصارها المتوعدة ، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة ، فلم يوافقوه على بلدهم .

وكان مقدمهم أبو مروان الباجي ، فنبذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي ، وبأيع مرة لابن هود ، ومرة لصاحب مرآكش من بني عبد المؤمن ، ومرة للأمير أبي زكرياء صاحب إفريقية . ونزل غرناطة ، واتخذها داراً للملك ، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك ؛ فخشى بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدو ، ونزلوا سبتة وأجلب الطاغية على تلك الثغور ؛ فملك قرطبة ، وإشبيلية ، وقرمونة وجيان وما إليها ، في مدة عشرين سنة . ولما نزل بنو خلدون سبتة أصهر اليهم العزفي<sup>(٢)</sup> بأبنائه

(١) الفرنتيرة هي : بسيطة قرطبة وإشبيلية وطليلة وجيان ، آخذة من جوف ( شال ) الجزيرة من المغرب إلى المشرق .

(٢) انظر أخبار بني العزفي في تاريخ ابن خلدون ٧٢٧/٦ ، ٧٧٧ .



وبناته ، فاختلط بهم ، وكان له معهم صهر مذكور . وكان جدنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحتسب ، قد أجاز فيمن أجاز معهم ؛ فذكر سوابق سلفه عند الأمير أبي زكرياء ؛ فقصداه وقدم عليه فأكرم قدومه . وارتحل الى المشرق ؛ ف قضى فرضه . ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكرياء على بؤنة ؛ فأكرمه ، واستقر في ظل دولته ، و مرعى نعمته ، وفرض له الأرزاق ، وأقطع الاقطاع . وهلك هنالك ؛ فدفن ببؤنة . وخلف ابنه محمد أبا بكر ؛ فنشأ في جوتك النعمة ومرعاها . وهلك الأمير أبو زكرياء ببؤنة سنة سبع وأربعين ، وولي ابنه المستنصر محمد ؛ فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضرباً به ، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين ، وولي ابنه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو إسحق من الأندلس ، بعد أن كان فرأمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقل هو بملك إفريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمد إلى عمل الأشغال في الدولة ، على سنن عظماء الموحدين فيها قبله ؛ من الانفراد بولاية العمال ، وعزلهم وحسابانهم ، على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ثم عقد السلطان أبو إسحق لابنه محمد ، وهو جدنا الأقرب ، على حجابة ولي عهده ابنه أبي فارس أيام

أَقْصَاهُ إِلَى بَجَايَةِ<sup>(١)</sup> . ثُمَّ اسْتَعْفَى جَدُّنَا مِنْ ذَلِكَ فَأَعْفَاه ، وَرَجَعَ إِلَى الْحَضْرَةِ . وَلَمَّا غَلَبَ الدَّعِيُّ ابْنُ أَبِي عِمَارَةَ<sup>(٢)</sup> عَلَى مُلْكِهِمْ بِتُونِس ، اعْتَقَلَ جَدُّنَا أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدًا ، وَصَادَرَهُ عَلَى الْأَمْوَالِ ، ثُمَّ قَتَلَهُ خَنْقًا فِي مَحْبِسِهِ . وَذَهَبَ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ جَدُّنَا الْأَقْرَبُ مَعَ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقَ وَأَبْنَائِهِ إِلَى بَجَايَةِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ ابْنُهُ أَبُو فَارِس ، وَخَرَجَ فِي الْعَسَاكِرِ هُوَ وَإِخْوَتُهُ لِمُدَافَعَةِ الدَّعِيِّ ابْنِ أَبِي عِمَارَةَ ، وَهُوَ يُشَبَّهُ بِالْفَضْلِ ابْنِ الْمُخْلُوعِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَلْحَمُوا بِمَرَّةٍ مَا جَنَّةٌ خَاصَ جَدُّنَا مُحَمَّدٌ مَعَ أَبِي حَفْصٍ - ابْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكْرِيَاءَ مِنَ الْمَلْحَمَةِ ، وَمَعَهُمَا الْفَارَازِيُّ وَأَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ ، فَلَحَقُوا بِمَنْجَاتِهِمْ مِنْ قَلْعَةِ سِنَانٍ . وَكَانَ الْفَارَازِيُّ مِنْ صَنَائِعِ الْمَوْلَى أَبِي حَفْصٍ ، وَكَانَ يُؤْثِرُهُ عَلَيْهِمْ . فَأَمَّا أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ فَاسْتَنَكَفَ مِنْ إِشَارِ الْفَارَازِيِّ عَلَيْهِ ، بِمَا كَانَ أَعْلَى رَتْبَةً مِنْهُ بِبَلَدِهِ إِشْبِيلِيَّةً ، وَلَحِقَ بِالْمَوْلَى أَبِي زَكْرِيَاءَ الْأَوْسَطُ بِتِلْمَسَانَ<sup>(٣)</sup> ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ خَلْدُونَ فَأَقَامَ مَعَ الْأَمِيرِ أَبِي حَفْصٍ ، وَسَكَنَ لِإِثَارِ الْفَارَازِيِّ . وَلَمَّا اسْتَوْلَى أَبُو حَفْصٍ عَلَى الْأَمْرِ رَعَى لَهُ

(١) بَجَايَةُ وَتَسْمَى النَّاصِرِيَّةُ نَسَبًا إِلَى بَانِيهَا النَّاصِرِ بْنِ عَلْنَّاسِ بْنِ حَمَادِ بْنِ زَيْرِي الصَّنَهَاجِيِّ - بَنَاهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ ٤٥٧ : مَدِينَةُ بِالْجَزَائِرِ تَقَعُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ وَكَانَتْ قَاعِدَةً الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ . يَاقُوت ٦٢/٢ .

(٢) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ رَوْقٍ بْنِ أَبِي عِمَارَةَ مِنْ بِيَوَاتِ بَجَايَةِ الطَّارِثِينَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَسِيلَةِ . تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونَ وَالْإِحَاطَةُ ١٧٤/١ .

(٣) (Tlemcen) تِلْمَسَنُ وَتَسْمَى الْيَمِّ وَسِينُ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : تَنْمَسَانُ ، بِالتَّنُونِ عَوْضُ اللَّامِ : مَدِينَةُ مَشْهُورَةٌ بِالْمَغْرِبِ .

سابقته ، وأقطعه ، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أهل ملكه ، ورشحه لحجابه من بعد الفازازي . وهلك ، فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة ، واصطفى لحجابه محمد بن إبراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي ، وجعل محمد ابن خلدون رديفاً في حجابه . فكان كذلك الى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم يستعمله ولا عقد له ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني ، فاصطنعه ، واستكفى به عند ما نبضت عروق التغلب للعرب ، ودفعه الى حماية الجزيرة من دلاج<sup>(١)</sup> ، أحد بطون سليم الموطنين بنواحيها ، فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج الى المشرق ، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة ، وأظهر التوبة والاقلاع ، وعاود الحج متّقياً سنة ثلاث وعشرين ، ولزم كسر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان يده من الاقطاع والجراية ، ودعاه الى حجابه مراراً ، فامتنع .

أخبرني محمد بن منصور بن مزني<sup>(٢)</sup> ، قال : لما هلك الحاجب محمد ابن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار ، سنة سبع وعشرين

(١) انظر بعض أخبار دلاج في تاريخ ابن خلدون .

(٢) كان ابن مزني هذا صديقاً لابن خلدون . انظر العبر ٦/٨٨٨ - ٩٣٩ .

وسبعمائة ، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون ، وأرادَه على الحجابة ، وأن يفوض إليه في أمره ، فأبى واستعفى ، فأعفاه ، وأمره فيمن يوليه حجابته ، فأشار عليه بصاحب الثغر : بجاية ، محمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس ، لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولقد يم صحابة بين سلفهما بتونس ، وبأشبيلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذّوين<sup>(١)</sup> ، فعمل السلطان على إشارته ، واستدعى ابن سيّد الناس ، وولاه حجابته . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها ، وثوقاً بنظره واستنامةً إليه ، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ، ونزع ابنه ، وهو والذي محمد أبو بكر ، عن طريقة السيف والخدمة ، إلى طريقة العلم والرباط ، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الزُّبيدي<sup>(٢)</sup> الشهير بالفقيه ، كان كبير تونس لعده ، في العلم والفتيا ، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن ، الوليين الشَّهيرين . وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنه ، وهو والذي رحمه الله ، فقراً وتفقه ، وكان مقدماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه . عهدي بأهل الأدب

(١) الذّوون : الأدنون الأخصون . ( لسان العرب ) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي ( بضم الزاي ، نسبة إلى قرية بساحل المهدية ) توفي عام ٧٤٠ هـ ( انظر رحلة ابن بطوطة ص ٦ ) .

يَتَحَاكُمُونَ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَيَعْرِضُونَ حُكْمَهُ عَلَيْهِ ، وَهَلَكَ فِي الطَّاعُونَ  
الْجَارِفِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

### نشأته ومشيخته وحاله

أما نشأتي فاني وُلِدْتُ بِتُونُسٍ فِي غُرَّةِ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ  
وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَرَبَّيْتُ فِي حَجَرٍ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ أُيْفَعْتُ وَقَرَأْتُ  
الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ عَلَى الْأُسْتَاذِ الْمَكْتَبِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ  
بُرَّالٍ<sup>(١)</sup> الْإِنصَارِي ، أَصْلُهُ مِنْ جَالِيَةِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَعْمَالِ بَلَنْسِيَّةٍ ،  
أَخَذَ عَنِ مَشِيخَةِ بَلَنْسِيَّةٍ وَأَعْمَالِهَا ، وَكَانَ إِمَامًا فِي الْقُرَآتِ ، لَا  
يُلْحَقُ شَاوَهُ ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ شُيُوخِهِ فِي الْقُرَآتِ السَّبْعِ أَبُو الْعَبَّاسِ  
أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَطْرَنِيِّ<sup>(٢)</sup> ، وَمَشِيخَتُهُ فِيهَا ، وَأَسَانِيدُهُ مَعْرُوفَةٌ . وَبَعْدَ  
أَنْ اسْتَظْهَرْتُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ حِفْظِي ، قَرَأْتُهُ عَلَيْهِ بِالْقُرَآتِ السَّبْعِ  
الْمَشْهُورَةِ إِفْرَادًا وَجَمْعًا<sup>(٣)</sup> فِي إِحْدَى وَعِشْرِينَ خَتْمَةً ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا فِي خَتْمَةٍ

(١) برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بالقلم ،  
ومعاصره محمد بن ميمون البلوي الأندلسي بخطه بالقلم أيضاً .

(٢) البطرني ضبطه ابن خلدون بالقلم ، وابن ميمون البلوي ، بفتح الباء والطاء المهملة وراء  
ساكنة بعدها نون ، نسبة إلى بطرنة من إقليم بلنسية بشرق الأندلس . انظر كتاب البيان المغرب  
٢٥٢/٣ .

(٣) الإفراد أن يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبعة أو العشرة  
المشهورين ، والجمع أن يجمع القارئ عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من  
الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير أن استوفى القارئ سبع قُرَآتٍ فأكثر ،  
والأسموه بالجمع الصغير . ولهم في صفة الجمع وحكمه ، من إباحة وتحريم ، خلاف معروف تجده في  
غيث النفع ص ٨ - ١٠ ) .

واحدة أخرى ، ثم قرأت برواية يعقوب<sup>(١)</sup> ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه ؛ وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي<sup>(٢)</sup> ؛ اللامية في القراءات ، والرأئية في الرسم ، وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطرني وغيره من شيوخه ؛ وعرضت عليه كتاب التَّقْصِي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ، حَدَا بِهِ حَدُو كتابه التمهيد على الموطأ ، مقتصرأ على الأحاديث فقط .

ودارستُ عليه كتباً جمّة ، مثل كتاب التَّسْهِيل لابن مالك<sup>(٣)</sup> ومختصر ابن الحاجب<sup>(٤)</sup> في الفقه ، ولم أَكْمَلْهَا بالحفظ ، وفي خلال ذلك

(١) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبد الله الحضرمي البصري (١١٧ - ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهي إحدى القراءات العشر ، وقد رويت عنه من طريقين : الأولى رواية محمد بن المتوكل المعروف برويس (طبقات القراء ٢/٢٣٤ ، والثانية عن روح بن عبد المؤمن الهذلي (طبقات القراء ١/٢٨٥) . وإلى ما ذكر يشير ابن خلدون بقوله « جمعاً بين الروايتين عنه » .  
(٢) هو أبو القاسم ، ويكنى أبا محمد أيضاً القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة ، ثم راء مشددة مضمومة بعدها هاء ) بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني رحل الى الشرق ، ودخل القاهرة ، وبها بمدرسة القاضي الفاضل ، نظم قصيدته اللامية التي عرفت بالشاطبية ، وبحرز الأمانى ، والرأئية التي تعرف بالعقيلة . (طبقات القراء ٢/٢٠ ، سبكي طبقات ٢٩٧/٤ ديباج ص ٢٢٤) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي الجياني النحوي المشهور (٦٠٠ - ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع - في ايجاز - قواعد النحو ، ولذلك عني به أعلام النحو قراءة وشرحاً واقراء وقد طبع بمكة سنة ١٣١٩ هـ . مرآة الجنان ٤/١٧٢ ، وبغية الوعاة ٣٥ .

(٤) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جال الدين المصري (٥٧٠ - ٦٤٦) . له مختصر في الفقه المالكي يسمى المختصر الفقهي ، والفرعي ، والجامع بين الأمهات . وقد تحدث ابن خلدون في آخر فصل الفقه من مقدمته عن مختصر ابن الحاجب الفقهي ، وعن تاريخ دخوله الى المغرب ، وأثره في دراسة الفقه المالكي هنالك ، وعن شرحه من علماء المغرب ، وعناية الفقهاء المغاربة به - بما لا يدع مجالاً للريبة . وفیات الاعيان ١/٣٩٥ .

تعلمت صناعة العربية على والدي ، وعلى أستاذي تونس : منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصري ، وكان إماماً في النحو وله شرح "مستوفى" على كتاب التسهيل . ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزر زالي . ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار ؛ كان مُتَعاً في صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي ، وهو حي لهذا العهد بتونس .

ومنهم : امام العربية والأدب بتونس ، أبو عبد الله محمد بن بحر ؛ لازمت مجلسه ، وأفدت عليه ، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان . وأشار علي بحفظ الشعر ؛ فحفظت كتاب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم<sup>(١)</sup> ، وشعر حبيب<sup>(٢)</sup> ، وطائفة من شعر المتبي<sup>(٣)</sup> ، ومن أشعار كتاب الاغاني . ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس ؛ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي ياشي ، صاحب الرحلتين ؛ وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج ، الا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد ؛ وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله الى آخره ،

(١) يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشتمري المعروف بالأعلم - وفات ٤٦٥/٢ .

(٢) حبيب بن أوس الخارث الطائي أبو تمام ( ١٩٠ - ٢٢٦ ) : شاعر غني عن التعريف .

(٣) أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي الشاعر المعروف .

وبعضاً من الامهات الخمس؛ وناولني<sup>(١)</sup> كتباً كثيرة في العربية والفقه، وأجازني اجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برّناجيه، أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغمّاز الحزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجيّاني، وأبو القاسم محمد القصير؛ قرأت عليه كتاب التهذيب لابي سعيد البرّادعي؛ مختصر المدوّنة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه. وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الامام، قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي محمد رحمة الله عليهما. وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للامام مالك، وكانت له فيه طرق عالية، عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه - الى غير هؤلاء - من مشيخة تونس، وكلّهم سمعت عليه، وكتب لي، وأجازني؛ ثم درّجوا كلّهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن، عند ما ملك افريقية سنة ثمان وأربعين، جماعة من أهل العلم، وكان يُلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه: فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب، وامام مذهب مالك، أبو عبد الله محمد بن سليمان السّطّي؛ فكنت أنتاب

(١) المناولة في اصطلاح المحدثين: نوع من الإجازة، وهي أن يدفع الشيخ لطالبه أصل سماعه، أو فرعاً مقابلاً بأصله، ويقول له قد أجزت لك في روايته عني (انظر كتب مصطلح الحديث).



مجلسه ، وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن ، وصاحب  
 علامته التي توضع أسافل مكتوباته ، امام المحدثين والنُّحاة بالمغرب ،  
 أبو محمد بن عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي ؛ لازمته ، وأخذت  
 عنه ، سماعاً ، واجازة ، الامهات الست ، وكتاب الموطأ ، والسير  
 لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، وكتباً كثيرة شذت  
 عن حفظي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونحلته في التقيد  
 والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تريد على ثلاثة آلاف سفر ،  
 في الحديث والفقه ، والعربية ، والادب ، والمعقول ، وسائر الفنون ؛  
 مضبوطة كلها ، مقابلة . ولا يخلو ديوان منها عن ثبت بخط بعض  
 شيوخه المعروفين في سنده الى مؤلفه ، حتى الفقه ، والعربية ، الغريبة  
 الاسناد الى مؤلفيها في هذه العصور . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد  
 الزواوي ، امام المقرئين بالمغرب . قرأت عليه القرآن العظيم ، بالجمع  
 الكبير بين القراءات السبع ، من طريق أبي عمرو الداني ، وابن  
 شريح<sup>(١)</sup> ، في ختمه لم أكملها ، وسمعت عليه عدة كتب ،  
 وأجازني بالاجازة العامة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي .  
 أصله من تلمسان ، وبها نشأ ، وقرأ كتب التعاليم ، وحذق فيها .

(١) محمد بن شريح بن أحمد بن محمد أبو عبد الله الأشبيلي المقرئ ( ٣٨٨ - ٤٧٦ ) .

وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة؛ فخرج منها، وحجاً. ولقي أعلام المشرق يومئذ؛ فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عارض في عقله. ثم رجع من المشرق، وأفاق، وقرأ المنطق والأصليين، على الشيخ أبي موسى عيسى بن الإمام؛ وكان قرأ بتونس، مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن، على تلاميذ ابن زيتون<sup>(١)</sup> الشهير الذكر؛ وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول، فقرأ الآبلي على أبي موسى منها كما قلناه. ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب، لأن سلطانها يومئذ، أبو حصو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء<sup>(٢)</sup> الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهسائكة، بعد وفاة الشيخ، باستدعاء علي بن محمد بن تروميت، ليقرأ عليه، فأفاده. وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد<sup>(٣)</sup>، وأسكنه بالبلد الجديد، والآبلي معه.

(١) القاسم بن أبي بكر بن مسافر شهر بابن زيتون، يكنى أبا القاسم (٦٢١ - ٦٩١) رحل إلى المشرق، وأخذ عن علمائه، ورجع إلى تونس، فتولى بها الإفتاء والقضاء؛ وهو أول من أظهر تآليف فخر الدين الرازي بتونس، حيث كان يقرئها. أحمد بابا ص ٢٢٢.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي (٦٥٤ - ٧٢٤) يعرف بابن البناء العددي؛ ولد بمراكش، وتعلم بها، وتوفي بها. الاستقصاء ٨٨/٢.

(٣) انظر أخباره في تاريخ ابن خلدون.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ، ونظمه في 'جملة العلماء بمجلسه' ، وهو في خلال ذلك يُعلِّم العلوم العقلية ، وَيُبَشِّها بين أهل المغرب ، حتى حَذِقَ فيها الكثير منهم من سائر أمصارها ، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه . ولما قدم على تُونِس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه الاصلين ، والمنطق ، وسائر الفنون الحَكْمِيَّة ، والتَّعليمِيَّة ؛ وكان رَحِمَهُ اللهُ ، يشهد لي بالتَّبَرُّز في ذلك .

وممن قدم في 'جملة السلطان أبي الحسن : صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي<sup>(١)</sup> . كان يكتب عن السلطان ، ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمحاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه . وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب ، في براعة خطه ، وكثرة علمه ، وحسن سمته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ، وحوك الشعر ، والخطابة على المنابر ؛ لانه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان . فلما قدم علينا بتونس ، صحبتُهُ ، واغتبطت به ، وإن لم اتَّخِذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرَّحَوِي شاعر تُونِس في قصيدة على رَوِيَّ النون ، يرغب منه تذكرة<sup>(٢)</sup>

(١) انظر اخباره في العبر .

(٢) كذا بالأصل ، وفي نسخة طبع بولاق : يرغب منه ان يذكره لشيخه .

شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه الى السلطان أبي الحسن،  
في قصيدته<sup>(١)</sup> على روي الباء ، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان .  
وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي  
هذه :

عرفتُ زمانِي حين أنكرتُ عرفاني  
وأيقنتُ أن لا حظَّ في كفِّ كيوان<sup>(٢)</sup>  
وأن لا اختيار في اختيار مقوم<sup>(٣)</sup> وأن لا قراع بالقران لأقران<sup>(٤)</sup>  
وأن نظام الشكل<sup>(٥)</sup> اكمل نظمه لأضعف قاض في الدليل رجحان  
وان افتقار المرء في فقراته ومن ثقله يُغني اللبيب بأوزان  
فمن بعد ما شمت الخلاب ولم أرع لهشة راض او لشرّة غضبان  
ولم يُعشني للنار لمع شعاعها فما كل نار نار موسى بن عمران  
ولم يبق لي في الغيب من امل سوى لقاء ابن رضوان وجنة رضوان

(١) كذا ، وفي ب : في قصيدة .

(٢) كيوان : اسم لرحل ، وهو احد الكواكب السيارة .

(٣) مقوم الكوكب : موضعه ( طوله ) من فلك البروج ( الدائرة الكسوفية ) ، والقران : اجتماع كوكبين سيارين في نقطة واحدة من فلك البروج ، ويشير الرحوي الى ما يزعمه المنجمون من ان الكوكب اذا كان في موضع معين في فلك البروج ، او اقترن بكوكب آخر في نقطة معينة ، كان له اثر حسن . او سيء ، في اعمال الانسان .

(٤) نظام الشكل : شكل الفلك ، يريد وضعه في وقت معين ، وهو ما يعرف عندنا بالنسبة الفلكية . ونظام الشكل : كناية عن حسن دلالة . يقول : مها انتظم الشكل فانه اضعف قاض في دلالة القران على رجحان عمل على آخر .

هنا لك الفيت العلاء تنتمي الى أناس ضئيل عندهم فخر غسان  
وأرعت من روض التأديب يانعا وحيت من كثر العلوم بعقيان  
وردت فلم تجذب لديه ريادتي وصددق طرفي ما تلقته آذاني  
فحسبك من آدابه كل زاخر يحبك معسولا بدور ومرجان  
يحبك بالسلك الذي لم تحيط به

طروس ابن سهل او سواف بوران<sup>(١)</sup>  
قل بابلي ان ينافذك لفظة وفي وشيه الأطراس قل هو صنعاني  
خلائق لم تخلق سدئ بل تكملت بإسداء إنعام وإبلاء إحسان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين :

هم القوم كل القوم ، أما حلومهم  
فأرسخ من طودي ثبير<sup>(٢)</sup> وثهلان<sup>(٣)</sup>  
فلا طيش يعرفهم وأما علومهم فأعلامها تهديك من غير نيران

(١) السالفة : جانب العنق ، وجعلوا كل جزء من العنق سالفة ، فقالوا : انها لوضاحة السواف . ( لسان العرب ) .

وبوران : هي بنت الحسن بن سهل . تزوجها الخليفة المأمون<sup>(٢)</sup> ، وأنفق في زفافها من الأموال ما أصبح مضرب المثل . وفيات الأعيان ١١٦/١ .

وابن سهل هو الحسن بن سهل السرخسي والد بوران ، ووزير المأمون ؛ له في البلاغة مكانة . ( وفيات ١٧٧/١ ) .

(٢) ثبير : جبل بظاهر مكة . ( تاج العروس ) .

(٣) ثهلان : جبل في بلاد بني غير . ( تاج العروس ) .

بفقهٍ يَشِيمُ الْأَصْبَحِيُّ<sup>(١)</sup> صَبَاحَهُ وَأَشْهَبُ<sup>(٢)</sup> مِنْهُ يَسْتَدِلُّ بِشُهْبَانِ  
وَحُسْنِ جِدَالٍ لِلْخُصُومِ وَمَنْطِقٍ يَجِيثَانِ فِي الْأَخْفَى بِأَوْضَحِ بُرْهَانِ  
سَقَتْ رَوْضَةَ الْأَدَابِ مِنْهُمْ سَحَابٌ سَحَبْنَ عَلَى سَحْبَانِ<sup>(٣)</sup> أَذْيَالِ نَسْيَانِ  
فَلَمْ يُبْقِ نَأْيُ ابْنِ الْإِمَامِ شِمَاخَةً عَلَى مُدُنِ الدُّنْيَا لِأَنْفِ تِلْمِزَانِ  
وَبَعْدَ نَوَى السَّطِيّ لَمْ تَسْطُ فَأُسُهُ بِفَخْرِ عَلَى بَغْدَانِ فِي عَصْرِ بَغْدَانِ  
وَبِالْآبِلِي اسْتَسَقَتْ الْأَرْضُ وَبِلَهَا وَمُسْتَوْبَلٌ مَا مَالَ عَنْهُ لَا ظَعَانِ  
وَهَامَتْ عَلَى عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ تُونِسُ وَقَدْ ظَفِرَتْ مِنْهُ بِوَصْلِ وَقُرْبَانِ  
وَمَا عَلِقَتْ مِنِّْي الضَّمَائِرُ غَيْرَهُ وَإِنْ هَوَيْتِ كَلَّا لِحُبِّ ابْنِ رِضْوَانِ  
وَكُتِبَ هَذَا الشَّاعِرُ : صَاحِبُنَا الرَّحْوِيُّ يُذَكِّرُ عَبْدَ الْمُهَيْمَنِ  
بِذَلِكَ :

لِهِيَ النَّفْسُ فِي اكْتِسَابِ وَسْعِي وَهُوَ الْعُمُرُ فِي انْتِهَابِ وَفِي  
وَأَرَى النَّاسَ بَيْنَ سَاعٍ لِرُشْدٍ يَتَوَخَّى الْهُدَى وَسَاعٍ لِنَفْيِ  
وَأَرَى الْعِلْمَ لِلْبَرِيَّةِ زِينًا فَتَزِيَّ مِنْهُ بِأَحْسَنِ زِيٍّ

(١) يريد الأصبحي مالك بن أنس الإمام المعروف ؛ لانتهاه نسبه الى ذي أصبح . ( ديباج ص ١١ - ٣٠ ) .

(٢) هو أبو عمرو وأشهب بن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكي المصري وفيات الأعيان ٩٧/١ .

(٣) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي ، يضرب به المثل في البيان ؛ أدرك الإسلام ، ومات

سنة ٥٤ هـ . ترجمته في شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون ص ٧٥ .

وأرى الفضلَ قد تَجَمَّعَ كُلاًّ في ابن عبد المهيمن الحضرمي  
حلَّ بالرتبة العلية في حضرة ملك سامي العماد علي  
قَلَمٌ أَوْسَعُ الأقاليم أمراً فله قد أطاع كلُّ عَصِيٍّ  
قَدَرٌ ما يُفِيدُ منه احتذارٌ فبأيِّ نراه يَقْضِي بَأْيٍ  
يَمْنَحُ العِزَّ والعُلا ويوالي بالعطايا الجسام كلَّ وليٍّ  
يَلْجَأُ الدَّارِعُونَ خوفاً إليه فهو يُزْزِي بالصَّارِمَ المَشْرِفِيَّ  
هو أَعْلَى الأَقلامِ في كلِّ عَصْرٍِ حيثُ يُنَمِّي إلى الامام عليٍّ  
حَلِيَّتَ تَلْكُمُ الرِّياسة منه بفَرِيدٍ في كلِّ مَعْنَى سَنِيٍّ  
سَالَكٌ في النِّظام دُرّاً وطوراً نازر دُرَّه بِنَشْرِ وَطِيٍّ  
يَدْعُ للبديع<sup>(١)</sup> ترمي بحضرة ولصَّابي<sup>(٢)</sup> بني بويه بعميٍّ  
وُيْرَى اِخْرَسُ العراقُ لديه انه بالشَّام كالأعْجَمِيٍّ  
وَعُلُومٌ هي البُحُورُ وَلَكِنْ يَنْثَنِي الواردون منها بريٍّ  
تَصْدُرُ الأَمة العَظيمةُ عنه بِحَدِيثِ مُجَوِّدٍ مَرْوِيٍّ  
وَبَفْقِهِ فِيهِ وَحُسْنُ مَقالٍ يَضَعُ النُّورَ في لِحَاطِ العَمِيٍّ  
وَبَنَحْوٍ يُنْجِي على سِيبَوِيهِ بَيَّانٍ في المُبْهَماتِ جَلِيٍّ

(١) يريد أبا الفضل أحمد بن الحسين الهمداني ، بديع الزمان ، المتوفى سنة ٣٩٨ . ( وفيات

الاعيان ٤٧/١ ) .

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب البليغ . وفيات ١٤/١ .

عَمِي الْأَخْفْشَانِ عَنْهُ وَسُدَّتْ      عَنْ خَفَايَاهُ فِطْنَةُ الْفَارِسِيِّ  
يَا أَخَا الْحُكْمِ فِي الْأَنَامِ وَإِنِّي      لِأَنَادِي رَبُّ النَّدَى وَالنَّدَى  
بِنْتُ فِكْرِي تَعَرَّضْتُ لِحِمَاكُم      فَالْقَهَا رَاضِيًا بِوَجْهِ رَضِي  
تَبْتَغِي الْقُرْبَ مِنْ مَرَاقِي الْأَمَانِي      وَالتَّرَقِّي لِلْجَانِبِ الْعَلَوِيِّ  
فَأَنِلْهَا بِرَامَاهَا نَلْتَ سَهْلًا      كُلَّ دَانٍ تَبْغِي وَكُلَّ قَصِي

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان ، في فاتحة تسع وأربعين ، فشغلوا عن ذلك ، ولم يظفر هذا الرَّحْوِي بِطَلْبَتِهِ . ثم جاء الطاعون الجارف ، فطوى البساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس ، لحلة كانت بينه وبين والدي ، رحمه الله ، أيام قدومهم علينا .

فلما كانت واقعة القيروان ، ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن ، فاعتصموا بالقصبة دار الملك ، حيث كان ولد السلطان وأهلُه ، وانتقض عليه ابن تافراكين ، وخرج من القيروان إلى العرب ، وهم يحاصرون السلطان ، وقد اجتمعوا على ابن أبي دبوس ، وبايعوا له ، كما مر في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس ، فحاصر القصبة ، وامتنت عليه . وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، ووقوع الهبة ، خرج من بيته إلى دارنا ، فاخفى عند أبي رحمه الله ، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثة



أشهر . ثم نجا السلطان من القَيْرَوان الى سُوسَة ، وركب البحر الى  
تونس ، وفرّ ابن تَافَرَاكين الى المشرق . وخرج عبد المهيمن من  
الاختفاء ، وأعاد السلطان الى ما كان عليه ، من وظيفة العلامَة  
والكتابة ، وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على  
مُوالاته ، ومما كتب اليه وحفظته من خطّه :

لحمد ذوي المكارم قد ثناني	فَعَالَ شُكْرُهُ أَبَدًا عَنَانِي
جزى الله ابنَ خلدونِ حياةً	مَنْعَمَةً وَخُلْدًا فِي الْجِنَانِ
فكم أولي ووالى من جميل	وَبِرٍّ بِالْفِعَالِ وَبِاللِّسَانِ
وراعى الحُضْرَمِيَّةَ فِي الَّذِي قَدْ	حَبَا مِنْ وَدِّهِ وَمِنْ الْخَنَانِ
أبا بكر ثناءك طولَ دهرى	أُرْدِدَ بِاللِّسَانِ وَبِالْجَنَانِ
وعن عليك ما امتدت حياتي	أَكْفَاحَ بِالْحُسَامِ وَبِالسِّتَانِ
فمنك أفدت خلاّست دهرى	أُرَى عَنْ حَبِّهِ أَثْنِي عَنَانِ

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرَّحْوِي في شعره ، هم سَبَّاق  
الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن ، اصطفاهم لصحابتهم من بين أهل  
المغرب . فأما ابنا الامام<sup>(١)</sup> منهم فكانا اخوين من أهل بَرَشَك ، من  
أعمال تلمسان ، واسم اكبرهما : ابو زيد عبد الرحمن ، واسم الاصغر :

(١) انظر ترجمة ابني الامام في الديباج ص ١٥٢ . وفي تاريخ ابن خلدون بعض اخبارهما .

ابو موسى عيسى ، وكان ابوهما اماما ببعض مساجد برشك ،  
 وأتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم<sup>(١)</sup> ابن حماد ، بأن عنده  
 وديعة من المال لبعض اعدائه ، فطالبه بها ، فلاذ بالامتناع ، وبيته  
 زيرم ، لينتزع المال من يده ، فدافعه وقتل<sup>(٢)</sup> وارتحل ابنه  
 هذان الأخوان الى تونس في المئة السابعة ، واخذوا العلم بها عن تلاميذ  
 ابن زيتون ، وتفقهوا على اصحاب ابي عبدالله ابن شعيب الكالي ،  
 وانقلبا الى المغرب بحظ وافر من العلم . وأقاما بالجزائر يبشان بها العلم ،  
 لامتناع برشك عليهما من أجل [ ضرر ] زيرم المتغلب عليها ،  
 والسلطان ابو يعقوب يومئذ ، صاحب المغرب الأقصى من بني مرين ،  
 جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور<sup>(٣)</sup> ، وقد بث  
 جيوشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك  
 عمل مغراوة بشلف ، وحاضرتة مليانة ، فبعث عليها الحسن بن علي  
 ابن ابي الطلاق من بني عسكر ، وعلي بن محمد الخيري من بني  
 ورتاجن ، ومعهما - لضبط الجباية واستخلاص الأموال - الكاتب  
 منديل بن محمد الكناني ، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر ،

(١) اسمه زيري بالياء ، فتصرفت العامة فيه ، وصار زيرم بالميم . وانظر اخباره في تاريخ ابن  
 خلدون .

(٢) وقد انتقم لهذا الوالد ابنه الاكبر ، ابو زيد عبد الرحمن . - العبر .

(٣) دام هذا الحصار ثمانية اعوام ، وثلاثة اشهر . انظر اخباره ، وما جرّه على اهل  
 تلمسان من محن ، في العبر .

واحتلاً بـمليانة ، فـحلياً بعين منديل الكِناني ، فقرَّبها واصطفاهما ،  
 واتَّخذهما لتعليم ولده محمد . ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان  
 المغرب ، بمكانه من حصار تِلْمَسَان ، سنة خمس وسبعمئة<sup>(١)</sup> على يد  
 خصيٍّ من خصيَّانه ؛ طعنه فأشواه ، وهلك . وقام بالملك بعده حافِده  
 ابو ثابت ، بعد خطوب ذكرناها في أخبارهم ، ووقع بينه وبين صاحب  
 تلمسان يومئذ أبي زيان محمد بن عثمان بن يَغْمَر آسن ، وأخيه أبي حَمُو ،  
 العهدُ المتأكدُ على الافراج عن تِلْمَسَان ، وردِّ أعمالها عليهم ، فوفى  
 لهم بذلك ، وعاد الى المغرب . وارتحل ابن أبي الطَّلاق ، والخيري ،  
 والكِناني من مليانة راجعين الى المغرب . ومرُّوا بِتِلْمَسَان ، ومع  
 الكِناني هذان الأخوان ؛ فأوصلها الى أبي حَمُو ، وأثنى عليها . وتمرَّفه  
 بمقامهما في العلم ؛ فاغتبط بهما ابو حَمُو ، واختطَّ لهما المدرسة المعروفة  
 بهما بِتِلْمَسَان . وأقاما عنده على هَدْيِ أهل العلم وسَنَنهم . وهلك ابو  
 حَمُو ؛ فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين الى ان زحف السلطان ابو  
 الحسن المريني الى تلمسان ، وملكها عَنوةً ، سنة سبع وثلاثين . وكانت  
 لهما شهرة في أقطار المغرب ، أثبتت لهما في نفس السلطان عقيدةً صالحةً ؛  
 فاستدعاهما حين دخوله ، وأدنى مجلسهما ، وأشاد بتكرمتها ، ورفع  
 محلَّهما على أهل طبقتها . وصار يُجَمِّلُ بهما مجلسه متى مرَّ بِتِلْمَسَان ، او

(١) في العبرم ٧ : « آخر سنة ست » ، وقد اشار ابن حجر ، في الدرر الكامنة ٤/٤٨٠ ،  
 الى هذا الخلاف ، واعتمد - نقلاً عن الإحاطة - انه قتل سنة ٧٠٦ .

وقدأ عليه في الأوقات التي يَفِد فيها أعيانُ بلدهما . ثم استنفرهما للغزو ، وحضرا معه واقعة طريف ، وعادا الى بلدهما . وتوفي أبو زيد منها إثر ذلك ، وبقي اخوه أبو موسى مُتَبَرِّئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان أبو الحسن الى إفريقية سنة ثمان وأربعين ، كما مرَّ في أخباره استصحب أبا موسى بن الإمام معه مُكرِّماً موقراً ، عالي المَحَل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على إفريقية ، سرَّحه الى بلده ، فاقام بها يسيراً ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين . وبقي أعقابُهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ، ومُتَوَقِّلِينَ قُلُوباً طَبَقاً عن طَبَق الى هذا العهد .

واما السَّطِّي ، واسمه محمد بن علي بن سليمان ، من قبيلة سَطَّة ، من بطون أوربة بنواحي فاس . نزل أبوه سليمان مدينة فاس ، ونشأ محمد بها واخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصُّغَيْر<sup>(١)</sup> إمام المالكية بالمغرب ، والطَّائِر الذِّكْر ، وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقه عليه . وكان يحفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته ، وبعد شأوه في الفضل ، يتشوّف الى تنويه مجلسه بالعلماء ،

(١) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي أبو الحسن ، يعرف بالصغير ( مصغراً ) الاستقصا ٨٨/٢ . ولابن خلدون رأي في أبي الحسن هذا . انظره في العبر .

واختار منهم جماعةً لصحابته ومجالسته . كان منهم هذا الامام محمد بن سليمان . وقدم علينا بتونس في جملة ، وشهدنا وفور فضائله . وكان في الفقه من بيها لا يُجاري ، حفظاً وفهماً ، عهدي به وأخي محمد رحمه الله يقرأ عليه من كتاب التبصرة لابي الحسن اللخمي ، وهو يُصحّحه عليه من املائه وحفظه ، في مجالس عديدة . وكذا كان حاله في اكثر ما يُعاني حمله من الكتب . وحضر مع السلطان ابي الحسن ، واقعة القيروان ، وخلص معه الى تونس ، واقام بها نحواً من سنتين . وانتقض المغرب على السلطان ، واستقل به ابنه ابو عنان . ثم ركب السلطان ابو الحسن في اساطيله من تونس آخر سنة خمسين ، ومرّ بجاية ، فادرّكه الغرق في سواحلها ، ففرقت اساطيله ، وغرق اهله ، واكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم . وألقاه البحر ببعض الجزر هناك ، حتى استنقذه منه بعض اساطيله ، ونجا الى الجزائر بعد ان تليف موجوده ، وهلك الكثير من عياله واصحابه ، وكان من امره ما مرّ في اخباره .

واما الآبلي<sup>(١)</sup> واسمه محمد بن ابراهيم ، فمنشؤه بتلمسان ، واصله من جالية الاندلس ، من اهل آبلّة ، من بلاد الجوف<sup>(٢)</sup> منها ، اجاز

(١) محمد بن ابراهيم الآبلي هذا ، من اخص اساتذة ابن خلدون ، وهو - فيما تحدثت به المراجع - عالم ذو مكانة بعيدة المدى في الثقافة الاسلامية بالمغرب .

(٢) المراد بالجوف ، الشمال في لغة المغاربة والاندلسيين . تاريخ ابن خلدون م ، الاستقصا

ابوه وعمه احمد ، فاستخدمهم يغمراً أسن بن زيان ، وولداه في جندهم ،  
واصهر ابراهيم منها الى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته ،  
فولدت له محمداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفاية جده القاضي ، فنشأ  
له بذلك ميل الى انتحال العلم عن الجنديّة التي كانت مُنتحل ابيه  
وعمه . فلما يفع وادرك ، سبق الى ذهنه محبة التعاليم ؛ فبرع فيها ،  
واشتهر . وعكف الناس عليه في تعلّمها وهو في سنّ البلوغ . ثم  
اُطل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان ، وجثم عليها  
يُحاصرها . وسير بعوثه الى الاعمال ؛ فافتتح اكثرها . وكان ابراهيم  
الآبلي قائداً بهّين ؛ مرّسى تلمسان في لمة من الجند . فلما ملكها  
يوسف بن يعقوب ، اعتقل من وجد بها من شيعة ابن زيان ، واعتقل  
ابراهيم الآبلي فيهم . وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب  
يسترهن أبناءهم ويطلقهم ؛ فتشوّف ابنه محمد الى اللحاق به ، من  
اجل ذلك . واغراه اهله بالعزم عليه ؛ فتسوّر الاسوار ، وخرج الى  
ابيه ؛ فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب  
قائداً على الجند الاندلسيين بتاوريرت ، فكره المّقام على ذلك ،  
ونزع عن طوره ، ولبس المُسوح ، وسار قاصداً الحج . وانتهى الى

رباط العباد<sup>(١)</sup> مختفياً في صُحبة الفقراء ؛ فوجد هنالك رئيساً من كربلاء<sup>(٢)</sup> . ثم من بني الحسين ، جاء الى المغرب يروم اقامة دعوتهم فيه ، وكان مُعَقَّلاً ؛ فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب ، وشدة هيبته غلب عليه اليأس من مرامه ، ونزع عن ذلك ، واعتزم الرجوع الى بلده ، فسار شيخنا محمد بن ابراهيم في جملة .

قال لي رحمه الله : وبعد حين انكشف لي حاله ، وما جاء له ، واندرجت في جملة أصحابه وتابعه . قال : وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمته من يأتيه بالأزواد ، والنفقات من بلده ، الى ان ركبنا البحر من تونس الى الاسكندرية . قال : واشتدَّت عليَّ الغلظة في البحر ، واستحييتُ من كثرة الاغتسال ؛ لمكان هذا الرئيس ؛ فأشار عليَّ بعضُ بطانته بشرب الكافور ؛ فاغترفتُ منه غرفة ، فشربتها فاختلطت . وقدم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد ، وابن الرقعة ، وصفي الدين الهندي ، والتبريزي ، وابن البديع ، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول . فلم يكن قصاراه إلا تمييز اشخاصهم ، اذا ذكرهم لنا ؛

(١) مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العباد » ؛ أحدهما يسمى العباد الفوقي ، وكان بعيداً نوعاً ما عن المدينة ، والثاني العباد السفلي ، وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان .

(٢) هو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقد أطلق اليوم اسم كربلاء على لواء كامل من ألوية العراق . ياقوت ٢٢٩/٧ .

لما كان به من الاختلاط. ثم حجَّ مع ذلك الرئيس ، وسار في جملته الى كَرْبَلَاءَ ؛ فَبَعَثَ معه من أصحابه من أوصَلَهُ الى مَأْمَنِهِ من بلاد زَوَاوَةِ<sup>(١)</sup> من اطراف المغرب . وقال لي شيخنا رحمه الله : كان معي دنائير كثيرة تَرَوَّدُتْهَا من المغرب ، واستبطنتها في جَبَّةٍ كنت ألبسها ؛ فلما نزل بي ما نزل انتزعها مِنِّي حتى اذا بعث اصحابه يشيِّعونني الى المغرب ، دَفَعَهَا اليهم ، حتى اذا اوصلوني الى المَأْمَنِ ، أعطوني اياها ، وأشهدوا عليَّ بها في كتاب حملوه معهم اليه كما امرهم . ثم قارَنَ وصول شيخنا الى المنرب مَهْلَكَ يوسف بن يعقوب وخلص اهل تِلِمْسَانَ من الحصار ؛ فعاد الى تِلِمْسَانَ ، وقد افاق من اختلاطه ، وانبعثت همته الى تعلُّم العلم . وكان مائلاً الى العقليات ؛ فقرأ المنطق على ابي موسى ابن الامام ، وجملة من الأصليين ، وكان ابو حَمْوُ<sup>(٢)</sup> صاحب تِلِمْسَانَ يومئذ قد استفحل ملكه ، وكان ضابطاً لاموره ، وبَلَغَهُ عن شيخنا تقدُّمُهُ في علم الحساب ؛ فدفعه الى ضبط أمواله ومُشارفة عَمَّالِهِ . وتفادى شيخنا من ذلك ؛ فأكرهه عليه ؛ فأعمل الحيلة في

(١) زواوة بفتح الزاي : بطن من بطون البربر البتر ، ويرجع ابن خلدون - تبعاً لابن حزم - أنها من كتامة ، وكان موطنها ، حسب ما حدده ، الجبال العالية التي بنواحي بجاية ، والتي بينها وبين تدلس . وباسم هذه البطون تسمى الأمكنة التي تنزلها ، حال اقامتها ، وبعد ما ترحل ؛ ولهذا يقع اسم القبيلة الواحدة على أمكنة متعددة . انظر العبر ٨٨/٦ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، تاج العروس ١٠/١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) هو أبو حمو موسى بن يوسف الزباني ، من ملوك تلمسان ، بني عبد الواد . انظر الاستقصا ١٠٣/٢ وما بعدها .



الفرار منه ، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع <sup>(١)</sup> . وبعث فيه أبو حمو ؛ فاختمى بفاس عند شيخ التعلیم من اليهود ، خلوف المغيلي ؛ فاستوفى عليه فنونها ، وحقق . وخرج متوارياً من فاس ؛ فلحق بمرآكش ، أعوام العشر والسبع مائة . ونزل على الامام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول ، والمبرز في التصوف علماً وحالاً ؛ فلزمه ، واخذ عنه . وتضلّع من علم المعقول والتعلیم والحكمة . ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه ، وكان ممرضاً في طاعته للسلطان ؛ فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة ؛ قرأ عليه فيها وحصل . واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ ، فكثرت إفادته ، واستفادته ، وعلي بن محمد في ذلك على تعظيمه ، ومحبته ، وامثال إشارته ؛ فغلب على هواه ، وعظمت رياسته بين تلك القبائل . ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله ، نزل الشيخ معه ، وسكن بفاس . وانشال عليه طلبة العلم من كل ناحية ؛ فانتشر علمه ، واشتهر ذكره ؛ فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى بن الامام ، ذكره له بأطيب الذكر ، ووصفه بالتقدم في العلوم . وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه ، كما ذكرنا . فاستدعاه من مكانه بفاس ، ونظمه في طبقة

(١) هو سليمان بن عبد الله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني ، يكنى أبا الربيع .

توفي سنة ٧١٠ هـ .

العلماء بمجلسه ، وعكف على التدريس والتعليم ، ولازم صحابة  
السلطان ، وحضر معه واقعة طريف ، وواقعة القيروان بإفريقية .  
وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله صحابة ، كانت وسيلتي  
إليه في القراءة عليه ؛ فلزمت مجلسه ، وأخذت عنه . وافتتحت  
العلوم العقلية بالتعاليم . ثم قرأت المنطق ، وما بعده من الأصلين ،  
وعلم الحكمة . وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من  
تونس إلى المغرب ، وكان الشيخ في نزولنا وكفالتنا ، فأشرنا عليه  
بالمقام ، وثبطناه عن السفر ؛ فقبل ، وأقام . وطالبنا به السلطان أبو  
الحسن ؛ فأحسننا له العذر . وتجاوى عنه ، وكان من حديث غرقه في  
البحر ما قد مناه . وأقام الشيخ بتونس ، ونحن وأهل بلدنا جميعاً  
نتساجل في غشيان مجلسه ، والأخذ عنه ؛ فلما هلك السلطان أبو  
الحسن بجبال هنتاة<sup>(١)</sup> ، وفرغ ابنه أبو عنان<sup>(٢)</sup> من هواغاه ، وملك  
تلمسان من بني عبد الواد ؛ كتب فيه يطلبه من صاحب تونس ،  
وسلطانها يومئذ أبو إسحق<sup>(٣)</sup> إبراهيم بن السلطان أبي يحيى ، في كفالة

(١) درج ابن خلدون على ضبط « هنتاة » بالقلم ، بكسر الهاء . وسكون النون ، وفتح التاء  
الفوقية ، بعدها ألف ممدودة ، ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي شذرات الذهب لابن العماد  
٣٤٥/٦ ، وصبح الأعشى ١٣٤/٥ : أنها بفتح الهاء . وبقية الضبط متفق عليه بينهم .

(٢) هو فارس المكنى بأبي عنان بن أبي الحسن المريني ؛ كان يلقب بالمتوكل . ثار على أبيه ،  
وملك المغرب الأقصى ، وبجاية ، وقسنطينة ، وتلمسان ، وتونس ، وتوفي سنة ٧٥٩ .

(٣) أبو إسحق إبراهيم بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم .

شيخ الموحدين أبي محمد بن تافرّاكين؛ فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير. ومرت بجاية، ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبه العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول. ثم ارتحل، ونزل برّسي هُنيئاً وقدم على السلطان بتليمان، وأحلّه محلّ التكرمة، ونظّمه في طبقة أشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه، ويأخذ عنه، إلى أن هلك بفاس، سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وأخبرني رحمه الله أن مولده بتليمان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن، فأصله من سبتة، وبيتهم بها قديم، ويُعرفون ببني عبد المهيمن؛ وكان أبوه محمد قاضياً أيام بني العزّفي. ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفّالته، وأخذ عن مشيخته. واختصّ بالأستاذ أبي إسحق الفافقي<sup>(١)</sup>. ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد، صاحب الأندلس، سبتة ونقل بني العزّفي، مع جملة أعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن، وابنه عبد المهيمن؛ فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير<sup>(٢)</sup>.

(١) إبراهيم بن أحمد بن عيسى الأشبيلي أبو إسحق؛ عرف بالفافقي. دخل سبتة، وولي القضاء بها. وتوفي سنة ٧١٦ هـ. الدرر الكامنة ١٣/١٠.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، أبو جعفر.

ونظرائه ، وتقدّم في معرفة كتاب سيبويه ، وبرّز في علو الاسناد ، وكثرة المشيخة . وكتب له اهل المغرب والاندلس والمشرق ، فاستكتبه رئيس الاندلس يومئذ ، الوزير ابو عبد الله بن الحكيم<sup>(١)</sup> الرندي ، المستبدّ على السلطان المخلوع<sup>(٢)</sup> من بني الاحمر ، فكتب عنه ، ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه ، مثل المحدث الرحالة ابي عبد الله بن رشيد الفهري<sup>(٣)</sup> ، وأبي العباس احمد بن (...)<sup>(٤)</sup> العزفي ، والعالم الصوفي المتجرّد ، ابي عبد الله محمد بن خميس<sup>(٥)</sup> التلمساني ، وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر - الى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به ، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة . فلما نكب الوزير ابن الحكيم ، وعادت سبّية الى طاعة بني مرّين ، عاد عبد المهيمن اليها واستقرّ بها . ثم ولي السلطان ابو سعيد ، وغلب عليه ابنه ابو علي ، واستبدّ بحمل الدولة . تشوّف الى استدعاء

(١) هو الوزير الشاعر محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم ، أبو عبد الله الرندي ، شهر بابن الحكيم ، الا حاطة ٢٧٨/٢ - ٣٠٤

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ، يكنى أبا عبد الله ؛ ثالث ملوك بني الأحمر (٦٥٥ - ٧١٣) ، وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بقرناطة .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ... بن رشيد ( مصغرا ) الفهري السبتي . محدث رحالة شهير .

(٤) هكذا بياض في الاصل ، ولا يوجد تبايض في ب . ولعل ابن خلدون ترك الفراغ ليضع فيه آباء أبي العباس العزفي ، فمات قبل أن يفعل . وهي - كما في نيل الابتهاج وغيره - أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عزفة اللخمي .

(٥) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد . . . الحجري ، التلمساني ، الشاعر . توفي قتيلا في سنة ٧٠٨ وله نيف وستون سنة .

الفضلاء ، وتجل الدولة بمكانهم ؛ فاستقدم عبد المهيمن من سبته ، واستكتبه سنة اثنتي عشرة . ثم خالف على ابيه سنة اربع عشرة ، وامتنع بالبلد الجديد ، وخرج منها الى سجلماسة بصلح عقده مع ابيه ؛ فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن ، واتخذ كاتباً ، الى ان دفعه لرياسة الكتاب ، ورسم علامته في الرسائل والاوامر ؛ فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة ، ولم يزل عليها سائر ايام السلطان ابي سعيد وابنه ابي الحسن . وسار مع ابي الحسن الى إفريقية ، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس ؛ لما كان به من علّة النقرس . فلما كانت الهبة بنونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيز اشياع السلطان الى القصة ، مع حرّمه ، تسرب عبد المهيمن في المدينة ، منتبذاً عنهم ، وتوارى في بيتنا ، خشية ان يُصاب معهم بمكرّوه . فلما انجلت تلك الغيابة ، وخرج السلطان من القيروان الى سوسة ، وركب منها البحر الى تونس ، اعرض عن عبد المهيمن ، لما سخط غيبته عن قومه بالقصة ، وجعل العلامة لابي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن ابي مدين<sup>(١)</sup> ، وقد كانت مقصورةً من قبل على هذا البيت ، واقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة اشهر . ثم اعتبه السلطان ، ورضي عنه ، واعاد اليه العلامة

(١) عبد الله بن ابي مدين شيب العثاني . نجم - من بيت ابي مدين - في خدمة بني مرين ؛ فقلدوه الحجابة ، ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتانة ، ونشأ بمكناسة ، وتعلم بها .

كما كان ، وهلك لأيام قلائل بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين . ومولده سنة خمس وسبعين من المائة قبلها ، وقد استوعب بن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة فله طالع هناك من أحب الوقوف عليه .

وأما ابن رضوان <sup>(١)</sup> الذي ذكره الرَّحَوِي في قصيدته ، فهو أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري ؛ أصله من الأندلس نشأ بمالقة ، وأخذ عن مشيختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنن في العلوم ، ونظم ونثر ، وكان مجيداً في الترسيل ، ومحسنًا في كتابة الوثائق . وارتحل بعد واقعة طريف ، ونزل بسبته ، ولقي بها السلطان أبا الحسن ، ومدحه ، وأجازه ، واختص بالفاضل إبراهيم بن أبي يحيى <sup>(٢)</sup> ، وهو يومئذ قاضي المساكر ، وخطيب السلطان ، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة ، ثم نظم في حلبة الكتاب بباب السلطان . واختص بخدمة عبد المؤمن رئيس الكتاب والأخذ عنه ، إلى أن رحل السلطان إلى إفريقية ، وكانت واقعة القيروان ، وانحصر بقسبة تونس من انحصار بها ؛ من أتباعه مع أهله وحرمه . وكان السلطان قد تخلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمته ، فجعلني عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولي

(١) انظر ترجمة ابن رضوان هذا ، في الاستقصاء ١٢٣/٢ .

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي النازي أبو اسحق ؛ يعرف بان أبي يحيى المتوفى بعد سنة ٧٤٨ . الإحاطة ٢١٧/١ .

كبر ذلك ، فقام فيه احسن قيام ، الى ان وصل السلطان من القيروان ،  
فرعى له 'حق' خدمته ، تأنيساً ، وقرباً ، وكثرة استعمال ، الى ان  
ارتحل من تونس في الأسطول ، الى المغرب سنة خمسين كما مر .  
واستخلف بتونس ابنه ابا الفضل وخلف ابا القاسم بن رضوان كاتباً  
له ؛ فاقام كذلك اياماً . ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل  
ابن السلطان ابي يحيى . ونجا ابو الفضل الى ابيه ، ولم يطق ابن  
رضوان الرحلة معه ؛ فاقام بتونس حوْلاً ، ثم ركب البحر الى  
الأندلس ، واقام بالمريّة مع جملة من هنالك من اشياع السلطان  
أبي الحسن ؛ كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاته ، كافلاً لحرم  
السلطان ابي الحسن ؛ وابنه . اركبهم السفين معه من تونس عندما  
ارتحل ؛ فخلصوا الى الأندلس ، ونزلوا بالمريّة ، واقاموا بها تحت  
جراية سلطان الأندلس ؛ فلحق بهم ابن رضوان ، واقام معهم .  
ودعاه ابو الحجاج <sup>(١)</sup> سلطان الأندلس الى ان يستكتبه فامتنع ، ثم  
هلك السلطان ابو الحسن ، وارتحل مُخلفه الذين كانوا بالمريّة .  
ووفدوا على السلطان ابي عنان . ووفد معهم ابن رضوان ؛ فرعى  
له وسائله في خدمة ابيه ، واستكتبه ، واختصه بشهود مجلسه ،  
مع طلبة العلم بحضرته . وكان محمد بن ابي عمرو يومئذ رئيس الدولة ،

(١) هو سابع ملوك بني الاحمر . ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر . ( ٧١٨ -

٧٥٥ ) ولي الملك سنة ٧٣٤ .

وَنَجِيَّ الْخُلُوةِ، وصاحب العَلَامَةِ، وَحَسْبَانِ الْجَبَايَةِ والعساكر، قد غَلَبَ عَلَى هَوَى السُّلْطَانِ، واختَصَّ بِهِ؛ فاستخدم له ابنَ رِضْوَانَ حَتَّى عَلِقَ مِنْهُ بَدَمُهُ. وَلَايَةً وَصَحْبَةً، وانتظاماً فِي السَّمَرِ، وَغَشِيَانِ الْمَجَالِسِ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ يُدْنِيهِ مِنَ السُّلْطَانِ. وَيُنْفِقُ سُوقَهُ عِنْدَهُ، وَيَسْتَكْفِي بِهِ فِي مَوَاقِفِ خِدْمَتِهِ إِذَا غَابَ عَنْهَا لَمَّا هُوَ أَهْمٌ؛ فَجَلَّيَ بِعَيْنِ السُّلْطَانِ، وَنَفَقَتْ عِنْدَهُ فَضَائِلُهُ. فَلَمَّا سَارَ ابْنُ أَبِي عَمْرٍو فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى بَحْجَايَةِ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ، انْفَرَدَ ابْنُ رِضْوَانَ بِقَلَمِ الْكِتَابِ عَنِ السُّلْطَانِ. ثُمَّ رَجَعَ ابْنُ أَبِي عَمْرٍو، وَقَدْ سَخِطَهُ السُّلْطَانُ؛ فَأَقْصَاهُ إِلَى بَحْجَايَةِ وَوَلَّاهُ عَلَيْهَا، وَعَلَى سَائِرِ أَعْمَالِهَا، وَعَلَى حَرْبِ الْمُوَحِّدِينَ بِشُشُنْطِينَةٍ. وَأَفْرَدَ ابْنُ رِضْوَانَ بِالْكِتَابَةِ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ الْعَلَامَةَ، كَمَا كَانَتْ لِابْنِ أَبِي عَمْرٍو، فَاسْتَقَلَّ بِهَا، مَوْفِرَ الْإِقْطَاعِ، وَالْإِسْهَامِ، وَالْجَاءَ. ثُمَّ سَخِطَهُ آخِرَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ، وَجَعَلَ الْعَلَامَةَ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مَدْيَنَ، وَالْإِنْشَاءَ وَالتَّوْقِيعَ لِأَبِي إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَاجِّ الْغُرْنَاطِيِّ<sup>(١)</sup>. فَلَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ<sup>(٢)</sup>، جَعَلَ الْعَلَامَةَ لِعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ<sup>(٣)</sup> صَاحِبِ دِيْوَانِ الْعَسَاكِرِ،

(١) إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ... التَّمِيرِيُّ أَبُو إِسْحَقَ؛ يَعْرِفُ بَيْنَ الْحَاجِّ وَلَدَ سَنَةِ ٧١٣، وَكَانَ حَيًّا فِي سَنَةِ ٧٦٨. احاطة ١/١٩٣ - ٢١٠.

(٢) أَبُو سَالِمٍ هَذَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ، وَأَخُو السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانَ فَارِسَ. تَفْصِيلُ أَخْبَارِهِ فِي تَارِيخِ ابْنِ خَلْدُونِ.

(٣) دُو عَلِيٍّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُوسَى بْنِ سَعُودِ الْخَزَاعِيِّ، يَكْنَى أَبُو الْحَسَنِ أَصْلُهُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ، وَقَدَّمَ أَبُوهُ تَلَسَّانَ. كَانَ فَقِيهًا أَدِيبًا لُغَوِيًّا.



والانشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين ، واستبد الوزير عمر بن عبد الله <sup>(١)</sup> على من كفلته من أبنائهم ، فجعل العلامة لابن رضوان ، سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ، واستبد بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز ، وولي ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي <sup>(٢)</sup> بن الكاس ، وابن رضوان على حاله ، ثم غلب السلطان أحمد على الملك ، وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبداً عليه ، والعلامة لابن رضوان ، كما كانت ، الى أن هلك بأزمور في بعض حركات السلطان أحمد الى مرأكش ، لحصار عبد الرحمن بن بوقلوسن ابن السلطان أبي علي سنة (.....) <sup>(٣)</sup> .

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق ، وتخطت النكبة منهم آخريين الى أن استوفوا ما قدر من آجالهم . فمن حضر معه بإفريقية من العلماء ،

(١) الوزير عمر بن عبد الله ، من الوزراء الذين كان لهم الأثر البارز في تصريف شؤون الدول بالمغرب ؛ واخباره ذكرت مفصلة في العبر م ٧ .

(٢) الوزير أبو بكر بن غازي هذا ؛ كان له صيت وسطوة أيام بني مرين ، وكانت له كذلك صلة بلسان الدين ابن الخطيب ، عند ما انتقل الى المغرب . انظر تاريخ ابن خلدون م ٧ .

(٣) كذا بياض بالأصل ، ولم نعثر في المراجع التي بين ايدينا على هذه السنة .

شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي ، شيخ القراءات بالمغرب ؛ أخذ العلم والعربية عن مَشِيخَة فاس ، وروى عن الرَّحالة أبي عبد الله محمد بن رُشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تُجَارَى . وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود<sup>(١)</sup> ، وكان يصلي بالسلطان التَّراويج ، ويقراً عليه بعض الأحيان حزبه .

ومن حضر معه بإفريقية ، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصَّبَّاح من أهل مكناسة . كان مبرزاً في المنقول والمعقول ، وعارفاً بالحديث<sup>(٢)</sup> وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءه ؛ أخذ العلوم عن مَشِيخَة فاس ، ومكناسة ، ولقي شيخنا أبا عبد الله الأَبلي ، ولأزمته ، وأخذ عنه العلوم العقلية ؛ فاستنفذ بقية طلبه عليه ، فبرز آخره ؛ واختاره السلطان لمجلسه ، فاستدعاه ، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول<sup>(٣)</sup> .

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور ، من أعمال ندرومة ، ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب

(١) ورد في حديث لأبي موسى الأشعري ، أنه كان يقرأ ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أعاد - مزمراً - من مزامير آل داود ؛ يكنى عن حسن صوته . تاج العروس ٣/٣٤٠ .

(٢) يقولون أنه أُلِيَ في مجلس درسه ، على حديث : « يا أبا عمير ، ما فعل النغير » أربعاً فائدة . الاستقصاء ٨٤/٢ .

(٣) يكرر ابن خلدون قوله في هذا الحادث لفتح المصاب فيه ، فلقد كانت قطع الأسطول نحو ستة قطع ، غرقت كلها ، وهلك فيها من أعلام المغرب نحو أربعاً فائدة . الاستقصاء ٨٤/٢ .

الامام مالك بن أنس ، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد ، وأبي موسى ابني الامام ، وكان من جلة أصحابها .

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان ، رفع من منزلة ابني الامام ، واختصها بالشورى في بلديهما . وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويحري لهم الأرزاق ، ويعمر بهم مجلسه ؛ فطلب يومئذ من ابن الامام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجلس ؛ فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا ؛ فأدناه ، وقرّب مجلسه ، وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملة الى أن هلك في الطاعون بتونس سنة تسع وأربعين . وكان قد خالف بتلمسان أخاه عليا رفيقه في دروس ابن الامام ، إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلما خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن ، ونهض الى فاس ، استنفره في جملة . وولاه قضاء مكناسة ؛ فلم يزل بها ، حتى إذا تغلب عمر بن عبد الله على الدولة كما مر ، نزع الى قضاء فرضه ؛ فسرّحه . وخرج حاجاً سنة أربع وستين ؛ فلما قدم على مكة ، وكان به بقية مرض ، هلك في طواف القدوم . وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد ، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ ، يدبغا الخاصكي<sup>(١)</sup> ؛ فأحسن خلافته فيه ، وولاه من وظائف الفقهاء ما سدّ به خلّته ، وصان عن

(١) هو الأمير المعروف يلغا بن عبد الله الخاصكي الناصري . تناهت اليه الرئاسة ، ولقب بنظام الملك ، وبلغت عدة ممالكه ثلاثة آلاف .

سؤال الناس وجهه ؛ وكان له - عفا الله عنه - كلفٌ بعمل الكيمياء ، تابِعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله . فلم يزل يُعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه ، الى أن دعت الضرورة للترحُّل عن مصر ، ولحق ببغداد . وناله مثل ذلك ؛ فلحق بماردين ، واستقر عند صاحبها ، وأحسن جواره ، الى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه ، والبقاء لله وحده .

ومنهم شيخ التَّعاليم أبو عبد الله محمد بن النُّجَّار<sup>(١)</sup> من أهل تلمسان ؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الأيلي ، وبرز عليه . ثم ارتحل الى المغرب ، فلقى بسبته إمام التعاليم ، أبا عبد الله محمد ابن هلال شارح المجسطي في الهيئة ، وأخذ بمرآ كش عن الامام أبي العباس بن البناء ، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها ، وما يتعلق بها ، ورجع الى تلمسان بعلم كبير ، واستخلصته الدولة . فلما هلك أبو تاشفين ، وملك السلطان أبو الحسن ، نظمته في جملته وأجرى له رزقه ، فحضر معه بإفريقية ، وهلك في الطاعون .

ومنهم أبو العباس أحمد بن شُعَيْب<sup>(٢)</sup> من أهل فاس ؛ برع في اللسان ، والأدب ، والعلوم العقلية ، من الفلسفة ، والتعاليم ، والطب ،

(١) هو محمد بن علي بن النجار التلمساني أبو عبد الله .

(٢) هو أحمد بن شعيب الجزنائي التازي تزيل فاس . كتب لابي الحسن المريني ، وتوفي

وغيرها ؛ ونظمه السلطان أبو سعيد في حلبة الكتاب ، وأجرى عليه الرزق مع الأطباء ؛ لتقدمه فيهم ؛ فكان كاتبه ، وطبيبه ؛ وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده ؛ فحضر بإفريقية ، وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر ، وبصر به ؛ ومما حضرني الآن من شعره :

دارُ الهوى نجدٌ وساكنها	أقصى أمانى النفس من نجد
هل بآكر الوسمي ساحتها	واستن في قيعانها الجرد
أوبات معتل النسيم بها	مستشفياً بالبان والرند
يتلو أحاديث الذين هم	قصدي وإن جاروا عن القصد
أيام سمر ظلالها وطني	منها وزرق مياها وردي
ومطارح النظرات في رشا	أحوى المدامع أهيف القد
يرنو إليك بعين جازية	قتل المحب بها على عمد
حتى أجد بهم على عجل	ريث الخطوب وعائر الجد
فقدوا فلا وابيك بعدهم	ما عشت لا آسى على فقد
وعدوا : دفيناً قد تضمّنه	بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشرّداً من دون رؤيته	قذف النوى وتنوفا البعد

أَجْرِي عَلَى الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ أَنِّي فَقَدْتُ جَمِيعَهُمْ وَحْدِي  
لَا تَلَحِّنِي يَا صَاحِ فِي شَجَنِ أَخْفَيْتُ مِنْهُ فَوْقَ مَا أَبْدِي  
بِالْغَرْبِ لِي سَكَنٌ تَأْوِيْنِي مِنْ ذِكْرِهِ سُهْدٌ عَلَى سُهْدِ  
فَرْخَانَ قَدْ تُرِكَ بِمُضَيَّعَةٍ زُوِيَتْ عَنِ الرُّفْدَاءِ وَالرِّفْدِ

وَمِنْهُمْ صَاحِبُنَا الْخَطِيبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مَرْزُوقٍ <sup>(١)</sup>؛ مِنْ  
أَهْلِ تِلْمِيسَانَ، كَانَ سَلَفُهُ نَزَلًا، الشَّيْخُ أَبِي مَدِينٍ بِالْعُبَّادِ،  
وَمِتْوَارِثِينَ خَدْمَةَ تُرْبَتِهِ، مِنْ لَدُنْ جَدِّهِمْ خَادِمِيهِ فِي حَيَاتِهِ. وَكَانَ  
جَدُّهُ الْخَامِسُ أَوْ السَّادِسُ، وَاسْمُهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ، مَعْرُوفًا  
بِالْوِلَايَةِ فِيهِمْ. وَلَمَّا هَلَكَ دَفَنَهُ يَغْمَرَا سَنَ <sup>(٢)</sup> بْنِ زِيَّانَ، سُلْطَانَ  
تِلْمِيسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ، فِي التُّرْبَةِ بِقَصْرِهِ، لِيُدْفَنَ بِإِزَائِهِ،  
مَتَى قُدِّرَ بَوْفَاتُهُ. وَنَشَأَ مُحَمَّدٌ هَذَا بِتِلْمِيسَانَ. وَمَوْلَدُهُ — فِيمَا أَخْبَرَنِي —  
سَنَةَ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ <sup>(٣)</sup> وَارْتَحَلَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى الْمَشْرِقِ. وَجَاوَرَ أَبُوهُ  
بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَرَجَعَ هُوَ إِلَى الْقَاهِرَةِ؛ فَاقَامَ بِهَا، وَقَرَأَ عَلَى

(١) ابْنُ مَرْزُوقٍ هَذَا، مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ مَعْرُوفٍ.

(٢) يَغْمَرَا سَنَ هَذَا هُوَ ابْنُ زِيَّانَ بْنِ ثَابِتٍ بْنِ مُحَمَّدٍ، مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ، كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ بَأْسًا،  
وَكَانَتْ لَهُ فِي النُّفُوسِ مَهَابَةٌ. وَلِيَ الْمَلِكُ سَنَةَ ٧٣٣، وَدَانَ لَهُ الْغَرْبَ الْأَوْسَطَ وَتِلْمِيسَانَ.

(٣) تَارِيخُ مَوْلَدِ ابْنِ مَرْزُوقٍ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ خَلْدُونٍ، يَخَالِفُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي  
الْإِحَاطَةِ حَيْثُ يَقُولُ أَنَّهُ وَلَدَ سَنَةَ ٧١١ هـ.

برهان الدين الصفافسي<sup>(١)</sup> المالكي واخيه . وبرع في الطب والرواية ، وكان مجيد الخطين ؛ ثم رجع سنة خمس وثلاثين الى المغرب ، ولقي السلطان ابا الحسن بمكانه في تلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجدا عظيما ؛ وكان عمه محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم بالعباد . وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه . وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ، والثناء عليه ؛ فيجالي بعينه ، واختصه ، وقربه ، وهو مع ذلك يلزم مجلس الشيخين ابني الامام ، ويأخذ نفسه ببقاء الفضلاء ، والأكابر ، والأخذ عنهم ؛ والسلطان في كل يوم يزيده رتبة ؛ وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين ؛ فكان يستعمله في السفارة عنه الى صاحب الأندلس . ثم سافر عنه ، بعد ان ملك افريقية ، الى ابن أدفونش ملك قشتالة<sup>(٢)</sup> في تقرير الصلح ، واستنقاذ أبي عمر تاشفين . كان أسري يوم طريف ، فغاب في تلك السفارة عن واقعه القيروان . ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية ، جاءوا في السفارة عن ملكهم ، ولقيهم خبر واقعة القيروان ، بقسنطينة ، من بلاد افريقية ، وبها عامل السلطان وحاميته ، فثار اهل قسنطينة بهم جميعا ، ونهبوهم ، وخطبوا للفضل

(١) ابراهيم بن محمد بن ابراهيم القيسي الصفافسي برهان الدين صاحب كتاب « اعراب القرآن » . ألفه بالاشتراك مع أخيه شمس الدين محمد . ديباج ص ٩٢ .

(٢) مملكة قشتالة تقع في جنوب مقاطعة مدريد ، وكانت تشمل كلا المقاطعتين : « كوانكا » التي تقع في الجنوب الشرقي لمقاطعة مدريد ، و « توليدو » الواقعة في الجنوب ، والجنوب الغربي لمقاطعة مدريد أيضا .

ابن السلطان أبي يحيى ، وراجعوا دعوة الموحدين ، واستدعوه فجاء اليهم ، وملك البلد . وانطلق ابن مرزوق عائداً الى المغرب ، مع جماعة من الاعيان ، والعمال والسفراء عن المملك . ووفد على السلطان ابي عنان بفاس مع أميه حظية أبي الحسن وأثيرته . كانت راحلة اليه ، فأدر كها الخبر بمسقطينة . وحضرت الهيعة . واتصل بها الخبر بتوثب ابنها ابي عنان على ملك ابيه ، واستيلائه على فاس ؛ فرجعت اليه ، وابن مرزوق في خدمتها ، ثم طلب اللحاق بتلمسان ؛ فسرّ حوه اليها ، واقام بالعباد مكان سلفه . وعلى تلمسان يومئذ ابو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيّان ، قد بايع له قبيله بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس ، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصة ، كما مر في أخبارهم . وانصرفوا الى تلمسان ، فوجدوا بها ابا سعيد عثمان بن جرّار ، من بيت ملوكهم ، قد استعمله عليها السلطان ابو عنان ، عند انتقاضه على ابيه ، ومسيره الى فاس ؛ فانتقض ابن جرّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد اليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه اخوه ابو ثابت وقومها ، فملكوا تلمسان من يد ابن جرّار ، وحبسوه ثم قتلوه ؛ واستبد ابو سعيد بملك تلمسان ، واخوه ابو ثابت يرادفه . وركب السلطان ابو الحسن البحر من تونس ، وغرق أسطوله ، ونجا هو الى الجزائر ، فاحتل بها ، واخذ في الحشد الى تلمسان ؛ فرأى ابو سعيد ان



يكفَّ غربه عنهم ، بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيب ابن مرزوى ؛ فاستدعاه واصرَّ اليه بما يليق به عنه للسلطان أبي الحسن ، وذهب لذلك على طريق الصحراء . وأطلع ابو ثابت وقومهم على الخبر ، فنكروه على ابي سعيد ، وعاتبوه ، فأنكر ، فبعثوا صغير ابن عامر في اعتراض ابن مرزوق ، فجاء به ، وحبسوه اياماً . ثم أجازوه البحر الى الاندلس ؛ فنزل على السلطان ابي الحجاج بغرناطة ، وله اليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان ابي الحسن بسببة إثر واقعة طريف ؛ فرعى له ابو الحجاج ذممة تلك المعرفة ، وادناه ، واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء ؛ فلم يزل خطيبه الى ان استدعاه السلطان ابو عنان سنة اربع وخمسين بعد مهلك أبيه ، واستيلائه على تلمسان وأعمالها ؛ فقدم عليه ورعى له وسائله ، ونظمه في أكابر أهل مجلسه . وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي ، ويدرس في نوبته مع من يُدرّس في مجلسه منهم . ثم بعثه الى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين ؛ ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى ، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس . ووُثِي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ، ورجع السلطان من قسنطينة ؛ فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته . واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهدية ، فجاء ، وملك البلد . وركب القوم الأسطول ، ونزلوا بمراسي تلمسان . وأوعز

السلطان [أبو عنان] باعتقال ابن مرزوق ، وخرج لذلك ينجي بن شعيب من مقدمي الجنادرية<sup>(١)</sup> ببابه ، فلقيه بتأسالة ، فقيده هنالك . وجاء به ، فأحضره السلطان وقرّعه ، ثم حبسه مدة ، وأطلقه بين يدي مهايكه ، واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان ، وبائع بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق . وحاصروا البلد الجديد ، وبها ابنه السعيد ، ووزيره المستبد عليه ، الحسن بن عمر ؛ وكان السلطان أبو سالم بالأندلس ، غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان ، مع بني عمهم ، ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن ، وحصولهم جميعاً في قبضته . فلما توفي ، أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب ، فبغته رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس ، مستبداً على ابن السلطان أبي الحجّاج ، فلحق هو بإشبيلية ، من دار الحرب ، ونزل على بطرّه<sup>(٢)</sup> ، ملكهم يومئذ ، فهاجهم السفين ، وأجازه إلى العدوّة ، فنزل بجبل الصفيحة ، من بلاد غمارة ، وقام بدعوته بنو مثنى ، وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم ، حتى تم أمره ، واستولى على ملكه ؛ في خبر طويل ، ذكرناه في أخبار

(١) يريد بالجنادرية رجال الشرطة ! والمفرد : جاندار الذي يتكون من كلمتين فارسيّتين : جان ، ومعناها : سلاح ، ودار معناها ممسك .

(٢) اصطلاح ابن خلدون على كتابة « بطره » بطاء ، فوقها نقطتان ، إشارة الى ان نطقها بين الطاء والتاء ؛ وقد اشار الى الطريق التي اتبعها في رسم مثل هذا الحرف - مما خرج نطقه عن الطق العربي الخالص - في اول المقدمة .

دولتهم . وكان ابن مرزوق يُدَاخِلُهُ ، وهو بالأندلس ، ويستخدم له ، ويُفَاوِضُهُ في أموره ، وربما كان يكتبه ، وهو يجبل الصفيحة ، ويُدَاخِلُ زعماء قومه ، في الأخذ بدعوته . فلما ملك السلطان أبو سالم ، رعى له تلك الوسائل أجمع ، ورفع على الناس ، وألقى عليه محبته ، وجعل زمام الأمور بيده ، فوطى الناس عقبه ، وغشي أشراف الدولة بآبه ، وصرفوا الوجوه إليه ، فرضت لذلك قلوب أهل الدولة ، ونعموه على السلطان ، وتربصوا به ، حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد ، واقترق الناس عن السلطان . وقتله عمر بن عبد الله آخر اثنين وستين ، وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطاناً الذي نصبه ؛ محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن ، فامتحنه ، واستصفاه ، ثم أطلقه ، بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله ، فمنعه منهم . ولحق بثونس ، سنة أربع وستين ، ونزل على السلطان أبي إسحق ، وصاحب دولته المستبد عليه ، أبي محمد بن تافراكين ، فأكرموا نزله ، وولوه الخطابة ، بجامع الموحدين بثونس . وأقام بها ، إلى أن هلك السلطان أبو إسحق سنة سبعين ، وولي ابنه خالد . وزحف السلطان أبو العباس ، حافد السلطان أبي يحيى ، من مقره بقسنطينة إلى تونس ، فملكها ، وقتل خالداً ، سنة اثنين وسبعين .

وكان ابن مرزوق يشتري منه ، لما كان يميل ، وهو بفاس ،

مع ابن عمه أبي عبد الله محمد ، صاحب بجة ، ويؤثره عند السلطان  
أبي سالم عليه ؛ فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس ؛  
فوجم لها ، وأجمع الرحلة الى المشرق . وسرّحه السلطان ، فركب  
السفين ، ونزل بالاسكندرية ؛ ثم ارتحل الى القاهرة ، ولقي أهل العلم ،  
وأمرأ الدولة ، ونفقت بضائعه عندهم ، وأوصلوه الى السلطان ، وهو  
يومئذ الأشرف <sup>(١)</sup> . فكان يحضر مجلسه ، وولوه الوظائف العلمية ،  
وكان ينتجع منها معاشه . وكان الذي وصل حبله بالسلطان  
إستداره <sup>(٢)</sup> محمد بن أقبغا آص <sup>(٣)</sup> ، لقيه أول قدومه ، فحلي بعينه ،  
واستظرف جملة ، فسمي له ، وأنجحت سعايته ، ولم يزل مقيماً  
بالقاهرة ، موثق الرتبة ، معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ،  
ملازماً للتدريس في وظائفه ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين .

هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن ، من  
أشياخنا ، وأصحابنا ؛ وليس موضوع الكتاب الاطالة فلنقتصر على  
هذا القدر ، ونرجع الى ما كنا فيه من أخبار المؤلف .

(١) السلطان الأشرف : هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ( ٧٥٤ - ٧٧٨ ) تولى الملك سنة ٧٦٤ هـ ترجمته في تاريخ ابن خلدون م ٥ .

(٢) الإستدار . بكسر الهمزة : لقب للذي يتولى قبض مال السلطان . وهذا اللفظ مركب  
من استند ، ومعناها الأخذ ، ودار ومعناها المسك ، فأدغمت الدال المعجمة في الدال فصارت  
استدار . وكتابتها « أستاذ دار » ، خروج بها عن رسمها الصحيح ، ومن الخطأ توهم ان  
« استاذ » و « دار » كلمتان عربيتان . وانظر صبح الاعشى ٥/٤٥٧ .

(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

ولاية العلامة بتونس ، ثم الرحلة بعدها الى المغرب ،

والكتابة عن السلطان أبي عنان

لم أزل منذ نشأت ، وناهزت مُكبّاً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنبّلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهّب بالأعيان ، والصُّدُور ، وجميع المشيخة ، وهلك أبواي ، رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلي ، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين ، إلى أن شدّت بعض الشيء ، واستدعاه السلطان أبو عنان ، فارتحل إليه ، واستدعاني أبو محمد بن تافرّاكين ، المُستبدُّ على الدولة يومئذ بتونس ، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق . وقد نهض إليهم من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد ، حافداً السلطان أبي يحيى في عساكره ، ومعه العرب أولاد مُهلٍ الذين استجدّوه لذلك ؛ فأخرج ابن تافرّاكين سلطانه أبا إسحق مع العرب ، أولاد أبي الليل ، وبثّ العطاء في عساكره ، وعمر له المراتب والوظائف . وتعلّل عليه صاحبُ العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بالاستزادة من العطاء ؛ فقرّله ، وأدّاني منه ؛ فكتبتُ العلامة للسلطان ، وهي وضع « الحمد لله والشُّكر لله » ، بالقلم الغليظ ، مما بين البسمة وما بعدها ، من مخاطبة أو مرسوم ؛ وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين . وقد كنت

منطوياً على مفارقتهم ، لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي ،  
وُعطلتي عن طلب العلم . فلما رجع بنو مرين الى مرا كزهم بالمغرب ،  
وانحسر تيارهم عن إفريقية ، وأكثر من كان معهم من الفضلاء ،  
صحابة وأشياخ ، فاجترمت على اللحاق بهم . وصدتني عن ذلك أخي  
وكبري محمد ، رحمه الله ؛ فلما دُعيت إلى هذه الوظيفة ، سارعت الى  
الاجابة ، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب ، وكان كذلك ؛ فإنا لما  
خرجنا من تونس ، نزلنا بلاد هوارّة ، وزحفت العساكر بعضها إلى  
بعض ؛ بفحص مرّماجنّة ، وانهزم صفنا ، ونجوت أنا الى أبة ؛ فأقمت  
بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاتي ، من كبراء المرابطين . ثم تحولت  
الى تبسة ، ونزلت بها على محمد بن عبدون ، صاحبها ؛ فأقمت عنده  
ليالي حتى هيا لي الطريق ، وبذرق<sup>(١)</sup> لي مع رفيق من العرب ،  
وسافرت الى قفصة ، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق ، حتى قدم علينا  
بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مُزني ، وأخوه يوسف يومئذ  
صاحب الزّاب . وكان هو بتونس ، فلما حاصرها الأمير أبو زيد ،  
خرج إليه ، فكان معه . ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عثمان ملك  
المغرب ، نهض الى تلمسان ؛ فملكها ، وقتل سلطانها ، عثمان بن عبد  
الرحمن ، وأحياه أبا ثابت ، وأنه انتهى الى المدية ، وملك بجاية من

(١) البذرة : الحفارة ، ويقال لها العصمة ؛ لأنها يعتصم بها . والكلمة معربة .

يد صاحبها ، الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى ، راسله عند ما أطل على بلده ؛ فسار إليه ، ونزل له عنها ، وصار في جملته ، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني واطاس ، من بني الوزير شيوخهم . فلما بلغ هذا الخبر ، أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس ، ومرّ بقفصة ، فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزّاب ، فرافقه إلى بسكرة ، ودخلت إلى أخيه هنالك . ونزل هو ببعض قرى الزّاب تحت جراية أخيه ، إلى أن انصرم الشتاء .

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ، ولى عليها عمر بن علي بن الوزير ، من شيوخ بني واطاس ، وجاء<sup>(١)</sup> فارح ، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرّمه ووَلَدَه ، فدخل بعض السفهاء من صنهاجة<sup>(٢)</sup> في قتل

(١) جاء في الاستقصا ١٨٤/٣ و ١٨٥ . في بيان هذا الحادث :

« وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً ، مولى ابن سيد الناس . فلما نزل للسلطان عن بجاية ، نقم فارح عليه ذلك ، وأسرها في نفسه إلى أن بعث الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرّمه ، ومتاعه ، وماعون داره إلى المغرب ؛ فأتتهى إلى بجاية . وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه ، شكّا إليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين ؛ فنجم كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ، ودعاهم إلى الثورة بالبريينين ، والدعوة إلى الحفصيين ؛ فاجابوه إلى ذلك وتواعدوا لالفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصة وتولى كبرها منصور بن ابراهيم بن الحاج من مشيختهم وبناكره في داره على عادة الأمراء . ولما أكب عليه ليلتم أطرافه ، طعنه بمنججره ، ثم وليج عليه الباقون فاستلحموه ، وذلك في ذي الحجة من سنة ٧٥٣ ... الخ »

(٢) صنهاجة بكسر الصاد ، والمعروف في المغرب فتحها : قبائل كثيرة من البربر في المغرب . وانظر تاج العروس ٦٧/٢ .

عمر بن علي ؛ فقتله في مجلسه . ووثب هو على البلد ، وبعث الى الأمير أبي زيد ، يستدعيه من قسنطينة ؛ فتمشت رجالات البلد فيما بينهم خشية من سطوة السلطان . ثم ثاروا بفارح فقتلوه ، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس ، ينجياتن بن عمر بن عبد المؤمن ، شيخ بني ونكاسن من بني مرين ؛ فلما كوه قيادهم . وبعثوا الى السلطان بطاعتهم ؛ فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، وأكشف له الجند ، وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته . وارتحلت أنا من بسكرة ، وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان ، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء ، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه ، وردني معه الى بجاية ، فشهدت الفتح . وتسايلت وفود إفريقية إليه ؛ فلما رجع السلطان ، وفدت معهم ، فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه ، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي . ثم انصرفت مع الوفود ، ورجع ابن أبي عمرو الى بجاية ؛ فأقمت عنده ، حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين ؛ وعاد السلطان أبو عنان الى فاس ، وجمع أهل العلم للتخليق بمجلسه ، وجرى ذكر كرى عنده ، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس ؛ فأخبره الذين لقيتهم بثونس عني ، ووصفوني له ؛ فكتب الى الحاجب يستقدمني ، فقدمت عليه ، سنة خمس وخمسين ، ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وألزمني شهود الصلوات معه ؛ ثم استعملني في كتابته ، والتوقيع بين يديه ، على



كره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي . وعكفت على النظر ، والقراءة ، ولقاء المشيخة ، من أهل المغرب ، ومن أهل الأندلس ، الوافدين في غرض السفارة ؛ وحصلت من الافادة منهم على البغية .

وكان في جملة يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفار ، من أهل مرّاكش إمام القراءات لوقته ؛ أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب ، كبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري ، سنده أهل المغرب ، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع الى أن توفي . ومنهم : قاضي الجماعة بفاس ، أبو عبد الله محمد المقرئ<sup>(١)</sup> ، صاحبنا ، من أهل تلمسان . أخذ العلم بها عن أبي عبد الله محمد السلاوي ، ورد عليها من المغرب خلواً من المعارف . ثم دعتهم الى التحلي بالعلم ، فعكف في بيته على 'مدارسة القرآن' ، فحفظه ، وقرأه بالسبع . ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية ، فحفظه ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه ، والأصول ، فحفظها ، ثم لزم الفقيه عمران المشدالي<sup>(٢)</sup> من تلاميذ أبي علي ناصر الدين<sup>(٣)</sup> وتفقه عليه ،

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ ( بتشديد القاف المفتوحة نسبة الى مقرة ، أو بسكون القاف . والميم في الحالتين مفتوحة ) وهو جد صاحب النفع . ترجمته في الاحاطة ١٣٦/٢ .

(٢) هو أبو موسى عمران المشدالي ، بفتح الميم ، والشين ، وتشديد الدال المفتوحة .

(٣) أبو علي ناصر الدين المشدالي ، قنصور بن أحمد بن عبد الحق : فقيه معروف

وبرز في العلوم ، الى حيث لم تُلحق غايته . وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسةً بتلمسان ، فقدّمه للتدريس بها ، يضاهاى به أولاد الامام . وتفقّه عليه بتلمسان جماعة ، كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المقرئ هذا :

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الآبلي الى تلمسان ، عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السلاوي قد قُتل يوم فتح تلمسان ، قتلته بعض أشياع السلطان ، لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة ، قبل انتحاله العلم ، وكان السلطان يعتده عليه ، فقتل بباب المدرسة ، فلزم أبو عبد الله المقرئ بعده مجلس شيخنا الآبلي ، ومجالس ابني الامام ، واستبحر في العلوم وتفنّن . ولما انتقض السلطان أبو عنان ، سنة تسع وأربعين وخلع أباه ، ندبه الى كتاب البيعة ، فكتبها وقرأه على الناس في يوم مشهود . وارتحل مع السلطان الى فاس ، فلما ملكها ، عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها ، الى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية ، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي<sup>(١)</sup> آخر سنة ست وخمسين ، ثم بعثه في سفارة الى

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معموراً بالجوود والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا أحد أعلام المغرب . الإحاطة ١٣٣/٢ .

الأندلس ، فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركاثيه ، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تسميته به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عَينان ، وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بفرنطة ، ومنهم : القاضيان بفرنطة ، شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي<sup>(١)</sup> ، شيخ الدنيا جلالةً وعلماً ووقاراً ، ورياسةً ، وإمام اللسان حوكاً ونقداً ، في نظمه ونثره . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي<sup>(٢)</sup> من أهل المَرِيَّة ، شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس ، وسيد أهل العلم باطلاق ، والمتفني في أساليب المعارف ، وآداب الصحابة للهالك فمن دونهم ، فوفدا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما ، فقُبِلَت الشفاعة ، وأنجحت الوسيلة .

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتها ، سنة سبع وخمسين ، وكان يوماً مشهوداً . واستقر القاضي المقرري في مكانه ، بباب السلطان ، عطلاً من الولاية والجراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان ،

(١) محمد بن احمد ... بن عبد الله الحسيني السبتي الشهير بالشريف الغرناطي ، ابو القاسم ٦٩٧-٧٦٠

(٢) أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي ( ٧٠٨ - ٧٧٠ ) (بوحدة ولام مشددة وفاء مكسورات ، وقاف بعد مثناة من تحت ) ، هكذا ضبطه في طبقات القراء ، وقيده ابن خلدون بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة . طبقات القراء ٢/٢٣٥ .

بسبب 'خصومة وقعت بينه وبين اقاربه ؛ امتنع من الحضور معهم عند القاضي القشتالي ؛ فتقدم السلطان الى بعض اكابر الوزعة ببابه ، بأن يسحب به الى مجلس القاضي ؛ حتى انفذ فيه حكمه ؛ فكان الناس يعدونها محنة . ثم ولأه السلطان ، بعد ذلك ، قضاء العساكر في دولته ، عندما ارتحل الى قسنطينة . فلما افتتحها ، وعاد الى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين ، اعتل القاضي المقرري في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

ومنهم صاحبنا الامام العالم الفذ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والاصول ، ابو عبدالله ، محمد بن احمد الشريف الحسني ، ويعرف بالعلوي ، نسبة الى قرية من اعمال تلمسان ، تسمى العلوين ، وكان اهل بيته لا يدافعون في نسبهم . وربما يغمز فيه بعض الفجرة ، ممن لا يزعه دينه ، ولا معرفته بالانساب ، فيعد من اللغو ، ولا يلتفت اليه . نشأ هذا الرجل بتلمسان ، واخذ العلم عن مشيختها ، واختص باولاد الامام ، وتفقه عليها في الفقه ، والاصول والكلام ؛ ثم لازم شيخنا ابا عبدالله الآبلي . وتضلّع من معارفه ؛ فاستبحر ، وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه ؛ ثم ارتحل الى تونس في بعض مذاهبه ، سنة اربعين ، ولقي شيخنا القاضي ابا عبدالله بن عبدالسلام ، وحضر مجلسه ، وافاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد

السلام يُصغى اليه ويؤثر محله ، ويعرف حقه ، حتى لزعموا انه كان  
يخلو به في بيته ، فيقرأ عليه فصل التصوف من كتاب الاشارات  
لابن سينا ، بما كان هو قد احكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي ؛  
وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب  
أرسطو<sup>(١)</sup> لابن رشد ، ومن الحساب والهيئة ، والفرائض ، علاوة  
على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة . وكانت له  
في كتب الخلافات يد طولى ، وقدم عالية ، فعرف له ابن عبد السلام  
ذلك كله ، واوجب حقه وانقلب الى تلمسان ؛ وانتصب لتدريس  
العلم وببته ، فلألمغرب معارف وتلاميذ ، الى ان اضطرب المغرب ،  
بعد واقعة القيروان ؛ ثم هلك السلطان ابو الحسن ، وزحف ابنه ابو  
عنان ، الى تلمسان ؛ فملكها ، سنة ثلاث وخمسين ؛ فاستخلص  
الشريف ابا عبد الله ، واختاره لمجلسه العلمي ، مع من اختار من  
المشيخة . ورحل به الى فاس ؛ فتمرم الشريف من الاغتراب ، وردد  
الشكوى ؛ فأحفظ السلطان بذلك ، وارتاب به . ثم بلغه اثناء ذلك  
ان عثمان بن عبد الرحمن ، سلطان تلمسان ، اوصاه على ولده ، وأودع  
له مالا عند بعض الاعيان من اهل تلمسان ، وان الشريف مطلع  
على ذلك ؛ فانتزع الوديعة ، وسخط الشريف بذلك وزكبه ، واقام ؛

(١) هكذا رسمه ، وضبطه بالقلم ابن خلدون .

في اعتقاله اشهرًا ، ثم اطلقه اول ست وخمسين واقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة واعاده الى مجلسه ، الى ان هلك السلطان ، آخر تسع وخمسين .

وملك ابو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين ، واستدعى الشريف من فاس ؛ فسرّحه القائم بالامر يومئذ ، الوزير عمر بن عبد الله ؛ فانطلق الى تلمسان . وتلقاه ابو حمو براحتيه ، واصهر له في ابنته ، فزوجها اياه ، وبني له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن ابيه وعمه . واقام الشريف يُدرّس العلم الى ان هلك سنة احدى وسبعين . واخبرني رحمه الله ، ان مولده سنة عشر .

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي ابو القاسم محمد بن يحيى البرجي<sup>(١)</sup> من برجة<sup>(٢)</sup> الاندلس . كان كاتب السلطان ابي عنان ، وصاحب الانشاء والسّر في دولته ، وكان مختصاً به ، واثيراً لديه . واصله من برجة الاندلس ، نشأ بها ، واجتهد في العلم والتحصيل ، وقرأ ، وسمع ، وتفقه على مشيخة الاندلس ، واستبحر في الادب ، وبرّز في النظم والنثر . وكان لا يُجارى في كرم الطباع ، وحسن المعاشرة ، ولين

(١) أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد بن علي بن ابراهيم الفسافي البرجي الفرناطي المتوفى سنة ٧٨٦ هـ . الإحاطة ٢/٢١٥ وما بعدها .

(٢) برجة : مدينة بشرفي الأندلس ، من اقليم المرية ، وقد انتقل غالب أهلها ، بعد استيلاء المسيحيين عليها ، الى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، تاج العروس ( برج ) . ياقوت ٢/١١٣ .

الجانب ، وبذل البشر ، والمعروف ؛ وارتحل الى بجاية في عشر  
الاربعين والسبعائة ، وبها الامير ابو زكريا ابن السلطان ابي  
يحيى ، منفرداً بملكها ، على حين أقفرت من رسم الكتابة  
والبلاغة ؛ فبادرت اهل الدولة الى اصطفائه ، واشاره بخطة  
الانشاء ، والكتابة عن السلطان الى ان هلك الامير ابو  
زكريا ، ونُصِب ابنه محمد مكانه ، فكتب عنه على رُسمه ؛ ثم هلك  
السلطان ابو يحيى ، وزحف السلطان ابو الحسن الى إفريقية ، واستولى  
على بجاية ، ونقل الأمير محمد بأهله وحاشيته الى تلمسان ، كما تقدم  
في أخباره . فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان وأقام بها ، واتصل  
خبره بأبي عنان ، ابن السلطان أبي الحسن ، وهو يومئذ أميرها .  
ولقيه ، فوق من قلبه بمكان ، الى أن كانت واقعة القيروان .

وخلع أبو عنان ، واستبد بالأمر ؛ فاستكتبه وحمله معه الى  
المغرب ، ولم يسمُ به الى العلامة ، لأنه آثر بها محمد بن أبي عمرو ؛ بما  
كان أبوه يعلمه القرآن والعلم . ورَبِّيَ محمد بداره ، فولاه العلامة ،  
والبرجي مرادف له في رياسته ، الى أن انقرضوا جميعاً . وهلك  
السلطان أبو عنان ، واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب وغلب  
ابن مرزوق على هواه كما قدمناه ؛ فنقل البرجي من الكتابة ،  
واستعمله في قضاء العساكر ؛ فلم يزل على القضاء ، الى أن هلك سنة

(...) وثمانين<sup>(١)</sup> . وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر .

ومنهم : شيخنا المعمر الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق ، شيخ وقته جلالة وتربيةً وعلماً وخبرةً بأهل بلده ، وعظمةً فيهم . نشأ بفاس ، وأخذ عن مشيختها . وارتحل إلى تونس ؛ فلقني القاضي أبا إسحاق بن عبد الرفيع ، والقاضي أبا عبد الله النفزاوي ، وأهل طبقتها . وأخذ عنهم ، وتفقه عليهم ، ورجع إلى المغرب . ولازم ستن الأكابر والمشايخ ، إلى أن ولّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ؛ فأقام على ذلك ، إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان ، بعد واقعة القيروان ، وخلعه أياه ؛ فعزله بالفقيه أبي عبد الله المقرئ ، وأقام عطلاً في بيته .

ولما جمع السلطان مَشِيخَةَ العلم للتَّحْلِيْق بمجلسه ، والافادة منهم ، استدعى شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق ؛ فكان يأخذ عنه الحديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته ، في مجلسٍ خاصٍّ إلى أن هلك ، رحمه الله ، بين يدي مهلك السلطان أبي عنان . إلى آخرين ، وآخرين ، من أهل المغرب والأندلس ، كلهم لقيتُ وذاكرتُ وأفدتُ منه ، وأجازني بالاجازة العامة .

(١) كذا بياض بالأصل وفي نيل الابتهاج ص ٢٦٧ ، نقلاً عن ابن خلدون « . . . إلى أن هلك بعد الثمانين وسبعمائة » ، ونقل أيضاً عن « فهرسة » السراج أنه توفي سنة ٧٨٦ هـ .



حدوث النكبة من السلطان أبي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان ، آخر [ سنة ] ست وخمسين ،  
 وقرّبي وأدثاني ، واستعملني في كتابته ، حتى تكدر جويّ عنده ،  
 بعد أن كان لا يُعبّر عن صفائه ؛ ثم اعتل السلطان ، آخر سبع  
 وخمسين ، وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بحاية  
 من الموحدين مداخلة ، أحكمها ما كان لسلي في دولتهم . وغفلتُ عن  
 التحفُّظ في مثل ذلك ، من غيرة السلطان ؛ فما هو إلا أن شغل  
 بوجعه ، حتى أنمي إليه بعض الفؤاة ، أن صاحب بحاية ، مُعتَمِل في  
 الفرار ليسترجع بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير ، عبد الله بن علي ؛  
 فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما أنمي إليه ،  
 أني داخلته في ذلك ؛ فقبض عليّ ، وامتحنني وحبسني ، وذلك في  
 ثامن عشر صفر ، سنة ثمان وخمسين . ثم أطلق الأمير محمداً ، وما زلتُ  
 أنا في اعتقاله ، الى أن هلك . وخاطبته بين يدي مهلكه ، مستعطفاً  
 بقصيدة أولها :

على أيّ حالٍ للأيالي أعاتبُ	وأيّ صروفٍ للزمان أغالبُ
كفى حزناً أني على القرب نازح	وانّي على دعوى شهودي غائبُ
وانّي على حكم الحوادث نازلُ	تسلمني طوراً وطوراً تُحاربُ

ومنها في التشوُّق :

سَلَوْتُهُمْ إِلَّا إِدْكَارَ مَعَاهِدٍ      لها في اللَّيَالِي الغابرات غرائبُ  
وإنْ نَسِمْ الرِّيحَ مِنْهُمْ يَشُوقُنِي      اليهم وتُصَيِّبُنِي البُرُوقُ اللّوابعُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها  
منه موقع ، وهش لها . وكان بتلمسان فوعد بالافراج عني عند حلوله  
بفاس ، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع . وهلك لخمس عشرة  
ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجة خاتم تسع وخمسين . وبادر القائم  
بالدولة ، الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق جماعة من المعتقلين ، كنت  
فيهم ، فخلع علي ، وحملني <sup>(١)</sup> ، واعادني الى ما كنت عليه . وطلبت منه  
الانصراف الى بلدي ، فابى علي ، وعاملني بوجوه كرامته ،  
ومذاهب احسانه ، الى ان اضطرب امره ، وانتقض عليه بنو مرين ،  
وكان ما قدّمناه في اخبارهم .

الكتابة عن السلطان ابي سالم في السر والانشاء.

ولما اجاز السلطان ابو سالم من الأندلس لطلب ملكه ، ونزل  
بجَبَل الصَّفِيحَةِ من بلاد نُغْمَارِه . وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس ،  
فيثْ دعوته سرّاً ، واستعان بي على امره ، بما كان بيني وبين اشياخ

(١) حمله : أعطاه ظهراً يركبه . ( لسان العرب ) .

بني مَرِين من المحبة والائتلاف ؛ فحملت الكثير منهم على ذلك ،  
 واجابوني اليه ، وانا يومئذ اكتب عن القائم بامر بني مَرِين منصور  
 ابن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد  
 نصبوه للملك ، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمر ، وسلطان السعيد  
 ابن ابي عَنان ، بالبلد الجديد . فقصدني ابنُ مَرزوق في ذلك ، واوصل  
 اليّ كتاب السلطان ابي سالم . بالحض على ذلك ، وإجمال الوعد فيه .  
 والقي عليّ حملة ؛ فنهضت به ، وتقدمت الى شيوخ بني مَرِين ، وامراء  
 الدولة بالتحريض على ذلك ، حتى اجابوا ، وبعث ابنُ مَرزوق الى  
 الحسن بن عُمر ، يدعو الى طاعة السلطان ابي سالم ، وقد ضجر من  
 الحصار ؛ فبادر الى الاجابة . واتفق رأي بني مَرِين على الانفضاض  
 عن منصور بن سليمان ، والدخول الى البلد الجديد ؛ فلما تم عقدُهم  
 على ذلك نزلتُ الى السلطان ابي سالم في طائفة من وجوه اهل الدولة ،  
 كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبد بعد ذلك بملك المغرب  
 على سلطانه ، وكان ذلك النزوع مبدأ حظّه ، وفاتحة رياسته ، بسعايتي  
 له عند السلطان . فلما قدمتُ على السلطان بالصفيحة ، بما عندي من  
 اخبار الدولة ، وما اجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان ، وبالموعد  
 الذي ضربوه لذلك ، واستحثته . فارتحل ، ولقيتنا البشيرُ بإجفال منصور  
 ابن سليمان ، وفراره الى نواحي باديس ، ودخول بني مَرِين الى البلد  
 الجديد ، وإظهار الحسن بن عُمر دعوة السلطان ابي سالم . ثم لقيتنا ،

بالقصر الكبير ، قبائل السلطان ، وعساكره ، على راياتهم ، ووزير منصور بن سليمان ، وهو مسعود بن رَحْو بن مَاسَاي ؛ فتلَقَّاه السلطان بالكرامة كما يجب له ، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورتاجني السابق الي وزارته ، لَقِيَه بِسَبْتِه <sup>(١)</sup> ، وقد غرَّبه منصور بن سليمان الى الاندلس ، فاستوزره واستكفاه .

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر ، صعد الى فاس . ولقيَه الحسن بن عُمر بظاهرها ؛ فاعطاه طاعته ، ودخل الى دار ملكه وانا في ركابه ، لخمس عشرة ليلةً من نزوعي اليه ، مُنْتَصِفَ شعبانِ ستين وسبعمئة ؛ فرعى لي السابقة ، واستعملني في كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء لمخاطباته . وكان اكثرها يَصدُر عني بالكلام المرسل ، ان يُشار كني احد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء العالي منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مُستَغْرَباً عندهم بين اهل الصناعة .

ثم اخذت نفسي بالشعر ، فانثال عليّ منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور ، وكان مما انشدته اياه ، ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمئة :

(١) في مكان آخر أنه لقىه بطنجة . مع تفصيل هذا الحديث أيضاً .

أَسْرَفَنَ فِي بَهْجَرِي وَفِي تَعْذِيبي  
وَأَبَيَّنَ يَوْمَ الْبَيْنِ وَقْفَةَ سَاعَةٍ  
لِلَّهِ عَهْدُ الظَّاعِنِينَ وَغَادِرُوا  
غَرَبَتِ رَكَائِبُهُمْ وَدَمْعِي سَافِحٌ  
يَا نَاقِعًا بِالْعَتَبِ غُلَّةُ شَوْقِهِمْ<sup>(٦)</sup>  
يَسْتَعْذِبُ الصَّبُّ الْمَلَامَ وَإِنِّي  
مَا هَاجَنِي طَرْبٌ وَلَا اعْتَادَ الْجَوَى  
أَهْفُو إِلَى الْأَطْلَالِ كَانَتْ مَطْلِعًا  
عَاشَتْ بِهَا أَيْدِي الْبَلَى وَتَرَدَّدَتْ  
تَبْلَى مَعَاهِدُهَا وَإِنْ عُهُودَهَا  
وَإِذَا الدِّيَارُ تَعَرَّضَتْ لِمَتِّمْ  
إِيهِ عَنِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ

وَأُطْلَنَ مَوْقِفَ عِبْرَتِي وَنَحْيِي<sup>(١)</sup>  
لَوْ دَاعٍ مَشْغُوفِ الْفُؤَادِ<sup>(٢)</sup> كُنَيْبِ  
قَلْبِي رَهْنِ صَبَابَةٍ<sup>(٣)</sup> وَوَجِيبِ<sup>(٤)</sup>  
فَشَرِقتْ بَعْدَهُمْ بِمَاءِ غُرُوبِ<sup>(٥)</sup>  
رُحْمَاكَ فِي عَذْلِي وَفِي تَأْنِيبي  
مَاءُ الْمَلَامِ لَدِي غَيْرَ شَرُوبِ<sup>(٧)</sup>  
لَوْلَا تَذَكُّرُ مَنَزِلِ وَجِيبِ  
لِلْبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كُنَاسِ رَبِيبِ<sup>(٨)</sup>  
فِي عَطْفِهَا لِلدَّهْرِ أَيُّ خَطُوبِ  
لِيُجَدِّهَا وَصَفِي وَحُسْنِ نَسِيبي  
هَزَّتْهُ ذِكْرَاهَا إِلَى التَّشْيِيبِ  
أَلْوَى<sup>(٩)</sup> بِدَيْنِ فُؤَادِي الْمَنْهُوبِ

(١) النحيب : البكاء .

(٢) مشغوف الفؤاد : مريضه .

(٣) الصبابة : الشوق .

(٤) الوجيب : الاضطراب والخفقان .

(٥) الغروب : الدموع حين تخرج من العين .

(٦) نقع الماء غلته : أروى عطشه .

(٧) الشروب : الذي يشرب ، وفي الإحاطة : الشريب ؛ وهو العذب .

(٨) الربيب : ولد الظبي .

(٩) ألوى بالدين : مطل به . وقد ورد هذا البيت في ب :

إيه على الصبر الجميل فانه ألوى برين فؤادي المنهوب

لم أنسها والدَّهرُ يَشْنِيْ صَرْفَه  
والدَّارُ مُونِقةٌ محاسنُها بما  
يا سائقَ الأظعانِ يعتسِفُ الفلا  
مُتهافتاً عن رَحْلِ كلِّ مُدَلِّلٍ<sup>(٣)</sup>  
تتجاذبُ النَّفحاتُ فَضْلَ رِداثه  
إن هام من ظمأ الصَّبابةِ صَحْبُه  
أو تعترض مسرَّاهمُ سُدْفُ الدُّجى  
في كلِّ شعبٍ مُنيةٌ من دُونها  
هلاً عطفَتْ صُدورهنَّ إلى التِّي  
فتوَمُّ من اكنافِ يثربَ ما مَنَّا  
حيثُ النُّبوةُ آيُّها مَجْلُوةُ  
سرُّ عَجيبٍ لم يُحَجِّبْهُ الثرى  
ويغُضُّ طَرْفِي حاسدٍ ورقِيبِ  
لِبَسَتْ من الأيامِ كلَّ قَشِيبِ  
ويواصلُ الإسَّادَ<sup>(١)</sup> بالتَّأويِبِ<sup>(٢)</sup>  
نشوانٍ من أينِ<sup>(٤)</sup> ومَسِّ لُغُوبِ<sup>(٥)</sup>  
في مُلتقاها من صَباً وجَنُوبِ  
نهلوا بمَورِدِ دَمْعِهِ المَسْكُوبِ  
صدَّعوا الدُّجى بغَرامه المَشْبُوبِ  
هَجَرَ الأمانِي أو لِقاءِ شُعُوبِ<sup>(٦)</sup>  
فيها لُبانةٌ أَعْيُنِ وُقُوبِ  
يكفيك ما تخشاه من تَشْرِيبِ  
تَلو من الآثارِ كلَّ غَرِيبِ  
ما كان سرُّ الله بالمَحْجُوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته [ صلى الله عليه وسلم ] ، والاطناب في

مدحه :

- (١) الفلا ، جمع فلاة ، وهي الأرض لا ماء فيها .  
(٢) الإسَّاد : سير الليل كاه لا تعريس فيه ، والتأويِب : سير النهار لا تعريج فيه . وانظر اختلافهم في تفسير الإسَّاد والتأويِب في لسان العرب : ( سَاد ) .  
(٣) المذل من الدواب : السهل الانقياد .  
(٤) الأين الاعياء .  
(٥) اللغوب : التعب .  
(٦) شعوب كرسول : المنية .

إِنِّي دَعَوْتُكَ وَاثِقًا بِأَجَابَتِي      يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَخَيْرَ مُجِيبٍ  
قَصَّرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنْ يَكْ طَيِّبًا      فَمَا لَذِكْرُكَ مِنْ أَرِيحِ الطَّيِّبِ  
مَا ذَا عَسَى يَبْغِي الْمَطِيلُ وَقَدْ حَوَى      فِي مَدْحِكَ الْقُرْآنَ كُلَّ مَطِيبٍ<sup>(١)</sup>  
يَا هَلْ تُبَلِّغُنِي اللَّيَالِي زُورَةً      تُدْنِي إِلَيَّ الْفُوزَ بِالْمَرْغُوبِ  
أَمْحُو خَطِيئَاتِي بِإِخْلَاصِي بِهَا      وَأَحْطُ أَوْزَارِي وَإِصْرَ ذُنُوبِي  
فِي فَتْيَةٍ هَجَرُوا الْمُنَى وَتَعَوَّدُوا      إِنْضَاءَ كُلِّ نَجِيبةٍ وَنَجِيبِ  
يَطْوِي صَحَائِفَ لَيْلِهِمْ فَوْقَ الْفَلَا      مَا شِئْتَ مِنْ خَبَبٍ وَمِنْ تَقْرِيبِ<sup>(٢)</sup>  
إِنْ رَنَّمَ الْحَادِي بِذِكْرِكَ رَدَّدُوا      أَنْفَاسُ مُشْتَاكِ إِلَيْكَ طَرُوبِ  
أَوْ غَرَّدَ الرُّكْبُ الْخَلِيَّ بِطَيِّبَةٍ      حَنُّوا لِمَغْنَاهَا حَنِينَ النَّيْبِ<sup>(٣)</sup>  
وَرَثُوا اعْتِسَافَ الْبَيْدِ عَنْ آبَائِهِمْ      إِرْثَ الْخِلَافَةِ فِي بَنِي يَعْقُوبِ  
الطَّاعِنِينَ الْخَيْلَ وَهِيَ عَوَابِسُ      يَغْشَى مُثَارُ النَّقْعِ كُلِّ سَيْبِ<sup>(٤)</sup>  
وَالْوَاهِبِينَ الْمُقْرَبَاتِ<sup>(٥)</sup> صَوَافِنًا<sup>(٦)</sup>      مِنْ كُلِّ خَوَّارٍ<sup>(٧)</sup> الْعَيْنَانِ لُؤْبِ  
وَالْمَانِعِينَ الْجَارَ حَتَّى عَرْضُهُ      فِي مُنْتَدَى الْأَعْدَاءِ غَيْرُ مَعِيبِ  
تُخْشَى بَوَادِرُهُمْ وَيُرْجَى حِلْمُهُمْ      وَالْعِزُّ شِيمَةٌ مُرْتَجَى وَمُهَيْبِ

- (١) يشير إلى الآية : « واثقك لعل خلق عظيم » آية ٦٨ / من سورة الأنعام .  
(٢) الخبب : نوع من العدو ، وهو خطو فسيح دون العنق . والتقريب : العدو دون الاسراع .  
(٣) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة .  
(٤) السيب : شعر الناصية والعرف من الفرس ، أو هو الخصلة من الشعر .  
(٥) المقربات من الخيل : التي تقرب وتكرم ، ولا تترك لئلا يقرعها فعل لئيم . لسان العرب .  
(٦) الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم ، والجمع صوافن ، وصافنات . لسان العرب .  
(٧) فرس خوار : لين العطف ، وذلك مما يستحسن فيه .

ومنها في ذكر اجازته البحر ، واستيلائه على ملكه :

سائل به طامي العباب <sup>(١)</sup> وقد سري	تزجيه ريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم	يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجملت ظلم الضلال بسعيه	وسطا الهدى بفريقها المغلوب
يابن الألى شادوا الخلافة بالتقى	واستأثروك بتاجها المنصوب
جمعوا لحفظ الدين أي مناقب	كرّموا بها في مشهد ومنيب
لله مجدك طارفاً او تالداً	فلقد شهدنا منه كل عجيب
كم رهبة او رغبة بك والعلی	تقتاد بالترغيب والترهيب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة	يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحبي المعالي غادياً او رائجاً	وحديد سعدك ضامن المطلوب

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان اليه ،  
وفيهما الحيوان الغريب المسمى بالزرافة :

قد حَتَّ يدُ الاشواق من زندي	وهفت بقلبي زفرة الوجد
ونبذت سلواني على ثقة	بالقرب فاستبدلت بالبعد
ولرب وصل كنت آمله	فاعتضت منه بمؤلم الصدد
لا عهد عند العبر اطلبه	إن الغرام اضاع من عهدي

(١) طما البحر : ارتفع موجه .



يُلْحِي العذُولُ فما أُعِنِّفُهُ      وأقول ضلُّ فأبتغي رُشدي  
واعارضُ النفحاتِ أسألها      بردَ الجوى فتزيدُ في الوقْدِ  
يَهْدِي الغرامُ الى مسالكها      لتعلِّي بضعيف ما تُهْدِي  
يا سائقَ الأظعانِ مُعتسِفاً      طيَّ الفلاةِ لطيَّةِ الوجدِ  
أرحِ الرِّكابَ ففي الصِّبا نبأ      يُغني عن المُستتةِ الجردِ<sup>(١)</sup>  
وسلِ الرُّبوعَ برامةٍ<sup>(٢)</sup> خبراً      عن ساكني نجدٍ وعن نجدِ  
مالي تُلام على الهوى خُلقي<sup>(٣)</sup>      وهي التي تأبى سوى الحمدِ  
لأبئتُ إلا الرُّشدَ مذوَضحت      بالمستعينِ ممالمُ الرُّشدِ  
نعمَ الخليفةُ في هدىً وتقى      وبناءً عزَّ شامخِ الطَّودِ  
نجلِ السراةِ الغرِّ شأنهم      كسبِ العلى بمواهبِ الوجدِ

ومنها في ذكر خلوصي اليه ، وما ارتكبه فيه :

لله مني إذ تأوَّبني      ذكراه وهو بشاهقٍ فردِ  
شهمٌ يفلُّ بواِتراً قَضُباً      وُجموعَ أقيالٍ أولي أيدِ  
أوريتُ زَندَ العزمِ في طَلبي      وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدي  
ووردتُ عن ظمأٍ مناهله      فرويتُ من عزٍّ ومن رِفْدِ

(١) استن في عدوه ؛ ذهب على وجهه . وفرس أجرد : قصير الشعر .

(٢) رامة ، يطلق على مكانين : على منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة الى مكة ؛ وعلى قرية من قرى بيت المقدس . ياقوت ٢١٢/٤ .

(٣) يؤنث ابن خلدون كلمة « خلق » ذهاباً منه الى معنى السجية .

هي جَنَّةُ المَأْوَى لمن كَلِفَتْ  
لو لَمْ أَعْلُ بوردِ كوثرِها  
مَنْ مُبْلِغُ قومي ودونهم  
أني أَنَفْتُ على رجائهم  
آماله بِمطالِبِ المجدِ  
ما قلتُ هَذي جَنَّةُ الخلدِ  
قَذْفُ النوى<sup>(١)</sup> وتنوفاً البعدِ<sup>(٢)</sup>  
وملكتُ عزَّ جميعهم ونحدي

∴

ورقيمةُ الأعطافِ حاليةٌ  
وحشيةُ الأنسابِ ما أنستُ  
تسمو بجيدٍ بالغِ صعداً  
طالت رؤوسُ الشَّائِخاتِ به  
قطعتُ إليك تنائفاً وصلت  
تخدي على استصعابها ذُلَّالاً  
بسُعودك اللَّائِي ضَمَنَ لنا  
جاءتْكَ في وَفْدِ الأحابِشِ لا  
وافوك أنضاءً<sup>(٥)</sup> تُقَلِّبُهُم  
موشيةٌ بوشائعِ البُردِ  
في موحشِ البِداءِ بالقودِ  
شرفَ الصُّروحِ بغيرِ ما جَهدِ  
ولربِّما قَصُرَتْ عنِ الوهدِ  
إِسَادَها بالنَّصِ والوَخْدِ<sup>(٣)</sup>  
وتبييت طووعَ القِنِّ والقَدِ<sup>(٤)</sup>  
طولَ الحياةِ بعيشةِ رَغْدِ  
يرجُونَ غيرَكَ مُكْرِمَ الوَفْدِ  
أيدي السُّرى بالغُورِ والنَّجْدِ

(١) ناقة قذوف : متقدمة في سيرها على الابل ، والنوى : البعد .

(٢) التنوفاً : القفر من الأرض ، والتي لا ماء فيها ، والجمع تنائف .

(٣) النص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها . والوخد : ضرب من سير الابل ،

وهو سعة الخطو في المشي .

(٤) تخدي : تسرع . والقن : العبد . والقن بالكسر : سير يقدر من جلد غير مدبوغ .

(٥) جمع نضو : وهو المهزول .

كَالطَّيْفِ يَسْتَقْرِى مَضَاجِعَهُ      أَوْ كَالْحَسَامِ يُسَلُّ مِنْ غَمْدِ  
يُشْنُونُ بِالْحُسْنَى الَّتِي سَبَقَتْ      مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا جَحْدِ  
وَيَرَوْنَ لَحْظَكَ مِنْ وَفَادَتِهِمْ      فِخْرًا عَلَى الْأَتْرَاكِ وَالْهِنْدِ  
يَا مُسْتَعِينًا جَلَّ فِي شَرَفٍ      عَنْ رُتْبَةِ الْمَنْصُورِ وَالْبَهْدِ  
جَازَاكَ رَبُّكَ عَنْ خَلِيقَتِهِ      خَيْرَ الْجَزَاءِ فَنِعْمَ مَا يُبْنَدِ  
وَبَيَّتَ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنَهَا      فِي عِزَّةٍ أَبَدًا وَفِي سَعْدِ

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً، لم يحضرني  
الآن شيء منه .

ثم غلب ابن مرزوق على هواه ، وانفرد بمخالطته ، وكبح  
الشكائم عن قربه ؛ فانقبضت ، وقصرت الخطو ، مع البقاء على ما  
كنت فيه من كتابة سره ، وإنشاء مخاطباته ومراسمه .

ثم ولاني آخر الدولة « خُطَّة المظالم » ، فوفيتها حقها ، ودفعت  
للكثير مما أرجو ثوابه . ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعايته بي  
وبأمثالي من أهل الدولة ، غيرة ومنافسة ، الى أن انتقض الأمر على  
السلطان بسببه . وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك ؛ فصار إليه  
الناس ، ونبذوا السلطان وبيعته ، وكان في ذلك هلاكه ، على ما  
ذكرناه في أخبارهم .

ولما قام الوزير 'عمر بالأمر ، أقرّني على ما كنت عليه ، ووَفَّرَ  
 إقطاعي ، وزاد في جِرايتي ؛ و كنت أَسْمُو ، بطُغَيان الشباب ، الى  
 أرفع مما كنت فيه ، وأدِلَّ في ذلك بسابقة مودَّة معه ، منذ أيام  
 السلطان أبي عَنان ، وصَحَابَة استَحْكَمَ عَقْدُهَا بيني وبينه ، وبين  
 الأمير أبي عبد الله صاحب بَجَايَة ، فكان ثالثَ أثافيْنَا ، ومَصْقَلَة  
 فَكَاهِتِنَا . واشتدَّتْ غيرة السلطان لذلك كما مرَّ ، وسَطَا بنا ، وتغافل  
 عن 'عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بَجَايَة ؛ ثم حَمَلَنِي الادِّلال  
 عليه أيامَ سلطانه ، وما ارتكبه في حَقِّي من القصور بي عما أَسْمُو إليه ،  
 الى أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان ، مُغاضِباً له ؛ فتَنَكَّرَ لي ،  
 وأقْطَعَنِي جانباً من الاعراض ؛ فطلبتُ الرِّحْلَة الى بَلَدِي بِإِفْرِيقِيَة .  
 وكان بنو عبد الواد قد راجعوا مُدَّكُمْ بِتِلْمَسَان ، والمغرب الأوسط ،  
 فَمَنَعَنِي من ذلك ، أن يغتبط أبو حَمُو صاحبُ تِلْمَسَان بِمَكَانِي ،  
 فأقيم عنده . ولجَّ في المَنع من ذلك ، وأبَيْتُ أَنَا إِلَّا الرِّحْلَة ؛  
 واسنَجَرْت في ذلك برَدِيفِهِ وصَدِيقِهِ ، الوزير مسعود بن رَحُو بن ماساي ،  
 ودخلتُ عليه يومَ الفِطْرِ ، سنة ثلاث وستين . فأنشدته :

هَنِيئاً بصوم لا عَدَاهُ قَبُولُ      وَبُشْرَى بِعِيدِ أَنْتَ فِيهِ مُنِيلُ  
 وَهَنِيئَتَهَا مِنْ عِزَّةٍ وَسَعَادَةٍ      تَتَابَعُ أَعْوَامُ بِهَا وَفُصُولُ

سقى الله دهرأ أنت إنسان عيـنه  
 فعصرُك ما بين الليالي مواسـم  
 وجانبك المأمول للـجود مشرـع  
 عسـاك ، وإن ضنّ الزمان منوـلي  
 أـجرني فليس الدهر لي بمسـالم  
 وأولني الحسنـى بما أنا آمـل  
 وو الله ما رمت التـرُّحل عن قـلبي  
 ولا رغبة عن هذه الدار إنـها  
 ولكن نأى بالشعب عني حباـب  
 يهيج بهنّ الوـجد أني نازح  
 عزيز عليهن الذي قد لقيته  
 توارت بأنبائي البقاع كأنني  
 ذكرتك يا مـغنى الأـحبة والهوى  
 وحيئت عن شوق ربـاك كأنـها  
 أحبابنا والعهد بيني وبينكم  
 إذا أنا لم ترض الحمول مـدامـي  
 إلام مقامـي حيث لم تُرد الغـلى

ولا مسّ ربعا في حماك محـول  
 لها غـرر وضاحة وحـجـول  
 يحوم عليه عالم وجهـول  
 فرسم الأمانـي من سواك محـيل  
 إذا لم يكن لي في ذراك مـقـيل  
 فمثلك يولي راجيا ويـنـيل  
 ولا سـخـطة للعيش فهو جـزـيل  
 لظـل على هذا الأثام ظـلـيل  
 شجـاهنّ خطب للفراق طوـيل  
 وأن فؤادي حيث هنّ حلـول  
 وأن اغترابي في البلاد يطول  
 تحطّفت أوغالت ركابي غـول  
 فطارت بقلبي أنة وعوـيل  
 يمثـل لي نوـي بها وطـول  
 كرم وما عهد الكرم يحول  
 فلا قرّبني للقاء حـول  
 مرادي ولم تعط القياد ذلـول  
 (٦٤ - ٦٥)

أَجَاذِبُ فَضْلَ الْعُمَرِ يَوْمًا وَلَيْلَةً  
وَيَذْهَبُ بِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْمَعٍ  
تُعَلِّانِي عَنْهُ أَمَانٌ خَوَادِعُ  
أَمَّا اللَّيَالِي لَا تَرُدُّ خَطُوبَهَا  
يُرَوِّعُنِي مِنْ صَرْفِهَا كُلُّ حَادِثٍ  
أُدَارِي عَلَى الرِّغْمِ الْعِدَى لَا لِرَبِيبَةٍ  
وَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غَرْبَةٍ  
وَصَدَّتْنِي الْأَيَّامُ عَنْ خَيْرٍ مَنَزَلٍ  
لَأَعْلَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ يَنْتَهِي  
وَأَنِّي عَزِيزٌ بَابِنَ مَا سَايَ مُكَثِّرُ

وَسَاءَ صَبَاحٌ بَيْنَهَا وَأَصِيلُ  
زَمَانٌ بَنِيْلُ الْمَعْلُوتِ بَنَجِيلُ  
وَيُوَيْسُنِي لَيَّانٌ مِنْهُ مَطْوَلُ  
فَفِي كَبْدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ  
تَكَادُ لَهُ صَمُّ الْجِبَالِ تَزُولُ  
يَصَانَعُ وَاشٍ خَوْفَهَا وَعَذُولُ  
تَجُودُ بِنَفْسِي زَفْرَةٌ وَغَلِيلُ  
تُحِيلُ اللَّيَالِي سَلُوتِي وَتُدِيلُ  
عَمِدَتُ بِهِ إِنْ لَا يُضَامُ نَزِيلُ  
مَدَاهُ وَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ  
وَإِنْ هَانَ انْصَارُ وَبَانَ خَلِيلُ

فاعانني الوزير مسعود عليه ، حتى اذن لي في الانطلاق على  
شريطة العدول عن تلمسان ، في اي مذهب اردت ، فاخترت  
الاندلس ، وصرفت ولدي وأمرهم الى اخوالهم ، اولاد القائد محمد  
ابن الحكيم بقسنطينة ، فاتح اربع وستين . وجعلت انا طريقي على  
الاندلس ، وكان سلطانها ابو عبد الله المخلوع ، حين وفد على  
السلطان ابي سالم بفاس ، وأقام عنده ، حصلت لي معه سابقة وصلة

ووسيلة خدمة ، من جهة وزيره ابي عبدالله بن الخطيب <sup>(١)</sup> ، وما كان بيني وبينه من الصّحابة ، فكنت اقوم بخدمته ، وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة . ولما اجاز ، باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه ، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته ، خدّته فيمن ترك من عياله وولده بفاس ، خير خلف ؛ في قضاء حاجاتهم ، وإضرار أرزاقهم ، من المتولين لها ، والاستخدام لهم . ثم فسد ما بين الطاغية وبينه ، قبل ظفّره بملكه ، برجوعه عما اشترطه له ؛ من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلابه ؛ ففارقته الى بلد المسلمين ، ونزل بأسجة <sup>(٢)</sup> . وكتب الى عمر بن عبد الله يطلب مصراً ينزله ، من أمصار الأندلس الغربية ، التي كانت ركاباً لملوك المغرب في جهادهم . وخاطبني أنا في ذلك ، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر ، حتى تمّ قصده من ذلك . وتجاّفى عن رندة واعمالها ؛ فنزلها وملكها ، وكانت دار هجرته ، وركاب فتحه ؛ وملك منها الأندلس اواسط ثلاث وستين ، واستوحشت أنا من عمر ، إثر ذلك كما مر . وارتحلت إليه ، معوّلاً على سوابقي عنده ، فغرب في المكافاة كما نذكر ان شاء الله تعالى .

(١) لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦)

بروكمن ٢٦٢/٢ .

(٢) أسجة قيدها ابن خلدون بالقلم ، بفتح الهمزة ، وكسر السين الخفيفة ، تقع في الجنوب الغربي

على بعد نحو ٥٤ كيلو متراً . ويقال لها أيضاً أسجة ، وتحت هذا الاسم تجدها في ياقوت ٢٢٤: ١

### الرحلة الى الاندلس

ولمّا أجمعت الرحلة الى الأندلس ، بعثت بأهلي وولدي الى أخوالهم بقسنطينة ، وكتبت لهم الى صاحبها السلطان ابي العباس ، من حفدة السلطان ابي يحيى ، وأني امرت على الأندلس ، وأجيز اليه من هنالك . وسرت الى سبتة فرفضة المجاز ، وكبرها يومئذ الشريف ابو العباس احمد بن الشريف الحسني ، ذو النسب الواضح ، السالم من الريبة عند كافة اهل المغرب ؛ انتقل سلفه الى سبتة من صقلية<sup>(١)</sup> ، وأكرمهم بنو العزفيّ اولاً وصاهروهم . ثم عظم صيتهم في البلد ، فتكبروا لهم . وغربهم يحيى العزفيّ آخرهم الى الجزيرة ؛ فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق<sup>(٢)</sup> ؛ فأسروهم . وانتدب السلطان ابو سعيد الى فديتهم ، رعاية لشرفهم ؛ فبعث الى النصارى في ذلك فأجابوه . وفادى هذا الرجل واباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا الى سبتة . وانقرض بنو العزفيّ ودولتهم ، وهلك والد الشريف ، وصار هو الى رئاسة الشورى . ولمّا كانت واقعة القيروان ، وخلع ابو عنان اباه ، واستولى على المغرب ، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير ، والياً من قبل السلطان ابي الحسن ؛ فتمسك بدعوته ، ومال اهل

(١) يفتح الصاد والقاف ، أو بكسرهما ، واللام مكسورة مشددة على كلا القولين . فتحت سنة ٢١٢ تاج العروس ٤٠٤/٧ وياقوت ٣٧٣/٥ - ٣٧٧ .

(٢) الزقاق: هو المضيق الذي بين طنجة وجبل طارق ، وعرض البحر هناك نحو سبعة عشر متراً .



البلد الى السلطان ابي عنان. وبث فيهم الشريف دعوته؛ فثاروا بالوزير وأخرجوه، ووفدوا على ابي عنان. وأمكنوه من بلدهم؛ فوالى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي؛ كما فل تربيته في صغره. وافرده هذا الشريف برياسة الشورى في سبته؛ فلم يكن يُقطع امرٌ دونه. ووفد على السلطان بعض الايام، فتلقاه من الكرامة بما لا يشارِكه فيه احد من وفود الملوك والعظماء. ولم يزل على ذلك سائر ايام السلطان وبعد وفاته. وكان معظمها وقور المجلس، هش اللقاء، كريم الوفادة، متحلياً بالعلم والادب، منتحلاً للشعر، غاية في الكرم وحسن العهد، وسداجة النفس. ولما مرت به سنة اربع وستين، انزلني بيته ازاء المسجد الجامع، وبلوت منه ما لا يُقدر مثله من الملوك، واركني الحراقة<sup>(١)</sup> ليلة سفري؛ يباشر دحرجتها الى الماء بيده، إغراباً في الفضل والمساهمة. وحططت بجبل الفتح<sup>(٢)</sup> وهو يومئذ لصاحب المغرب. ثم خرجت منه الى غرناطة، وكتبت الى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني. وليلة بت بقرب غرناطة على بريد<sup>(٣)</sup> منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنييني بالقدوم ويؤنسني، ونصه:

(١) الحراقة: نوع من السفن الصغيرة كان يستعمل للنزهة. السلوك للمفريزي ص ٣٠٦.

(٢) جبل الفتح: هو جبل طارق بن زياد. وهو المسمى اليوم Gibraltar.

(٣) البريد: أربعة فراسخ؛ والفرسخ: اثنا عشر ميلاً. تاج العروس ٣٩٨/٢.

حَلَّتْ حُلُولُ الْغَيْثِ بِالْبَلَدِ الْمَحَلِّ عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَّهْلِ  
يَمِينًا بَيْنَ تَغْنُو الْوُجُوهِ لَوَجْهِهِ مِنْ الشَّيْخِ وَالطِّفْلِ الْمَهْدِ<sup>(١)</sup> وَالْكَهْلِ  
لَقَدْ نَشَأَتْ عِنْدِي لِلْقِيَاكِ غِبْطَةٌ تَنْسِي اغْتِبَاطِي بِالشَّيْبَةِ وَالْأَهْلِ  
وَوُدِّي لَا يُحْتَاجُ فِيهِ لِشَاهِدٍ وَتَقْرِيرِي الْمَعْلُومِ ضَرْبُ مَنْ الْجَهْلِ

أَقْسَمْتُ بَيْنَ حَجَّتِ قُرَيْشٍ لَبَيْتِهِ ، وَقَبْرِ صُرِفَتْ أَرْمَةِ الْأَحْيَاءِ  
لَمَيْتِهِ<sup>(٢)</sup> ، وَنُورٍ ضَرَبَتْ الْأَمْثَالَ بِمَشْكَاةٍ وَزَيْتِهِ<sup>(٣)</sup> . لَوْ خَيْرَتْ أَيْهَا  
الْحَبِيبِ الَّذِي زِيَارَتُهُ الْأَمْنِيَّةُ السَّنِيَّةُ ، وَالْعَارِفَةُ الْوَارِفَةُ<sup>(٤)</sup> ، وَاللَّطِيفَةُ  
الْمُطِيفَةُ ، بَيْنَ رَجْعِ الشَّبَابِ يَقْطُرُ مَاءً ، وَيَرِفُ<sup>(٥)</sup> نَمَاءً ، وَيُغَازِلُ عَيُونَ  
الْكُؤَاكِبِ ، فَضْلًا عَنْ الْكُؤَاعِبِ ، إِشَارَةً وَإِيمَاءً ، بِحَيْثُ لَا الْوُخْطُ  
يُلْمُ بِسِيَاكِ لَمْتِهِ ، أَوْ يَقْدَحُ ذُبَالَهُ فِي ظُلْمَتِهِ ، أَوْ يَقُومُ حَوَارِيَهُ فِي  
مِلَّتِهِ ، مِنَ الْأَحَابِشِ وَأُمَمَتِهِ . وَزَمَانُهُ رَوْحٌ وَرَاحٌ ، وَمَعْدَى فِي  
فِي النِّعَمِ وَمَرَاكِحٍ ، وَقَصْفُ صُرَاكِحٍ ، وَرُقَى وَجِرَاكِحٍ ، وَانْتِخَابِ  
وَاقْتِرَاكِحٍ ، وَصُدُورِ مَا بَهَا إِلَّا انْشِرَاكِحٍ ، وَمَسَرَّاتٍ تَرُدُّهَا أَفْرَاكِحٍ ،

(١) هدأت المرأة الصبي : سكنته لينام .

(٢) في القرآن : « انك » ميت وانهم ميتون » وبها مش طبعة بولاق . العبرم ٧ ص ٤١١ شرح  
لا معنى له ، أعرضنا عن ذكره .

(٣) يشير إلى الآية : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح  
في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد  
زيتها يضيء ولو لم تمسه نار » . الآية ٣٥ من سورة النور .

(٤) العارفة العطية . والوارفة : المتسمة .

(٥) يقال : الشيء يرف إذا كثرت ماؤه من النعمة والفضاضة .

وبين قُدمك خليع الرُّسن ، مُمتعاً — والحمد لله — باليقظة والوسن ،  
 محكماً في نُسك الجنيد<sup>(١)</sup> أو فتك الحسن<sup>(٢)</sup> ، مُمتعاً بظرف المعارف ،  
 مالئاً أكف الصَّيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزَّخارف — لما  
 اخترت الشَّباب وإن شاقني زمنه ، وأعياني ثمنه ، وأجرت سحاب  
 دمعي دمنه . فالحمد لله الذي رقي جنون اغترابي ، وملكني أزيمة  
 آرابي ، وغبطني بمائي وتُرابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيد  
 شرابي ، ووقع على سُطوره المعتبرة إضرابي . وعجّلت هذه مُغَيِّطة  
 بمناخ المَطيّة ، ومنتهى الطَّيّة<sup>(٣)</sup> ، وملتقى للسُّعود غير البَطيّة ، وتهني  
 الآمال الوثيرة الوَطيّة . فما شئت من نفوسٍ عاطشة الى ربيك ،  
 متجملة بزريك ، عاقلة خطأ مهريك ؛ وموئلي مكارمه نشيدة  
 أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيُصدق الخبر ما هُنالك ، ويسع فضل  
 مجدك في التخلُّف عن الأصحار<sup>(٤)</sup> ، لا ، بل للقاء من وراء البحار ،  
 والسَّلام .

ثم أصبحتُ من الغد قادماً على البلد ، وذلك ثامن ربيع الأول

- (١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، سيد الصوفية وامامهم . توفي سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٨ - ٣٧ .  
 (٢) يريد أبا نواس : الحسن بن هانيء بن الجراح الحكمي ، الشاعر الماجن المعروف ( ١٤٥ - ٢٠٠ ) .  
 (٣) الطيّه : الوجه والقصد .  
 (٤) الإصحار : الخروج الى الصحراء . يتمنّى عن تخلّفه عن الخروج للقاء بعيداً عن المدينة .

عام أربعة وستين ، وقد اهتزّ السلطان لِقُدومي ، وهياً لي المنزل من قصوره ، بفرشه وما عونه ، وأركب خاضته للقائي ، تحفياً وبراً ، ومجازاة بالحسني ؛ ثم دخلتُ عليه فقابلني بما يُناسب ذلك ، وخلع عليّ وانصرفت . وخرج الوزيرُ ابن الخطيب فشيعني الى مكان نُزلي ؛ ثم نظمني في علية أهل مجاسه ، واختصني بالنجسي في خلوته ، والمواكبة في ركوبه ، والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه ؛ وأقمتُ على ذلك عنده ؛ وسفرتُ عنه سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ ؛ بشره بن الهنش بن أذفونش ، لاتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوّة ، بهدية فاخرة ، من ثياب الحرير ، والجياد المقربات <sup>(١)</sup> بمراكب الذهب الثقيلة ؛ فلقيت الطاغية بإشبيلية ، وعاينت آثار سلفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وأظهر الاغتياب بمكاني ، وعلم أوليّة ملةنا بإشبيلية . وأثنى عليّ عنده طبيبُه إبراهيم بن زرّزر اليهودي ، المُقدّم في الطب والنّجامة ، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان ، وقد استدعاه يستطبه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثمّ نزع — بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم — الى الطاغية ؛ فأقام عنده ، ونظمه في أطبائه . فلما قدمت أنا عليه ، أثنى عليّ عنده ، فطلب الطاغية مني حينئذٍ المقام عنده ،

(١) المقربات : التي تقرب ، ولا تترك بعيداً لئلا يقرعها فعل غير جيد ، يفعلون ذلك ليحفظوا لها النسب الحر .

وأن يرُدَّ عليَّ تراثَ سَلَفِي بِإِسْبِيلِيَّةٍ ، وكان بيدَ زُعماءَ دولته ،  
فتفاديتُ من ذلك بما قبله . ولم يزل علي اغتباطه الي أن انصرفت عنه ؛  
فزودني وحملي<sup>(١)</sup> ، واختصني ببغلة فارهة ، بمركب ثَقِيلٍ وَلِجَامِ  
ذَهَبَيْنِ ، أهديتها الي السلطان ، فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي  
بمرج غرناطة ، وكتب بها منشوراً كان نصه<sup>(٢)</sup> :

ثم حضرتُ المولدة النبويَّ لخامسةٍ قُدومي ، وكان يحتفل في  
الصنيع<sup>(٣)</sup> فيها والدعوة<sup>(٤)</sup> ، وإنشاد الشعراء ، اقتداءً بملوك المغرب ،  
فأنشدته ليلتئذ :

حيَّ المعاهدَ كانت قبلُ تُحِينِي بواكِف<sup>(٥)</sup> الدَّمعُ يروِيها ويُظْمِئِي  
إن الألى نَزَحَتْ داري ودارُهُمْ تَحَمَّلُوا القلبَ في آثارِهِمْ دُونِي  
وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم فيهم وأسال رسماً لا يُناجيني  
أُمِّيلُ الرَّبْعَ من شوقِ فَأَلْثِمُهُ وكيفَ والفِكرُ يدنيه ويُقصيني  
وبَنَهَبَ الوَجْدُ مِنِّي كُلَّ لَوْنَةٍ ما زال قلبي عليها غيرَ مأمون

(١) أعطاني ظهراً لأركبه .

(٢) بياض في جميع الاصول ، ولعل ابن خلدون ترك هذا البياض ليثبت نص هذا المنشور ،  
فعاجلته المنية قبل ان يتيسر له ذلك .

(٣) الصنيع ، والصنعة : ما اصطاعته من خير او شر .

(٤) الدعوة بالفتح في اكثر كلام العرب ؛ طلبك الناس للطعام ، وعد قبيلة الرباب : الدعوة ،  
بكسر الدال في الطعام . وانظر كتب اللغة .

(٥) وكف الدمع : سال .

سَقَتْ جُفُونِي مَغَانِي الرَّبْعِ بَعْدَهُمْ<sup>(١)</sup> فَالِدَّ مَعَ وَقْفٍ عَلَى أَطْلَالِهِ الْجُونِ<sup>(١)</sup>  
 قَدْ كَانَ لِلْقَلْبِ عَنْ دَاعِي الْهَوَى شُغْلٌ لَوْ أَنَّ قَلْبِي إِلَى السُّلُوفِ يَدْعُونِي  
 أَجَابَتْنَا هَلْ لِعَهْدِ الْوَصْلِ مُدٌّ كَرٌّ مِنْكُمْ وَهَلْ نَسْمَةٌ عَنْكُمْ تُحَيِّينِي  
 مَالِي وَلِلطَّيْفِ لَا يَعْتَادُ زَائِرُهُ<sup>(٢)</sup> وَلِلنَّسِيمِ عَلِيلاً لَا يَدَاوِينِي  
 يَا أَهْلَ نَجْدٍ وَمَا نَجْدٌ وَسَاكِنُهَا حُسْنًا سَوَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَالْعَيْنِ<sup>(٣)</sup>  
 أَعِنْدَكُمْ أَنِّي مَا مَرَّ ذَكَرَكُمْ إِلَّا انْثَنَيْتُ كَأَنَّ الرَّاحَ تَشْنِينِي  
 أَصْبُو إِلَى الْبَرْقِ مِنْ انْحَاءِ أَرْضِكُمْ شَوْقًا وَلَوْلَاكُمْ مَا كَانَ يُصْبِينِي  
 يَا نَازِحًاوَالْمَنَى تُدْنِيهِ مِنْ خَلْدِي<sup>(٤)</sup> حَتَّى لَا حَسِبُهُ قُرْبًا يَنَابِينِي  
 أَسْلَى هَوَاكَ فَوَّادِي عَنْ سِوَاكَ وَمَا سِوَاكَ يَوْمًا بِحَالٍ عَنْكَ يُسْلِينِي  
 تَرَى اللَّيَالِيَ أَنْسَتِكَ إِذْ كَارَى يَا مَنْ لَمْ تَكُنْ ذِكْرَهُ إِلَّا يَامُ تَنْسِينِي

ومنها في وصف الايوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره :

يَا مَصْنَعًا شَيْدَتْ مِنْهُ السُّعُودُ حُمًى لَا يَطْرُقُ الدَّهْرُ مَبْنَاهُ بَتَوَاهِينِ  
 صَرَحَ يَحَارُ لَدَيْهِ الطَّرْفُ مُفْتِنًا فَيَا يَرُوقُكَ مِنْ شَكْلِ وَتَلْوِينِ

(١) الجون : السود .

(٢) لا يزور مرة بعد الأخرى .

(٣) جمع عيناء ؛ وهي الواسعة العين من النساء .

(٤) الخلد : البال .

بَعْدًا لايوان كسرى<sup>(١)</sup> إِنَّ مَشَوْرَكَ<sup>(٢)</sup> السامي لأعظم من تلك الأواوين  
ودَعِ دَمَشَقَ وَمَغْنَاهَا فَقَصْرَكَ ذَا «أشهى الى القلب من ابواب جيرون»<sup>(٣)</sup>  
ومنها في التَّعْرِيضِ<sup>(٤)</sup> بِمُنْصَرَفِي مِنَ الْعُدُوتِ :

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي السَّحْبِ الْأَلَى تَرَكُوا وَدِّي وَضَاعَ حِمَاهُمْ إِذَا ضَاعُونِي  
أَنْيَ أَوَيْتُ مِنَ الْعَلَا إِلَى حَرَمٍ كَادَتْ مَغَانِيهِ بِالْبُشْرِ تَحْيِينِي  
وَأَنْنِي ظَاعِنًا لَمْ أَلْقَ بَعْدَهُمْ دَهْرًا أَشَاكِي وَلَا خَصْمًا يَشَاكِينِي  
لَا كَلَّتِي اخْفَرْتَ عَهْدِي لِيَالِي إِذَا أَقْلَبَ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخُوفِ وَالْهُونِ

.....

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَامِي الَّتِي ظَفِرْتَ يَدَايَ مِنْهَا بِحَظٍّ غَيْرِ مَغْبُونٍ  
ارْتَادُ مِنْهَا مَلِيًّا لَا يِمَاطِلُنِي وَعَدَاً وَارْجُو كَرِيماً لَا يَغْنِينِي  
وَهَاكَ مِنْهَا قَوَافٍ طَيِّهَا حِكْمٌ مِثْلُ الْإِزَاهِرِ فِي طَيِّ الرِّيحِ

(١) هو الإيوان الذي كان بمَدَائِنِ كَسْرَى . شاهده ياقوت ، ووصفه في معجم البلدان ١/٣٩٤ وما بعدها . وللبحتري فيه القصيدة السينية المشهورة .

(٢) المشور في الاصطلاح المغربي والأندلسي : المكان الذي يجلس فيه السلطان فمن دونه من الحكماء للحكم . ولا تزال الكلمة مستعملة في هذا المعنى بالمغرب . .

(٣) بوضع من متنزهات دمشق أكثر الشعراء من ذكره . ياقوت ٢/١٩١ ، تاج العروس ٣/١١٦ . والشطر الثاني مضمن من شعر أبي قطيفة .

(٤) يعني بهذه الابيات صديقه الوزير عمر بن عبدالله ، ويعرض فيها بما عامله به من الوحشة وقد قدم بعض القول في ذلك .

تلوح ان جليت دراً وإن تليت تشني عليك بانفاس البساتين  
عانيت منها يجهدى كل شاردة لولا سعودك ما كادت تواتيني  
يمنع الفكر عنها ما تقسمه من كل حزن بطي الصدر مكنون  
لكن بسعدك ذلت لي شواردها فرضت منها بتجبير وترين  
بقيت دهرك في أمن وفي دعة ودام ملكك في نصر وتمكين

وأنشدته سنة خمس وستين في إعدار<sup>(١)</sup> ولديه ، والصنيع الذي  
احتفل لهم فيه ، ودعا اليه الجفلى من نواحي الاندلس ، ولم يحضرني  
منها الا ما اذكره :

صباحا الشوق لولا عبرة ونجيب<sup>(٢)</sup> وذكري تجدد الوجد حين تثوب<sup>(٤)</sup>  
وقلب أبى إلا الوفاء بعهده وان نزلت دار وبان حبيب  
ولله مني بعد حادثة النوى فؤاد لتذكّار المهود طروب  
يؤرقه طيف الخيال اذا سرى وتذكي حشاه نفحة وهبوب  
خليلي إلا تسعدا فدعا الاسى فإني لما يدعو الاسى لمجيب  
ألما على الاطلال يقض حقوقها من الدمع فياض الشئون سكوب

(١) الإعدار : الحتان ، ثم اطلق على طعام الحتان .

(٢) الجفلى ، بفتحات : ان تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة .

(٣) النجيب : البكاء .

(٤) تثوب ، وفي ب : تثوب ؛ والمعنى فيها : ترجع وتندود .



ولا تغدُلاني في البكاء فإنَّها 'حشاشة' نفسي في الدموع تذوب  
ومنها في تقدُّم ولده للاعذار من غير نُكول<sup>(١)</sup> :

فيمم منه الحفل لا متقاعس<sup>(٢)</sup> لخطب ولا نكس<sup>(٣)</sup> اللِّقاء هبوب  
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلاه والفرند<sup>(٤)</sup> خضيب  
شواهد اهدتهن منك شمائل وخلق بصفو المجد منك مشوب  
ومنها في الشناء على ولديه :

هما النيران الطالعان على الهدى بآيات فتح شأنهن عجيب  
شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسح المعالي منها وتصوب  
يدان لبسط المكرمات نأها الى المجد فياض اليدين وهوب

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيف ان يعتاد الا توها فمن لي بأن القى الخيال المسلي  
وقد كنت استهديه لو كان نافعي وأستمطر الاجفان لو تنقع الظما<sup>(٤)</sup>  
ولكن خيال كاذب وطاعة<sup>(٥)</sup> تعال قلباً بالاماني متيماً

(١) النكول : التأخر والجبن .

(٢) النكس : الرجل الضعيف ، والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

(٣) الفرند : السيف .

(٤) تروي العطش .

(٥) الطماعة : الطمع .

ايا صاحبي نجواي والحب لوعة      تبيح بشكواها الضمير المكتما  
 خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا      وظي النقا<sup>(١)</sup> والبان من اجرع الحمى<sup>(٢)</sup>  
 ألا صنع الشوق الذي هو صانع      فحي مقيم أقصر الشوق او سما  
 وإني ليدعوني السلو تعللا      وتنهاني الأشجان أن اتقدما  
 لمن دمن اقفرن الا هو اتفا<sup>(٣)</sup>      تردد في اطلاقهن الترنما  
 عرفت بها سيما<sup>(٤)</sup> الهوى وتنكرت      فمجت على آياتها متوسما  
 وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا      ويعرف آثار الديار توها  
 تأو بني<sup>(٥)</sup> والليل بيني وبينه      وميض بأطراف الثنايا تضرما  
 أجد لي العهد القديم كأنه      اشار بتذكار العهود فافهما  
 عجبت لمرتاع الجوانح خافق      بكيت له خلف الدجى وتبسما  
 وبت أرويه كؤوس مدامعي      وبات يعاطيني الحديث عن الحمى  
 ووافحته عن رسم دار بذي الغضا<sup>(٦)</sup>      لبست بها ثوب الشبيبة معلما  
 لعهدي بها تدني الظباء وانسا      وتطلع في آفاقها الغيد أنجما

(١) النقا : الكتيب من الرمل .

(٢) الاجرع : الارض الرملة السهلة المستوية . - لسان العرب .

(٣) هتفت الحماسة : ناحت ، وهي هاتفة ، والجمع هواتف .

(٤) سيما الهوى : علامته .

(٥) اتا ليلا .

(٦) الغضا : شجر ، وخشبه من اصلب الخشب ، ولهذا يكون في فحمة صلابه .

أَحْنُ إِلَيْهَا حَيْث سَارَ بِي الْهَوَى وَأَنْجَدَ رَحْلِي فِي الْبِلَادِ وَأَتَهَا<sup>(١)</sup>

ولما استقر القرار ، واطمأنت الدار ، وكان من السلطان  
الاغتياب والاستئثار وكثر الحنين الى الاهل والتذكّار ، أمر  
باستقدام اهلي من مطرح اغترابهم<sup>(٢)</sup> بفسنطينة ؛ فبعث عنهم من جاء  
بهم الى تلمسان . و امر قائد الاسطول بالمرية ؛ فسار لاجازتهم في  
اسطوله ، واحتلوا بالمرية . واستأذنت السلطان في تلقّيهم ، وقدمت  
بهم على الحضرة ، بعد ان هيات لهم المنزل والبستان ، ودمنة الفلج ،  
وسائر ضرورات المعاش .

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة ، وقد كتبت  
اليه استأذنه في القدوم ، وما أعتمده في احواله :

سيدي ، قدّمت بالطّير الميامين ، على البلد الامين ، واستضفت  
الرّفاء الى البنين ، وميّت بطول السنين . وصلتني البراءة<sup>(٣)</sup> المعربة  
عن كُتب اللقاء ، ودنوّ المزار ، وذهاب البعد ، وقرب الدار ؛  
واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم ، والحق ان يتقدم

(١) انجد ، واتهم : دخل نجداً ، وتهامة .

(٢) مطرح الاغتراب : المكان البعيد عن الاهل والعشيرة .

(٣) البراءة في مصطلح المغاربة والاندلسيين : الرسالة كيفما كان موضوعها . ولا يتقيدون

فيها بللعنى اللغوي للبراءة .

سيدي الى الباب الكريم ، في الوقت الذي يجسد المجلس الجمهوري لم يُفَضَّ حَجيجه<sup>(١)</sup> ، ولا صَوَّح<sup>(٢)</sup> بهيجه ، ويصل الالهل بعده الى المحل الذي هياته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليمن قبل اختيارهم . والسلام .

ثم لم يلبث الاعداء واهل السعايات ان خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتماله علي ، وحرَّكوا له جواد الغيرة فتَنَكَّر . وشِمِحتُ منه رائحة الانتقاض ، مع استبداده بالدولة ، وتحكُّمه في سائر احوالها ؛ وجاءتني كتب السلطان ابي عبدالله صاحب بحاية ، بانه استولى عليها في رمضان خمس وستين . واستدعاني اليه ؛ فاستأذنت السلطان ابن الاحمر في الارتحال اليه . وعميتُ عليه شأن ابن الخطيب ابقاء لمودته ؛ فارتَمَضُ<sup>(٣)</sup> لذلك ، ولم يَسَعُه الا الاسعاف ، فودَّع وزوَّود ، وكُتِب لي مرسوم بالتشيع من املاء الوزير ابن الخطيب نصه :

هذا ظهير كرم ، تضمن تشيعاً وترفعاً ، وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعمَل الصَّنِيعَة ختاماً ، وعلى الذي احسن تماماً ، وأشاد للمعتمد

(١) الافاضة : الدفع في الير بكثرة . والحجيج : جمع حاج ؛ يريد قبل ان يتفرق رواد المجلس السلطاني من اهل الدولة .

(٢) صَوَّح التبت : تم يبسه .

(٣) ارتَمَض لكذا : حزن ، وارتمض بكذا : اشتد قلقه .

به<sup>(١)</sup> بالاغتباط الذي راق قَسَامَا<sup>(٢)</sup> وتوفّر اقساماً ، واعلن له بالقبول  
إن نوى بعد النوى رجوعاً او أثر على الظن المزعم مقاماً .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، الأمير عبد الله محمد بن  
مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن  
نصر ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأعلى ذكره ، للوليّ الجليس ،  
الحظيّ المكين ، المقرّب الأودّ الأحبّ ، الفقيه الجليل ، الصدر  
الأوحد ، الرئيس العلم ، الفاضل الكامل ، المرفّع الأسمى ، الأظهر  
الأرضي ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل ،  
الحسيب الأصيل ، الفقيه المرفّع المعظم ، الصّدّر الأوحد الأسنى ،  
الأفضل الأكمل ، الموقر المبرور ، أبي يحيى أبي بكر ، ابن الشيخ  
الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظم الموقر ، المبرور  
المرحوم ، أبي عبد الله بن خلدون . وصل الله له أسباب السعادة ،  
وبلّغه من فضله أقصى الارادة ؛ أعلن بما عنده ، أيده الله ، من الاعتقاد  
الجميل في جانبه المرفّع ، وإن كان غنياً عن الاعلان ، وأعرب عن  
معرفته بمقداره ، في الحسباء العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتصال  
رضاه عن مقاصده البرّة وشيمه الحسان ، من لدن وفد بآبه ، وفادة

(١) كذا بالاصول . والعبرة مضطربة . ولم نعثر في المراجع التي بين ايدينا على تصويبها .

(٢) القَسَام : الجمال والحسن .

العزَّ الراسخ البُنَيان ، وأقام المُقام الذي عَيَّن له رِفْعَةً المكان ، وإجلالَ الشان ، إلى أن عَزَمَ على قصد وطنه ، أبلغه الله ذلك في ظلِّ اليُمْن والأمان ، وكفالة الرَّحْمَنِ بعدَ الاغْتِباطِ المُربِّي على الخبر بالعيان ، والتمسُّك بِجِوَارِهِ بِجُهْدِ الامكان ، ثم قبولُ عُذْرِهِ بما جُبلت الأَنفسُ عليه من الحنين الى المعاهد والأوطان . وبعد أن لم يَذْخِرْ عنه كرامةً رَفيعةً ، ولم يَحْجُبْ عنه وجهَ صَنيعةٍ ، فوَلَّاهُ القيادة والسِّفارة ، وأحلَّه جليساً معتمداً بالاستشارة ، وألَبَسَهُ من الحُظوة والتقريب أبهى الشارة ، وجعلَ محلَّه من حضرته مقصوداً بالمِثل مغنِياً بالاشارة ، ثم أَصْحَبَهُ تشييعاً يشهد بالضَّمانة بِفِراقِهِ ، ويجمع له بِرَّ الوجهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رَتيمةً خَـنِـصِر<sup>(١)</sup> ، ووثيقة سامع أو مُبْصِر ؛ فمها لوى أَخْـدَعَهُ<sup>(٢)</sup> الى هذه البلاد بعد قضاء وطَرِهِ ، وتَمَلَّيْهِ من نَهْمَةٍ<sup>(٣)</sup> سَفَرِهِ ، أو نزع به حُسنُ العهد وحنين الوُدِّ ، فَصَدَّرُ العِناية به مشروح ، وبابُ الرضا والقبُولِ مفتوح ، وما عَهْدُهُ من الحُظوة والبرِّ ممنوح . فما كان القصدُ في مثله من إيجاد الأولياء ليتحوَّلَ ، ولا الاعتقادُ الكَرِيمَ ليتبدَّلَ ، ولا الأخيرُ من الأحوال

(١) الرتيمة : الحيط الذي يشد في الأصبع لتستذكر به الحاجة .

(٢) الأخدعان : عرقان في موضع الحِجامة من العنق ، والواحد أخدع ؛ يكنى بلي الأخدعين عن العودة الى هذه البلاد .

(٣) النهمة : الحاجة ، وبلوغ الهمة في الشيء .

لينسخ الأول . على هذا فليطو ضميره ، وليرد متى شاء ثميره <sup>(١)</sup> ،  
ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدم ، برأ وبجراً ، على  
اختلاف الخطط والرتب ، وتباين الأحوال والنسب ، أن يعرفوا  
حق هذا الاعتقاد ، في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ، وإعانة  
وقبول ، واعتناء موصول ، الى أن يكمل الغرض ، ويؤدى من  
امثال هذا الأمر الواجب المفترض ، بحول الله وقوته .  
وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وستين  
وسبع مائة .

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان ، ونصها : « صح هذا » .

الرحلة من الاندلس الى بجاية ، وولاية الحجابة بها

على الاستبداد

كانت بجاية ثغراً لا فريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين .  
ولما صار أمرهم للسلطان أبي بكر بن يحيى منهم ، واستقل بملك  
إفريقية ، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكرياء ، وفي ثغر قسنطينة  
ابنه الأمير أبا عبد الله . وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب  
الأوسط ، ينازعونه في أعماله ، ويجهّمون <sup>(٢)</sup> العساكر على بجاية ،

(١) النمر من الماء : الزاكي ، الناجع .

(٢) جمر الجيش : جمعه . وهي كلمة يستعملها ابن خلدون كثيراً .

وَيُجْلِبُونَ عَلَى قُسْنَطِينَةَ ، إِلَى أَنْ تَمْسِكَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ بِذِمَّةٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، مَلِكِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى مِنْ بَنِي مَرِينٍ ، وَلَهُ الشُّفُوفُ عَلَى سَائِرِ مَلُوكِهِمْ . وَزَحَفَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى تِلِمْسَانَ ، فَأَخَذَ بِمَخَنَقِهَا سَتَيْنِ أَوْ أَزِيدَ ، وَمَلَكَهَا عَنُودَ ، وَقَتَلَ سُلْطَانَهَا أَبَا تَاشَفِينَ ، وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ . وَخَفَّ مَا كَانَ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ مِنْ إِصْرٍ<sup>(١)</sup> بَنِي عَبْدِ الْوَادِ ، وَاسْتَقَامَتْ دَوْلَتُهُمْ . ثُمَّ هَلَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى بِقُسْنَطِينَةَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ ، وَخَلَّفَ سَبْعَةَ مِنَ الْوَلَدِ ، كَبِيرُهُمْ أَبُو زَيْدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، ثُمَّ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ ، فَوَلَّى الْأَمِيرَ أَبَا زَيْدٍ مَكَانَ أَبِيهِ ، فِي كِفَالَةِ نَبِيلٍ مَوْلَاهُمْ . ثُمَّ تُوُفِّيَ الْأَمِيرُ أَبُو زَكَرِيَاءَ بِبِجَايَةِ سَنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ ، وَخَلَّفَ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ ، كَبِيرُهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ ، وَبَعَثَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ الْأَمِيرَ أَبَا حَفْصَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ أَهْلُ بِجَايَةِ إِلَى الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكَرِيَاءَ ، وَانْحَرَفُوا عَنْ الْأَمِيرِ عُمَرَ وَأَخْرَجُوهُ . وَبَادَرَ السُّلْطَانُ فَرَقَعَ هَذَا الْخَرْقَ ، بِوَلَايَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَمَا طَلَبُوهُ . ثُمَّ تُوُفِّيَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ مُنْتَصَفَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَزَحَفَ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ فَلَمَّكَهَا ، وَنَقَلَ الْأُمَرَاءَ مِنْ بِجَايَةِ وَقُسْنَطِينَةَ إِلَى الْمَغْرِبِ . وَأَقْطَعَ لَهُمْ هُنَالِكَ ، إِلَى أَنْ كَانَتْ حَادِثَةُ الْقَيْرَوَانِ ، وَخَلَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانَ أَبَاهُ . وَارْتَحَلَ مِنْ

(١) الإصر : الأمر الذي يشغل حمله .



تِلِمْسَان ، الى فاس ؛ فنقل معه هؤلاء الأمراء ، أهل بجاية وقسنطينة ، وخطبهم بنفسه ، وبألف في تكريمهم . ثم صرفهم الى ثغورهم : الأمير أبا عبد الله أولا ، وإخوته من تِلِمْسَان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ، ليستبدوا بثغورهم ، ويخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن ؛ فوصلوا الى بلادهم ، وملكوها بعد أن كان الفضل بن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين ؛ فانتزعوها منه . واستقر أبو عبد الله بجاية ، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة ، وزحف أبو عنان الى تِلِمْسَان سنة ثلاث وخمسين ؛ فهزم ملوكها من بني عبد الواد ، وأبادهم ، ونزل المدية ، وأطل على بجاية . وبادر الأمير أبو عبد الله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زبون<sup>(١)</sup> الجند والعرب ، وقلّة الجبابة . وخرج له عن ثغر بجاية فملكها ، وأنزل عماله بها . ونقل الأمير أبا عبد الله معه الى المغرب ؛ فلم يزل عنده في حفاية<sup>(٢)</sup> وكرامة . ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر خمس وخمسين واستخلصني ، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد الله ، واستدعاني للصحابة فأسرعت ، وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك . ثم كثر المنافسون ، ورفعوا الى السلطان ، وقد طرّقه مرض أرجف له الناس ؛ فرفعوا له

(١) يستعمل ابن خلدون الزبون اسما بمعنى الحرب .

(٢) الحفاية : المبالغة في الإكرام ، كالخفاوة .

أن الأمير أبا عبد الله اعتزم على<sup>(١)</sup> الفرار إلى بَجَاية ، وأني عاقدته على ذلك ، على أن يُؤَلِّيَنِي حِجَابَتَهُ ، فانبعث لها السلطان ، وسطا بنا ، واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك . وجاء السلطان أبو سالم ، واستولى على المغرب ، ووليت كتابته سرّه . ثم نهض إلى تلمسان ، وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس ، وولي على تلمسان أبا زيّان محمد بن أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي تاشفين ، وأمدّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ، ليدافع أبا حمو عن تلمسان ، ويكون خالصة له . وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بَجَاية معه كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة ، بعد أن كان بنو مرّين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً . ثم خرج لبعض مذهبهم إلى بُونَة ، وترك أخاه أبا العباس بها ، فخلعه ، واستبدّ بالأمر دونه . وخرج إلى العساكر الحجّرة عليها من بني مرّين ، فهزمهم ، وأثخن فيهم . ونهض السلطان إليه من فاس ، سنة ثمان وخمسين ، فتبرأ منه أهل البلد وأسلموه ، فبعثه إلى سبتة في البحر ، واعتقله بها ، حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين ، أطلقه من الاعتقال ، وصحبه إلى دار ملكه ،

(١) اعتزم على الشيء : أراد فعله ، كعزم عليه .

ووعده برده عليه .

فلما ولّى ابا زيّان على تلمسان ، أشار عليه خاصّته ونصحاؤه ، بأن يبعث هؤلاء الموحّدين إلى ثغورهم : فبعث أبا عبد الله إلى بجاية ، وقد كان ملكها عمّه أبو إسحق صاحب تونس ، ومكفول ابن تافراكين من يد بني مرّين ؛ وبعث أبا العباس إلى قسنطينة ، وبها زعيم من زعماء بني مرّين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها ، فملكها لوقته . وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية ، فطال إجلاله عليها ، ومعاودته حصارها . ولجّ<sup>(١)</sup> أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيت - كبر<sup>(٢)</sup> ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك . وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطّه عهداً بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه ؛ ومعنى الحجابة - في دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ اسمه يحيى<sup>(٣)</sup> أصغر مني ، فبعثته مع الأمير أبي عبد الله حافظاً للرسم ، ورجعت مع السلطان إلى فاس . ثم كان

(١) لجّ : تمادى في الخصومة .

(٢) الكبر : معظم الشيء ، والشرف .

(٣) قتل يحيى بن خلدون هذا في سنة ٧٨٠ ، بأمر أبي تاشفين بن أبي زيّان ؛ وكان مؤرخاً ، وأديباً ؛ ويأتي في كلام ابن الخطيب ثناء على كتابته الأدبية . له كتاب : «بغية الرواد» ، في أخبار بني عبد الواد .

ماقدّمته من انصرافي الى الاندلس والمقام بها ، إلى أن تنكّر الوزير  
ابن الخطيب ، وأظلم الجو بيني وبينه .

وبينا نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله  
على بجاية من يد عمّه ، في رمضان سنة خمس وستين ؛ وكتب  
الأمير أبو عبد الله يستقدمني ، فاعتزمت على ذلك ، ونكر السلطان  
أبو عبد الله ابن الأحمر ذلك مني ، لا يظنه لسوى ذلك ، إذ لم يطلع على  
ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأمضيت العزم ، ووقع  
منه الاسعاف ، والبر والالطاف . وركبت البحر من ساحل المريّة ،  
منتصف ست وستين . ونزلت بجاية لخامسة من الاقلاع ، فاحتفل  
السلطان صاحب بجاية لثدومي ، وأركب أهل دولته للقائي .  
وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يسحون أعطاني ، ويقبلون  
يديّ ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلت الى السلطان فجياً وفديّ<sup>(١)</sup> ، وخلع وحمل<sup>(٢)</sup> ،  
وأصبحت من الغد ، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة باي ،  
واستقلت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدير  
سلطانه ، وقدّمني للخطابة بجامع القصبة ، وأنا مع ذلك ، عاكف

(١) فدى : قال جعلت فداك .

(٢) حمله : أعطاه ظهراً يحمل عليه .

بعد انصرافي من تدبير الملك غُدْوَةً — الى تدريس العلم أثناء النهار  
بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمِّه السلطان أبي العباس صاحب  
قَسْطِيْنَة فتنة ، أحدثها المُشاحَّة في حدود الاعمال من الرعايا والعمال ،  
وشبَّ نارَ هذه الفتنة عربُ اوطانهم من الدَّوَادَةِ من رياح ، تنفيقا  
لسوق الزُّبُون يَمْتَرُونَ <sup>(١)</sup> به أموالهم . وكانوا في كلِّ سنة يجمع  
بعضهم لبعض ، فالتقوا سنة ست وستين بفرَجِيوة ، وانقسم العربُ  
عليها . وكان يعقوب بنُ عليٍّ مع السلطان أبي العباس ، فانهزم  
السلطان أبو عبد الله ، ورجع إلى بجاية مفلولا ، بعد ان كنتُ  
جمعتُ له أموالا كثيرة أنفقَ جميعها في العرب . ولما رجع أعوزته  
النفقة ، فخرجتُ بنفسي إلى قبائل البربر ببجبال بجاية المتنعين من  
المغارم منذُ سنين ، فدخلتُ بلادهم واستبحتُ حماهم ، واخذتُ  
رهنهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا في  
ذلك مَدَدٌ وإعانة ، ثم بعث صاحبُ تِلْمَسَان إلى السلطان أبي  
عبد الله يطلبُ منه الصَّهر ، فاسعفه بذلك ليصلَ يده به على ابن عمِّه ،  
وزوَّجه ابنته ، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين ،  
وجاس اوطانَ بجاية ، وكاتبَ أهل البلد ، وكانوا وجليين من

(١) يَمْتَرُونَ به أموالهم : يستخرجونها .

السلطان أبي عبد الله ، بما كان يُرْهَفُ الحَدَّ لهم ، وَيَشُدُّ وطْأَتَهُ عليهم ؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه . وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مُدَافَعَتَهُ ، ونزلَ جَبَلَ لِيَزُو مُعْتَصِمًا بِهِ ؛ فَبَيَّتَهُ السلطان أبو العباس في عساكره وجوع الأعراب من اولاد محمد بن رباح بمكانه ذلك ، باغراء ابن صَخْر وقبائلِ سِدَوِيكش<sup>(١)</sup> . وكتبَ سَه في مَخِيئِهِ ور كض هارباً ، فلحقه وقتله ، وسار الى البلد بمُواعِدَةِ أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقَصَبَةِ السلطان وقصوره ، وطلب مني جماعةٌ من أهل البلد القيامَ بالأمر ، والبيعةَ لبعض الصبيان من أبناء السلطان ؛ فتفاديتُ من ذلك ؛ وخرجتُ الى السلطان أبي العباس ، فأكرمني وحباني ، وأمكنه من بلده ، وأجرى أحوالي كلها على مَعهُودِهَا . وكثُرَت السَّعَايَةُ عنده في<sup>٢</sup> ، والتَّحذِيرُ من مكاني . وشَعَرْتُ بذلك ؛ فطلبتُ الاذن في الانصراف بمَهْدٍ كان منه في ذلك ؛ فَأَذِنَ لي بَعْدَ لَأَي<sup>(٣)</sup> ؛ وخرجتُ الى العَرَب ، ونزلت على يعقوب بن علي . ثم بدا للسلطان في امري ، وقبض علي أخي ، واعتقله بِبُونَةِ . وكتبَ سَه يُوَوْتَنَا يُظَنُّ بِهَا ذَخِيرَةٌ وَأَمْوَالاً ؛ فَأَخْفَقَ

(١) عرفت هذه القبائل بهذا الاسم منذ القديم ، وديارها في موطن كتامة ، في البسائط الواقعة

بين قسنطينة ، وبجاية .

(٢) بعد ابطاء .

ظنه . ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي ، وقصدت 'بسكرة' <sup>(١)</sup> ،  
ليصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزي ، وبين أبيه ،  
وساهم في الحادث بماله وجاهه .

### مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حمو <sup>(٢)</sup> قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي  
عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته ، وكانت عنده يتلمسان .  
فلما بلغه مقتل أبيها ، واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب  
قسنطينة على بجاية ، أظهر الامتناع لذلك . وكان أهل بجاية قد  
توجسوا <sup>(٣)</sup> الخيفة من سلطانهم ، بإرهاف حده ، وشدة سطوته ؛  
فانحرفوا عنه باطناً ، وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه .

ودسوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم  
بأحدهما . فلما استولى السلطان أبو العباس ، وقتل ابن عمه ، رأوا أن

(١) بسكرة ضبطها ابن خلدون ، بالحركات ، بفتح الباء والكاف ، بينها سين ساكنة ، ثم  
راء مفتوحة بعدها هاء تأنيث ، وهو ضبط حكاه ياقوت في معجم البلدان ، وصاحب تاج العروس ،  
كما حكيا أن هـاك من يضبطها بكسر الباء والكاف ، وهي بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب ،  
انظر ياقوت ١٨٢-٢ ، التاج ٣-٤٣

(٢) هو أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ،  
الاستقصاء ١٠٣-٢

(٣) توجس الشيء ، والصوت : سمعه وهو خائف

جرحهم قد اندمل<sup>(١)</sup> ، وحاجتهم قد قضيت ، فاعصو صبوا عليه ؛ وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يسر منه حسواً في ارتغاء<sup>(٢)</sup> ، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بنجاية ، بما كان يرى نفسه كفؤاً لها بعده وعديده ، وما سلف من قومه في حصارها ؛ فسار من تلمسان يجر الشوك والمدار<sup>(٣)</sup> ، حتى خيم بالرشرة من ساحتها ، ومعه احياء زغبة بجموعهم وظمائنهم ، من لدن تلمسان ، الى بلاد حصين ، من بني عامر ؛ وبني يعقوب ، وسويد ، والديالم والمطاف ، وحصين .

وانحجر أبو العباس بالبلد في شردمة من الجند ، أعجبه السلطان أبو حمو عن استيعاب الحشد ، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع . وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان بن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو من قسنطينة ، كان معتقلاً بها ، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيرا أن يخرج معه في العساكر ، وساروا حتى نزلوا بني<sup>(٤)</sup> عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمو ؛ وكانت رجالات زغبة قد وجعوا

(١) اندمل الجرح ، برى .

(٢) يشرب اللبن خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة ، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره

(٣) ينظر الى المثل ، « جاء بالشوك والشجر » ، الميداني ١-١١٠ ؛ ويكني بذلك عن كثرة جيشه ، فلقد كان ١٥ ألفاً . - بغية الرواد ٢-١٨٢

(٤) في بغية الرواد : « وابن عمه أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد مظل عليه من جبل بني عبد الجبار » ، ولعله أوضح .



من السلطان ، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها ؛  
فراسلوا أبا زيان ، وركبوا إليه ، واعتقدوا معه . وخرج رجل البلد  
بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفعوا شزيمة كانت مجمرة إزاءهم ؛  
فاقتلعوا خبائهم . وأسفلوا من تلك العقبة الى بسيط الرشة .  
وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناس  
في الانجفال حتى أفردوا السلطان في نخيمه ؛ فحمل رواحله وسار ،  
وكضت<sup>(١)</sup> الطرق بزحامهم . وتراكموا بعض على بعض ؛ فهلك منهم  
عوالم . وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية ، وقد  
غشيهم الليل ؛ فتركوا أزودتهم ورحالهم . وخلص السلطان ومن  
خلص منهم بعد عصب الريق<sup>(٢)</sup> ، وأصبحوا على منجاة . وقد فت  
بهم الطرق من كل ناحية الى تلمسان ؛ وكان السلطان أبو حمو قد  
بلغه خروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي  
ومخلفي ؛ فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة . وكانت الأمور  
قد اشتبهت ؛ فتفاديت بالأعذار ، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي ، ثم  
ارتحلت الى بسكرة ؛ فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني .  
فلما وصل السلطان أبو حمو الى تلمسان ، وقد جزع للواقعة ، أخذ  
في استئلاف قبائل رياح ، ليجلب بهم مع عساكره على اوطان

(٢) كذا بالأصول ويريد اكنظت بالظاء .

(٣) عصب الريق بفيه : اذا يبس عليه .

بِجَايَةٍ ؛ وَخَاطَبَنِي فِي ذَلِكَ لِقُرْبِ عَهْدِي بِاسْتِبَاعِهِمْ ، وَمُلْكِ زِمَامِهِمْ ،  
وَرَأَى أَنْ يُعَوِّلَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ، وَاسْتَدْعَانِي لِحِجَابَتِهِ وَعَلَامَتِهِ ،  
وَكُتِبَ بِنَخْطِهِ مُدْرَجَةً فِي الْكِتَابِ نَصُّهَا :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى مَا وَهَبَ ، لِيَعْلَمَ الْفَقِيهُ  
الْمَكْرُمُ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ ، حَفَظَهُ اللَّهُ ، عَلَى أَنَّكَ تَصِلُ  
إِلَى مَقَامِنَا الْكَرِيمِ ، لَمَّا اخْتَصَصْنَا كَم بِهِ مِنَ الرَّتْبَةِ الْمَنِيْعَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ  
الرَّفِيعَةِ ، وَهُوَ قَلَمُ خِلَافَتِنَا ، وَالْإِنْتِظَامُ فِي سِلْكِ أَوْلِيَائِنَا ، أَعْلَمْنَا كَم  
بِذَلِكَ . وَكُتِبَ بِنَخْطِ يَدِهِ عَبْدُ اللَّهِ ، الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ ، مُوسَى بْنُ  
يُوسُفَ لَطْفَ اللَّهِ بِهِ وَخَارَ لَهُ . »

وَبَعْدَهُ بِنَخْطِ الْكَاتِبِ مَا نَصَّهُ : بِتَارِيخِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَجَبِ  
الْفَرْدِ الَّذِي مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةَ عَرَفْنَا اللَّهَ خَيْرَهُ .

وَنَصُّ الْكِتَابِ الَّذِي هَذِهِ مُدْرَجَتُهُ ، وَهُوَ بِنَخْطِ الْكَاتِبِ :  
« أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ يَا فَاقِيَهُ أَبَا زَيْدٍ ، وَوَالِي رِعَايَتِكُمْ . إِنَّا قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا ،  
وَصَحَّ لَدَيْنَا مَا أَنْطَوَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَبَةِ فِي مَقَامِنَا ، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى  
بَنَاتِنَا ، وَالتَّشْيِيعِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا لَنَا ، مَعَ مَا نَعْلَمُهُ مِنْ مَحَاسِنِ اشْتَمَلَتْ  
عَلَيْهَا أَوْصَافُكُمْ ، وَمَعَارِفَ فُقِّمَتْ فِيهَا نُظَرَاءُكُمْ ، وَرُسُوخَ قَدَمٍ فِي  
الْفُنُونِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ . »

وكانت خطّة الحِجَابَةِ بِبَابِنَا الْعَلِيِّ - اسْمَاهُ اللَّهُ - اكْبَرَ درجَاتِ امْثَالِكُمْ ، وَاَرْفَعَ الخَطَطَ لِنَظَرَاتِكُمْ ؛ قُرْبًا مِنَّا ، وَاخْتِصَاصًا بِمَقَامِنَا ، وَاطِّلَاعًا عَلَى خَفَايَا اسْرَارِنَا . آثَرْنَا كُمْ بِهَا إِيْثَارًا ، وَقَدَّمْنَا كُمْ لَهَا اصْطِفَاءً وَاخْتِيَارًا ؛ فَاعْمَلُوا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى بَابِنَا الْعَلِيِّ ، اسْمَاهُ اللَّهُ ، لِمَا لَكُمْ فِيهِ مِنَ التَّنْوِيهِ ، وَالْقَدْرِ النَّبِيِّ ، حَاجِبًا لِعَلِيِّ بَابِنَا ، وَمُسْتَوْدَعًا لَأَسْرَارِنَا ، وَصَاحِبَ الْكَرِيمَةِ عَلَامَتِنَا ، إِلَى مَا يَشَاكِلُ ذَلِكَ مِنَ الْإِنْعَامِ الْعَمِيمِ ، وَالْخَيْرِ الْجَسِيمِ ، وَالْإِعْتِنَاءِ وَالتَّكْرِيمِ . لَا يَشَارِكُكُمْ مِشَارِكٌ فِي ذَلِكَ وَلِلَّهِ يَزَاحِمُكُمْ أَحَدٌ ، وَإِنْ وُجِدَ مِنْ امْثَالِكُمْ فَاعْلَمُوهُ ، وَعَوِّلُوا عَلَيْهِ ، وَالْإِلَهَ يُتَوَلَّى كُمْ ، وَيَصِلُ سِرَّاءُكُمْ ، وَيُوَالِي احْتِفَاءَكُمْ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَتَأَدَّتْ إِلَيَّ هَذِهِ الْكُتُبُ السُّلْطَانِيَّةُ عَلَى يَدِ سَفِيرٍ مِنْ وُزَرَائِهِ ، جَاءَ إِلَى أَشْيَاحِ الدَّوَاوِدَةِ فِي هَذَا الْغَرَضِ ؛ فَقَمْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ أَحْسَنَ مَقَامٍ ، وَشَايَعْتُهُ أَحْسَنَ مُشَايَعَةٍ ، وَحَمَلْتُهُمْ عَلَى إِجَابَةِ دَاعِي السُّلْطَانِ ، وَالْبِدَارِ إِلَى خِدْمَتِهِ . وَانْحَرَفَ كِبَرَاؤُهُمْ عَنْ خِدْمَةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ إِلَى خِدْمَتِهِ ، وَالْإِعْتِمَالِ فِي مَذَاهِبِهِ ، وَاسْتَقَامَ غَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ أَخِي يُجَنِّى قَدْ خَلَصَ مِنْ اِعْتِقَالِهِ بِبُؤْنَةٍ ، وَقَدِمَ عَلَيَّ بِبَسْكَرَةٍ ، فَبَعَثْتُهُ إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي هُو كَالنَّائِبِ عَنِّي فِي الْوُظَيْفَةِ ، مُتَفَادِيًا عَنْ تَجَشُّمِ أَهْوَالِهَا ، بِمَا كُنْتُ نَزَعْتُ عَنْ غَوَايَةِ الرُّتَبِ . وَطَالَ عَلَيَّ

إِغْفَالُ الْعِلْمِ ؛ فَأَعْرَضْتُ عَنْ الْخَوْضِ فِي أَحْوَالِ الْمُلُوكِ ، وَبَعَثْتُ الْهَمَّةَ عَلَى الْمَطَالَعَةِ وَالتَّدْرِيسِ ؛ فَوَصَلَ إِلَيْهِ الْأَخْ ، فَاسْتَكْفَى بِهِ فِي ذَلِكَ ، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ .

وَوَصَلَنِي مَعَ هَذِهِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ كِتَابُ رِسَالَةِ مِنَ الْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ مِنْ غَرْنَاطَةِ يَتَشَوَّقُ إِلَيَّ ، وَتَأْدَى إِلَى تَلِمَّسَانٍ عَلَى يَدِ سَفَرَاءِ السُّلْطَانِ ابْنِ الْأَحْمَرِ ؛ فَبَعَثَ إِلَيَّ بِهِ مِنْ هُنَاكَ وَنَصَّهُ :

بَنَفْسِي وَمَا نَفْسِي عَلَى بَهِيَّةٍ فَيُنْزِلَنِي عَنْهَا الْمِكَّاسُ<sup>(١)</sup> بِأَثْمَانِ  
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي وَصُمٌّ لِأَنْتَبِي<sup>(٢)</sup> وَرَاشٌ<sup>(٣)</sup> سَهَامِ الْبَيْنِ عَمْدًا أَفْأَصْمَانِي<sup>(٤)</sup>  
وَقَدْ كَانَ هُمُ الشَّيْبِ - لَا كَانَ - كَافِيَا فَقَدْ أَدْنِي<sup>(٥)</sup> لَمَّا تَرَحَّلَ هَمَّانِ  
شَرَعْتُ لَهُ مِنْ دَمْعٍ عَيْنِي مَوَارِدًا فَكَدَّرَ شَرِّي بِالْفِرَاقِ وَاضْطَمَانِي  
وَارْعَيْتُهُ مِنْ حَسَنِ عَهْدِي جَمِيمَةً<sup>(٥)</sup> فَأَجْدَبَ آمَالِي وَأَوْحَشَ أَزْمَانِي  
حَلَفْتُ عَلَى مَا عِنْدَهُ لِي مِنْ رِضَى قِيَاسًا بِمَا عِنْدِي فَأَحْنَثَ أَيْمَانِي  
وَإِنِّي عَلَى مَا نَالَنِي مِنْهُ مِنْ قَلِي لِأَشْتَاقُ مِنْ لُقْيَاهُ نَغْبَةً<sup>(٦)</sup> ظَمَّآنِ

(١) المِكَّاسُ : الماكسة ، والمشاحة في الثمن عند التبايع .

(٢) رَاشُ السَّهْمِ : الصَّقُّ بِهِ الرِّيشُ .

(٣) أَصْمَى الصَّيْدِ : رَمَاهُ فَقَتَلَهُ فِي مَكَانِهِ .

(٤) أَدْنِي هَمَّانٍ : دَهَانِي هَمَّانٍ .

(٥) الْجَمِيمُ ، وَالْجَمُّ : الْكَثِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالنَّبْتُ الَّذِي طَالَ حَتَّى صَارَ مِثْلَ جَمَةِ الشَّعْرِ .

(٦) النَّغْبَةُ ( بَضْمُ النَّوْنِ وَفَتْحُهَا ) : الْجُرْعَةُ مِنَ الْمَاءِ .

سألت "جنوني فيه تقريب عرشه فتمستُ بجن الشوق جن سليمان  
إذا ما دعا داع من القوم باسمه وثبت وما استثبت شيمة هيمان  
وتالله ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى وتحاماني  
ولا استشعرت نفسي برحة عابد تظلل يوما مثله عبد رحمان  
ولا شعرت من قبله بتشوق تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فأسأل به  
أية درج ، بعد أن تجاوز اللوى<sup>(١)</sup> والمنعرج<sup>(٢)</sup> ، لكن الشدة  
تعشق الفرَج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ، وأنى بالصبر  
على إبر الدبر<sup>(٣)</sup> ، لا بل الضرب الهبر<sup>(٤)</sup> ، ومطاولة اليوم والشهر ،  
تحت حكم القهر ؛ ومن للعين أن تسلو سلو المقصر ، عن إنسانها  
المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرها الراي والمشهد ، وفي  
الجسد بضعة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن  
نزحت ؛ وإذا كان الفراق ، هو الحمام الأول ، فعلام المعول ، أعيت  
مراوضة الفراق ، عمل الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تفضي  
إلى السياق<sup>(٥)</sup> .

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، ومسترق الرمل .

(٢) المنعرج : المنعطف .

(٣) الدبر ، بالفتح ويكسر : الزنابير .

(٤) الضرب الهبر : الذي يلقي قطعة من اللحم ، وهو وصف بالمصدر .

(٥) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

تر كتموني بعد تشييعكم أوسعُ امر الصبر عصيانا  
اقرعُ سني ندماً تارة واستميحُ الدمع أحياناً

وربما تعلتُ بغشيان المعاهد الخالية ، وجددتُ رؤسوم الأسي  
بمباكرة الرؤسوم البالية ، أسألون النوى<sup>(١)</sup> عن أهليه ، وميم الموقد  
المهجور عن مضطليه ، وئاء الأثافي<sup>(٢)</sup> المثلثة عن منازل الموحدين ،  
واحارُ وبين تلك الأطلال حيرة الملحين ، لقد ضللتُ إذاً وما أنا  
من المهتدين ؛ كيفتُ لعمرُ الله بسال<sup>(٣)</sup> عن جفوني المورقة ، وناثم  
عن هومي المتجمعة والمتفرقة . ظعن عن ملال ، لامتبرماً منا  
بشرٍ خلال ، وكدر الوصل بعد صفائه ، وخرج النصل بعد  
عهد وفائه .

أقلُ اشتياقاً أيها القلبُ إنما رأيْتُك تُصفي الودَّ من ليسَ جازياً

فها أنا أبكي عليه بدم أساله ، وأندب في ربيع الفراق آسى  
له<sup>(٤)</sup> ، واشكو إليه حال قلب صدعه ، وأودعه من الوجد  
ما أودعه ، لما خدعه ، ثم قلاه وودعه ، وأنشيقُ رياه أنف  
ارتياح قد جدعه ، وأستعديه على ظلم ابتدعه .

(١) النوى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع عنها السيل .

(٢) الأثافي : احجار توضع عليها القدر ، واحدها أثفية .

(٣) سال : ناس .

(٤) آسى له : أحزن له .

خَلِيلِيَّ فِيمَا عَشْتَاهِل رَأَيْتُمَا      قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي<sup>(١)</sup>  
 فَلَوْلَا عَسَى الرَّجَاءُ وَلَعَلَّهُ، لَا بَلْ شَفَاعَةُ الْحَلِّ الَّذِي حَلَّه، لَنَشَرْتُ  
 أَلْوِيَةَ الْعَتَبِ، وَبَشَّشْتُ كَتَائِبَهَا، كُمْنَاءَ فِي شِعَابِ الْكُتُبِ، تَهْزُ مِنْ  
 الْأَلِفَاتِ رِمَاحًا خَزَرَ الْأَسِنَّةُ<sup>(٢)</sup> وَتُوتِرُ مِنَ النُّونَاتِ أَمْثَالَ الْقِسِيِّ الْمُرْنَةِ  
 وَتَقُودُ مِنْ مَجْمُوعِ الطَّرْسِ<sup>(٣)</sup> وَالنَّقْصِ<sup>(٤)</sup> بَلَقًا<sup>(٥)</sup> تَرْدِي<sup>(٦)</sup> فِي الْأَعْنَةِ، وَلَكِنَّهُ  
 آوَى إِلَى الْحَرَمِ الْأَمِينِ، وَتَفِيًّا ظِلَالِ الْجَوَارِ الْمُؤَمَّنِ مِنْ مَعْرِةِ الْغَوَارِ  
 عَنِ الشِّمَالِ وَالْيَمِينِ، حَرَمِ الْحِلَالِ الْمَزْنِيَّةِ، وَالظِّلَالِ الْيَزْنِيَّةِ؛ وَالْهِمَمِ  
 السَّنِيَّةِ، وَالشِّيمِ الَّتِي لَا تَرْضَى بِالْذُّونِ وَلَا بِالْذَنِّيَّةِ، حَيْثُ الرَّفْدُ الْمَمْنُوحُ،  
 وَالطَّيْرُ الْمَيَّامِينَ يُزْجَرُ<sup>(٧)</sup> لَهَا السُّنُوحُ<sup>(٨)</sup> وَالْمَشْوَى الَّذِي إِلَيْهِ، مَهْمَاتُ الْقَارِعِ<sup>(٩)</sup>  
 الْكَرَامُ عَلَى الضَّيْفَانِ<sup>(١٠)</sup>، حَوْلَ جَوَابِي الْجَفَّانِ<sup>(١١)</sup> فَهُوَ الْجُنُوحُ.

(١) البيت لجميل بن عبد الله بن معمر العذري . الأغاني بولاق ٥١/١ .

(٢) يقال : هم خزر العيون : أي ينظرون نظرة العداوة ، وعدو أخزر العين : ينظر عن معارضة . وقد أسند ذلك إلى الرماح تجوزاً .

(٣) الطرس ( بالكسر ) : الصحيفة .

(٤) النقص : المداد .

(٥) جمع أبلق ؛ وهو الفرس الذي لونه سواد وبياض .

(٦) الردي : حركة الفرس بين العدو والمشي .

(٧) زجر الطير : تفاعل به .

(٨) سنح الطائر سنوحاً : جرى على يمينك إلى يسارك ، والعرب تتيامن بذلك .

(٩) تقارع الكرام : ساهموا .

(١٠) الضيفان : جمع ضيف .

(١١) الجوابي : جمع جابية ؛ وهي الحوض يجبي فيه الماء للابل . والجفان : جمع جفنة ؛ وهي

أعظم ما يكون من القصاع . وابن الخطيب يشير إلى آية : « وجفان كالجوابي » آية ٣٤ من سورة الرعد .

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نوراً ومن فَلَقَ الصَّبَاحَ عَموداً  
ومن حلَّ بتلك المَقَابَةِ فقد اطمأنَّ جنبه ، وتُعْمِدُ بالعفو ذنبه  
ولله درُّ القاتل :

فوحِّهْ لَقَدْ انْتَدَبْتُ لوصِفه بالبُخل لولا أنَّ حِمَصاً دارُهُ  
بلدٌ متى أذكرُهُ تهتَجُ لوعتي وإذا قدحت الزُّند<sup>(١)</sup> طارَ شرارُهُ  
اللهم غفراً ، وأين قرارة النُّخيل<sup>(٢)</sup> ، من مشوى الأُقلَف<sup>(٣)</sup>  
البُخيل ، ومكذبة المُخيل<sup>(٤)</sup> ؛ وأين ثانية هجر<sup>(٥)</sup> ، من مُتَبَوِّأَ من  
أَلحدَ وفجر .

مَنْ أَنْكَرَ غَيْثاً مَنْشَوُهُ فِي الْأَرْضِ يَنْوِي بِمُخْلِفِهَا  
فَبَنَانُ بَنِي مَزْنٍ مُزَنٌ تَهَلُّ بِلُطْفٍ مَصْرَفِهَا  
مُزَنٌ مَذْحِلٌ يَبْسُكِرَةٌ يَوْمًا نَطَقَتْ بِمُصَحِّفِهَا<sup>(٦)</sup>  
شَكَرَتْ حَتَّى يَبْعَارَتِهَا وَبِمَعْنَاهَا وَبِأَحْرُفِهَا

(١) قدح الزند : رام الايراء به .

(٢) يريد بسكرة لأنها كانت تسمى بسكرة النخيل لكثرة ما بها منه .

(٣) الأُقلَف : الذي لم يختن ، يريد انه لا يقاس بلد عربي اهله كرام ببلد عجنى اهله بخلاء

وفي نسخة : الألف اي العي اللسان الذي لا يحسن ان يتكلم .

(٤) يقول : ان هذا البلد يكذب ظن من خاله لأن ساكنيه بخلاء .

(٥) بلد بالبحرين معروف ، ويأتي الحديث عنه .

(٦) ذلك لان تصحيف « بسكرة » : « تشكره » .



ضَحِكْتَ بِأَبِي الْعَبَّاسِ مِنْ أَلْ أَيْامِ ثَنَايَا زُخْرُفِهَا  
وَتَنَكَّرْتَ الدُّنْيَا حَتَّى عُرِفَتْ مِنْهُ بِمَعْرِفِهَا

بل نقول : يا محلّ الولد ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ  
بهذا البلد » ، لقد حلّ بينك عرى الجلد<sup>(١)</sup> ، وخلد<sup>(٢)</sup> الشّوق بعدك  
يا بن خلدون في الصّميم من الخلد<sup>(٣)</sup> ؛ فحيّا الله زماناً شفيت في  
قربك زمانته<sup>(٤)</sup> ، واجتليت في صدق مجدك جمانته<sup>(٥)</sup> ، وقضيت  
في مرعى خلّيتك لبانته<sup>(٦)</sup> ؛ وأهلاً بروضٍ أظلت أشتات معارفك  
بانته ؛ فحمائمك بعدك تندب ، فيساعدها الجندب<sup>(٧)</sup> ، ونوآسمه  
ترقّ فتغاشي ، وعشّياته تتخافت وتتلاشي<sup>(٨)</sup> ، وأذواحه في  
ارتباك ، وحمائم في مأتم ذي اشتباك ؛ كان لم تكن قرهالات قبابه ،  
ولم يكن أنسك شارع بابيه<sup>(٩)</sup> ، إلى صفوة الظرف ولبابيه ، ولم

(١) الجلد ( بفتح اللام ) : الصبر .

(٢) خلد : دام .

(٣) الخلد ( بفتح اللام ) : القاب .

(٤) الزمانه : العاهة .

(٥) الجمّانة الأولوة .

(٦) اللبّانة : الحاجة .

(٧) الجندب : الجراد .

(٨) تلاشي الشيء : اضمحل . تاج العروس ( ل ش ا ) و ( ل ش ) . والتلاشي ، بمعنى الاضمحلال

عامي لم يرد عن العرب .

(٩) باب شارع إلى كذا : مفتوح ونافذ إليه ؛ يريد أن أنسك كان يشمل الناس جميعاً من

غير تخصيص .

يَسْبَحُ إِنْسَانٌ عَيْنُكَ فِي مَاءِ شَبَابِهِ ؛ فَلَهْفِي عَلَيْكَ <sup>(١)</sup> مِنْ دُرَّةٍ  
 اخْتَلَسَتْهَا يَدُ النَّوَى <sup>(٢)</sup> ، وَمَطْلَ <sup>(٣)</sup> بَرْدِهَا الدَّهْرُ وَلَوَى <sup>(٤)</sup> ، وَنَعَقَ  
 الْغُرَابُ بَيْنَهَا فِي رُبُوعِ الْهَوَى ، وَنَطَقَ بِالزَّجْرِ <sup>(٥)</sup> فَمَا نَطَقَ عَنْ الْهَوَى ؛  
 وَبِأَيِّ شَيْءٍ يُعْتَاضُ مِنْكَ أَيْتُهَا الرِّيَاضُ ، بَعْدَ أَنْ طَلَمَا نَهْرُكَ الْفَيَاضُ ،  
 وَفَهَقَتْ <sup>(٦)</sup> الْحِيَاضُ ؛ وَلَا كَانَ الشَّانِي <sup>(٧)</sup> الْمَشْنُوءُ <sup>(٨)</sup> وَالْجَرْبُ <sup>(٩)</sup>  
 الْمَهْنُوءُ <sup>(١٠)</sup> ؛ مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ أَغَارَ عَلَى الصُّبْحِ فَاحْتَمَلَ ، وَشَارَكَ فِي  
 الدِّمِّ النَّاقَةَ وَالْجَمَلَ ، وَاسْتَأْثَرَ جُنْحُهُ بِبَدْرِ النَّادِي لَمَّا كَمَلَ ؛ نَشَرَ  
 الشِّرَاعَ فُرَاعَ ، وَوَاوَلَ الْإِسْرَاعَ . فَكَأَنَّمَا هُوَ تَمْسَاحُ النَّيْلِ ضَائِقَ  
 الْأَحْبَابِ فِي الْبُرْهَةِ ، وَاخْتَطَفَ لَهُمْ مِنَ الشَّطْرِ زُهَّةَ الْعَيْنِ وَعَيْنَ  
 الزُّهَّةِ ؛ وَجَلَجَ <sup>(١١)</sup> بِهَا وَالْعُيُونُ تَنْظُرُ ، وَالْغَمْرُ <sup>(١٢)</sup> عَنْ الْإِتْبَاعِ يَحْظُرُ ؛

(١) لهفي : حزني وحسرتي .

(٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد ؛ وهي مؤنثة .

(٣) مطل الدهر : سوف .

(٤) لوى بالدَّيْنِ : تأخر عن أدائه .

(٥) الزجر : التيمن بسنوح الطير ، والتشاؤم ببروحه .

(٦) فهقت : املأت .

(٧) الشاني ، ويقال شيني وشونة : المركب المعد للجهاد في البحر ، والجمع شواني تاج

العروس ( شون ) .

(٨) المشنوء : المبغض .

(٩) الجرب : المصاب بالجرب .

(١٠) المهنوء : الجمل يدهن بالهناء وهو القطران .

(١١) لججت السفينة : خاضت اللجة .

(١٢) الغمر : الماء الكثير .

فلم يُقدَر إلا على الأسف ، والتأح ، الأثر المنتسف<sup>(١)</sup> والرجوع بملء  
العيبة من الخيبة ، ووَقَر الجسرة<sup>(٢)</sup> من الحسرة إنما تشكو الى الله  
البث والحن ، ونستمطر من عبراتنا المزن<sup>(٣)</sup> ، ويسيف الرجاء  
نصول ، وإذا أشرعت لليأس أسنة ونصول .

ما أقدر الله أن يُدني عني شحط<sup>(٤)</sup>  
من داره الحزن<sup>(٥)</sup> ممن داره نصول<sup>(٦)</sup>

فإن كان كلم<sup>(٧)</sup> الفراق رغبيا<sup>(٨)</sup> ، لما نويت مغيبا ، وجللت  
الوقت الهني تشغيبا<sup>(٩)</sup> ، فلعل الملتقى يكون قريبا ، وحديثه  
يروي صحيفا غريبا . إيه سيدي ! كيف حال تلك الشائل ،  
المزهره الخائل ، والشيم ، الهامية الدريم ؟ هل يمر ببالها من راعت  
بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين ذباله ؟ أو ترثي لشئون شأنها

(١) المنتسف : المتأصل .

(٢) الجسرة : الناقة .

(٣) المزن : السحاب .

(٤) الشحط : البعد .

(٥) يريد حزن بني يربوع ، وهو قرب « فيد » في جهة الكوفة : من اجل مراتب  
العرب . ورد ذكره كثيرا في شعرهم . ياقوت ٢٧٠/٣ .

(٦) صول ( بضم الصاد ) : مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الابواب ، وهو الدربند .  
والبيت الذي ذكره ابن الخطيب لخدج المري في جملة ابيات أوردها ياقوت ٤٣٥/٣ .

(٧) الكلم : الجرح .

(٨) رغبيا : مرغوبا فيه .

(٩) التشغيب : تهيج الشر .

سَكَبَ لَا يَفْتَرُ ، وَشَوْقُ يُبْتُ حَبَالِ الصَّبْرِ وَيَبْتُرُ ، وَضَنَى تَقْصُرُ عَنْ  
 حُلِيلِهِ الْفَاقِعَةَ صَنْعَاءُ<sup>(١)</sup> وَتَسْتَرُ<sup>(٢)</sup> ، وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ وَاللَّهُ يَسْتَرُ ؛ وَمَا  
 الَّذِي يَضِيرُكَ ، صِينَ مِنْ لَفْحِ السَّمُومِ<sup>(٣)</sup> نَضِيرُكَ<sup>(٤)</sup> ، بَعْدَ أَنْ أَضْرَمْتَ  
 وَأَشْعَلْتَ ، وَأَوْقَدْتَ وَجَعَلْتَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، أَنْ  
 تَتَرَفَّقَ بِذَمَاءٍ<sup>(٥)</sup> ، أَوْ تَرُدَّ بِنُغْبَةٍ مَاءٍ<sup>(٦)</sup> ، أَرْمَاقَ<sup>(٧)</sup> ظَمَاءٍ<sup>(٨)</sup> ،  
 وَتَتَعَاهَدَ الْمَعَاهِدَ بِتَحِيَّةٍ يُشَمُّ عَلَيْهَا شَذَا أَنْفَاسِكَ ، أَوْ تَنْظُرَ إِلَيْنَا -  
 عَلَى الْبُعْدِ - بِمُقَلَّةِ حَوْرَاءٍ مِنْ بَيَاضِ قِرطَاسِكَ ، وَسَوَادِ أَنْقَاسِكَ<sup>(٩)</sup> ،  
 فَرَبِّمَا قَنِعْتَ الْأَنْفُسَ الْمُحِبَّةَ بِخَيَالٍ زُورٍ ، وَتَعَلَّلْتَ بِنَوَالٍ مَمْزُورٍ<sup>(١٠)</sup> ،  
 وَرَضِيْتَ ، لَمَّا لَمْ تَصِدِ الْعَنْقَاءَ ، بِزُرْزُورٍ .

(١) صَنْعَاءُ يُرِيدُ بِهَا صَنْعَاءُ الْيَمَنِ ؛ لِأَنَّهَا الْعَظْمَى وَالْمَشْهُورَةُ ، وَمِنْهَا كَانَتْ تَجْلِبُ الْبُرُودُ . يَاقُوت .  
 ٣٨٦/٥ - ٣٩٤ . تَاج ٤٢١/٥ .

(٢) تَسْتَرُ : مَدِينَةُ بَخُوزِسْتَانَ مِنْ كُورِ الْأَهْوَازِ ، فَتَحَهَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ ،  
 وَكَانَتْ بِهَا مَصَانِعُ لِالْيَابِ وَالْعِمَائِمِ شَهِيرَةٌ . ضَبَطَهَا ابْنُ خَلْدُونَ ، بِالْحَرَكَاتِ ، بِفَتْحِ التَّاءِ الْأُولَى ؛  
 وَضَمِ الثَّانِيَةِ ، وَبَيْنَهُمَا سَيْنٌ سَاكِنَةٌ ، وَلَعَلَّهُ رَاغَى فِي ذَلِكَ السَّجْعِ . وَالْمَعْرُوفُ أَنَّهَا بِضَمِ التَّاءِ الْأُولَى  
 وَفَتْحِ الثَّانِيَةِ . وَفِيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢٧٣/١ ، وَيَاقُوتُ ٣٧٧/٢ .

(٣) اللَّفْحُ : الْإِحْرَاقُ ، وَالسَّمُومُ ( بِالْفَتْحِ ) : الرِّيحُ الْحَارَةُ .

(٤) نَضِيرُكَ : وَجْهَكَ الْحَسَنَ .

(٥) الذَّمَاءُ ( بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ ) : بَقِيَّةُ الرُّوحِ .

(٦) نَغْبَةٌ مَاءٍ : جُرْعَةٌ مَاءٍ .

(٧) جَمْعُ رَمَقٍ ؛ وَهُوَ بَقِيَّةُ الرُّوحِ .

(٨) جَمْعُ ظَمَىءٍ ( بِكَسْرِ الْمِيمِ ) ؛ وَهُوَ الَّذِي اشْتَدَّ عَطْشُهُ .

(٩) جَمْعُ نَفْسٍ ؛ وَهُوَ الْمَدَادُ .

(١٠) النَوَالُ الْمَمْزُورُ ، كَالنَّزْرِ : الْقَلِيلُ .

يَا مَنْ تَرَحَّلَ وَالرَّيَّاحُ لِأَجْلِهِ يُشْتَاقُ إِنْ هَبَّتْ شَذَا رِيَّاهَا  
 تَحْيَا النُّفُوسُ إِذَا بَعُثَتْ تَحْيَةً وَإِذَا عَزَمَتْ أَقْرَأُ «وَمَنْ أَحْيَاهَا»<sup>(١)</sup>  
 وَلِئِنْ أَحْيَيْتَ بِهَا فِيمَا سَلَفَ نَفُوسًا تَنْدِيكَ ، وَاللَّهُ إِلَى الْخَيْرِ  
 إِيهْدِيكَ ، فَتَحْنُ نَقُولُ مَعَشَرَ مُوَادِيكَ : « ثَنِّي وَلَا تَجْعَلِيهَا بَيْضَةً  
 لَدَيْكَ »<sup>(٢)</sup> ؛ وَعُذْرًا فَإِنِّي لَمْ اجْتَرِي ، عَلَى خَطَايَاكَ بِالْفَقْرِ الْفَقِيرَةِ ،  
 وَادَّلْتُ لَدَى حُجُرَاتِكَ بَرَفَ الْعَقِيرَةِ ، عَنْ نَشَاطٍ بَعُثْتُ مَرْمُوسَهُ<sup>(٣)</sup> ،  
 وَلَا اغْتِبَاطَ بِالْأَدَبِ تَغْرِي بِسِيَاسَتِهِ سَوْسَةً ، وَانْبِسَاطٍ أَوْحَى إِلَيَّ عَلَى  
 الْفَتْرَةِ نَامُوسَهُ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ اتِّفَاقُ جَرَّتِهِ نَفْثَةُ الْمَصْدُورِ<sup>(٤)</sup> وَهِنَاءُ<sup>(٥)</sup>  
 الْجَرْبِ<sup>(٦)</sup> الْمَجْدُورِ<sup>(٧)</sup> ؛ وَإِنْ تَعَلَّلَ بِهِ مُخَارِقٌ ، فَشَمَّ قِيَاسَ فَارِقٍ ،  
 أَوْ لَحْنٌ غَنَّى بِهِ بَعْدَ الْبُعْدِ مُخَارِقٌ<sup>(٨)</sup> ؛ وَالَّذِي هِيَ هَذَا الْقَدَرُ وَسَبَّهِ ،

(١) يشير إلى الآية (٣٢) من سورة المائدة .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد ، و صدره :

قد زرتنا زورة في النوم واحدة • ثني ... الخ

وبيضة الديك : مثل يضرب للشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها ، وللذي يعطي عطاء ثم لا

يعود . جمع الأمثال ٢/٥٣ ، أمالي القالي ١/٢٢٥ .

(٣) المرموس : المدفون .

(٤) النفث : النفخ لا ريق معه . والمصدور : من به علة في صدره .

(٥) الهناء ، ككتاب : القطران .

(٦) الجرب : المصاب بداء الجرب .

(٧) المجدور : الذي أصابه داء الجدري .

(٨) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد يكنى أبا المهنا ؛ مغل مشهور أغاني

يدين ٢١/٢٢٠ - ٢٩٤ . ومخارق الأولى بمعنى اللاحق المشاكس .

وسهّل المكرّوهَ إليّ منه وحبّبه ، ما اقتضاه الصّنو يحيى - مدّ الله  
حياته ، وحرس من الحوادث ذاته ، - من خطابٍ ارتشف به لهذه  
القريحةُ بلاّلتها <sup>(١)</sup> ، بعد أن رَضِيْ علّالتها <sup>(٢)</sup> ، ورشح إلى الصّهر  
الحضرميِّ سلّالتها <sup>(٣)</sup> ؛ فلم يسع إلا إسعافه ، بما عافه ؛ فأملت  
نجيباً ، ما لا يعدُّ في يوم الرّهان <sup>(٤)</sup> نجيباً <sup>(٥)</sup> ، وأسمّته وجيباً لما  
ساجلت بهذه التّرهات <sup>(٦)</sup> سحراً عجيباً ؛ حتّى إذا ألف القلم  
المريان <sup>(٧)</sup> سبّحه <sup>(٨)</sup> ، وجمّح برّذون الغزارة فلم أطق كبّحه <sup>(٩)</sup> ، لم  
أفق من غمرة غلّوّه وموقف متلوّه ، إلا وقد تحيّر إلى فئتكَ ،  
معتزّاً بل معتزّاً <sup>(١٠)</sup> ، واستقبلها ضاحكاً مفترّاً <sup>(١١)</sup> ، وهشّ لها برّاً ،  
وإن كان من الخجل مُصفرّاً ؛ وليس يَأُول من هجر <sup>(١٢)</sup> ، في التّماس

(١) البلاة : البلب ، وبقية الشيء .

(٢) العلالة : ما يتعلل به ، وبقية الشيء .

(٣) السلالة : الولد .

(٤) الرهان : المسابقة على الخيل وغيرها .

(٥) النجيب ، من الإبل وغيرها : الكريم الحبيب .

(٦) الترهات : أصلها الطرق الصفار غير الجادة ؛ ثم استعيرت للأباطيل والأقاويل الخالية من الطائل .

(٧) يريد أنه متجرد مما يعوقه عن الجري .

(٨) السبح : الجري .

(٩) كبّح الفرس وغيره : منعه من سرعة السير .

(١٠) المعتز : الفقير ، والمعتز للمعروف من غير أن يسأل .

(١١) المفتر : الذي يضحك ضحكاً حسناً ؛ يبدي أسنانه من غير قهقهة .

(١٢) هجر : هذى في كلامه وخط .

الوصل ممَّن هَجَرَ<sup>(١)</sup> أو بعث التَّمْرَ إلى هَجَرَ<sup>(٢)</sup> ؛ وَايُ نَسَبَ  
بَيْنِي اليَوْمَ وَبَيْنَ زُخْرُفِ الْكَلَامِ ، وَاجَالَةَ جِيَادِ الْأَقْلَامِ ، فِي مُحَاوَرَةِ  
الْأَعْلَامِ ؛ بَعْدَ أَنْ حَالَ الْجَرِيضُ<sup>(٣)</sup> ، دُونَ الْقَرِيضِ ، وَشُغِلَ الْمَرِيضُ  
عَنِ التَّعْرِيفِ ؛<sup>(٤)</sup> وَغَلَبَ حَتَّى الْكَسَلِ ، وَنَصَلَتْ الشَّعْرَاتُ الْبَيْضُ  
كَأَنَّهُا الْأَسَلُ ؛ تَرُوعُ بِرُقْطٍ<sup>(٥)</sup> الْحَيَّاتُ ، سِرْبُ الْحَيَاةِ<sup>(٦)</sup> ،  
وَتَطْرُقُ بِذَوَاتِ الْغُرَرِ وَالشَّيَاتِ ، عِنْدَ الْبَيَاتِ<sup>(٧)</sup> ؛ وَالشَّيْبُ الْمَوْتُ  
الْعَاجِلُ ، وَإِذَا أَبْيَضَ زَرْعُ صَبَّحَتِهِ الْمَنَاجِلُ ، وَالْمُعْتَبَرُ الْآجِلُ ؛ وَإِذَا  
اشْتَغَلَ الشَّيْخُ بِغَيْرِ مَعَادِهِ ، حَكِمَ فِي الظَّاهِرِ بِإِبْعَادِهِ وَأَسْرَهُ فِي مَلَكَةِ  
عَادِهِ ؛ فَاغْضُ أَبْقَاكَ اللَّهَ وَاسْمَحْ ، لِمَنْ قَصَّرَ عَنِ الْمَطْمَحِ ، وَبِالْعَيْنِ  
الْكَلِيلَةِ فَالْمَحْ ؛ وَاغْتِمِ لِبَاسَ ثَوْبِ الثُّوَابِ ، وَاشْفِ بِبَعْضِ الْجَوَى

(١) من الهجر ضد الوصل .

(٢) هجر : بلد بالبحرين ؛ وفيها ورد المثل الذي يشير إليه ابن الخطيب : « كجالب التمر إلى هجر » ، أو « كمبضع التمر إلى هجر » . مجمع الأمثال ٦٦/٢ .

(٣) الجريض : من الجرض ، وهو الرقيق يفص به . والقريض : الشعر . وحال : منع . وهو مثل يضرب للأمر كان مقدوراً عليه ، فحال دون القدرة عليه مانع . وفي معنى المثل خلاف تجده في التاج ، واللسان ، ( جرض ) مجمع الأمثال ١٣٩/١ .

(٤) التعريض : اطعام العراسة ؛ وهي الهدية يهديها القادم من سفر . وكأنه يريد أن المريض قد شغله مرضه عن الالتفات لهذا .

(٥) جمع رقطاء ؛ وهي الحية في لونها سواد وبياض .

(٦) وقف على « الحياة » بالتاء مراعاة للسجع . وهي لغة جائزة وإن كانت غير راجعة ، وقد تحدثوا عنها في باب « الوقف » من كتب النحو .

(٧) جمع غرة ؛ وهي البياض في جهة الفرس . والشيات : جمع شية ؛ وهي سواد في بياض ، أو بياض في سواد ، والبيات : الإيقاع بالعدو ليلاً ، من غير أن يعلم فيؤخذ غرة . والكلام على شبيه الشعرات البيض بأفراس في لونها سواد وبياض .

## بِالجواب .

تَوَلَّاهُ اللَّهُ فِيمَا اسْتَضَفْتَ وَمَلَكَتْ ، وَلَا بُدْتَ وَلَا هَلَكْتَ ،  
وَكَانَ لَكَ آيَةٌ سَدَّكَتْ ؛ وَوَسَمَّكَ فِي السَّمَاءِ بِأَوْضَحِ السَّمَاتِ ، وَأَتَّاحَ  
لِقَائِكَ مِنْ قَبْلِ الْمَمَاتِ ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَعْتَمِدُ حِلَالَ<sup>(١)</sup> وَلَدِي ، وَسَاكِنُ  
خَلْدِي ، بَلْ أَخِي وَإِنْ اتَّقَيْتُ عَتَبَهُ<sup>(٢)</sup> وَسَيِّدِي ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ،  
مِنْ مُحِبِّهِ الْمُشْتَقِ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ ، فِي الرَّابِعِ عَشَرَ  
مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي ، مِنْ عَامِ سَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

وَكَانَ تَقَدَّمَ مِنْهُ قَبْلَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ كِتَابٌ آخِرٌ إِلَيَّ ، بَعَثَ بِهِ  
إِلَى تَلِمَّسَانٍ ، فَتَأَخَّرَ وَصُولُهُ ، حَتَّى بَعَثَ بِهِ الْأَخُ يُجِيبِي عِنْدَ وَفَادَتِهِ  
عَلَى السُّلْطَانِ ، وَنَصْرُ الْكِتَابِ :

يَا سَيِّدِي إِجْلَالًا وَاعْتِدَادًا ، وَأَخِي وَدًّا وَاعْتِقَادًا ، وَمَحَلًّا  
وَلَدِي شَفَقَةً سَدَّكَتْ مِنْهُ فَوَادًا . طَالَ عَلَيَّ انْقِطَاعُ أَنْبَائِكَ ، وَاخْتِفَاءُ  
أَخْبَارِكَ ؛ فَرَجَّوْتُ أَنْ تُبَلِّغَ النِّيَّةَ هَذَا الْمَكْتُوبَ إِلَيْكَ ، وَتَخْتَرِقَ  
بِهِ الْمَوَانِعَ دُونَكَ ؛ وَإِنْ كُنْتُ فِي مُبَائِثَتِكَ كَالْعَاطِشِ الَّذِي لَا يَرُوي ،  
وَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ ، شَأْنٌ مَنْ تَجَاوَزَ الْحُدُودَ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَالْعَوَائِدَ  
الْمَأْلُوفَةَ ؛ فَأَنَا الْآنَ — بَعْدَ إِنْهَاءِ التَّحِيَّةِ الْمُطْلُوعَةِ الرَّوْضِ بِمَاءِ الدُّمُوعِ ،

(١) الحلال ، جمع : بيوت الناس ، واحداً حلة .

(٢) العتب . لومك انساناً على اساءة كانت له اليك .



وتقرير الشوق للزيم<sup>(١)</sup>، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة  
 القرب قبل ألفوت من الله مُيسِّر العسير، ومُقَرَّب البعيد، - أسأل  
 عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالا<sup>(٢)</sup> في مجال الخلوص لك،  
 وأشدِّهم حرصاً على اتِّصال سعادتك؛ وقد أتصل بي في هذه الأيام  
 ما يجري به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة  
 محل الغبطة بك، باللجأ إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب،  
 الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد؛ حرسها الله ملجأ للفضلاء،  
 ومخيماً لرجال العلياء، ومهبطاً لطيب الثناء، بحوله وقوته؛ وما كل  
 وقت تُتاح فيه السلامة؛ فاحمدوا الله على الخلاص، وقاربوا<sup>(٣)</sup> في  
 معاملة الآمال، وضمنوا<sup>(٤)</sup> بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وانخلوا  
 بها عن المتالف؛ فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع  
 الخافّة جمّة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حالة العافية،  
 والعاقِل لا يستنكح الاستغراق فيما آخِرُه الموت، إنما ينال منه  
 الضّروري؛ ومثلك لا يُعجزه - مع التماس العافية - أضعاف ما  
 يُزجى<sup>(٥)</sup> به العمر من المأكَل والمشرب، وحسبنا الله.

(١) اللزيم . الكثير اللزوم .

(٢) كذا وفي نسخة . مجال والمحال بالكسر . التدبير ، وعلى رواية ، « مجال » تكون

مصدرا ، والمجال الثاني . مكان الجولان .

(٣) اقتصدوا ، واتركوا الغلو .

(٤) ضنوا . انخلوا .

(٥) يزجي : يتبلغ بالقوت القليل ، ويجتزيء به .

وإن تَشَوَّفْتَ لِحَالِ الْمُحِبِّ تِلْكَ السِّيَادَةُ الْفِئْدَةُ ، وَالْبُنُوَّةُ  
الْبَرَّةُ ؛ فَاحَالُ الْحَالِ ، مَنْ جَعَلَ الزَّمَامَ بِيَدِ الْقَدَرِ ، وَالسَّيْرَ فِي مَهْمَعِ  
الْغَفْلَةِ ، وَالسَّبْحَ فِي تَيَّارِ الشَّوَاغِلِ ؛ وَمِنْ وَرَاءِ الْأُمُورِ غَيْبٌ مُحْجُوبٌ ،  
وَأَمَلٌ مَكْتُوبٌ ، نُؤْمِلُ فِيهِ عَادَةَ السَّرِّ مِنَ اللَّهِ ؛ إِلَّا أَنْ الضَّجَرَ  
الَّذِي تَعْلَمُونَهُ ، خَفَّضَهُ الْيَأْسُ لَمَّا عَجَزَتِ الْحِيلَةُ ، وَأَعْوَزَ الْمَنَاصُ <sup>(١)</sup>  
وُسَدَّتْ الْمَذَاهِبُ ؛ وَالشَّأْنُ الْيَوْمَ شَأْنُ النَّاسِ فِيمَا يَقْرُبُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ .

وفيا يرجع الى السلطان - تولاه الله - ، على أضعاف ما باشر  
سَيِّدِي مِنَ الْأَغْيَاءِ <sup>(٢)</sup> فِي الْبِرِّ وَوَصَلَ سَبَبُ الْإِتِّحَامِ ، وَالِاشْتِمَالِ ،  
مَعَ الْإِسْتِقْلَالِ ، وَمَا يُنْتِجُهُ مُتَعَوِّدُ الظُّهُورِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

وفيا يرجع الى الأحباب والأولاد ، فعلى ما عَلِمْتَ ؛ إِلَّا أَنْ  
الشَّوْقَ يُخَامِرُ الْقُلُوبَ ، وَتَصَوُّرُ اللَّقَاءِ ، مِمَّا يُزْهَدُ فِي الْوَطَنِ وَحَاضِرِ  
النِّعَمِ . سَنَى <sup>(٣)</sup> اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ ، وَيَسِّرْهُ قَبْلَ الْإِرْتِحَالِ ،  
عَنْ دَارِ الْمِحَالِ <sup>(٤)</sup> .

وفيا يرجع الى الوطن ؛ فَأَحْلَامُ النَّائِمِ خَصْبًا ، وَهُدْنَةُ وَظُهُورًا  
عَلَى الْعَدُوِّ ؛ وَحَسْبُكَ بِإِفْتِتَاحِ حِصْنِ آشَرِ ، وَبُرْغُهُ الْقَاطِعَةُ بَيْنَ بِلَادِ

(١) المناس : المهرب ، والمَلْجَأُ ، والمَفَرُ .

(٢) أغيا الرجل : بلغ الغاية في الشرف .

(٣) سنى : سهل .

(٤) المحال . العذاب ، والهلاك .

الاسلام ، ووبّذة ، والعارين وبيغهُ وحصن السّهلة ، في عام ؛ ثم دخول بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة ، والاستيلاء على ما يُناهزُ خمسة آلاف من السّبي ؛ ثم فتح دار الملك ، ولدة قرطبة : مدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل ، وقتل المقاتلة ، وسبي الذريّة ، وتغفية الآثار حتى لا يُلِمَّ بها العُمران ؛ ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلف جيان في مُلاءتها : دار التجر ، والرّفاهية ، والبني الحافلة ، والنعم الشرّة ؛ نسأل الله - جلّ وعلا - ان يصل عوائد نصره ، ولا يقطع عنا سبب رحمته ، وان ينفع بما اعان عليه من السعي في ذلك والاعانة عليه .

ولم يتزيّد من الحوادث الا ما علمتم ؛ من أخذ الله لنسمة السوء ، وخبث الارض ، المسلوب من أثر الخير : عمر بن عبد الله ، وتحكم شر الميته في نفسه ، وإتيان النّكال على حاشيته ، والاستيصال على ذاته ؛ والاضطراب مستولٍ على الوطن بعده ؛ الا انّ الغرب على علاّته لا يرجّحه غيره .

والأندلس اليوم شيخُ غزاتها الامير عبدالرحمن بن علي بن السلطان ابي علي ، بعد وفاة الشيخ ابي الحسن : علي بن بدر الدين رحمه الله . وقد استقرّ بها - بعد انصراف - سيدي الامير المذكور ، والوزير مسعود بن رحو وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان مَلِكُ النصارى بِطَرُوه ، قد عاد الى مُملكة بِإِشْبيلية ،  
 واخوه مُجَلِبٌ عَلَيْهِ بِقَشْتَالَة ، وَقُرْطَبَة مُخَالِفَةٌ عَلَيْهِ ، قَائِمَةٌ بِطَائِفَة مِنْ  
 كِبَارِ النصارى الخائِفين على انْفُسِهِمْ ، داعين لِأَخِيهِ ؛ وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ  
 اغْتَنَمُوا هُبُوبَ هَذِهِ الرِّيحِ . وَخَرَقَ اللَّهُ لَهُمْ عَوَائِدَ فِي بَابِ الظُّهُورِ  
 وَالْخَيْرِ ، لَمْ تَكُنْ تَخْطُرُ فِي الْآمَالِ . وَقَدْ تَلَقَّبَ السُّلْطَانُ — أَيَّدَهُ اللَّهُ —  
 بِعَقَبِ هَذِهِ الْمُدَكِّفَاتِ ، بِـ « الْغَنِيِّ بِاللَّهِ » وَصَدَرَتْ عَنْهُ مُخَاطَبَاتٌ ،  
 بِمُجَمَّلِ الْفُتُوحِ وَمُفَصَّلِهَا ، يَعْظُمُ الْحِرْصُ عَلَى إِصْلَاحِهَا إِلَى تِلْكَ الْفَضَائِلِ  
 لَوْ أُمَكَّنَ .

وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ مِنْ شُغْلِ الْوَقْتِ ؛  
 فَصَدَرَتْ تَقَايِيدُ ، وَتَصَانِيفُ ، يُقَالُ فِيهَا — بَعْدَ مَا أَعْمَلْتَهُ تِلْكَ السِّيَادَةُ  
 مِنَ الْإِنْصِرَافِ — يَا إِبْرَاهِيمَ ، وَلَا إِبْرَاهِيمَ الْيَوْمَ <sup>(١)</sup> .

مِنْهَا : أَنْ كِتَاباً رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْحَبَّةِ <sup>(٢)</sup> ، مِنْ تَصْنِيفِ  
 ابْنِ أَبِي حَجَلَةَ <sup>(٣)</sup> مِنَ الْمَشَارِقَةِ ، أَشَارَ الْأَصْحَابُ بِمَعَارَضَتِهِ ،  
 فَعَارَضْتُهُ ، وَجَعَلْتُ الْمَوْضُوعَ أَشْرَفَ ، وَهُوَ مُحَبَّةُ اللَّهِ ؛ فَجَاءَ

(١) لَعَلَّهُ يَشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « يَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » . آيَةُ ٧٦ مِنْ سُورَةِ هُودَ .

(٢) هُوَ دِيْوَانُ الصَّبَابَةِ . وَقَدْ طُبِعَ بِمِثْرَ سَنَةِ ١٣٠٢ هـ .

(٣) أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي حَجَلَةَ التَّلَسَّاسِيُّ ٧٢٥ — ٧٧٦ أَدِيبٌ صُوفِيٌّ ، كَانَ يَكْثُرُ الْحُطُّ عَلَى أَهْلِ « الْوَحْدَةِ » ، وَخُصُوصًا ابْنَ الْفَارُضِ . وَعَارَضَ جَمِيعَ قِصَائِدِهِ بِقِصَائِدِ نَبَوِيَّةٍ ، وَامْتَحَنَ بِسَبَبِ ذَلِكَ . الدَّرَرُ الْكَامِنَةُ ٣٢٩/١ .

كتاباً<sup>(١)</sup> ادعى الأصحاب غرابته . وقد وجه الى المشرق صحيفة كتاب : « تاريخ غرناطة » ، وغيره من تأليفه . وتعرف تحبسه بخانقاه سعيد السعداء<sup>(٢)</sup> من مصر ؛ وانثال الناس عليه ، وهو في لطافة الأغراض ، يتكلف اغراض المشاركة . من ملحه :

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه؟  
من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟

والله يرزق الاعانة في انتساخه وتوجيهه . وصدر عني جزء سميته : « الغيرة على أهل الحيرة » وجزء سميته : « حمل الجمهور على السنن المشهور »<sup>(٣)</sup> . والاكتاب على اختصار كتاب « التاج »<sup>(٤)</sup>

(١) يتحدث ابن الخطيب عن كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ وهو كتاب يقل أن يوجد نظيره بين كتب التصوف في المكتبة الاسلامية ؛ تحدث فيه عن مذاهب الصوفية ، وعن طريقة أهل « الوحدة المطلقة » ، فنسبه أعداؤه الى القول بالحلل ، فكان هذا الكتاب من أسباب محنته التي انتهت بقتله رحمه الله . ولا تزال المكتبة الاسلامية تحتفظ بنسخ من هذا الكتاب ؛ وفي المجموعة النفيسة من المخطوطات التي صورتها جامعة الدول العربية ثلاث نسخ خطية منه .

(٢) والخانقاه ، بالكاف ، وبالقف ، وترسم « خانكه » أيضا : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة ، والأعمال الصالحة . وهذه الخانقاه كانت داراً للأستاذ قنبر ، أو « عنبر » أحد خدام القصر أيام الفاطميين ، وكان يلقب بسعيد السعداء .

وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة ٦٩٥ هـ للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشامية ، وجعل لها أوقافا ، ولذلك تعرف أيضاً بالخانقاه الصالحية ؛ وهي أول خانقاه عملت بمصر . خطط المقريري ٢٧٣/٤ - ٢٧٥ .

(٣) ذكر هذان الكتابات في نفح الطيب ٢٤٤/٤ في عداد مؤلفات ابن الخطيب .

(٤) هو كتاب « تاج اللغة ، وصحاح العربية » ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ ولم يذكر صاحب نفح الطيب هذا المختصر - الذي يتحدث عنه ابن الخطيب هنا - بين مؤلفات ابن الخطيب .

للجَوَاهِرِي<sup>(١)</sup> ، وَرَدَّ حَجْمَهُ إِلَى مِقْدَارِ الْخُمْسِ ، مَعَ حِفْظِ تَرْتِيبِهِ السَّهْلِ ؛ وَاللَّهُ الْمَعِينُ عَلَى مَشْغَلَةٍ تُقَطَّعُ بِهَا هَذِهِ الْبُرْهَةُ الْقَرِيبَةُ الْبِدَاءَةِ مِنَ التَّيَمِّمَةِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَالْمَطْلُوبُ الْمُثَابَرَةُ عَلَى تَعْرِيفِ يَصِلُ مِنْ تِلْكَ السِّيَادَةِ وَالْبُنُوَّةِ ؛ إِذَا لَا يَتَعَذَّرُ وَجُودَ قَافِلٍ مِنْ حَجٍّ ، أَوْ لَاحِقٍ بِتَلَمَّسَانِ . يَبْعَثُهَا السَّيِّدُ الشَّرِيفُ مِنْهَا ؛ فَالْنَفْسُ شَدِيدَةُ التَّعَطُّشِ ، وَالْقُلُوبُ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ الشَّوْقِ وَالْإِسْتِطْلَاعِ - الْحَنَاجِرُ . وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَصُونَ فِي الْبُعْدِ وَدِيعَتِي مِنْكَ لَدَيْهِ ، وَيُلْبِسَكَ الْعَافِيَةَ ، وَيَخْلِصَكَ وَإِيَّايَ مِنَ الْوَرَطَةِ ، وَيَحْمِلَنَا أَجْمَعِينَ عَلَى الْجَادَةِ ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِالسَّعَادَةِ . وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَوْدًا عَلَى بَدْءِ ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، مِنَ الْمُحِبِّ الْمَتَشَوِّقِ ، الذَّاكِرِ الدَّاعِي ، ابْنِ الْخَطِيبِ . فِي الثَّانِي مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ عَامِ تِسْعَةِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . انْتَهَى .

فَأَجَبْتُهُ عَنْ هَذِهِ الْمَخَاطَبَاتِ ، وَتَفَادَيْتُ مِنَ السَّجْعِ خَشْيَةَ التَّمْصُورِ عَنْ مُسَاجَلَتِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ شَأْوُهُ يُلْحَقُ . وَنَصُّ الْجَوَابِ :  
سَيِّدِي مَجْدًا وَعُلُوًّا ، وَوَاحِدِي ذُخْرًا مَرُجُوًّا ، وَمَحَلُّ وَالِدِي

(١) هُوَ أَبُو نَصْرِ اسْمَعِيلُ بْنُ حَمَادِ الْجَوَاهِرِي الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٦٣ أَوْ ٤٠٠ . شَافَهُ الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ فِي دِيَارِهِمْ بِالْبَادِيَةِ ، بَعْدَمَا دَرَسَ الْفَرَسِيَّةَ بِالْعِرَاقِ رَوَايَةً وَدَارِيَّةً ، ثُمَّ التَّزَمَ ذِكْرَ الصَّحِيحِ مِمَّا سَمِعَ ، فَكُتِبَ « الصَّحَاحُ » . وَهُوَ لِهَذَا كُلِّهِ لَا يَزَالُ يُتَبَوَّأُ الْمَكَانَةَ الْأُولَى بَيْنَ مُعَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ . تَاجُ الْعُرُوسِ ٢١/١ ، ٢٣ .

براً وُحْنُوًّا . ما زال الشَّوقُ - مذ نأت بي وبك الدار ، واستَحْكَمَ  
 بيننا البعاد - يُرْعِي سَمْعِي أَنْبَاءَكَ ، وَيُخِيلُ اليَّ من أيدي الرِّيحِ  
 تناولَ رسائلِك ، حتَّى وَرَدَ كِتَابُكَ العَزِيزُ على اسْتِطْلَاعِ ، وَعَهْدِ  
 غَيْرِ مُضَاعِ ، ووُدِّ ذِي أَجْناسٍ وَأَنْوَاعِ ؛ فَتَشَرَّ بِقَلْبِي مَيْتَ السُّلُوِّ ،  
 وحَشَرَ أَنْوَاعَ الْمَسَرَّاتِ ، وَقَدَ لِلْقَائِكَ زِنَادُ الْأَمَلِ ؛ وَمِنَ اللَّهِ أَسْأَلُ  
 الْإِمْتِنَاعَ بِكَ قَبْلَ الْفَوْتِ على ما يَرْضِيكَ ، وَيُسْنِي أَمَانِيَّ وَأَمَانِيكَ .  
 وَحَيِّثُ حَيَّةَ الْهَائِمِ ، لِمَوَاقِعِ الْغَنَائِمِ ، وَالْمُدْلِجِ <sup>(١)</sup> ، لِلصَّبَاحِ الْمَتَبَلِّجِ <sup>(٢)</sup>  
 وَأَمِلْ على مُقْتَرَحِ الْأَوْلِيَاءِ ، خُصُوصاً فَيْكَ ؛ مِنْ أَطْمَئِنَانِ الْحَالِ ،  
 وَحُسْنِ الْقَرَارِ ، وَذَهَابِ الْهَوَاجِسِ ، وَسُكُونِ النَّفَرَةِ ؛ وَعُمُوماً فِي  
 الدَّوْلَةِ ، مِنْ رُسُوخِ الْقَدَمِ ، وَهَبُوبِ رِيحِ النَّصْرِ ، وَالظُّهُورِ على  
 عَدُوِّ اللَّهِ ، بِاسْتِرْجَاعِ الْخُصُوفِ الَّتِي اسْتَنْقَذَوْهَا <sup>(٣)</sup> فِي اعْتِلَالِ الدَّوْلَةِ ،  
 وَتَخْرِيبِ الْمَعَاوِلِ الَّتِي هِيَ قَوَاعِدُ النَّصْرَانِيَّةِ ؛ غَرِيبَةٌ لَا تَشُبُّ إِلَّا فِي  
 الْحُلُمِ ، وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ . وَإِنْ خَبِيئَةٌ هَذَا الْفَتْحِ فِي طَيِّ الْعُصُورِ  
 السَّابِقَةِ ، إِلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ الْكَرِيمَةِ ، لَدَلِيلٌ على عِنَايَةِ اللَّهِ بِتِلْكَ الذَّاتِ  
 الشَّرِيفَةِ ، حِينَ ظَهَرَتْ على يَدِهَا خَوَارِقُ الْعَادَةِ ، وَمَا تَجَدَّدَ آخِرُ  
 الْأَيَّامِ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْمَلَّةِ ؛ وَلَكُمْ فِيهَا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - بِحُسْنِ

(١) أدلج : سار الليل كله .

(٢) تبلج الصبح : أسفر وأضاء ؛ وصبح أبلج : مشرق مضي .

(٣) استنقذوها : أنقذوها ، وخلصوها .

التدبير ، ويُمن النقيبة<sup>(١)</sup> ، من حميد الأثر ، وخالد الذكر ، طراز<sup>(٢)</sup> في حلة الخلافة النصيرية ، وتاج في مفرق الوزارة . كتبها الله لكم فيما يرضاه من عباده .

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا القطر المحروس ؛ وأذعته في الملاء سروراً بعز الإسلام ، وإظهاراً لنعمة الله ، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء ، واليتاس الدعاء ، والحديث بنعمتها ، والاشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدمها ، فانشرحت الصدور حياء<sup>(٣)</sup> وامتلات القلوب إجلالاً وتعظيماً ، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاء .

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً ، ولما عساه يستعجم من لغتي في مناقبها ترُجّمانا<sup>(٤)</sup> ؛ زاده الله من فضله ، وأمتع المسلمين ببقائه . وبشّته<sup>(٥)</sup> شكوى الغريب ، من السوق المزعج ، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً ، للتجافي عن مهاد الأمن ، والتقويض عن دار العز ، بين المولي المنعم ، والسيد الكريم ،

(١) يقال : رجل ميمون النقية ؛ أي منجح الفعال ، مظفر المطالب .

(٢) الطراز : ما ينسج من الثياب للسلطان ، وعلم الثوب .

(٣) حابى الرجل حياء : نصره ، واختصه ، ومال اليه .

(٤) ترجان : بفتح التاء والجيم ، وضم التاء والجيم ، وفتح التاء وضم الجيم .

(٥) وبشّته ؛ معطوف على قوله قبل : « وحيه تحية الهائم » . وبالأصول : « وبشّته »

بالادغام ؛ ولعله تحريف .



والبلد الطيب ، والايخوان البررة ؛ « ولو كنتُ أعلم الغيبَ  
لاستكثرْتُ من الخير »<sup>(١)</sup>. وإن تشوّفت السيادة الكريمة الى الحال ،  
فعلى ما علمتُم ، سيراً مع الأمل ، ومغالبةً للأيام على الحظّ ،  
واقطاعاً للغفلة جانب العمر .

هَلْ نَافِعِي وَالْجَدُّ فِي صَبَبٍ مَرِّي مَعَ الْآمَالِ فِي صَعْدٍ

رَجَعَ اللهُ بِنَا إِلَيْهِ . وَلَعَلَّ فِي عِظَتِكُمُ النّافِعَةُ ، شِفَاءٌ هَذَا الدَّاءِ .  
العياء ، إن شاء الله ؛ على أَنَّ لُطْفَ اللهِ مُصَاحِبٌ ، وَجِوَارُ هَذِهِ الرِّيَاسَةِ  
الْمُزْنِيَّةِ - وَحُسْبُكَ بِهَا عِلْمِيَّةٌ - عَصْمَةٌ وَافِيَةٌ<sup>(٢)</sup> صَرَفَتْ وَجْهَ الْقَصْدِ  
إِلَى ذَخِيرَتِي الَّتِي كُنْتُ أَعْتَدُهَا مِنْهُمْ كَمَا عَلِمْتُمْ ، عَلَى حِينِ تَفَاقُمِ  
الْحُطْبِ ، وَتَلَوْنِ الدُّهْرِ ، وَالْإِفْلَاتِ مِنْ مَظَانِ النَّكْبَةِ ، وَقَدْ  
رَتَعْتُ<sup>(٣)</sup> حَوْلَهَا ؛ بَعْدَ مَا جَرَّتْهُ الْحَادِثَةُ بِمَهْلَكِ السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ عَلَى  
يَدِ ابْنِ عَمِّهِ ، قَرِيعِهِ فِي الْمَلِكِ ، وَقَسِيمِهِ فِي النَّسَبِ ؛ وَالتِّيَاثِ الْجَاهِ<sup>(٤)</sup> ،  
وَتَغْيِيرِ السُّلْطَانِ ، وَاعْتِقَالِ الْأَخِ الْمَخْلُوفِ ، وَالْيَأْسِ مِنْهُ ، لَوْلَا  
تَكْيِيفُ اللهِ فِي نَجَاتِهِ<sup>(٥)</sup> ، وَالْعَيْثُ بَعْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ وَالْوَلَدِ ، وَاغْتِصَابِ

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٢) وافية : بالغة تمام الكمال .

(٣) طفت بها ، ودرت حولها ؛ وفي الحديث : « انه من يرتع حول الحمى يوشك أن يجالطه » .

(٤) التياث : تلطخ ؛ والتياث : عطف على « ما جرته » .

(٥) النجاء : النجاة ، وهو المصدر الممدود لنجا ، والمقصود نجاة

الضِّياع<sup>(١)</sup> المُقْتَنَاة من بقايا ما مَتَّعَتْ به الدولة النَّصْرِيَّة - أَبْقَاهَا اللهُ - من النِّعْمَةِ ؛ فَأَوْسَى إِلَى الْوَكْرِ<sup>(٢)</sup> ، وَسَاهَمَ فِي الْحَادِثِ ، وَأَشْرَكَ فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ ، وَأَعَانَ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَطَلَبَ الْوِثْرَ<sup>(٣)</sup> ، حَتَّى رَأَى الدَّهْرُ مَكَانِي ، وَأَمَّلَ الْمُلُوكُ اسْتِخْلَاصِي ، وَتَجَارَوْا فِي إِنْتِحَافِي . وَاللَّهُ الْمُخْلِصُ مِنْ عِقَالِ الْآمَالِ ، وَالْمُرْشِدُ إِلَى نَبْذِ هَذِهِ الْحُظُوظِ الْمَوَرِّطَةِ .

وَأَنْبَأَنِي سَيِّدِي بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ التَّصَانِيفِ الْغَرِيبَةِ ، وَالرُّسَائِلِ الْبَلِیْغَةِ ، فِي هَذِهِ الْفُتُوحَاتِ الْجَلِيلَةِ ، وَبِوُدِّي لَوْ وَقَعَ الْإِتِّحَافُ بِهَا أَوْ بَعْضُهَا ، فَلَقَدْ عَاوَدَنِي النَّدَمُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ .

وَأَمَّا أَخْبَارُ هَذَا الْقَطْرِ فَلَا زِيَادَةَ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ ؛ مِنْ اسْتِقْرَارِ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى بُتُونِسَ مُسْتَبَدًّا بِأَمْرِهِ بِالْحَضْرَةِ بَعْدَ مَهْلِكِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ تَافَرَاكِينَ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ مُضَافًا فِي جَبَابَةِ الْوَطَنِ ، وَأَحْكَامِهِ بِالْعَرَبِ الْمُسْتَظْهِرِينَ بِدَعْوَتِهِ ، مُصَانِعًا لَهُمْ بِوَفَرِهِ عَلَى أَمَانِ الرُّعَايَا وَالسَّابِلَةِ<sup>(٤)</sup> ، لَوْ أَمَكَّنَ ، حَسَنَ السِّيَاسَةِ جَهْدَ الْوَقْتِ ؛ وَمِنْ انْتِظَامِ بِحَايَةِ مَحَلِّ

(١) جمع ضيعة ؛ وهي المقار .

(٢) وكر الطائر : عشه ، والكلام على التشبيه .

(٣) طلب الثَّأْر .

(٤) السَّابِلَةُ الطَّرِيقُ .

دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة، غلاباً كما علمتم، مُحَمَّلاً الدولة بصرامته وقوة شكيمة فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، مُنتَقِض الطاعة أكثر أوقاته لذلك، إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب، ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدُّول في كل جهة، وكلُّ بداية فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعُه<sup>(١)</sup>، وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاع الجفاة على كوسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوَفَد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويُطِيل البَث، حتى لزعموا أن الهَيْعَة<sup>(٢)</sup> اتصلت بالقاهرة أياما، وكثر الهرج<sup>(٣)</sup> في طرقاتها وأسواقها، لما وقع بين أسندُر<sup>(٤)</sup> المتغلب بعد يلبغا<sup>(٥)</sup> الخاسكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشية وموالي يلبغا، وتقبض على الباقيين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندُر في

(١) يقال أطلعت طلعى؛ أي بثته سري.

(٢) الهَيْعَة: كل ما أفرعك من صوت؛ والصوت الشديد.

(٣) الهرج: الفتنة والاختلاط.

(٤) في نسخة: سندمر بدون ألف في أوله؛ وهو الأمير الداوادر الكبير في دولة الأنرف،

كان دويداراً عند يلبغا الناصري ثم ثار عليه. مات بالاسكندرية سنة ٧٦٩.

(٥) يلبغا بن عبد الله الخاسكي (الخاسكي) نسبة إلى خواص السلطان.

مُحْبَسُهُ ، وَأُلْقِيَ زِمَامُ الدَّوْلَةِ بِيَدِ كَبِيرٍ مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ ، فَقَامَ بِهَا  
مُسْتَبْدَاً ، وَقَادَهَا مُسْتَقْلَاً ، وَبَيَدِ اللَّهِ تَصَارِيفُ الْأُمُورِ ، وَمُظَاهَرُ  
الْغُيُوبِ ، جَلٌّ وَعَلَا .

وَرَغْبَتِي مِنْ سَيِّدِي - أَبْقَاهُ اللَّهُ - أَنْ لَا يُغِبَّ خُطَابَهُ عَنِّي ، مَتَى  
أَمَكُنْ ، يَصِلُ بِذَلِكَ مِنْهُ الْجَمَّةُ ، وَأَنْ يُقَبَّلَ عَنِّي أَقْدَامُ تِلْكَ الذَّاتِ  
الْمَوْلُويَةِ ، وَيَعْرِفَهُ بِمَا عِنْدِي مِنَ التَّشْيِيعِ لِسُلْطَانِهِ ، وَالشُّكْرِ لِنِعْمَتِهِ ،  
وَأَنْ تُنْهَوَا عَنِّي لِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلَ اخْتِصَاصِهِ ، التَّحِيَّةُ ، الْمُخْتَلَسَةُ مِنْ  
أَنْفَاسِ الرِّيَاضِ ، كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ .

وَقَدْ تَأَدَّى مِنِّي إِلَى حَضْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ خُطَابٌ عَلَى يَدِ الْحَاجِّ نَافِعٍ -  
سَلَّمَهُ اللَّهُ - تَنَاوَلَهُ مِنَ الْأَخِ يَحْيَى عِنْدَ لِقَائِهِ إِيَّاهُ بِتِلْكَ مَسَانٍ ، بِحَضْرَةِ  
السُّلْطَانِ أَبِي حَمُو - أَيْدَاهُ اللَّهُ - فَرَبَّمَا يَصِلُ ، وَسَيِّدِي يَوْضَحُ مِنْ ثَنَائِي  
وَدُعَائِي مَا عَجَزَ عَنْهُ الْكِتَابُ . وَاللَّهُ يُبْقِيكُمْ ذُخْرًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمَلَاذًا  
لِلْأَمَلِينَ بِفَضْلِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ لَازَبَكُمْ مِنَ السَّادَةِ الْأَوْلَادِ  
الْمُنَاجِبِ ، وَالْأَهْلِ وَالْحَاشِيَةِ وَالْأَصْحَابِ ، مِنَ الْمُحِبِّ فَيْكُمْ ، الْمُعْتَدِّ  
بِكُمْ شَعِيَّةٍ فَضْلَكُمْ ، ابْنَ خَلْدُونٍ ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

عُنْوَانُهُ : سَيِّدِي وَعِمَادِي ، وَرَبُّ الصَّنَائِعِ وَالْأَيَادِي ، وَالْفَضَائِلِ  
الْكَرِيمَةِ الْخَوَاتِمِ وَالْمُبَادِي ، إِمَامَ الْأُمَّةِ ، عَلَمَ الْأُمَّةِ ، تَاجَ الْمِلَّةِ ، فَخْرَ  
الْعُلَمَاءِ الْجَلَّةِ ، عِمَادَ الْإِسْلَامِ ، مُصْطَفَى الْمُلُوكِ الْكَرَامِ ، نُكْتَةَ

الدُّول ، كَافِلَ الامامة ، تاجَ الدول ، أَثِيرَ الله ، وَلِيَّ أمير المسلمين  
الغنيِّ بالله - أيدَه الله - الوزيرُ أبو عبد الله بن الخطيب ، أبقاه الله ،  
وتولَّى عن المسلمين جزاءه .

وكتب إليَّ من غرناطة :

يا سيدي وولائي ، وأخي ومحلي ولدي ! كان الله لكم حيث  
كنتُم ، ولا أعدَمكم لطفه وعنايته . لو كان مُستَقَرَّ كم بحيث  
يتأتى لي إليه ترديدُ رسول ، أو إيفادُ مُتَطَلِّع ، أو توجيهُ نائب ،  
لرجعتُ على نفسي باللائمة في اغفالِ حقكم ؛ ولكنَّ العذرَ ما علمتم ؛  
واحمدوا الله على الاستقرار في كهفِ ذلك الفاضل الذي وسعكم  
كَنَفُه . وشمِّلكم فضله شكرَ الله حسبه الذي لم يُخْلِفْ ، وشهرته  
التي لم تكذب .

وإنِّي اغتنمتُ سَفَرَ هذا الشيخ ، وَاِفْدِ الحَرَمين بمجموع الفتوح<sup>(١)</sup> ،  
في إيصالِ كتابي هذا ، وبودِّي لو وقفتُم على ما لديه من البضاعة  
التي أنتم رئيسُها وصدورها ، فيكون لكم في ذلك بعضُ أنس ، وربما تأدَّى  
ذلك في بعضه مما لم يُخْتَم عليه ، وظاهرُ الأمور نُحِيل عليه في تعريفكم

(١) كانت عاداتهم أن يبعثوا بأخبار فتوحهم ، وتوسعاتهم التي تحصل في كل سنة ، وفي عهد كل  
ملك - يبعثون بها الى الملوك المعاصرين عامة ، والى الحرم النبوي بوجه خاص . والى هذا يشير  
ابن الخطيب .

بها ، وأما البواطن فمما لا يتأتى كثرة وضنانه ، وأخص ، بالصاد ،  
 ما أظن تشوُّفكم اليه حالي . فاعلموا أنني قد بلغ بي الماء الزبي <sup>(١)</sup> ،  
 واستولى عليَّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالت الأمراض ، وأعوز  
 العلاج ، لبقاء السبب ، والعجز عن دفعه . وهي هذه المداخلة جعل  
 الله العاقبة فيها الى خير ؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة الا بذلته .  
 فما أغنى ذلك عني شيئاً ، ولولا أنني بعدكم شغلت الفكر بهذر  
 التأليف ، مع الزهد . وبعد العهد . وعدم الالماع بمطالعة الكتب .  
 لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر الى هذا الحد ؛ وآخر ما صدر  
 عني كُنَّاش <sup>(٢)</sup> سميته باستنزال اللطف الموجود ، في أسر الوجود <sup>(٣)</sup> .  
 أُمليته في هذه الأيام التي أقيم بها رسم النيابة عن السلطان في سفره  
 الى الجهاد . بوُدِّي لو وقفت عليه . وعلى كتابي في المحبة ؛ وعسى الله  
 أن ييسر ذلك .

ومع هذا كله . والله ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب  
 اليكم . إما من جهة أخيك . أو من جهة السيد الشريف أبي عبد الله .

(١) الزبي : جمع زبية ؛ وهي الراية التي لا يعلوها الماء ، فاذا بلغها السيل كان جارفاً مجحفاً .  
 وهو مثل يضرب للشيء يتجاوز الحد ويتفاهم . مجمع الأمثال ٦٠/١ ، لسان (زبي) .

(٢) الكُنَّاش : الدفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً الى اليوم .  
 تاج العروس ٣٤٧/٤ .

(٣) ذكره المقرئ في نفع الطيب ٢٤٤/٤ ، بين مؤلفات ابن الخطيب بهذا العنوان :  
 « استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود » .

حتى من المغرب اذا سمعت الركب يتوجه منه فلا أدري هل  
بلغكم شيء من ذلك أم لا. والأحوال كلها على ما تركتموها عليه.  
وأحببكم بخير. على ما علمتم من الشوق والتشوف والارتقاض<sup>(١)</sup>  
لمفارقتكم. ولا حول ولا قوة الا بالله.

والله يحفظكم. ويكون لكم. ويتولى أموركم؛ والسلام  
عليكم ورحمة الله. من المحب الواحش الشيخ ابن الخطيب. في غرة  
ربيع الثاني من عام احدى وسبعين وسبعمائة.

وبباطنه مدرجة نصها:

سيدي رضي الله عنكم. استقر بتلمسان. في سبيل تقلب  
ومطاوعة مزاج تعرفونه. صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد الله  
الشقوري. فان اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره وهذا  
لا يحتاج معه الى مثلكم<sup>(٢)</sup>.

عنوانه: سيدي ومحل أخى. الفقيه الجليل. الصدر الكبير  
المعظم. الرئيس الحاجب. العالم الفاضل الوزير ابن خلدون. وصل  
الله سعده. وحرس مجده. بمنه.

(١) الارتقاض: الحزن لمفارقتكم.

(٢) كذا في الأصول؛ ومقتضى السياق أن ما يختاره لا يحتاج في اختياره الى مثلكم.

وإنما طولتُ بذكر هذه المخاطبات . وإن كانت فيما يظهر .  
خارجة عن غرض الكتاب . لأن فيها كثيراً من أخباري . وشرح  
حالي . فيستوفي ذلك منها من يتشوف اليه من المطالعين للكتاب .

ثم إن السلطان أبا حمّو لم يزل مُعْتَمِلاً في الاجلاب على بجاية .  
واستئلاف قبائل رياح<sup>(١)</sup> لذلك . ومعوّلاً على مُشايعتي فيه . ووَصَلَ  
يده مع ذلك بالسلطان أبي اسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس  
من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية  
وُقَسَنْطِينَة ، وهو ابن أخيه ، من العداوة التي تقتضيها مقاسمة  
النسب والملك ، وكان يوفد رسله عليه في كل وقت ، ويمرون بي ،  
وأنا ببسكرة ، فأؤكّد الوُصْلَة<sup>(٢)</sup> بمخاطبة كل منهما ، وكان أبو زيان  
ابن عم السلطان أبي حمّو بعد إجماله عن بجاية ، واختلال معسكره ،  
قد سار في أثره الى تلميسان ، وأجلب على نواحيها ، فلم يظفر بشيء ،  
وعاد الى بلاد حصين ، فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجم<sup>(٣)</sup> النفاق  
في سائر أعمال المغرب الأوسط ، واختلف أحياء زُغْبَة على السلطان ،  
وانتبد الكثير عنه الى القفر . ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير

(١) هم من أعز قبائل بني هلال ، وأكثرهم جمعا . أطال ابن خلدون القول في قبائل  
رياح ، وما كان لها من الأحداث في المغرب في المجلد السادس من العبر .

(٢) الوصلة بالضم : الاتصال ، وكل ما اتصل بشيء ، فالذي بينها وصلة .

(٣) نجم : طلع وظهر .



منهم ؛ فخرج في عساكره في مُنتَصَفِ تسع وستين الي حُصَيْن وأبي  
 زِيَّان ، واعتصموا بجبل تَيْطَرِي ، وبعث الي في استنفار الدَّوَاوِدَةِ  
 الأخذ بحُجَزَتِهِمْ <sup>(١)</sup> من جهة الصحراء ، وكتب يستدعي أسيادهم :  
 يعقوب بن علي كبير أولاد محمد ، وعثمان بن يوسف كبير أولاد  
 سباع بن يحيى . وكتب الي ابن مَزْنِي قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك ،  
 فأمدَّهم ؛ وسرنا مغرَّبين إليه ، حتى نزلنا القَطْفَا قِبْلَةَ تَيْطَرِي ، وقد  
 أحاط السلطان به من جانب التل ، علي أنه اذا فرغ من شأنهم سار  
 معنا الي بِجَايَةِ وبلغ الخبر الي صاحب بجاية أبي العباس ؛ فاستألف من  
 بقي من قبائل رياح ، وعسكر بطرف ثنية القِصَاب المُفْضِيَةِ الي المَسِيلَةِ .  
 وبينما نحن علي ذلك اجتمع المخالفون من زُغْبَةِ : وهم خالد بن عامر  
 كبير بني عامر وأولاد عريف كبراء سُوَيْد ، ونهضوا الينا بمكاننا  
 من القَطْفَا ؛ فاجفلت احياء الدَّوَاوِدَةِ ، وتأخرنا الي المَسِيلَةِ ، ثم الي  
 الزَّاب . وسارت زُغْبَةُ الي تَيْطَرِي ، واجتمعوا مع ابي زِيَّان وحُصَيْن ،  
 وهجموا علي معسكر السلطان ابي حَمُو فقلَّوه ورجع منهزماً الي  
 تِلْمَسَانَ . ولم يزل من بعد ذلك علي استتلاف زُغْبَةِ ورياح يؤمِّل  
 الظَّفَر بوطنه وابن عمه ، والكُرَّة علي بِجَايَةِ عاماً فعاماً ، وأنا علي حال  
 في مُشَايَعَتِهِ ، وإيلاف ما بينه وبين الدَّوَاوِدَةِ ، والسلطان أبي اسحق  
 صاحب تونس ، وابنه خالد من بعده . ثم دخلت زُغْبَةُ في طاعته ،

(١) الحجة « بالضم » : معقد الإزار .

واجتمعوا على خدمته ، ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين  
وبجاية ، وذلك في أخريات احدى وسبعين ؛ فوفدت عليه بطائفة من  
الدَّوَاوِدة اولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف احواله ، ونطالعه  
بما يرسم لهم في خدمته ، فلقيناه بالبطحاء . وضرب لنا موعداً بالجزائر ،  
انصرف به العرب الى اهلهم ، وتخلّفت بعدهم لقضاء بعض الاغراض  
واللحاق بهم ، وصليت به عيد الفطر على البطحاء ، وخطبت به ،  
وأنشدته عند انصرافه من المصلّى أهنيه بالعيد ، وأحرّضه :

هذي الديارُ فحيّهنّ صباحاً      وقف المطايا<sup>(١)</sup> بينهنّ طلاحاً<sup>(٢)</sup>  
لا تسأل الأطلالَ إن لم ترّوها      عبراتُ عينك واكفاً مُمتاحاً  
فلقد أخذن على جفونك موثقاً      أن لا يُرينَ مع البعادِ شحاحاً  
إيه عن الحيّ الجميع وربّما      طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحاً  
.....

ومنازلٍ للظاعنين استعجمت      حزنناً وكانت بالشُرورِ فصاحاً  
وهي طويلة ، ولم يبق في حفظي منها الا هذا .

وسنما نحن في ذلك ، بلغ الخبر بان السلطان عبد العزيز<sup>(٣)</sup> صاحب

(١) جمع مطية : وهي الناقة أو البعير يمتطي ظهره .

(٢) جمع طلع « بالكسر » : وهي الناقة أضمرها الكلال ، وأجهدا الإعياء من طول السفر .

(٣) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس بن أبي سالم المريني ولي سنة ٧٩٦ بعد وفاة ابيه  
أبي سالم ، وتوفي سنة ٧٩٩ . الاستقصا ١٤١/٢ وما بعدها .

المغرب الأقصى من بني مرين ، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمرأ كُش ، وكان آخذاً بِمُخَنَّقِهِ<sup>(١)</sup> منذُ حَوْل . وساقه الى فاس فقتله بالعذاب ، وانه عازم على النهوض الى تِلِمَّسان ، لما سلف من السلطان ابي حمو اثناء حصار السلطان عبدالعزيز لعامر في جَبَلِه ، من الاجلاب على ثغور المغرب ؛ ولحين وصول هذا الخبر ؛ اضرب السلطان ابو حمو عن ذلك الشأن الذي كان فيه ، وكرراً راجعاً الى تِلِمَّسان . واخذ في اسباب الخروج الى الصحراء ، مع شيعة بني عامر من احياء زُغَبَة ، فاستألف ، وجمع ، وشدَّ الرِّحَال ، وقضى عيد الاضحى ؛ وطلبت منه الاذن في الانصراف الى الاندلس ، لتعذر الوجهة الى بلاد رياح ، وقد اظلم الجوُّ بِالْفِتْنَةِ ، وانقطعت السُّبُل ؛ فاذن لي ، وحمّلي رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر . وانصرفت الى المرسى بهنّين ؛ وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره ؛ فأجفل بعدي من تلمسان ، ذاهباً الى الصحراء عن طريق البطحاء . وتعذر عليّ ركوب البحر من هُنَيْن فَأَقْصَرْتُ ، وتأدّى الخبر الى السلطان عبدالعزيز بأني مقيم بهنّين ، وان معي وديعة احتملتها الى صاحب الأندلس ، تخيّل ذلك بعض الفواة ، فكتب الى السلطان عبدالعزيز فأنفذ من وقته سرّية<sup>(٢)</sup> من تازا تعترضني لاسترجاع تلك

(١) الخنق : موضع الخنق من العنق .

(٢) السرية : قطعة من الجيش : ويقال : خير السرايا أربع مئة .

الوديعة ، واستمرّ هو الى تِلِمْسَان ؛ ووافتنى السّرية بهُنين و كشفوا  
الخبر فلم يَقِفُوا على صحته ، وحملوني الى السلطان ، فاقبته قريباً من  
تِلِمْسَان ، واستكشفني عن ذلك الخبر ، فاعلمته بيقينه . وعَنَّفني على  
مفارقة دارهم ، فاعتذرت له بما كان من 'عمر بن عبد الله المستبدّ عليهم' ،  
وشهد لي كبير مجلسه ، ووليُّ أبيه وابنُ وليّه : وَزَمَار بن عَرِيف ،  
ووزيرُه 'عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة' ؛ واحتفّت الالطاف .  
وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملكها ؛  
فهوئتُ عليه السبيل الى ذلك ، فسُرّب به ؛ وأقمت تلك الليلة في  
الاعتقال . ثم اطلقني من الغد ، فعمدت الى رباط الشيخ الولي أبي  
مدّين ، ونزلت بجواره مؤثراً للتّخلي والانقطاع للعلم لو تركت له .

هشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب

علي بن عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز تِلِمْسَان ، واستولي عليها ، وبلغ  
خبره إلى أبي حمو وهو بالبطحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه  
وشيعة من بني عامر ، ذاهباً الى بلاد رياح ؛ فسرّح السلطان وزيره  
أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه احياء زُغَبَة  
والمعقل باستيلاف وليّه وَزَمَار وتدييره ؛ ثم أعمل السلطانُ نظره  
ورأى ان يقدمني أمامه الى بلاد رياح لأوطد أمره ، وأحملهم على

مناصرته ، وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان آنس مني من استتباع رياح ، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة . فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين<sup>(١)</sup> . وأنا قد أخذت في تدريس العلم ، واعتزمت على الانقطاع ؛ فآنسني ، وقرّبي ، ودعاني الى ما ذهب اليه من ذلك ؛ فلم يسعني إلا إجابته . وخلع عليّ ، وحملني ؛ وكتب الى شيوخ الدّواودة بامثال ما ألقىه إليهم من أوامره . وكتب الى يعقوب بن عليّ ، وابن مزنّني بمساعدتي على ذلك ، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر ، ويحولوه الى حيّ يعقوب بن عليّ ؛ فودعته وانصرفت في عاشوراء اثنين وسبعين ؛ فلاحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء . ولقيته ، ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدمت أمامه . وشيعني ونزّمار يومئذ ، وأوصاني بأخيه محمّد . وقد كان أبو حمّو قبض عليه عند ما أحس منهم بالخلاف ، وأنهم يرومون الرحلة الى المغرب . وأخرجه معه من تلمسان مُقيّداً ، واحتمله في معسكره ؛ فأكد عليّ ونزّمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن . وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سُويْد يُبَذَرِق<sup>(٢)</sup> بي ويتقدّم الى أحياء حصّين باخراج أبي زيان من بينهم ؛ فسرنا جميعاً ،

(١) أبو مدين : شعيب بن الحسن الأندلسي . صوفي شهير ، يعرف بأبي مدين الغوث .

(٢) البذرقة ، بالذال المعجمة وبالمهملّة أيضاً : الخفارة ؛ والمبذرق : الخفير .

وانتهينا الى أحياء حُصَيْن . وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمِّه  
وَنَزَمَ مار إليهم ، فَتَبَدَّوا الى أبي زِيَان عهده ، وبعثوا معه منهم من  
أوصله الى بلاد رياح . ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سَبَاع ، وتوغلوا  
به في القفر ، واستمرَّيت أنا ذاهباً الى بلاد رياح ؛ فلما انتهيت الى  
المَسِيلَةِ ألفت السلطان أبا حَمُو وأحياء رياح مُعسِّكِينَ قريباً منها في  
وطن أولاد سَبَاع بن يحيى مِنَ الدَّوَاوِدَةِ ، وقد تَسَاءَلُوا<sup>(١)</sup> إليه ،  
وبذلَ فيهم العطاء ليجتمعوا إليه . فلما سمعوا بمكاني بالمَسِيلَةِ ، جاؤوا  
إليَّ فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدتُ أعيانهم  
وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الدِّيَالِمِ عند  
نهر وَاِصِل ؛ فأتوه طاعتهم ، ودَعَوْه الى دخول بلادهم في اتباع  
عدوه . ونهَضَ معهم ، وتقدمت أنا من المَسِيلَةِ الى بَسْكِرَةِ ؛ فلقيت  
بها يعقوب بن علي . واتفق هو وابنُ مُزَنَّى على طاعة السلطان ، وبعث  
ابنه محمداً للقاء أبي حَمُو وأمير بني عامر خالد بن عامر ، يدعوهم الى  
نزول وَطْنِهِ ، والبُعْدَ به عن بلاد السلطان عبد العزيز ؛ فوجده متدلياً  
من المَسِيلَةِ الى الصَّحراء . ولقيه على الدَّوَسَنِ وبات لَيْلَتَهُ يُعرض  
عليهم التحول من وَطْنِ أولاد سَبَاع الى وطنهم بشرقِي الزَّاب .  
وأصبح يومه كذلك ، فما راعهم آخرَ النَّهارِ إلا انتشار العجاج خارجاً

(١) كذا ، وفي ب : تسائلوا . ومعنى تسائل القوم : خرجوا متتابعين واحداً بعد واحد .  
ومعنى تسائل القوم : تواردوا من كل جهة .

إليهم من أفواه الثَّنيَّة ؛ فركبوا يستشرفون ، وإذا بهوادي الخيل  
طالعة من الثَّنيَّة ، وعساكر بني مَرِين والمَعْقِل وزُغبة متتالية أمام  
الوزير أبي بكر بن غازي ، قد دلَّ بهم الطريق وفدُ أولاد سَبَاع  
الذين بعثتهم من المَسِيلَة ؛ فلما أشرفوا على المُخَيِّم ، أغاروا عليه مع  
غروب الشمس ؛ فأجفل بنو عامر ، وانتهب مُخَيِّم السلطان أبي حَمُو  
ورحائله وأمواله . ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزَّق شملُ ولده وحرمه ،  
حتى خَلَصُوا إليه بعد أيام ، واجتمعوا بقصور مُصَاب<sup>(١)</sup> من بلاد  
الصحراء ، وامتلات أيدي العساكر والعرب من نهابهم . وانطلق محمد  
ابن عريف في تلك الهَيْعَة . أطلقه الموكلون به ، وجاء إلى الوزير  
وأخيه ونزَّمار ، وتلقَّوه بما يجب له . وأقام الوزير أبو بكر بن غازي  
على الدَّوَسَن أياما أراح فيها . وبعث إليه ابن مَزْنَى بِطاعته ، وأرغد  
له من الزَّاد والعُلُوفَة<sup>(٢)</sup> ، وارتحل راجعاً إلى المغرب ؛ وتخلَّفت بعده  
أياما عند أهلي بَبْسَكْرَة . ثم ارتحلت إلى السُّلطان في وفد عظيم من  
الدَّوَاوِدَة ، يقدرُهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي ، وجماعة من  
أعيانهم ؛ فسأبقنا الوزير إلى تِلِمَسَّان ، وقد منا على السُّلطان ؛ فوسَّعنا  
من حَبائثه<sup>(٣)</sup> وتكرَّمته ، ونزَّله ما بعد العَهْد بِمثله . ثم جاء من بعدنا

(١) رسم الصاد في النسخة الخطية على قاعدته ، التي قررها صدر المقدمة ، بصورة صاد وسطها  
زاي ، إشارة إلى ان الصاد تنطق مشمة بالزاي .

(٢) العُلُوفَة ( بالضم ) : العلف .

(٣) الحَبَاء ( بالكسر ) : العطاء .

الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء ، بعد أن مرَّ بقصور بني عامر<sup>(١)</sup> هنالك فخرَّ بها ، وكان يومُ قدومه على السلطان يوماً مشهوداً ؛ وأذن بعدها لوفود الدَّواودة بالانصراف إلى بلادهم . وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ، ووليه ونزمار بن عريف ؛ فودَّعوه ، وبالسَّخ في الاحسان إليهم ، وانصرفوا إلى بلادهم . ثمَّ أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الدَّواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين ؛ فوامرني في ذلك ، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم ، فانطلقت لذلك . وكان أحياءُ حصين قد توجَّسوا الخيفة من السلطان وتنكروا له ، وانصرفوا إلى أهلهم بعدَ مرجعهم من غزاتهم مع الوزير ، وبأدروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى<sup>(٢)</sup> بن علي ، وأنزلوه بينهم ؛ واشتملوا عليه ، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمو ؛ واشتعل المغرب الأوسط ناراً . ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة ، وهو حمزة بن علي بن راشد ؛ فرَّ من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها فاستولى على شلف ، وبلاد قومه<sup>(٣)</sup> . وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود<sup>(٤)</sup> في العساكر

(١) كانت هذه القصور — كما يفهم من حديث ابن خلدون عنها — بالصحراء ، في جهة القبلة من الجبل المسمى بجبل راشد .

(٢) هم أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة .

(٣) يريد بلاد مغراوة ، ويأتي قوله الصريح في هذا .

(٤) هو عمر بن مسعود بن منديل بن حمادة .



لمنازلته ، وأعياداً ، وانقطعت أنا ببسكرة ، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة . وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفرُّ الوزير ابن الخطيب من الأندلس<sup>(١)</sup> ، وقدومه على السلطان بتلمسان ، توجس الخيفة من سلطانه ، بما كان له من الاستبداد عليه ، وكثرة السعاية من البطانة فيه ، فأعمل الرحلة الى الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه . فلما حاذى جبل الفتح<sup>(٢)</sup> قُتل الفُرْضة<sup>(٣)</sup> ، دَخَلَ الى الجبل ، وبِيدِهِ عَهْدُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْقَائِدِ هُنَالِكَ بِقَبُولِهِ . وَأَجَازَ الْبَحْرَ مِنْ حِينِهِ إِلَى سَبْتَةٍ ، وَسَارَ إِلَى السُّلْطَانِ بَتِلْمَسَانَ ، وَقَدِمَ عَلَيْهَا فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ . وَتَلَقَّاهُ السُّلْطَانُ مِنْ الْحَطْوَةِ وَالتَّقْرِيبِ وَإِدْرَارِ النِّعَمِ بِمَا لَا يُعْهَدُ مِثْلُهُ . وَكَتَبَ إِلَيَّ مِنْ تِلْمَسَانَ يُعَرِّفُنِي بِخَبْرِهِ ، وَيُلِمُّ بَبَعْضِ الْعِتَابِ عَلَى مَا بَلَغَهُ مِنْ حَدِيثِي الْأَوَّلِ بِالْأَنْدَلُسِ . وَلَمْ يَحْضُرْنِي الْآنَ كِتَابُهُ ، فَكَانَ جَوَابِي عَنْهُ مَا نَصَّهُ :

الحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولا رادٌّ لما قضاه الله .

يا سيدي ونعم الذُّخْرَ الْأَبَدِي ، وَالْعُرْوَةَ الْوُثْقَى الَّتِي اعْتَلَقْتُهَا

(١) قد فصل ابن خلدون الحديث عن مفر ابن الخطيب ، وقدومه الى تلمسان ، وبين الدواعي السياسية التي دفعته الى الفرار في المجلد السابع من العبر .

(٢) يريد جبل طارق . وقد تقدم ذكره ويسمى جبل الفتح ؛ سماه بذلك عبد المؤمن بن علي عاقل الدولة الموحدية - حين نزل به قاصداً بلاد الأندلس للجهاد .

(٣) فرضة البحر ( بالضم ) : محط السفن .

يَدِي<sup>(١)</sup>، أَسْلِمَ عَلَيْكُمْ سَلَامَ الْقُدُومِ، عَلَى الْمَخْدُومِ، وَالْخَضُوعِ،  
لِلْمَلِكِ الْمَتَّبِعِ، لَا أَبِلَ أَحْيَاكُمْ تَحْيَاةَ الْمَشُوقِ، لِلْمَعْشُوقِ،  
وَالْمُدْلِجِ<sup>(٢)</sup>، لِلصَّبَاحِ الْمَتَّبِلِجِ<sup>(٣)</sup>، وَاقَرَّرَ مَا أَنْتُمْ أَعْلَمَ بِصَحِيحِ عَقْدِي  
فِيهِ مِنْ حَبِي لَكُمْ، وَمَعْرِفَتِي بِمِقْدَارِكُمْ، وَذَهَابِي إِلَى أْبَعْدِ الْغَايَاتِ فِي  
تَعْظِيمِكُمْ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ، وَالْإِشَادَةِ فِي الْإِفَاقِ بِمَنَاقِبِكُمْ،  
دَيْدَنًا<sup>(٤)</sup> مَعْرُوفًا، وَسَجِيَّةً<sup>(٥)</sup> رَاسِخَةً، يَعْلَمُ اللَّهُ وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا؛  
وَبِهَذَا كَمَا فِي عِلْمِكُمْ قَسَمًا<sup>(٦)</sup> مَا اخْتَلَفَ لِي فِيهِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ، وَلَا شَاهِدٌ  
وَلَا غَائِبٌ. وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِي، وَأَكْبَرُ شَهَادَةً<sup>(٧)</sup> فِي خَفَايَا ضَمِيرِي.  
وَلَوْ كُنْتُ ذَاكَ، فَقَدْ سَلَفَ مِنْ حَقُوقِكُمْ، وَجَمِيلَ أَخَذِكُمْ، وَاجْتِلَابِ  
الْحِظِّ - لَوْ هَيَّأَهُ الْقَدَرُ - بِمَسَاعِيِكُمْ، وَإِثَارِي بِالْمَكَانِ مِنْ سُلْطَانِكُمْ،  
وَدَوْلَتِكُمْ، مَا يَسْتَلِينَ مَعَاطِفَ الْقُلُوبِ<sup>(٨)</sup>، وَيَسْتَلُّ سَخَائِمَ

(١) اعتلق الشيء، وبه: أحبه؛ كتملقه، وتعلق به.

(٢) أدلج: سار الليل كله، أو جزءاً منه.

(٣) تبلج الصبح: أسفر وضاء.

(٤) الديدن: العادة.

(٥) السجية: الخلق.

(٦) الكلام على معنى: «وبهذا، كما في علمكم، أقسم قسماً الخ».

(٧) الشهادة: الحضور؛ وليس يبعد أن يكون أصل الكلام: «وأكبر شهادة بما في خفايا

ضميري»، فسقطت كلمة «بما» من الأصول.

(٨) استلان الشيء: ألانه. (أساس). ومعاطف القلوب: مثانيها؛ ومن كلامهم:

«رزقك الله عيشاً تلين لك مثانيه ومعاطفه». يريد: اسديت إلي من خيرك ما من شأنه أن يصل

إلى أعماق القلوب. (وأنظر اللسان (ثنى)).

الهواجس<sup>(١)</sup> ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة<sup>(٢)</sup> ، أو إحقاق  
ظن<sup>(٣)</sup> ؛ ولو تعلّق بقلب ساق حرّ ذرّة وذرّة<sup>(٤)</sup> ، فحاش الله أن  
يقدح في الخلوص<sup>(٥)</sup> لكم ، أو يرجح سوابقكم<sup>(٦)</sup> ، إنما هو خبيثة  
الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يُقسم به ، ما أطلع على  
مستكنّه منّي غير صديقي وصديقكم الملبس - كان - لي ولكم  
الحكيم الفاضل العَلَم أبي عبد الله الشَّقُورِي أعزّه الله . نفثة مصدور ،  
ومبائة<sup>(٧)</sup> خلوص ، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم ، وقد عَلِمَ ما  
كان منّي حين مفارقة صاحب تليّسان ، واضمحلال أمره ، من إجماع  
الأمر على الرحلة إليكم ، والخفوف<sup>(٨)</sup> إلى حاضرة البحر للاجازه إلى  
عدوّتكم ، تعرّضت فيها للتُّهم ، ووقفت بمجال الظنون ، حتّى  
تورّطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آتِه ، ولا طويت العُقد عليه ،  
لولا حلم مولانا الخليفة ، وحسن رأيه في وثبات بصيرته ، لكنت

(١) السخائم : الصفائن ، والموجدة في النفس . والهواجس : الخواطر .

(٢) أحاشيكم : انزهكم . واستشعار النبوة : اضمارها . والنبوة الجفوة .

(٣) يقول : اني اجلكم ان تصدقوا في الظنون ، فتحولوها الى يقين ثابت وحقيقة واقعة .

(٤) كذا وفي ب : ساق حررزور . واطنه تحريف . وبلغني ذرّة من خير : قليل منه .  
ويجوز ان يكون المعنى : ان وفائي لك بحيث لا تلحقه الريبة . ولو جاز ان يتعلّق بقلب ساق  
حر ، وقد سار المثل بوفائه ، قليل جداً من عدم الوفاء ، فمعاذ الله ان يتعلّق بقلبي هذا القليل  
فيقدح في حفظي لعهد الاخوة .

(٥) خلص الشيء خلوصاً : صار خالصاً ، ويستعمله ابن خلدون بمعنى الاخلاص .

(٦) جمع سابقة ؛ وهي ما تسبق الناس اليه . يريد : اياديكم التي اسديتموها الي .

(٧) المبائة : مصدر ميمي بمعنى البث ؛ وهو ان تظهر لغيرك ما عندك من سر .

(٨) الخفوف : سرعة السير .

في الهالكين الأولين ؛ كلُّ ذلك شوقاً الى لقاءكم ، وتمثلاً لانسكم ؛  
 فلا تظنُّوا بي الظنون ، ولا تُصدِّقوا في التَّوَهُّمات ، فأنا من عِلِمَتُمْ  
 صداقةً ، وسداجةً ، وخلصاً ، وإتفاق ظاهرٍ وباطن ، أثبتُ الناس  
 عهداً ، وأحفظُهم ، غيباً وأعرفُهم بوزن الاخوان ومزايَا الفضلاء ؛  
 ولأمرٍ ما تأخر كتابي من تِلْمِسان فأني كنت أستشعر ممّن  
 استضافني رَيباً بخطاب سواه ، خصوصاً جهتكم ، لقديم ما بين  
 الدولتين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد ، مع أن الرسول تردّد  
 اليّ ، وأعلمني اهتمامكم واهتمام السُّلطان ، تولاه الله ، باستكشاف  
 ما انبهم<sup>(١)</sup> من حالي ؛ فلم اترك شيئاً مما اعلم تشوُّفكم اليه الا وكشفت  
 له قناعه ، وأمّنته على بلاغه<sup>(٢)</sup> ؛ ولم ازل بعد انتياش<sup>(٣)</sup> مولانا  
 الخليفة لذمائي ، وجذّ به بضبعي<sup>(٤)</sup> ساجاً في تيار الشواغل كما علمتُم  
 القاطعة حتى عن الفكر .

وسقطت الي بمحل خدمتي من هذه القاصية أخبارُ خلوصكم<sup>(٥)</sup>  
 الى المغرب ، قبل وصول راجلي<sup>(٦)</sup> الى الحضرة ، غير جليلة ولا ملتئمة

(١) كذا وفي ب : « أبهم » والصواب استبهم . تاج العروس ( بهم ) .

(٢) البلاغ : الابلاغ ؛ وفي القرآن : « فهل على الرسل الا البلاغ المبين » .

(٣) الانتياش : الانقاذ من الهلكة .

(٤) الضبع : العضد ؛ واخذ بضبعيه : اي بعضديه .

(٥) خلص اليه : وصل اليه .

(٦) الراجل : خلاف الفارس ؛ وهو من ليس له ظهر يركبه في سفره .

ولم يتعين مُلقي العَصَى ولا مستقرُّ النوى<sup>(١)</sup> ؛ فأرجيت<sup>(٢)</sup> الخطاب  
الى استجلائها ؛ وأفدت<sup>(٣)</sup> في كتابكم العزيز عليّ ، الجاري على سنن  
الفضل ، ومذهب المجد ، غريب ما كَيْفَه القَدَر من تنويع الحال  
لديكم . وعجبت من تأتّي<sup>(٤)</sup> أملكم الشارد فيه كما كنا نستبعده  
عند المفاوضة ؛ فحمدت الله ليكم على الخلاص من ورطة الدُّوَل  
على احسن الوجوه ، واجمل المَخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين ،  
العائدة بحسن المآل في المُخَلَّف : من اهل وولد ومتاع واثر ، بعد  
ان رُضْتُمْ جَمُوح<sup>(٥)</sup> الايام ، وتوقّلتُم قُلَل<sup>(٦)</sup> العزّ ، وقُدْتُم الدنيا  
بجذافيرها<sup>(٧)</sup> ، واخذتم بأفاق السماء على اهلها . وهنيئاً فقد نالت نفُسُكم  
التوّاقَة ابعداً امانيتها ، ثم تأقت الى ما عند الله ؛ وأشهد لَمَّا<sup>(٨)</sup> أُلْهِمْتُم

(١) مستقر النوى : مكان الإقامة ؛ يقال : استقرت نواهم : اي اقاموا .

(٢) أرجيت ، وارجات : أخرت . يهمز ولا يهمز .

(٣) افدت : استفدت .

(٤) تأتّي الامر ؛ تهيأ ؛ والتأقي التهيؤ .

(٥) راض الدابة : ذلها . وفرس جوح : عادته ان يركب رأسه فلا يشيه راكبه . يريد ذلتم

الايام التي لا تسير وفق رغبات الناس ، وجعلتموها تسير حسب رغبتكم .

(٦) توقل في الجبل : صعد فيه ؛ وقلة كل شيء : اعلاه .

(٧) بجذافيرها : بأسرها .

(٨) ادخل ابن خلدون لام الابتداء على « ما » النافية ؛ وهو استعمال شاذ . وقد ورد

هذا الاستعمال في قول الشاعر .

لما اغفلت شكرك فاصطنعني فكيف ومن عطائك جل مالي

وفتوى النجاة في ذلك : أن « ما » النافية ، أشبهت « ما » التي بمعنى الذي ، فجاز أن تدخل

عليها لام الابتداء . شرح الرضي على الكافية ٣٥٦/٢ .

للاعراض عن الدنيا ونزع اليد من حطامها عند الاصحاب<sup>(١)</sup>  
والاقبال ، ونهى<sup>(٢)</sup> الآمال ، الا جذباً وعنايةً من الله ، وحُباً ؛ واذا  
اراد الله امراً يسّر اسبابه .

واتصل بي ما كان من تحفّسي<sup>(٣)</sup> المثابة<sup>(٤)</sup> المولوية بكم ، واهتزاز  
الدولة لقُدومكم ؛ ومثل تلك الخلافة ، أيّدها الله ، من يُثابر على  
المفاخر ، ويستأثر بالاخير . وليت ذلك عند اقبالكم على الحظ ،  
وأنسِكُم باجتلاب الآمال ، حتى يحسُن المتاع بكم ، ويتجمل السريرُ  
الملوكي بمكانكم ؛ فالظنُّ ان هذا الباعث الذي هزَم الآمال ، ونَبَذَ  
المحظوظ ، وهوَّانَ المُفارقَ العزيز ، يسومكم الفِرار الى الله ، حتى  
يأخذ بيدكم إلى فضاء المُجاهدة<sup>(٥)</sup> ، ويستوي بكم على جودي<sup>(٦)</sup>

(١) الإصحاب : الانقياد من بعد صعوبة . يعني : أعرضت عن الدنيا عند انقيادها لك واقبالها عليك .

(٢) جمع نية ؛ وهي غاية الشيء .

(٣) التحفي ، والاحتفاء : المبالغة في الإكرام .

(٤) المثابة : الموضع يثاب ، أي يرجع اليه مرة بعد أخرى . وفي القرآن : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس » .

(٥) الفضاء : المستوى من الارض المتسع . والمجاهدة : أن تحمل النفس على المشاق البدنية ، ومخالفة الهوى .

(٦) الجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر ؛ وفي قول ابن خلدون هذا : اشارة الى ما يقال عند قول الله تعالى : « واستوت على الجودي » من رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان . معجم البلدان ٣/ ١٦٢ .

الرياضة<sup>(١)</sup> . والله يهدي للتي هي اقوم . وكأني بالأقدام<sup>(٢)</sup> نقلت ،  
 والبصائر<sup>(٣)</sup> بإلهام الحق صقلت ، والمقامات<sup>(٤)</sup> خلفت بعد ان  
 استقبلت<sup>(٥)</sup> ، والعرفان شيمت انواره وبوارقه ، والوصول  
 انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه . واما حالي ، والظن بكم الاهتمام  
 بها ، والبحث عنها ، فغير خفية بالباب المولوي — اعلاه الله —  
 ومظهرها في طاعته ، ومصدرها عن امره ، وتصاريقها في خدمته ،  
 والزعم اني قمتُ المقام المحمود في التشيع ، والانحياش<sup>(٦)</sup> ، واستمالة  
 الكافة ، الى المناصرة ، ومخالطة القلوب للولاية ؛ وما يتشوقه مجدكم  
 ويتطلع اليه فضلكم واهتمامكم ، من خاصيتها في النفس والولد ،  
 فجبهة خبره<sup>(٧)</sup> مؤدي كتابي اليكم ، ناشئ تأديبي ، وثمره تربيتي ؛  
 فسهلوا له الاذن ، وألينوا له جانب النجوى<sup>(٨)</sup> ، حتى يؤدي ما عندي

(١) الرياضة : تهذيب الأخلاق النفسية .

(٢) جمع قدم ، وهي السابقة التي تثبت للعبد في علم الحق . ويكنى عنها بالقدم ، لان القدم آخر شيء في الصورة ، وهذه السابقة آخر ما يقرب به العبد من الحق .

(٣) جمع بصيرة ؛ وهي قوة للقلب المنور بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها ؛ وهي للقلب بمنزلة البصر للنفس .

(٤) جمع مقام ؛ وهو الموضع يقيم فيه السالك مشغلا بالرياضة استعدادا لتخطيه بعد استيفاء رسومه .

(٥) يريد : استقبلتها ، فأديت واجباتها ، وتجاوزتها فصارت خلفك ؛ ذلك لأن عزمك الصادق ، سوف ينقلك من مقام الى مقام أعلى منه ، ويصل بك الى الله في الزمن القصير .

(٦) الانحياش : التصرف في الأمور .

(٧) يشير الى المثل : « عند جبهة الخبر اليقين » . وفي مجمع الأمثال ٣٠٤/١ ، وتاج العروس : « جفن » ، « جهن » شرح واف لمعنى هذا المثل .

(٨) النجوى : ما ينفرد به الجماعة ، والاثنان ( من حديث ) سراً كان أو ظاهراً .

وما عندكم ، وخُذوه بأعقاب الاحاديث أن يقفَ عند مبادئها ،  
واثمينوه على ما تُحدِّثون ، فليس بظنين<sup>(١)</sup> على السر .

وتشوّفي لما يرجع به اليكم سيدي وصديقي وصديقكم المغرب  
في المجد والفضل ، المساهم في الشدائد ، كبير المغرب ، وظهر  
الدولة ، ابو يحيى بن ابي مدين - كان الله له - في شأن الولد  
والمخلف ، تشوّف الصديق لكم ، الضنين<sup>(٢)</sup> على الايام بقلامة الظفر  
من ذات يدكم ، فأطلعوني طلع ذلك<sup>(٣)</sup> ولا يهكم ، فالفراق الواقع  
حسن ، والسلطان كبير ، والاثرجمیل ، والعدو الساعي قليل وحقير ،  
والنية صالحة ، والعمل خالص ؛ ومن كان لله كان الله له .

واستطلاعُ الرياسة المزنيّة الكافلة - كافأ الله يدها البيضاء -  
عني وعنكم الي مثله من احوالكم استطلاعُ من يسترجح وزانكم ،  
ويشكر الزمان على ولادته<sup>(٤)</sup> لمثلکم .

وقد قررت لعلومه من مناقبكم ، وبعد شأوكم ، وغريب  
منحاكم ، ما شهدت به آثاركم الشائعة ، الخالدة في الرسائل المتأدية ،

(١) رجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قول الله تعالى : « وما هو على الغيب بظنين » ( آية ٢٤ من سورة التكاوير ) .

(٢) الضنين : البخيل .

(٣) يقال : أطلعتني طلعي ؛ أي بشته سري .

(٤) الولاد ، بالكسر : الولادة .



وعلى ألسنة الصادر والوارد من الكافة ؛ من حمل الدولة ، واستقامة السياسة ؛ ووقفته على سلامكم ، وهو يُراجعكم بالتَّحية ، ويساهمكم بالدُّعاء ،

وسلامي على سيدي ، وفلذة كيدي<sup>(١)</sup> ومحلّ ولدي ، الفقيه الزكي الصدر ابي الحسن نجليكم ، أعزّه الله ؛ وقد وقع مني موقع البشري حلّوله من الدولة بالمكان العزيز ، والرُّتبة النابهة ، والله يُلحِفكم جميعاً رداء العافية والستر ويُمهد لكم محلّ الغبطة والأمن ، ويحفظ عليكم ما اسبغ من نعمته ، ويُجريكم على عوائد لطفه وعنايته ؛ والسلام الكريم يَخْصُكم من المحبِّ الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم : عبد الرحمن بن خلدون ، ورحمة الله وبركاته في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مائة .

وكان بعث اليّ مع كتابه نسخة كتابه الى سُلْطانه ابن الاحمر صاحب الاندلس ، عندما دخل جبل الفتح ، وصار الى إيالة<sup>(٢)</sup> بي مرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيتُ ان أثبته هنا وان لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجودة ، وان مثله لا يُهمَل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطِّلاع على

(١) قطعة كبدي .

(٢) الإيالة ، بكسر الهمزة : الولاية ؛ يقال : آل على القوم أولاً ، وإيالا ، وإيالة بمعنى ولي

عليهم .

اخبار الدول في تفاصيل احوالها . ونصُّ الكتاب :

بأنوا فَمَنْ كان باكياً يبكي هَذي رِكابٌ<sup>(١)</sup> السُّرى بلا شكٍ  
فَمِنْ ظُهور الرِّكابِ<sup>(٢)</sup> مُعَمَّلةٌ الى بطون الرُّبى<sup>(٣)</sup> الى الفُلكِ  
تصدُّع الشَّمْلِ مثمَّما انحدرتُ الى صُبوبٍ<sup>(٤)</sup> جواهرُ السِّلَكِ  
مِنَ النَّوى<sup>(٥)</sup> قبلُ لم أَزَلْ حَذِرا هَذي النَّوى جَلَّ مالِكُ المُلكِ

مولاي . كان الله لكم وتولَّى أمركم . أُسَلِّمَ عليكم سلامَ  
الوداع ، وأدعو الله في تيسير اللِّقاء والاجتماع ، بعد التفرُّق  
والانصداع ؛ وأقرِّر لديكم ان الانسان أسير الأقدار ، مسلوب  
الاختيار ، متقلِّب في حكم الخواطر والأفكار ، وان لا بد لكل اول من  
آخر ، وان التفرُّق لَمَّا لَزِمَ كلَّ اثنين بِمَوْتٍ او في حياة ، ولم يكن  
منه بُد ، كان خيرُ انواعه الواقِعة بين الاحباب ، ما وقعَ على الوجوه  
الجميلة البريئة من الشرور .

ويعلم مولاي حالَ عبده منذ وَصل اليكم من المغرب بوَلَدكم

- 
- (١) الركاب ، بكسر الراء : جمع راكب ؛ والسرى ، كهدي : سير عامة الليل .  
(٢) الركاب ، ككتاب : الإبل التي تحمل القوم ، واحدها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها .  
(٣) جمع ربوة ؛ وهي ما ارتفع من الأرض .  
(٤) الصبوب ، بالضم : الموضع المنحدر ، كالصَّبْب ؛ وبه فسر وصف النبي صلى الله عليه وسلم :  
« كأنما ينحط من صبب » .  
(٥) النوى ، مؤنثة : الوجه الذي يتنويه المسافر من قرب أو بعد .

وَمُقَامُهُ لَدَيْكُمْ بِحَالٍ قَلَقٌ وَقُلْعَةٌ<sup>(١)</sup> ، لَوْلَا تَعْلِيلُكُمْ ، وَوَعْدُكُمْ ،  
وَارْتِقَابُ اللَّطَائِفِ فِي تَقْلِيلِ قَلْبِكُمْ ، وَقَطْعُ مَرَاكِلِ الْإِيَّامِ حَرِيصاً  
عَلَى اسْتِكْمَالِ سِنِّكُمْ ، وَنَهْوُضُ وَلَدِكُمْ وَاضْطِلَاعِكُمْ بِأَمْرِكُمْ ،  
وَتَمَكُّنُ هُدْنَةِ وَطَنِكُمْ ، وَمَا تَحَمَّلَ فِي ذَلِكَ مِنْ تَرْكِ غَرَضِهِ لِفَرْضِكُمْ ،  
وَمَا اسْتَقَرَّ بِيَدِهِ مِنْ عَهْدِكُمْ ، وَأَنَّ الْعَبْدَ الْآنَ لَمَّا تَسَبَّبَ لَكُمْ فِي  
الْهُدْنَةِ مِنْ بَعْدِ الظُّهُورِ وَالْعَزِّ ، وَنَجَحِ السَّغْيِ ، وَتَأْتَى لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ  
الصُّلْحُ ، وَمَنْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ بِالْأَنْدَلُسِ مُشْغِبٌ مِنَ الْقِرَابَةِ ،  
وَتَحْرُكٌ لِمَطَالَعَةِ الشُّغُورِ الْغَرِيبَةِ ، وَقَرُبٌ مِنْ فُرْضَةِ الْمَجَازِ<sup>(٢)</sup> ، وَاتِّصَالُ  
الْأَرْضِ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ ، طَرَقَتْهُ الْإِفْكَارُ ، وَزَعَزَعَتْ صَبْرَهُ رِيَّاحُ  
الْخَوَاطِرِ ، وَتَذَكَّرَ إِشْرَافَ الْعُمُرِ عَلَى التَّمَامِ ، وَعَوَاقِبَ الْإِسْتِغْرَاقِ ،  
وَسِيرَةَ الْفُضْلَاءِ عِنْدَ شُمُولِ الْبَيَاضِ ، فَغَلَبَتْهُ حَالٌ شَدِيدَةٌ هَزَمَتْ  
التَّعَشُّقَ<sup>(٣)</sup> بِالشَّمْلِ الْجَمِيعِ ، وَالْوَطَنِ الْمَلِيحِ ، وَالْجَاهِ الْكَبِيرِ ، وَالسُّلْطَانِ  
الْقَلِيلِ النَّظِيرِ ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ : « مَوْتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا »<sup>(٤)</sup>

فَإِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الْحَالُ الْمَرْجُوُّ مِنْ أَمْدَادِ اللَّهِ ، تَنَقَّلَتْ الْأَقْدَامُ إِلَى  
أَمَامِ ، وَقَوِيَ التَّعَلُّقُ بِعُرْوَةِ اللَّهِ الْوُثْقَى ، وَإِنْ وَقَعَ الْعِجْزُ ، وَافْتَضَحَ

(١) يقال : مكان قلعة ( كهمة ) : ليس بمستوطن ، وهو على قلعة : أي رحلة .

(٢) يريد الميناء الذي يجاز منه إلى المغرب من الأندلس ؛ وهو جبل طارق .

(٣) التعشق : الزوم للشيء من غير مفارقة .

(٤) المعنى : « موتوا اختياراً قبل أن تموتوا اضطراراً ؛ والمقصود بالموت الاختياري :

ترك الشهوات ، وما يترتب عليها من الزلات والغفلات » .

العزم ، فالله يعاملنا بلطفه . وهذا المرتكب مرامٌ صعبٌ ، لكن  
سهله عليّ أمور : منها ان الانصراف لَمَّا لم يكن منه بُد ، لم يتعين  
علي غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المحال . ومنها ان  
مولاي لو سمح لي في غرض الانصراف ، لم تكن لي قدرة على موقف  
وداعه ، لا والله ! وَلَكان الموت أسبق اليّ ، وكفى بهذه الوسيلة  
الْحَيَّة - التي يعرفها - وسيلة . ومنها حرصي على ان يظهر صدقُ  
دعواي فيما كنت اهتِف به ، وأُظنُّ اني لا أَصدُقُ . ومنها اغتنامُ  
المفارقة في زمن الامان ، والهدنة الطويلة ، والاستغناء ؛ اذ كان  
الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها - وهو  
اقوى الاعذار - اني مَهْمَا لم أَطُق تمام هذا الامر ، او ضاق ذرعي  
به ، لعجزٍ ، او مرضٍ ، او خوفٍ طريقٍ ، او نفاد زادٍ ، او شوقٍ  
غالبٍ ، رجعتُ رجوع الاب الشَّفِيق ، الى الولد البرِّ الرُّضي ، اذ لم  
أَخْلِف ورائي مانعاً من الرجوع ، من قولٍ قبيحٍ او فعلٍ ؛ بَلْ  
خَلَّفْتُ الوسائلَ المَرعِيَّة ، والاثار الخالدة ، والسَّير الجميلة ؛ وانصرفتُ  
بِقَصْدٍ شريفٍ فُقت به اشياخي ، وكبارَ وطني ، واهل طَوْرِي ،  
وتركتُكم على اتمِّ ما أَرْضاه ، مُشْنِياً عليكم ، داعياً لكم . وان  
فَسَحَ اللهُ في الأُمْد ، وقضى الحاجة ، فأَملي العودةُ الى ولدي وتُربتي ،

وان قُطِعَ الاجل ، فارجو ان اكون ممَّن وقع أجره على الله<sup>(١)</sup> .

فإن كان تصرُّ في صواباً ، وجارياً على السداد ، فلا يُلام من اصاب ، وان كان عن حَق ، وفساد عقل ، فلا يُلام من اختلَّ عقله ؛ وفسد مزاجه ، بل يُعذر ، ويُشفقُ عليه ، ويُرحم ؛ وإن لم يُعط مولاى أمرى حقّه من العدل ، وجلبت الذنوب ، وحشرت بعدي العيوب ، فحياؤه وتناصفه يُنكر ذلك ، ويستحضر الحسنات ؛ من التربية والتعليم وخدمة السلف وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان ، والارشاد للأعمال الصالحة والمداخلة والملا بسة ؛ لم يتخلل ذلك قطُّ خيانة في مالٍ ولا سرٍّ ، ولا غشٌّ في تدبير . ولا تعلّق به عار ، ولا كدّره نقص ، ولا حمل عليه خوفٌ منكم ، ولا طمعٌ فيما بيدكم ؛ فإن لم تكن هذه دواعي الرّعي والوُصلة والابقاء ، ففيم تكون بين بني آدم ؟

وأنا قد رحلت . فلا أوصيكم بمال ، فهو عندي أهونُ مَثْرُوك ؛ ولا بولَد فهم رجالكم ، وأخدّامكم ، وممَّن يخرص مثلكم على الاستكثار منهم ؛ ولا بعيال ، فهي من مُرَبِّيات بيتكم ، وخواص داركم ؛ إنما أوصيكم بحظّي العزيز — كان عليّ بوطنكم ، وهو أنتم ؛

(١) يشير الى قول الله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » آية ١٠٠ من سورة النساء .

فأنا أوصيكم بكم ، فارَّعوني فيكم خاصة . أوصيكم بتقوى الله ، والعمل لفد ، وقبض عنان الله في موطن الجد ، والحياء من الله الذي تحصر وأقال ، وأعاد النعمة بعد زوالها<sup>(١)</sup> « لينظر كيف تعملون »<sup>(٢)</sup> . وأطلب منكم عوض ما وفَّرته عليكم ، من زاد طريق ، ومكافأة ، وإعانة ، زاداً سهلاً عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفر الله لك ما ضيَّعت من حقي خطأ أو عمداً ؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رَضيت .

واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، وعند كلِّ ملك ؛ واعتقاده ، وبرُّه ، والسؤال عنه ، وذكره بالجميل ، والاذن في زيارته ، نجابة منكم ، وسعة ذرع<sup>(٣)</sup> ودَّها ، فإنها كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ، ثم أقشعت<sup>(٤)</sup> ، وتركت الأزهار تفوح ، والمحاسن تلوح ؛ ومثاله معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة ، والتدبير الميمون ، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان ، وغطتكم بقناع العافية ، وانصرفت الى الحمام تغسل اللبن والوضر ، وتعود ؛ فإن وجدت الرضيع نائماً

(١) يشير الى حادثة خلع ابن الأحمر عن ملكه ، والتجائه الى بني مرين بالمغرب لاعادة ملكه اليه .

(٢) اقتباس من الآية ١٢٩ من سورة الاعراف .

(٣) يقال : رجل واسع الذرع ، والذراع : اي متسع الخلق .

(٤) أقشع السحاب : تفرق واقلع .

فَحَسَنَ ، أَوْ قَدْ انْتَبَهَ فَلَمْ تَتْرَكْهُ إِلَّا فِي حَدِّ الْفِطَامِ . وَنَخْتِمُ لَكُمْ هَذِهِ  
الْغَزَارَةَ<sup>(١)</sup> بِالْخَلْفِ الْأَكِيدِ : إِنِّي مَا تَرَكْتُ لَكُمْ وَجْهَ نَصِيحَةٍ فِي  
دِينٍ ، وَلَا فِي دُنْيَا ، إِلَّا وَقَدْ وَفَّيْتُهَا لَكُمْ ، وَلَا فَارَقْتُكُمْ إِلَّا عَنْ  
عَجْزٍ ؛ وَمَنْ ظَنَّ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ ظَلَمَنِي وَظَلَمَكُمْ ؛ وَاللَّهُ يَرْشِدُكُمْ  
وَيَتَوَلَّى أَمْرَكُمْ . وَنَقُولُ<sup>(٢)</sup> : خَاطِرُكُمْ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ .

نُسخة الكتاب ، وفي طيِّها هذه الأبيات :

صَابُ<sup>(٣)</sup> مُزْنٌ<sup>(٤)</sup> الدُّمُوعُ مِنْ جَفْنِ صَبِّكَ<sup>(٥)</sup>

عندما استرواح<sup>(٥)</sup> الصبا من مهيبك  
كيف يسألوا يا جنتي عنك قلبٌ كان قبل الوُجودِ جنُّ محبِّبك  
ثم قل كيف كان بعد انتشاء الروح<sup>(٦)</sup> من أنسك الشَّهيِّ وقربك  
لم يدع بيتك المنيع حمَاهُ لِسِوَاهُ إِلَّا إِلَى بَيْتِ رَبِّكَ  
أَوَّلَ عَذْرِي الرِّضَا فَمَاجَتْ بِدَعَا دُمْتَ وَالْفَضْلُ وَالرِّضَا مِنْ دَأْبِكَ  
وَإِذَا مَا ادَّعَيْتَ كَرِيْبًا لَفَقْدِي أَيْنَ كَرِيْبِي وَوَحْشَتِي مِنْ كَرِيْبِكَ

(١) الغزارة : الكثرة من كل شيء ؛ ويريد هنا : الكثرة من الكلام ليس تحتها طائل .

(٢) كذا ، وفي ب : ويعول .

(٣) صاب المطر ، بصوب : نزل . والمزن : السحاب .

(٤) الصب ؛ العاشق .

(٥) استروح ؛ اشتم .

(٦) انتشاء الروح : سكر الروح ، من انتشى بمعنى سكر .

وَلَدِي فِي ذَرَاكَ وَكَرِي فِي دَوْ<sup>(١)</sup> خِكَ<sup>(١)</sup> لَحْدِي وَتُرَبِّي فِي تُرْبِكَ  
يَا زَمَانًا أَغْرَى الْفِرَاقَ بِشَمْلِي<sup>(٢)</sup> لَيْتَنِي أَهْبَتِي<sup>(٣)</sup> أَخَذْتُ<sup>(٣)</sup> لَحْرَبِكَ<sup>(٣)</sup>  
أَرَكَبْتَنِي صُرُوفَكَ الصَّعْبَ<sup>(٤)</sup> حَتَّى<sup>(٤)</sup> جِئْتُ بِالْبَيْنِ وَهُوَ أَصْعَبُ صَعْبِكَ

وَكُتِبَ آخِرَ النُّسخةِ يُخَاطِبُنِي :

هَذَا مَا تَيْسَّرَ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْخَيْرَةِ لِي وَلَكُمْ مِنْ هَذَا الْخَبَاطِ<sup>(٤)</sup>  
الَّذِي لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُولِي الْكَمَالِ . رَدُّنَا اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَأَخْلَصَ  
تَوَكُّلُنَا عَلَيْهِ ، وَصَرَفَ الرَّغْبَةَ إِلَى مَا لَدَيْهِ .

وَفِي طَيِّ النَّسخةِ مُدْرَجَةٌ نَصُّهَا :

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَيَادَتِكُمْ . أَوْ نِسُكُم بِمَا صَدَرَ مِنِّي أَثْنَاءَ هَذَا  
الْوَاقِعِ مِمَّا اسْتَحْضَرَهُ الْوَلَدُ فِي الْوَقْتِ ؛ وَهُوَ يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا يَجِبُ  
لَكُمْ ؛ وَقَدْ حَصَلَ مِنْ حُظُوءَةِ هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ عَلَى حَظٍّ وَافِرٍ ،  
وَأُجْزِلَ إِحْسَانُهُ ، وَنُوءَ بِجِرَائِيَّتِهِ ، وَاثْبَتَ الْفُرْسَانَ خَلْفَهُ . وَالْحَمْدُ  
لِلَّهِ أَنْتَهَى .

ثُمَّ اتَّصَلَ 'مَقَامِي بَبْسُكْرَةٍ' ، وَالْمَغْرَبُ 'الْأَوْسَطُ' مُضْطَرَبٌ بِالْفِتْنَةِ

(١) فِي ذَرَاكَ : فِي كَنَفِكَ . وَكَرِ الطَّائِرُ : عَشَهُ . دَوْحُ جَمْعُ دَوْحَةٍ وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ

(٢) أَخَذْتُ أَهْبَتَهُ : أَعَدَّ عِدَّتَهُ .

(٣) رَكَبَ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ : الْأَمْرَ الشَّدِيدَ وَالسَّهْلَ .

(٤) الْخَبَاطُ ، كَغَرَابٍ : دَاءٌ مِثْلُ الْجُنُونِ .



المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز ، وحمزة بن علي بن راشد ببلاد مَغْرَاوَة ، والوزير عُمر بن مَسْعُود في العساكر يُحَاصِرُه بِحَصْن تَاجَمُومَت ، وأبو زِيَّان العبد الوادي ببلاد حَصِين ، وهم مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ وَقَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ .

ثم سَخِطَ السلطانُ وزيرَه عُمرَ بن مَسْعُود ، وَنَكَرَ مِنْهُ تَقْصِيرَه فِي أَمْرِ حَمْزَة وَأَصْحَابِهِ ، فَاسْتَدْعَاهُ إِلَى تِلِمَسَان ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى فَاسٍ مُعْتَقِلًا ، فَحُبِسَ هُنَاكَ ؛ وَجَهَّزَ الْعَسَاكِرَ مَعَ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرَ بْنَ غَازِي ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ ، وَحَاصِرَهُ ؛ فَفَرَّ مِنَ الْحَصْنِ ، وَلَحِقَ بِمَلِيَانَةَ مَجْتَازًا عَلَيْهَا ، فَأَنْذَرَ بِهِ عَامِلُهَا فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ ، وَسَيَقُ إِلَى الْوَزِيرِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ، وَصَلَبَهُمْ عِظَةً وَمَزَدَ جَرَأَ الْأَهْلَ الْفِتْنَةَ .

ثم أَوْعَزَ السُّلْطَانُ إِلَى الْوَزِيرِ بِالْمَسِيرِ إِلَى حَصِين ، وَأَبِي زِيَّان ، فَسَارَ فِي الْعَسَاكِرِ ، وَاسْتَنْفَرَ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ مِنْ زُغْبَةٍ فَأَوْعَبَهُمْ ، وَنَهَضَ إِلَى حَصِين ، فَامْتَنَعُوا بِجَبَلٍ تَيْطَرِي . وَنَزَلَ الْوَزِيرُ بِعَسَاكِرِهِ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ أَحْيَاءِ زُغْبَةٍ عَلَى الْجَبَلِ تَيْطَرِي ، مِنْ جِهَةِ التَّلِّ ، فَأَخَذَ بِمَخَنَقِهِمْ ، وَكَاتَبَ السُّلْطَانُ أَشْيَاحَ الدَّوَادَةِ مِنْ رِيَّاحِ الْمَسِيرِ إِلَى حِصَارِ تَيْطَرِي مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ . وَكَاتَبَ أَحْمَدَ بْنَ مَرْثِي صَاحِبَ بَسْكَرَةِ بِإِمْدَادِهِمْ بِأَعْطِيَاتِهِمْ وَكَتَبَ إِلَيَّ يَا مَرْثِي بِالْمَسِيرِ بِهِمْ لِذَلِكَ ،

فاجتمعوا عليّ، وسرتُ بهم أولَ سنة أربع وسبعين؛ حتى نزلنا بالقُطْفَة<sup>(١)</sup>، ووفدتُ، في جماعة منهم، على الوزير بمكانه من حصار تيطري، فحدّ لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء. ورجعنا إلى أحيائهم بالقُطْفَة؛ فاشتدوا في حصار الجبل، وأجلاؤهم بسواهم<sup>(٢)</sup> وظهروهم<sup>(٣)</sup> إلى قنّته، فهلك لهم الخفُّ والخافر<sup>(٤)</sup>، وضاق ذرعهم<sup>(٥)</sup> بالحصار من كل جانب؛ ورأسل بعضهم في الطاعة خفية، فارتاب بعضهم من بعض، فانفضوا ليلاً من الجبل، وأبو زيان معهم، ذاهبين إلى السحراء؛ واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم. ولما بلغوا مأمنهم من القفر، نبدوا إلى أبي زيان عهده<sup>(٦)</sup>. فلحق بجبال غمّرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتليمان، وفاءوا إلى طاعته، فتقبل فيثبتهم، وأعادهم إلى أوطانهم. وتقدم إليّ الوزير — عن أمر السلطان — بالمسير مع أولاد يحيى بن عليّ بن سباع، للقبض على أبي زيان في جبل غمّرة، وفاء بحق الطاعة، لأن غمّرة من رعاياهم؛ فمضينا لذلك، فلم نجدده عندهم. وأخبرونا أنه ارتحل عنهم

(١) تقع القطفة شرقي مدينة مليانة؛ وفي بغية الرواد ٨١/٢: «... نزلوا القطفة من بلاد حصين، فرحل مشرقاً إليهم، ونزل مليانة».

(٢) السوام، والسائمة: الأبلن الراعية والمال الراعي.

(٣) الظهر: الركاب التي تحمل الإنسان في السفر.

(٤) الخف للبعير والناة، بمنزلة الخافر للفرس.

(٥) ضاق به ذرعاً: مثل للذي سقطت قوته دون بلوغ الأمر، والافتقار عليه.

(٦) نبد العهد: نقضه، والقاء إلى من كان بينه وبينه.

الى بلد وار كلاً من مدُن الصحراء ؛ فنزل على صاحبها ابي بكر بن سليمان ؛ فانصرفنا من هُناك. ومضى أولاد يحيى بن عليّ الى أحيائهم ، ورجعت انا الى اهلي ببسكرة ، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقمتُ مُنتظِراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه الى حضرته ، فارتحلت اليه .

### فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والادب ؛ لا يسأجل مداه <sup>(١)</sup> ، ولا يُهتدى فيها بمثل هداه .

فمّا كتب عن سلطانه الى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل اليه مصحوباً بهديّة من الخيل والرقيق ، فراجعهم عنه بما نصّه الى آخره :

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصل القواعد الخلاف ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم ، وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحبة والاكناف ؛ فامتزأ جنا بعلائها <sup>(٢)</sup> المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وثناؤنا على مجدها

(١) المدى : الغاية .

(٢) العلاء : الشرف .

الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الافواف <sup>(١)</sup> ، لما زارها  
 النعام الوكاف <sup>(٢)</sup> ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به  
 الى قرع أبواب السموات العُلا الاستشراف <sup>(٣)</sup> ، وحرصنا على  
 توفية حقوقها العظيمة ، وفواضها <sup>(٤)</sup> العَميمة ، لا تحصره الحدود ،  
 ولا تُدركه الاوصاف ، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام  
 الكبير الحق والانصاف . خلافة وجهه تعظيمنا اذ توجهت الوجوه  
 ومن نُؤثره إذا أهمنا مانرجوه ، ونُفديه ونُبديه <sup>(٥)</sup> إذا استُمِنِح  
 المحقوب واستُدفع المكروه السلطان الكذا <sup>(٦)</sup> بن ابي اسحق بن  
 السلطان الكذا ، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا ، أبي  
 زكرياء بن السلطان الكذا ، أبي اسحق بن الامير الكذا ، أبي زكرياء  
 ابن الشيخ الكذا ، ابي محمد بن عبد الواحد بن ابي حفص ، ابقاه الله  
 ومقامه مقام ابراهيم رزقاً وأماناً . لا يَخْصُ جلب الثمرات اليه وقتاً  
 ولا يعين زماناً ؛ وكان على من يتخطَّفُ الناسَ من حوله <sup>(٧)</sup> مؤيداً

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : « الرياض بالافواف » ؛ والفوف ، بالضم : الزهر والجمع افواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشراف : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداء : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب « ال » على « كذا » الموضوعه للكناية عما لم يرد التكلم ذكره وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ - ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

بِاللهُ مُعَانَا .

مُعْظَمُ قَدْرِهِ الْعَالِي عَلَى الْاِقْدَارِ ، وَمُقَابِلُ دَاعِي حَقِّهِ بِالْاِبْتِدَارِ ،  
الْمُثْنَى عَلَى مُعَالِيهِ الْمَخْلُودَةِ الْآثَارِ ، فِي اصْوَنَةِ <sup>(١)</sup> النِّظَامِ وَالنِّشَارِ <sup>(٢)</sup> ،  
ثَنَاءُ الرُّوضَةِ الْمِعْطَارِ ، عَلَى الْاِمْطَارِ ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِطَوْلِ بَقَائِهِ فِي  
عِصْمَةِ مُنْسَدَلَةِ الْاِسْتَارِ ، وَعِزَّةُ ثَابِتَةِ الْمَرْكَزِ مُسْتَقِيمَةِ الْمَدَارِ ، وَانْ  
يَحْتَمُّ لَهُ بَعْدَ بُلُوغِ غَايَاتِ الْحَالِ ، وَنَهَايَةِ الْأَعْمَالِ ، بِالزَّلْفَى وَعَقْبَى الدَّارِ .  
عَبْدُ اللَّهِ الْغَنِيُّ بِاللَّهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ ، مُحَمَّدُ بْنُ مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ ،  
أَبِي الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ فَرَجِ بْنِ نَصْرِ .

سَلَامُ كَرِيمٍ كَمَا حَمَلَتْ أَحَادِيثُ الْأَزْهَارِ نَسَمَاتِ الْأَسْحَارِ ، وَرُوتِ  
ثُغُورِ الْإِقَاحِيِّ وَالْبَهَارِ ، عَنْ مُسَدِّسَاتِ الْأَنْهَارِ ، وَتَجَلَّى عَلَى مِنْصَةِ  
الْإِسْتِهَارِ ، وَجْهُ عُرُوسِ النَّهَارِ ، يَخْصُ خِلَافَتَكُمْ الْكَرِيمَةَ النَّجَارَ ، الْعَزِيزَةَ  
الْجَارَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَخْفَى حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ عَنْ أَذْهَانِ الْبَشَرِ ،  
فَعَجَزَتْ عَنْ قِيَاسِهَا ، وَجَعَلَ الْأَرْوَاحَ « أَجْنَادًا مُجَنَّدَةً » — كَمَا وَرَدَ فِي

(١) جَمْعُ صَوَانٍ ، وَهُوَ مَا صُنِيَ بِهِ الشَّيْءُ .

(٢) النَّشَارُ : النُّثْرُ .

الخبر <sup>(١)</sup> — تحنُّ الى أجناسها ، مُنجِد هذه المِلَّة من اوليائه الجيلة  
 بمن يروض الآمال بعدَ شماسها <sup>(٢)</sup> ، ويُيسِّر الاغراض قبل التماسها ،  
 ويُعنى بتجديد المودَّات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين اخلاق  
 لباسها ؛ الملك الحق ، واصل الاسباب بحوله بعد انتكاث امراسها <sup>(٣)</sup>  
 ومغني النفوس بطوله ، بعد افلاسها — حمداً يُدرُّ أخلاف <sup>(٤)</sup> النعم بعد  
 إبساسها <sup>(٥)</sup> ، وينشر رَمَمَ الأموال من أرماسها <sup>(٦)</sup> ، ويقَدِّسُ النفوس  
 بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها <sup>(٧)</sup> .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله سراج الهداية  
 ونبراسها <sup>(٨)</sup> عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مُطَهِّر الأرض من  
 أوضارها وأدناسها ، ومُصطَفَى الله من بين ناسها ، وسيد الرُّسُل  
 الكرام ما بين شِيثها وإلياسها ، الآتي مُهَيِّمًا على آثارها ، في حين

(١) يشير الى الحديث : « الارواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر  
 منها اختلف »

(٢) شمت الدابة شماسا . شردت وجمعت .

(٣) جمع مرس ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاخلاف ، جمع خلف ( بالكسر ) ؛ وهو الضرع .

(٥) ابس بالناقعة . دعا ولدها لتدر على حالبها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس ( بالكسر ) : المصباح .

فَقرَّتْهَا<sup>(١)</sup> ومن بعد نُصرتْها واستيناسها<sup>(٢)</sup> ، مُرِغِم الضَّراغِم في  
أَخْيَاسِهَا<sup>(٣)</sup> ، بعد افتزارها وافتراسها<sup>(٤)</sup> ، وَمُعِفِّر أَجْرام الأَصْنَام  
وَمُصْنِت أَجْراسِها .

والرِّضا عن آلِه وأَصحابه وعِترته وأحزابه ، حِماةِ شِرْعَتِه البَيضاء ،  
وَحُرَّاسِها ، وَمُلْقِي غِراسِها ، لِيُوثِ الوَغى عند احتدام<sup>(٥)</sup>  
مِرْأَسِها<sup>(٦)</sup> ، ورُهبان الدُّجى تَتَكَلَّلُ مُناجاة السَّميع العليم ، في  
وَحْشَةِ اللَّيْلِ البَهِيم بِأَيْناسِها ، وتُفَاوِحُ نَسِيمَ الأَسْحار ، عند  
الاستغفار ، بطيب أنفاسِها .

والدُّعاء لخلافتكم العلية المُستنصرية بالصَّنائع التي تُشعِّشع أيدي  
العِزَّة القَعساء<sup>(٧)</sup> من أَكْواسِها ، ولا زالت العصمةُ الإلهية كَفيلةً  
باحترامها واحتراسِها ، وأنباء الفتوح ، المؤيِّدة بالملائكة والروح ،  
ريحان جِلاسِها وآيات المفاخر التي تَرَكَ الأولُ لِلآخر ، مُكْتَبَةٌ  
الأنسطار بأطرِاسِها ، وميادينُ الوجود بجمالِ جِياذِ جودِها وباسِها ،

(١) الفترة : ما بين كل نبيين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .

(٢) استيناس : يئس ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : « حتى اذا استيناس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... الخ »

(٣) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .

(٤) افتر الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بمد أن كانت تفتقر عن أسنانها وتفتريس .

(٥) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهمت .

(٦) المراس : الممارس .

(٧) عزة قعساء : ثابتة .

والعزُّ والعدلُ منسُوبين لفُسطاطها<sup>(١)</sup> وقُسْطَاسِها ، وصفيحة<sup>(٢)</sup> النَّصرِ  
العزیزِ تَقْبِضُ كَفَّها ، المؤيِّدة بالله ، على رِياسِها<sup>(٣)</sup> ، عند احتیاج  
أُضدادِها ، وشرِّه<sup>(٤)</sup> أنْكَاسِها<sup>(٥)</sup> ، لانتِهَابِ البلادِ وانتِهاسِها<sup>(٦)</sup>  
وهبوبِ رِياحِ رِياحِها وقمردِ مرْداسِها<sup>(٧)</sup> .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تدعن  
أعناق الأنام ، لطاعة مَلِكِكُمْ المنصور الأعلام ، عند إحساسِها<sup>(٨)</sup> ،  
وآتاكم من آيات العنايات ، آية تضرب الصخرة الصماء ، ممَّن عصاها  
بِعصاها ، فتبادر بأنبيجاسِها<sup>(٩)</sup> ، - من حمراء غرناطة ، حرسها الله ،  
وأيامُ الاسلام ، بعناية الملك العلام تحتفل وفود الملائكة الكرام ،

(١) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل مصر حول جامعهم .

(٢) الصفيحة : السيف العريض .

(٣) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقائه .

(٤) الشره : شدة الحرص ، وأسوؤه .

(٥) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٦) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من  
الأطراف ، فعل من يتنقص قطعة اللحم بالأكل .

(٧) رِياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رِياح بن أبي ربيعة بن  
نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رِياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رِياح ؛  
والى داود هذا تنتسب « الدواودة » .

(٨) الإحساس : الرؤية والعلم .

(٩) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :

« ... وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن يضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا  
عشرة عينا الخ » آية ١٦٠ من سورة الأعراف .



لولائها وأعراسها ، وطواعين الطعان ، في عدوِّ الدين المعان ، تُجَدِّد  
عَهْدَهَا بِعامِ عَمَواسِها<sup>(١)</sup> .

والحمدُ لله حمداً مُعاداً يُقَيِّدُ شِوارِدَ النِّعمِ ، وَيَسْتَدِرُّ مَواهِبَ  
الْجُودِ وَالكَرَمِ وَيُؤَمِّنُ مِنْ انْتِكاثِ الْجُدُودِ<sup>(٢)</sup> وانْتِكاكِها<sup>(٣)</sup> ، وَلِيَّ  
الْأَمالِ وَمِكاكِها<sup>(٤)</sup> ؛ وَخِلَافَتُكُمْ هِيَ الْمِشابَةُ الَّتِي يُزْهِي الْوَجُودُ  
بِحاسِنِ مَجْدِها ، زَهْوَةَ الرِّياضِ بوزْدِها وآسِها ، وَتُسْتَمِدُّ أَضواءُ  
الْفَضائلِ مِنْ مِقْباسِها<sup>(٥)</sup> ، وَتَرْوِي رُواةَ الْإِفاذَةِ ، وَالْإِجاذَةَ غَرِيبَ  
الْوِجاءَةِ<sup>(٦)</sup> ، عَنْ ضَحَّاكِها وَعِباسِها<sup>(٧)</sup> . وَالِى هَذَا أَعْلَى اللَّهِ مَعارجَ  
قَدْرِكم ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَأَنْطَقَ بِحُجَجٍ فَخَرَكُمَ مِنْ اِحْتَفَى وَانْتَعَلَ ،

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرهما : قرية بفلسطين بين  
الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ،  
ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٤/٢٠١ - ٢٠٣ ، ياقوت ٦/٢٢٥ ، تاج  
العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان  
كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

وللمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل  
تجده في « فتح المغيث » للعراقي ١٥/٣ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و « عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب  
أحداً منهم بعينه ، وإنما يقصد الى « الطبايق » بين ضحاك ، وعباس .

فَإِنَّهُ وَصَلَنَا كِتَابَكُمْ الَّذِي حَسِبْنَاهُ ، عَلَى صَنَائِعِ اللَّهِ لَنَا ، تَمِيمَةً<sup>(١)</sup> لَا  
تَلْقَعُ<sup>(٢)</sup> بَعْدَهَا عَيْنٌ ، وَجَعَلْنَاهُ - عَلَى حُلُلِ مَوَاهِبِهِ - قِلَادَةً لَا  
يُحْتَاجُ مَعَهَا زَيْنٌ ، وَدَعَوْنَاهُ مِنْ جَنِبِ الْكِتَابَةِ<sup>(٣)</sup> آيَةً بَيَضَاءَ الْكِتَابَةِ ،  
لَمْ يَبْقَ مَعَهَا شَكٌّ وَلَا مَيِّنٌ ، وَقَرَأْنَا مِنْهُ وَثِيقَةً وَدَّرَ هُضِمَ فِيهَا عَنْ  
غَرِيمِ الزَّوْمَانِ دَيْنٌ ، وَرَأَيْنَا مِنْهُ إِنْشَاءً ، خَدَمَ الْيَرَاعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَشَاءً ،  
وَأَحْتَزَمَ بِهَيْمَانٍ<sup>(٤)</sup> عُقْدَتَهُ مَشَاءً ، وَسُئِلَ عَنْ مَعَانِيهِ الْإِخْتِرَاعَ فَقَالَ :  
« إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ إِنْشَاءً » ؛ فَأَهْلًا بِهِ مِنْ عَرَبِيٍّ أَيْ يَصِفُ السَّانِحَ  
وَالْبَانَةَ<sup>(٥)</sup> ، وَيُبَيِّنُ فَيُحْسِنُ الْإِبَانَةَ ، أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَسُئِلَ عَنْ حَيِّهِ  
فَانْتَمَى إِلَى كِنَانَةٍ<sup>(٦)</sup> ، وَأَفْصَحَ وَهُوَ لَا يَنْبِسُ<sup>(٧)</sup> ، وَتَهَلَّلَتْ قَسَمَاتُهُ  
وَلَيْلُ حَبْرِهِ يَغْبِسُ ؛ وَكَأَنَّ خَاتَمَهُ الْمُقْفَلَ عَلَى صَوَانِهِ<sup>(٨)</sup> ، الْمُتَحِفَ  
بِبَاكِ الْوَرْدِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ ، رَعَفَ مِنْ مَسْكَ عُتْوَانِهِ ؛ وَلِلَّهِ مِنْ

- (١) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعوذ بها .  
(٢) لقمه بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقم لم يسمع الا في الإصابة بالعين .  
(٣) الكنانة : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .  
(٤) الهميان ( بالكسر ) : المنطقة ؛ والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .  
(٥) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظي أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .  
(٦) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم .  
(٧) النبس : أقل الكلام ؛ وما نبس بكلمة : أي ما تكلم .  
(٨) الصوان : ما تصون به الشيء .

قَلَمَ دَبَّجَ تِلْكَ الْحَلَّلَ ، وَنَقَعَ بِمُجْتَاجٍ<sup>(١)</sup> الدَّوَاةَ الْمُسْتِمِدَّةَ مِنْ عَيْنِ  
الْحَيَاةِ الْغُلَّلِ<sup>(٢)</sup> ؛ فَلَقْدَ تَخَارَقَ فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخِلَافَةِ الَّتِي خَلَدَ  
فَخِرُهَا فِي الْوُجُودِ ، فَجَادَ بِسِرِّ الْبَيَانِ وَلُبَابِهِ ، وَسَمَحَ فِي سَبِيلِ الْكَرَمِ  
حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ، وَجَمَعَ لِفَرْطِ بَشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بِمَدِّ شَهَادَةِ السَّيْفِ  
بَشَهَامَتِهِ ، فَمَشَى مِنَ التَّرحيبِ ، فِي الطَّرْسِ الرَّحِيبِ ، عَلَى أُمِّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ ، أَفْصَحَ بِمَلْفُوزٍ<sup>(٣)</sup> الْإِكْسِيرِ<sup>(٤)</sup> ، فِي اللَّفْظِ  
الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ بِلِسَانِ الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّدْيِيرِ<sup>(٥)</sup> ، كَأَنَّمَا خَدَمَ  
الْمَلِكَةَ السَّاحِرَةَ<sup>(٦)</sup> بَتِلْكَ الْبِلَادِ ، قَبْلَ اشْتِجَارِ الْجِلَادِ<sup>(٧)</sup> ، فَأَثَرَتِهِ  
بِالْطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ، أَوْ عَشَرَ بِالْمُعَلِّقَةِ ، وَتِيكَ الْقَدِيمَةِ  
الْمُطَلَّقَةِ ، بِدَفِيقَةِ دَارٍ ، أَوْ كَنْزٍ تَحْتَ جِدَارٍ ، أَوْ ظَفَرٍ لِبَانِي الْحَنَايَا<sup>(٨)</sup> ،

(١) مجاج الدواة : ما تمجه .

(٢) نقع الماء غلته : أروى عطشه .

(٣) كذا في الأصول . والصواب « ملفوز » ، لأن فعله رباعي .

(٤) الإكسير : الكيمياء ، وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسير كلام مغلوق طويل  
فيه العجب . ويطلقون الإكسير أيضا على « الحجر المكرم » ؛ وهو المادة التي تلقى على المواد  
حال ذوبانها ، فتحولها إلى ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج العروس ( كسر ) .  
(٥) صناعة التدبير : يعني بها تحويل المعادن إلى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ،  
مشكلة المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .

(٦) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة .

(٧) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .

(٨) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذي اجتلب إلى « قرطاجنة » ،  
ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منجزة بعضها من بعض ، ثم أجرى  
الماء فوق هذه « الحنايا » العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا  
تزال بقايا هذه الحنايا موضع العبرة من مشاهدتها . انظر ياقوت - ٣٢٣/٤ .

قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا ، ببديعة ، أو خلف جرجير<sup>(١)</sup>  
 الروم ، قبل 'منازلة القروم ، على وديعة ، أو أسلمه ابن أبي  
 سرح<sup>(٢)</sup> ، في نشب للفتح وسرح<sup>(٣)</sup> ، أو حتم له روح بن حاتم<sup>(٤)</sup>  
 ببلوغ المطلب ، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب<sup>(٥)</sup> ، أو  
 خصه زيادة الله بمزيد<sup>(٦)</sup> ، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد<sup>(٧)</sup> ، أو  
 سار على منهاج ، في 'مناصحة بني صنهاج ، وفصح بتخليد أمداحهم  
 كل هاج .

(١) هو الطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الاسلامي ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير الى ما كان من الحوادث بين الجيش الاسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان أحد كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد رده . ابن الأثير ٥٧/٣ ، ٨٢ .

(٣) النشب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في المرعى ، يفدى به ويراح . وقد صالح أهل إفريقية عبد الله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف ديناراً ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبرم ٢ .

(٤) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي إفريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ٢٣٥/١ .

(٥) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الاغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي تبدى سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهى سنة ٢٩٦ هـ .

(٦) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغلب ، ( ٢٠١ - ٢٢٣ ) قلده الخليفة المأمون العباسي .

(٧) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد ( أو كنداد ) بن سعد الله بن مغيث اليفرني ، وقد عرف أيضاً بصاحب الحمار .

وَأَعْجَبَ بِهِ ، وَقَدْ عُزِّزَ مِنْهُ مَشْنَى الْبَيَانِ بِثَالِثٍ ، فَجَلَّبَ  
سِحْرَ الْأَسْمَاعِ ، وَاسْتَرْقَاقَ الطِّبَاعِ ، بَيْنَ مَثَانٍ لِلْإِبْدَاعِ وَمَثَالِثِ ،  
كَيْفَ اقْتَدَرَ عَلَى هَذَا الْمَجِيدِ ، وَنَاصَحَ مَعَ التَّثْلِيثِ مَقَامَ التَّوْحِيدِ ؛  
نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلِيَّ الْعَوْنِ ، عَلَى الصَّمْتِ وَالصَّوْنِ ، فَالْقَلَمَ هُوَ الْمُوَحِّدُ  
قَبْلَ الْكَوْنِ ، وَالْمُتَّصِفُ مِنْ صِفَاتِ السَّادَةِ ، أُولَى الْعِبَادَةِ ، بِضُمُورِ  
الْجِسْمِ وَصُفْرَةِ اللَّوْنِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ ، وَأَثَارَةٌ <sup>(١)</sup> مِنْ  
حَدِيثِ سَارِيَّةٍ <sup>(٢)</sup> وَبَقِيَّةٌ ؛ سَفَرٌ وَجْهَهَا فِي الْأَعْقَابِ ، بَعْدَ طَوْلِ  
الْإِنْتِقَابِ ، وَتَدَاوُلِ الْأَحْقَابِ ؛ وَلِسَانٌ مُنَابٌ ، عَنْ كَرِيمِ جَنَابٍ ؛

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير إلى قصة سارية بن زعيم بن عمر بن عبد الله بن جابر الكناني أمير الجيش الإسلامي في وقعة « نهاوند » ؛ فقد كمن له العدو في جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره « يا سارية ! الجبل ، الجبل ! » ، فسمع سارية صوت عمر . وهي كرامة ذكروها للغاروق رضي الله عنه . تاج العروس ( سري ) .

وإصابة السهم لسواه محسوبة ، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة ؛  
ولا تُبكر على الغمام بارقة ، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة  
خارقة ، فما شاء الفضل من غرائب برٍّ وجد ، ومحاريب خلق  
كريم ركع الشكر فيها وسجد ؛ حديقة بيان استثارت نواجم  
الأبداع من مهبها ، واستزارت غمام الطباع من مصبها ، فأتت  
أكلها مرتين بإذن ربها ؛ لا . بل كتيبة عز طاعت بقنا<sup>(١)</sup>  
الألفات سطورها ، فلا يرومها النقد ولا يطورها<sup>(٢)</sup> ، ونزعت عن  
قسي النونات خطوطها ، وأصطفت من بياض الطرس ، وسواد  
النفس ، بلى<sup>(٣)</sup> تحوطها .

فما كأس المدير ، على الغدير<sup>(٤)</sup> ، بين الخورنق<sup>(٥)</sup> والسدير<sup>(٦)</sup> ،  
تقامر بنرد<sup>(٧)</sup> الحباب ، عقول ذوي الألباب ، وتفرق كسرى في  
العُباب<sup>(٨)</sup> ، وتهدى ، وهي الشمطاء<sup>(٩)</sup> — نشاط الشباب ؛ وقد

(١) جمع قناة ؛ وهي الرمح .

(٢) لا يطورها : لا يقرب إليها .

(٣) الطرس : الورق . والنفس : الخبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بقاء ؛ وهي الخيول التي  
في لونها سواد وبياض .

(٤) يشير إلى قصة امرئ القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل .

(٥) الخورنق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .

(٦) السدير : قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورنق .

(٧) النرد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : « نردشير » ؛ وهو نوع مما يقامر به .

(٨) بنى كسرى أبرويز — فوق دجلة — بناء اتخذ له مجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقت مراراً ،  
أنقذ كسرى فيها من الفرق — وإلى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ١٤٤/٢ — ١٤٥ .

(٩) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

أَسْرَجَ ابْنُ سُرَيْجٍ<sup>(١)</sup> وَأَلْجَمَ ، وَأَفْصَحَ الْغَرِيضُ<sup>(٢)</sup> بَعْدَ مَا جَمَّجَمَ ،  
وَأَعْرَبَ النَّايُ<sup>(٣)</sup> الْأَعْجَمَ ، وَوَقَعَ مَعْبَدٌ<sup>(٤)</sup> بِالْقَضِيبِ ، وَشَرَعَتْ فِي  
حِسَابِ الْعَقْدِ<sup>(٥)</sup> بَنَانُ الْكَفِّ الْخَضِيبِ ؛ وَكَأَنَّ الْأَنَامِلَ فَوْقَ  
مِثَالِثِ الْعُودِ وَمِثَانِيهِ ، وَعِنْدَ إِغْرَاءِ الثَّقِيلِ بَثَانِيَّةٌ<sup>(٦)</sup> ، وَإِجَابَةُ  
صَدَى الْغِنَاءِ بَيْنَ مَغَانِيهِ ، الْمَرَاوِدُ تَشْرَعُ فِي الْوَشْيِ ، أَوِ الْعَنَاكِبِ  
تُسْرَعُ فِي الْمَشْيِ ؛ وَمَا الْمُخْبِرُ بَنِيْلُ الرَّغَائِبِ ، أَوْ قُدُومِ الْحَبِيبِ  
الْغَائِبِ ؛ لَا . بَلْ إِشَارَةُ الْبَشِيرِ ، بِكُمْ الْمُسِيرِ ، عَلَى الْعَشِيرِ ، بِأَجْلَبِ  
لِلسُّرُورِ ، مِنْ زَائِرِهِ الْمُتَلَقَّى بِالْبُرُورِ ، وَأَذْعَى لِلْحُبُورِ ، مِنْ سَفِيرِهِ  
الْمُبْهِجِ السَّفُورِ ؛ فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ مِنْ كَتِيبَةٍ كِتَابَ تَجْنُبِ<sup>(٧)</sup> الْجُرْدِ ،  
تَمَرَّحَ فِي الْأَرْسَانِ<sup>(٨)</sup> ، وَتَتَشَوَّفَ بِجَالِي ظُهُورِهَا إِلَى عِرَائِسِ الْفُرْسَانِ ،

(١) أَبُو يَحْيَى عبيد الله بن سريج المغني المعروف .

(٢) أَبُو يَزِيدَ ، وَأَبُو مَرْوَانَ : عَبْدُ الْمَلِكِ . وَلَقِبَ بِالْغَرِيضِ لِأَنَّهُ كَانَ طَرِي الْوَجْهَ غَضُ الشَّبَابِ ؛ وَهُوَ مِنْ مَوْلَدِي الْبَرَبَرِ . أَخَذَ الْغِنَاءَ عَنْ ابْنِ سَرِيحَ ، وَعَارَضَهُ فِي كُلِّ أَصْوَاتِهِ .

(٣) النَّايُ : الْمَزْمَارُ .

(٤) هُوَ مَعْبَدُ بْنُ وَهْبٍ الْمَغْنِي الْمَعْرُوفُ . غَنَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَمَاتَ فِي أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ

يَزِيدَ بِدِمَشْقَ .

(٥) حِسَابُ الْعَقْدِ ، وَيُسَمَّى حِسَابُ الْعُقُودِ أَيْضًا : نَوْعٌ مِنَ الْحِسَابِ يَكُونُ بِأَصَابِعِ الْيَدَيْنِ ، وَيُقَالُ لَهُ حِسَابُ الْيَدِ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ : « وَعَقْدُ عَقْدٍ تَسْعِينَ » . وَقَدْ أَلْفَوْا فِيهِ رِسَائِلَ وَأَرَاغِيزَ ، مِنْهَا أَرْجُوزَةُ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ الشَّهِيرِ بِابْنِ الْمَغْرَبِيِّ ، وَشَرَحَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ شُعْبَانَ الْعُوفِي .

(٦) كَذَا فِي الْأَصُولِ ؛ وَمَقْتَضَى السِّيَاقُ : « الثَّقِيلُ الْأَوَّلُ بَثَانِيَّةٍ » .

(٧) مِنَ الْجَنْبِ : وَهُوَ أَنْ تَجْنُبَ فَرَسًا عَرَبِيًّا عِنْدَ الرَّهَانِ إِلَى الْفَرَسِ الَّذِي تَسَابِقُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا

فَتَرَ الْمُرْكُوبَ ، تَحَوَّلَتْ إِلَى الْمَجْنُوبِ . وَيُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِمَنْزِلَةِ خِيُولِ احْتِيَاطِيَّةٍ .

(٨) جَمْعُ رَسَنٍ ؛ وَهُوَ الْحَبْلُ يَتَّخِذُ زَمَامًا لِلدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا .

وتَهْزُ مُعَاطِفٌ<sup>(١)</sup> الْارْتِيَا حَ ، مِنْ صَهِيلِهَا الصَّرَاحَ ، بِالنَّغَمَاتِ الْحَسَّانَ ؛  
 إِذَا أَوْجَسَتْ الصَّرِيخَ نَازَعَتْ أَفْنََاءَ الْأَعْنَةِ ، وَكَاثَرَتْ بِأَسِنَّةِ آذَانِهَا  
 مُشْرِعَةً الْأَسِنَّةَ ؛ فَإِنْ ادَّعَى الظَّلِيمُ<sup>(٢)</sup> أَشْكَالَهَا فَهُوَ ظَالِمٌ ، أَوْ نَازَعَهَا  
 الظُّنْبِيُّ<sup>(٣)</sup> هَوَادِيَهَا<sup>(٤)</sup> وَأَكْفَلَهَا فَهُوَ هَازٍ أَوْ حَالِمٌ ، وَإِنْ سُئِلَ  
 الْأَصْمَعِيُّ<sup>(٥)</sup> عَنْ عَيُوبِ الْغُرَرِ وَالْأَوْضَاحِ<sup>(٦)</sup> ، قَالَ مُشِيرًا إِلَى  
 وَجُوهِهَا الصَّبَاحِ<sup>(٧)</sup> :

« جَلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ »<sup>(٧)</sup>

مِنْ كُلِّ عَبْلِ الشَّوَى<sup>(٨)</sup> ، مُسَابِقٌ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، سَامِي

- (١) المعاطف : الأردنية ؛ والعرب تضع الرداء موضع البهجة ، والحسن ، والبهاء ، والنعمة .  
 (٢) الظليم : فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي . والظليم ذكر النعام .  
 (٣) هوادي الخيل : أعناقها .  
 (٤) عبد الملك بن قريب ، اللغوي المشهور ( ١٢٢ - ٢١٦ ) ، على خلاف في المولد والوفاة .  
 وابن الخطيب يشير إلى ما عرف عن الأصمعي من خبرته الواسعة بالخيول ؛ وله في ذلك مع أبي عبيدة  
 معمر بن المنثري قصة طريفة . انظرها في ترجمة الأصمعي في وفيات ابن خلكان ٣٦٢/١ .  
 (٥) جمع غرة : وهي البياض ؛ والوضح : البياض أيضاً . ويكنى به في الفرس عن البرص ،  
 والجمع أوضاع .  
 (٦) وجه صبيح : جميل ، والجمع صباح .  
 (٧) شطر بيت قاله عبد الله بن عمر لما لامه الناس في حب ابنه سالم ، وأوله :  
 يديروني عن سالم وأريغهم • وجلدة الخ  
 وجعله لمحبه بمنزلة جادة بين عينه وأنفه . وفي الحديث : « لا تؤذوا عماراً ، فإنما عمار جلدة  
 ما بين عيني » .  
 وسالم هذا ، يكنى أبا عمر ، وأبا المنذر ، من خيار الناس ، وفقهائهم . مات بالمدينة سنة ١٠٦ .  
 لسان العرب ( سلم ) .  
 (٨) شوى الفرس : قوائمه ؛ وعبل الشوى : غليظ القوائم .



التَّلِيل<sup>(١)</sup> ، عريض ما تحت الشَّلِيل<sup>(٢)</sup> ، مَمْسُوحَةٌ أعطافه بمنديل  
النَّسِيمِ البَلِيل .

من أحمرَ كالمُدَام ، تُجَلَّى على النِّدَام<sup>(٣)</sup> ، عَقِبَ الفِدَام<sup>(٤)</sup> ،  
أَتَحَفَ لَوْنُهُ بِالوَرْد ، في زمن البرد ، وَحَيَّيْ أَفُقُ مُحْيَاهُ بِكُوكَبِ  
السَّعْد ، وَتَشَوَّفُ الوَاصِفُونَ إِلَى عَدِّ مَحَاسِنِهِ فَأُعِيَتْ عَلَى الْعَدِّ ؛ بِمَجَرِ  
يُسَاجِلِ الْبَحْرِ عِنْدَ الْمَدِّ ، وَرِيحُ تَبَارِي الرِّيحِ عِنْدَ الشَّدِّ<sup>(٥)</sup> ،  
بِالذِّرَاعِ الْأَشَدِّ<sup>(٦)</sup> ؛ حَكَمَ لَهُ مُدِيرُ فَلَكِ الْكَفَلِ بِاعْتِدَالِ فَضْلِ الْقَدْرِ ،  
وَمِيزَهُ قَدْرُهُ الْمُمِيزَ عِنْدَ الْإِسْتِبَاقِ ، بِقَصَبِ السِّبَاقِ<sup>(٧)</sup> ، عِنْدَ اعْتِبَارِ  
الْحَدِّ ، وَوَلَدَ مُخْتَطُّ غُرَّتِهِ أَشْكَالَ الْجَمَالِ ، عَلَى الْكَمَالِ ، بَيْنَ الْبَيَاضِ  
وَالْحُمْرَةِ وَنَقَاءِ الْحَدِّ ؛ وَحَفِظَ رَوَايَةَ الْخَلْقِ الْوَجِيهَ<sup>(٨)</sup> ، عَنْ جَدِّهِ

(١) التَّالِيلُ العُنُق .

(٢) الشَّلِيلُ الْحُلْسُ ، وَالْكَسَاءُ الَّذِي يُجْعَلُ تَحْتَ الرَّحْلِ .

(٣) جَمْعُ نَدِيمٍ وَهُوَ الشَّرِيبُ الَّذِي يَنَادِمُكَ .

(٤) الْفِدَامُ الْحُرْقَةُ الَّتِي يَضَعُهَا السَّاقِي مِنَ الْأَعَاجِمِ ، وَالْمَجْرُسُ عَلَى فَمِهِ عِنْدَ السَّقْيِ . وَكَانَتْ  
عَادَتُهُمْ ، إِذَا سَقَوْا ، أَنْ يَفْدُوُوا أَفْوَاهَهُمْ . وَفِدَامُ الْإِبْرِيْقِ ، وَالْكُوزُ : الْمَصْفَاةُ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَيْهِ .

(٥) الشَّدُّ : الْعَدُو .

(٦) الْأَشَدُّ الْأَقْوَى ؛ يُقَالُ حَلَبْتُهَا بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ ، أَيْ حِينَ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى الرِّفْقِ ، أَخَذْتُ  
الْأَمْرَ بِالشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ .

(٧) كَانَتْ الْغَايَةُ الَّتِي يُحَدِّدُونَهَا لِلْسَّبَاقِ تَذَرَعُ بِالْقَصَبِ ، ثُمَّ تَرْكُزُ الْقَصْبَةُ فِي مَنْتَهَى الْغَايَةِ ؛ فَمَنْ  
سَبَقَ اقْتَلَعَهَا وَأَخَذَهَا ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ السَّابِقُ مِنْ غَيْرِ تَزَاعٍ ، وَيُقَالُ حَازَ أَوْ أَحْرَزَ قَصْبَةَ السَّبْقِ .  
تَاجُ ( قَصَب ) .

(٨) الْوَجِيهُ : ذُو الْجَاهِ .

الوَجِيه<sup>(١)</sup>، وَلَا تُنْكَرُ الرِّوَايَةُ عَلَى الْحَافِظِ ابْنِ الْجَدِّ<sup>(٢)</sup>.

وَأَشْقَرَهُ، أَبَى الْخَلْقُ، وَالْوَجْهَ الطَّلُقُ أَنْ يُحْمَرَهُ، كَأَنَّمَا صِيغَ  
مِنَ الْعَسْجَدِ، وَطُرِفَ بِالذُّرِّ وَأُنْعِلَ بِالزَّبَرَجَدِ، وَوُسِمَ فِي الْحَدِيثِ  
بِسِمَةِ الْيُمْنِ وَالْبِرْكَه<sup>(٣)</sup>، وَاخْتَصَّ بِفُلْجِ<sup>(٤)</sup> الْخِصَامِ، عِنْدَ اشْتِجَارِ  
الْمَعْرَكَةِ، وَانْفَرَدَ بِمُضَاعَفِ السِّهَامِ، الْمُنْكَسِرَةِ عَلَى الْهَامِ، فِي  
الْفَرَائِضِ الْمَشْتَرَكَةِ<sup>(٥)</sup>؛ وَاتَّصَفَ فَلَكُ كَفْلِهِ بِحَرَكَتِي الْإِرَادَةِ  
وَالطَّبْعِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَرَكَةِ، أَصَغَى إِلَى السَّمَاءِ بِأُذُنٍ مُلْهِمٍ؛ وَأَغْرَى  
لِسَانَ الصَّهِيلِ - عِنْدَ التَّبَاسِ مَعَانِي الْهَمْزِ وَالتَّسْهِيلِ - بَيَانَ الْمُبْهَمِ؛  
وُفِّتَتِ الْعُيُونُ مِنْ ذَهَبِ جِسْمِهِ، وَلُجَيْنِ نَجْمِهِ، بِالْدِّينَارِ  
وَالدِّرْهَمِ؛ فَإِنْ انْقَضَ فَرَجُهُ، أَوْ رِيحَ لَهَا حَجْمُهُ، وَإِنْ اعْتَرَضَ  
فَشَقُّ لَاحٍ بِهِ لِلنَّجْمِ نَجْمٌ.

وَأَصْفَرَ قَيْدَ الْأَوَابِدِ الْحُرَّةَ، وَأَمْسَكَ الْمَحَاسِنَ وَأَطْلَقَ الْغُرَّةَ؛

(١) الوجيه : فرس من خيل العرب نجيب .

(٢) يومي ابن الخطيب الى ابي بكر محمد بن عبد الله بن فرج الفهري المعروف بابن الجدد ( ٤٩٦ - ٥٨٦ ) . اصله من « لبله » ، واستوطن اشبيلية ، وعاصر ابن رشد الفقيه ، واما بكر ابن العربي .

(٣) يشير الى حديث : « ان يمن الخيل في شقرتها » ، رواه الإمام احمد في المسند ٢/٢٧٢ .

(٤) الفلج : الظفر والفوز .

(٥) يومي الى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب « التوارث » من الفقه الإسلامي ؛ فالسهم : النصيب الذي فرضه الشارع للتوارث ، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة ، ويتقرر العول . . .

وُسئِلَ مَنْ أَنْتَ فِي قُوَادِ الْكَتَائِبِ ، وَأُولَى الْأَخْبَارِ الْعَجَائِبِ ؟  
فَقَالَ : أَنَا الْمُؤَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ<sup>(١)</sup> ؛ نَزَجِسُ هَذِهِ الْأَلْوَانَ ، فِي رِيَاضِ  
الْأَكْوَانِ ، تُحْمَى بِهِ وَجُوهُ الْحَرْبِ الْعَوَانِ<sup>(٢)</sup> ؛ أَغَارَ بِنَخْوَةِ  
الصَّائِلِ<sup>(٣)</sup> ، عَلَى مُعْصَفَرَاتِ الْأَصَائِلِ<sup>(٤)</sup> ، فَارْتَدَّاهَا ، وَعَمِدَ إِلَى  
خُيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، عِنْدَ جَانِحَةِ الْأَمْسِ ، فَأَلْحَمَ مِنْهَا حُلَّتَهُ  
وَأَسْدَاهَا ، وَاسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَحَاسِنُ فَمَا أَعْدَاهَا ؛ فَهُوَ أَصِيلٌ  
تَمَسَّكَ بِذَيْلِ اللَّيْلِ عَرُفَهُ وَذَيْلُهُ ، وَكَوْكَبٌ يُطْلِعُهُ مِنَ الْقَتَامِ لَيْلُهُ ،  
فِيخْسُدُهُ فَرَقْدٌ<sup>(٥)</sup> الْأَفْقِ وَسَهِيلُهُ<sup>(٦)</sup> .

وَأَشْهَبَ تَغَشَّى مِنْ لَوْنِهِ مُفَاضَّةً ، وَتَسْرَبَلَ مِنْهُ لَامَةٌ فَضْفَاضَةٌ ،  
قَدْ احْتَفَلَ زَيْنُهُ ، لَمَّا رُقِمَ بِالنِّبَالِ لُجَيْنُهُ ، فَهُوَ الْأَشْمَطُ ، الَّذِي حَقَّهُ لَا  
يُغْمَطُ ، وَالذَّارِعُ<sup>(٧)</sup> الْمُسَارِعُ ، وَالْأَعَزَلُ الذَّارِعُ<sup>(٨)</sup> ، وَرَاقِي الْهِيْضَابِ

(١) أبو سعيد الملب بن أبي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الأعيان ١٩١/٢ - ١٩٥ .

(٢) الحرب العوان : الحرب التي سبقتها حرب أخرى .

(٣) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٤) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٥) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٦) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وإرمينية .

(٧) رجل دارع : ذو درع .

(٨) ذرع : أسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

الفارع ، ومكتوبُ الكتيبة البارِع<sup>(١)</sup> . وأكرم به من مُرتاض  
سالك ، ومُجتهد على غايات السابقين الأولين مُتهالك ، وأشهب<sup>(٢)</sup>  
يروي من الخليفة ، ذي الشيم المُنيفة ، عن مالك .

وَحَبَّارِيٍّ<sup>(٣)</sup> كُلُّمَا سَابِقَ وَبَارَى ، استعار جناح الحَبَّارَى ؛  
فَإِذَا أُعْمِلَتِ الْحِسْبَةُ ، قِيلَ مِنْ هُنَا جَاءَتِ النَّسْبَةُ ، طَرَدَ النَّمِرُ ، لَمَّا  
عَظُمَ أَمْرُهُ وَأَمِرٌ<sup>(٤)</sup> ، فَنَسَخَ وَجُودَهُ بَعْدَ مَهْ ، وَابْتَزَّهُ الْفَرُوءَةُ مَلَطَّخَةً  
بِدَمِهِ ؛ وَكَأَنَّ مُضَاعَفَ الْوَرْدِ نُثِرَ عَلَيْهِ مِنْ طَبَقِهِ ، أَوْ الْفَلَكَ ، لَمَّا  
ذَهَبَ الْحَلَكُ ، مُزَجَّ فِيهِ بَيَاضٌ صَبَحَهُ بِحُمْرَةٍ شَفِيقَةٍ .

وَقِرْطَاسِيٍّ حَقُّهُ لَا يُجْهَلُ ، «مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسْفَلُ»<sup>(٥)</sup> ؛  
إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ<sup>(٦)</sup> ، فَهُوَ نَجْمٌ كُلُّهُ ؛ انْفَرَدَ بِمَادَّةِ الْأَلْوَانِ ، قَبْلَ

(١) الفارع : المرتفع ، الحسن . والبارع : التام في كل فضيلة .

(٢) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي أبو عمر المصري . وقد تقدم ذكره .

(٣) الحباري : لونه لون الحباري . والحباري بضم الحاء ، وفتح الباء الخفيفة ، وراء مفتوحة  
بعد ألف : طائر رمادي اللون ؛ وهو أشد الطير طيراناً ، وابعدها شوطاً . ولذلك يقول : ان  
سرعة هذا الفرس تأتي من شبهه بالحباري الذي له هذه الصفة . حياة الحيوان للدميري ١/١٩٦ .  
(٤) امر : كثر .

(٥) عجز بيت لامرئ القيس و صدره :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه • متى النخ

وفي الأصول : « ..... فيه تسهل » . والمثبت رواية الديوان ، وشرحه للبطلوسي ص ٣٤  
طبع التقدم سنة ١٣٢٣ هـ .

(٦) جل الفرس ، وجاله : الغطاء الذي تنبسه اياه لتصونه .

أَنْ تَشُوبَهَا يَدُ الْإِكْوَانِ ، أَوْ تَمَزَّجَهَا أَقْلَامُ الْمَلَوَانِ <sup>(١)</sup> ؛ يَتَقَدَّمُ  
الْكُتَيْبَةُ مِنْهُ لَوَائِ نَاصِعٍ ، أَوْ أَبْيَضَ مَنَاصِعٍ <sup>(٢)</sup> ؛ لَيْسَ وَقَارَ الْمَشِيبِ ،  
فِي رَيعَانِ الْعُمُرِ الْقَشِيبِ ، وَأَنْصَتَتْ الْأَذَانُ مِنْ صَهِيلِهِ الْمُطِيلِ الْمُطِيبِ ،  
لَمَّا ارْتَدَى بِالْبَيَاضِ إِلَى نَفْثَةِ الْخَطِيبِ ؛ وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأْخِيرِ  
مُتَعَتِّبٌ ، قُلْنَا : الْوَائِ لَا تُرْتَّبُ <sup>(٣)</sup> ، مَا بَيْنَ فَخْلٍ وَحُرَّةٍ ،  
وَبَهْرْمَانَةٍ <sup>(٤)</sup> وَذُرَّةٍ ؛ وَيَا لَلَّهِ مِنْ ابْتِسَامِ غُرَّةٍ ، وَوُضُوحِ يُنْنٍ فِي  
طُرَّةٍ <sup>(٥)</sup> ، وَبَهْجَةِ اللَّعِينِ وَقُرَّةٍ ؛ وَإِنْ وَلَّعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ الْقَدِيمِ ،  
وَخَصَّوْا الْحَدِيثَ بِفَرِي الْأَدِيمِ <sup>(٦)</sup> ، وَأَوْجَبَ الْمُتَعَصِّبُ ، وَإِنْ أَبِي  
الْمَنْصِبِ ، مَرْتَبَةَ التَّقْدِيمِ ، وَطَمَحَ إِلَى رَتْبَةِ الْمَخْدُومِ طَرْفُ الْخَدِيمِ ،  
وَقُورَنَ الْمُشْرِي بِالْعَدِيمِ ، وَبُخِيسَ فِي سُوقِ الْكَسَدِ الْكَئِيلِ ، وَدَجَا  
الْلَيْلِ ، وَظَهَرَ فِي فَلَكِ الْإِنْصَافِ الْمَيْلِ ، لَمَّا تُذْوَكَرَتْ الْخَيْلُ ؛

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) الناصع : الخالص من كل شيء ؛ والمناصع : المجالس . جمع مناصع .

(٣) يشير إلى قول النحاة : إن العطف بالواو لا يفيد ترتيباً بين معطوفاتها .

(٤) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبغ به ، يقال له العصفور ؛ ولونه دون الأرجوان في الحمرة .

(٥) الطرة : الناصية ، إشارة إلى الحديث : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٦) الاديم : الجلد ؛ وفريه : قطعه . وهو يشير إلى قول ابن شرف القيرواني :

أغرى الناس بامتداح القديم • وبثم الحديث غير الذميم  
ليس إلا لانهم حسدوا الحسي ورقوا على العظام الرميم

فَجِيءَ بِالْوَجِيه<sup>(١)</sup> وَالْخَطَّار<sup>(٢)</sup> ، وَالذَائِد<sup>(٣)</sup> وَذِي الْحِمَار<sup>(٤)</sup> ، وَدَا حِس<sup>(٥)</sup>  
وَالسَّكَب<sup>(٦)</sup> ، وَالْأَبْجَر<sup>(٧)</sup> وَزَادَ الرُّكْب<sup>(٨)</sup> ، وَالْجُمُوح<sup>(٩)</sup>  
وَالْيَحْمُوم<sup>(١٠)</sup> ، وَالْكُمَيْت<sup>(١١)</sup> وَمَكْتُوم<sup>(١٢)</sup> ، وَالْأَعُوج<sup>(١٣)</sup> وَحُلُوان ،  
وَلَا حَقَّ وَالْفَضْبَان ، وَعَفْزَر والزَّعْفَرَان وَالْمُحَبَّر وَاللَّعَاب ،  
وَالْأَغْر والغُرَاب ، وَشُعْلَةَ وَالْعُقَاب ، وَالْفَيَاض وَالْيَعْبُوب ،

(١) الوجيه: فرس لغني بن أعمر بن سعد بن قيس بن عيلان. وهو مما سمي من جياد الفحول،  
واللائث المنجيات. تاج (وجه) ، مخصص ١٩٥/٦ .

(٢) الخطار: فرس حذيفة بن بدر الفزاري. وله ذكر في حرب داحس والغبراء. المخصص  
١٩٦/٦ ، تاج (خطر ، دحس) .

(٣) الذائد: فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن ابنائه اشقر مروان . تاج (زاد) .

(٤) ذو الحمار: فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر. المخصص ١٩٤/٦ تاج  
(خمر) .

(٥) داحس: فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي. له ذكر في حرب داحس والغبراء  
المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، وانظر بجمع الأمثال: «أشأم من داحس» ٢٥٦/١ .

(٦) السكب: من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه. المخصص  
١٩٣/٦ ، تاج (سكب) .

(٧) الأبجر: من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنزة بن شداد العبسي. تاج (بجر) .

(٨) زاد الركب: فرس للأزد ، وهو من أقدم فرسان العرب .

(٩) الجموح (كصبور): فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرعة النميري  
تاج (جمع) .

(١٠) اليعموم: فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليعموم. وسمي  
باليعموم عدة أفراس. تاج ٢٦١/٨ .

(١١) الكميت: ذكر في تاج العروس في (كمت) عشرة أفراس باسم الكميت ، مع أسماء  
أصحابها .

(١٢) مكتموم: فرس لغني بن أعمر ، من جياد الفحول. تاج (كتم) .

(١٣) أعوج (بلا لام): فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته

سليم ، ثم صار إلى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار. تاج (عوج) .

والمذَّهَب واليَعْسُوب ، والصَّمُوت والقُطَيْب ، وَهَيْدَب والصُّيْب ،  
وأَهْلُوب وَهَدَّاج ، والخُرُون وخَرَّاج ، وَعَلَوَى والجَنَاح ،  
والأَحْوَى ومَجَّاح ، والعَصَا والنَّعَامَة ، والبَلَقَاء والحَمَامَة ، وسَكَاب  
والجَرَادَة ، وخَوْصَاء والعَرَادَة <sup>(١)</sup> ؛ فكم بين الشَّاهد والغائب ،  
والفُرُوض والرُّغَائِب <sup>(٢)</sup> ، وفرق ما بين الأثر والعِيَان ، غَنِيٍّ عن  
الْبَيَان ؛ وَشَتَّان بَيْن الصَّرِيح والمُشْتَبَة ؛ وَلِلَّهِ دَرُّ القَاتِل :

« خذ ماتراه ودَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ <sup>(٣)</sup> »

وَالنَّاسِخ <sup>(٤)</sup> يَخْتَلِفُ بِهِ الْحُكْم ، وَشَرُّ الدَّوَابِّ عِنْد التَّفْضِيل  
بَيْن هَذِهِ الدَّوَابِّ الصُّمُّ الْبُكْم <sup>(٥)</sup> إِلَّا مَا رَكِبَهُ نَبِيٌّ ، أَوْ كَانَ لَهُ يَوْم  
الافتخاؤِ بِرَهَانٍ خَفِيٍّ <sup>(٦)</sup> وَمُفَضِّلٌ مَأْسَمِعٌ عَلَى مَا رَأَى غَبِيٍّ ؛ فَلَوْ  
أُنْصِفَتْ مُحَاسِنُهَا الَّتِي وَصِفَتْ ، لَأَقْضِمَتْ <sup>(٧)</sup> حُبَّ الْقُلُوبِ عِلْفًا ،

(١) العرادة وما قبلها : أسماء أفراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القديمة .

(٢) الرغائب : جمع رغبة ، وهي الأمر المرغوب فيه . تاج ( رغب ) .

(٣) صدر بيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزه عن شرح العكبري ٦٨/٢

طبع الشرفية :

« . . . . . في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل »

(٤) النسخ في مصطلح أهل أصول الفقه : انتهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي ، وإحلال حكم آخر بدله بنص شرعي جاء دليلاً على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذي بمقتضاه يرتفع الحكم الأول ، وباقي النص السابق .

(٥) الإشارة إلى الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٦) خفي : خاف ، مستور .

(٧) القضم : أكل القضم ، وهو شعير الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضم .

وأوردت ماء الشَّيْبَةِ نَطْفًا<sup>(١)</sup>؛ واتخذت لها من عذر<sup>(٢)</sup> الحدود الملاح  
عذر<sup>(٣)</sup> مَوْشِيَّة<sup>(٤)</sup>، وعللت بصغير الحان القيان كلَّ عشيَّة؛ وأنعلت  
بالإهْلَةِ، وغطيت بالرياض بدلَ الأجلَّة<sup>(٥)</sup>.

إلى الرقيق<sup>(٦)</sup>، الخليق بالحُسن الحقيق، يسوقه إلى مشوى  
الرعاية رُوقة<sup>(٧)</sup> الفتيان رُعاته، ويهدي عقيقها من سَبَجِه<sup>(٨)</sup> أشكالا  
تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان  
لا يريم<sup>(٩)</sup>، لما تبهره منظرها الوسيم، وتَحَامِلُ الظُّلُمِ<sup>(١٠)</sup>، وتضأول  
الرِّمِّ<sup>(١١)</sup> وأخرس مفوه<sup>(١٢)</sup> اللسان، وهو بمأكات البيان، الحفيظ  
العليم؛ وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال<sup>(١٣)</sup>، فقال  
يُخاطب المقام الذي أطلعت أزهارها غمام جوده، واقتضت اختيارها

- 
- (١) النطفة : الماء الصّافي ؛ والجمع نطف .  
(٢) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .  
(٣) العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .  
(٤) جل الدابة : ما تغطى به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .  
(٥) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .  
(٦) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .  
(٧) السبج : خرز أسود .  
(٨) لا يريم : لا يبرح .  
(٩) الظلم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .  
(١٠) الرِّم : الظلي الخالص البياض .  
(١١) رجل مفوه : يجيد القول .  
(١٢) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .



بركات وجوده : لو علمنا ايها الملك الأصيل ، الذي كُرم منه الاجمال والتفصيل ، أن الشناء يوازيها ، لكَلِمنا لك بكَيْلِكَ ، او الشُّكر يعادلها ويُجَازيها ، لتعرضنا بالوشل<sup>(١)</sup> الى نيل نَيْلِكَ<sup>(٢)</sup> ، او قلنا هي التي اشار اليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله : « ادرك بخيلك » ، حين شَرِق بدمعه الشَّرِق<sup>(٣)</sup> ، وانهزم الجمع واستولى الفرق ، واتسع فيه \_ والحكم لله \_ الخرق<sup>(٤)</sup> ورأى ان مقام التَّوحيد بالمظاهرة على التَّثليث ، وحزبه الخبيث ، الاولى والأحق .

والآن قد اغنى الله بتلك النية ، عن اتخاذ الطوال الرُدينيَّة<sup>(٥)</sup> ، وبالذُّعاء من تلك المثابة الدِّينيَّة الى رب البنيَّة<sup>(٦)</sup> ، عن الامداد السَّنيه والأجواد تخوض بحر الماء الى بحر المنيَّة ، وعن الجُرْدِ العَرَبِيَّة ، في مَقاود اللُّيُوث الأَبِيَّة ؛ وجدِّد برَسم هذه الهَدِيَّة ، مراسيم العُهود الوُدِّيَّة ، والذِّمِّ المُوحِدِيَّة ، لتكون علامة على الأصيل ، ومكذِّبة لدعوى الوقفِ والفصل ، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) النيل : نهر مصر ، والنيل ( بالفتح ) : العطاء .

(٣) يريد شرق الأندلس .

(٤) يشير الى المثل : « اتسع الخرق على الراقع » الذي يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن اصلاحه . تاج ( خرق ) .

(٥) الردينية : منسوبة الى رديئة ، وهي امرأة السميري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة الى الشخص تارة ، والى الموضع أخرى .

(٦) البنية : الكلمة ، وكانت تسمى بنية ابراهيم ؛ وكثير قسمهم بها فيقولون : « لا ورب هذه

البنية » .

أَلِفُهَا أَلِفَ الْوَصْلِ ، وَلَأْمُهَا حَرَامًا عَلَى النَّصْلِ <sup>(١)</sup> .

وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْنَا رَسُولُكُمْ ، فَقَرَّرَ مِنْ فَضْلِكُمْ مَا لَا  
يُنْكِرُهُ مَنْ عَرَفَ عُلُوءَ مِقْدَارِكُمْ ، وَأَصَالَه دَارِكُمْ ، وَفَلَكَ  
إِبْدَارِكُمْ ، وَقُطِبَ مَدَارِكُمْ ؛ وَأَجَبْنَاهُ عَنْهُ بِجَهْدٍ <sup>(٢)</sup> مَا كُنَّا لِنَقْنَعَ  
مِنْ جَنَاهُ <sup>(٣)</sup> الْمُهْتَصِرَ <sup>(٤)</sup> ، بِالْمُقْتَضَبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا لِنُقَابِلَ طُولَ  
طَوْلِهِ <sup>(٥)</sup> بِالْقِصَرِ ، لَوْلَا طُرُؤُ الْحَصْرِ <sup>(٦)</sup> .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ - وَدَّ  
أَبْرَمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ مَعَاقِدُهُ <sup>(٧)</sup> ، وَوُثِرَتْ لِلْخُلُوصِ <sup>(٨)</sup> ، الْجَلِيلُ  
الْأُصُوصُ ، مَضَاجِعُهُ الْقَارَّةُ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهَدُ بِالْجَمِيلِ يُوجَعُ لِفَقْدِهِ  
فَاقِدُهُ ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ، وَالْمَطْفُ  
بِتَوَكُّيدِهِ ؛ فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيَّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيَّ  
فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ أَوْ نَشْكُرُ ، أُمَفَاتُحْتُكُمْ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا

(١) اللام : جمع لأمة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان ( نصل ) .

(٢) الجهد ( بالفتح ) المشقة .

(٣) الجنى : ما يجتنى من الشجر وغيره .

(٤) المهتصر : المائل ؛ يقال هصرت الفصن : إذا أملتته إليك .

(٥) الطول ( بالضم ) : خلاف العرض . والطول ( بالفتح ) : المن ؛ يقال طال عليه : إذا

امتن .

(٦) الحصر : العي ، وعدم القدرة على الابانة .

(٧) المعاهد : العقد .

(٨) وثر الفراش ( بالضم ) : وطؤ ولان .

فَتَحْ ، أَمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَفِي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ سَبَّحُ<sup>(١)</sup> ، وَلَعَدُوَّ الْإِسْلَامِ  
بِحِكْمَةٍ حَكَمَتِهَا كَبَّحُ<sup>(٢)</sup> ، إِنَّمَا نَكِيلُ الشُّكْرِ لِمَنْ يُؤَفِّي جَزَاءَ الْأَعْمَالِ  
الْبَرَّةِ ، وَلَا يَبْخَسُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ وَلَا أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ ،  
ذِي الرَّحْمَةِ الشَّرَّةِ<sup>(٣)</sup> ، وَالْأَلْطَافِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وإن تشوّفتم الى الأحوال الرَّاهنة ، وأسباب الكُفْرِ الْوَاهية -  
بثُدرة الله - الْوَاهية<sup>(٤)</sup> ، فَتَحْنُ نُظْرَ فُكْمٍ بِطَرْفِهَا<sup>(٥)</sup> ، وَنُظْلِعُكُمْ  
عَلَى سَبِيلِ الْأَجْمَالِ بِطَرْفِهَا ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا أَعَادَنَا اللَّهُ مِنَ التَّمْحِصِ ، إِلَى  
مِثَابَةِ التَّخْصِصِ ، مِنْ بَعْدِ الْمَرَامِ الْعَوِيصِ ، كَحَلَّلْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ  
بَصَرَ الْبَصِيرَةِ ، وَوَقَّفْنَا عَلَى سَبِيلِهِ مَسَاعِيَ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ ، وَرَأَيْنَا -  
كَمَا نُقِلَ إِلَيْنَا ، وَكُرِّرَ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُنَا وَعَلَيْنَا - أَنَّ الدُّنْيَا - وَإِنْ  
غَرَّ الْغُرُورُ<sup>(٦)</sup> وَأَنَامَ عَلَى سُرْرِ الْغَفْلَةِ السُّرُورُ ، فَلَمْ يَنْفَعِ الْخُطُورُ<sup>(٧)</sup>  
عَلَى أَجْدَاثِ<sup>(٨)</sup> الْأَحْبَابِ وَالْمُرُورِ ، - جَسْرٌ يُعْبَرُ ، وَمَتَاعٌ لَا يُغْبَطُ  
مِنْ حَبِيٍّ بِهِ وَلَا يُخْبَرُ<sup>(٩)</sup> ، إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ يُخْبَرُ ؛ وَأَنَّ الْحُسْرَةَ بِمِقْدَارِ

(١) السَّبَّحُ : الْجَرِيُّ .

(٢) كَبَّحُ الْفَرَسُ : جَذَبَهُ إِلَيْهِ بِالْجَمِّ يَنْعَمُهُ عَنِ الْجَرِيِّ .

(٣) الرَّحْمَةُ الثَّرَّةُ : الْغَزِيرَةُ الْكَثِيرَةُ .

(٤) وَهِيَ رَوْمٌ : ضَعْفٌ .

(٥) جَمْعُ طَرْفَةٍ ( بِالضَّمِّ ) ؛ وَهِيَ أَنْ يَوْمِطِيَ الْمَرْءُ مَا لَمْ يَمْلِكْهُ فَيَعْجَبُهُ .

(٦) الْغُرُورُ ( بِالْفَتْحِ ) : الشَّيْطَانُ ؛ وَفِي الْقُرْآنِ : « وَلَا يَغُرَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » .

(٧) الْخُطُورُ : التَّبَخُّرُ فِي الْمَشْيِ .

(٨) جَمْعُ جَدَثٍ : وَهُوَ الْقَبْرُ .

(٩) يُخْبَرُ : يَنْعَمُ وَيَسُرُّ وَيَكْرَمُ .

مَا عَلَى تَرْكِه يُخْبِر ، وَأَنْ الْأَعْمَارَ أَحْلَامَ ، وَأَنْ النَّاسَ نِيَامَ ؛ وَبِمَا  
رَحَلَ الرَّاحِلُ عَنْ الْخَانِ<sup>(١)</sup> ، وَقَدْ جَلَّه بِالْأَذَى وَالْدُّخَانَ ، أَوْ  
تَرَكَ بِهِ طِيبًا ، وَثَنَاءً يَقُومُ بَعْدُ لِلْآتِي خَطِيبًا ؛ فَجَعَلْنَا الْعَدْلَ فِي  
الْأُمُورِ مِلَاكًا<sup>(٢)</sup> ، وَالتَّفَقُّدَ لِلشُّغُورِ مِسْوَاكًا ، وَضَجِيعَ الْمِهَادِ ،  
حَدِيثَ الْجِهَادِ ، وَأَحْكَامَهُ مَنَاطَ الْجِتْهَادِ ، وَقَوْلَهُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ<sup>(٣)</sup> » مِنْ حُجَجِ الْإِسْتِشْهَادِ ؛ وَبَادَرْنَا  
رَمَقَ<sup>(٤)</sup> الْحِصُونِ الْمُضَاعَةِ وَجَنَحَ<sup>(٥)</sup> التَّقِيَّةِ<sup>(٦)</sup> دَامَسَ<sup>(٧)</sup> ،  
وَعَوَّارِيهَا<sup>(٨)</sup> لَا تَرْدُ يَدَ لَامَسَ<sup>(٩)</sup> ، وَسَاكُنَهَا بَائِسَ ، وَالْأَعْصَمَ<sup>(١٠)</sup>  
فِي شَعَفَاتِهَا<sup>(١١)</sup> مِنَ الْعِصْمَةِ يَائِسَ ؛ فَزَيْنًا بِيضَ الشُّرُفَاتِ ثَنَائِيهَا ،  
وَأَفْعَمْنَا بِالْعَذَبِ الْفُرَاتِ رَكَايَاهَا<sup>(١٢)</sup> وَغَشَّيْنَا بِالصَّفِيحِ الْمَضَاعِفَ

- (١) الْخَانُ الْمَكَانُ الَّذِي يَنْزِلُهُ الْمَسَافِرُونَ ، وَهُوَ الْفَنْدُقُ .  
(٢) مَلَاكَ الْأَمْرِ : مَا يَقُومُ بِهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ .  
(٣) يُشِيرُ إِلَى الْآيَاتِ ( ١٠ - ١٣ ) مِنْ سُورَةِ الصَّف .  
(٤) الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ وَالرُّوحِ . وَفِي الْكَلَامِ تَجُوزُ .  
(٥) جَنَحُ الطَّرِيقِ : جَانِبُهُ ، وَجَنَحُ الْقَوْمِ : نَاحِيَتُهُمْ .  
(٦) التَّقِيَّةُ : التَّحْفِظُ .  
(٧) لَيْلُ دَامَسَ : مَظْلَمٌ .  
(٨) جَمْعُ عَارِيَةٍ ؛ وَهِيَ الْمَتَجَرِّدَةُ مِنَ الثِّيَابِ . وَالْعَوْرَاتُ : الْحُلَالُ فِي الثَّغْرِ وَغَيْرِهِ ، يَتَخَوَفُ  
مِنْهُ فِي الْحُرُوبِ .  
(٩) يُقَالُ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي تَرْتَبِي : لَا تَرْدُ يَدَ لَامَسَ ؛ أَيْ لَا تَرُدُّ مِنْ يَرِيدِهَا عَنْ نَفْسِهَا .  
(١٠) الْأَعْصَمُ : الْوَعْلُ ، وَعِصْمَتُهُ : بَيَاضُ فِي رِجْلِهِ .  
(١١) الشَّعَفَاتُ ، جَمْعُ شَعْفَةٍ ؛ وَهِيَ رَأْسُ الْجِبَالِ .  
(١٢) جَمْعُ رَكِيَّةٍ وَهِيَ الْبُشْرُ .

أَبْوَابَهَا ، وَاحْتَسَبْنَا عِنْدَ مُوَيِّ فِي الْأَجُورِ ثَوَابَهَا ، وَبَيَّضْنَا بِنَاصِعِ  
الْكِلْسِ أَثْوَابَهَا ؛ فَهِيَ الْيَوْمَ تُؤْتِيهِمْ حَسَّ الْعِيَانِ ، أَنَّهَا قَطَعَ مِنْ بِيضِ  
الْعَنَانِ <sup>(١)</sup> ، وَتَكَادُ تَنَاولُ قُرْصَ الْبَدْرِ بِالْبَنَانِ ، مَتَكْفِلَةً لِلْمُؤْمِنِينَ  
مِنْ فَرْعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالْأَمَانِ ؛ وَأَقْرَضْنَا اللَّهَ قَرْضًا ، وَأَوْسَعْنَا  
مُدَوَّنَةَ الْجَيْشِ <sup>(٢)</sup> عَرْضًا ، وَفَرَضْنَا إِنْصَافَهُ مَعَ الْإِهْلَةِ فَرَضًا ؛  
وَاسْتَنْدَدْنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ إِلَى ظِلِّ لَوَاءٍ ، وَنَبَذْنَا  
إِلَى الطَّائِغَةِ عَهْدَهُ عَلَى سِوَا <sup>(٣)</sup> ، وَقُلْنَا : رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ ، وَكُلُّ  
جَبَّارٍ لِعَزِّكَ ذَلِيلٌ ، وَحِزْبُكَ هُوَ الْكَثِيرُ ، وَمَا سِوَاهُ قَلِيلٌ ؛ أَنْتَ  
الْكَافِي ، وَوَعْدُكَ الْوَعْدُ الْوَافِي ، فَأَفِضْ <sup>(٤)</sup> عَلَيْنَا مَدَارِعَ <sup>(٥)</sup>  
الصَّابِرِينَ ، وَاكْتُبْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِحُظُوظِ رِضَاكَ الظَّافِرِينَ ، وَثَبِّتْ  
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

فَتَحَرَّكْنَا أَوَّلَ الْحَرَكَاتِ ، وَفَاتِحَةَ مُصْحَفِ الْبَرَكَاتِ ، فِي  
خَفٍّ مِنَ الْحُشُودِ ، وَاقْتِصَارٍ عَلَى مَا يَحْضُرْتَنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ  
الْمُظَفَّرَةِ وَالْجُنُودِ ، إِلَى حِصْنِ آشْرِ الْبَازِي الْمُطْلِ ، وَرِكَابِ الْعَدُوِّ

(١) العنان : السحاب .

(٢) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة . وفي مقدمة الإحاطة ١٩/١ ،  
٣٦ وصف للجيش الأندلسي ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكر لمقدار ما كان يأخذه كل شهر .  
(٣) نبذ العهد : نقضه ، وألقاه إلى من كان بينه وبينه . والتعبير مقتبس من الآية ٥٨ من  
سورة الأنفال .

(٤) أفيض : أفرغ .

(٥) جمع مدرع : وهو ضرب من الثياب .

الضالّ المضلّ، ومُهْدِي نَفَثَات<sup>(١)</sup> الصِّل<sup>(٢)</sup>، على امتِنَاعِهِ وَاِرْتِفَاعِهِ،  
وُسْمُو يَفَاعِهِ<sup>(٣)</sup>، وما بَذَلَ الْعَدُوُّ فِيهِ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ، وَتَوْفِيرِ  
أَسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ، وَانْتِخَابِ أَنْجَادِهِ؛ فَصَلِّينَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ، وَزَا حَمْنَا  
عَلَيْهِ الشَّهْدَاءُ نُصَايِرُ أَوَارِهِ<sup>(٤)</sup> وَنَلْقَى بِالْجَوَارِحِ الْعَزِيزَةِ سَهَامَهُ  
الْمَسْمُومَةَ، وَجَلَامِدَهُ الْمَلْسُومَةَ<sup>(٥)</sup> وَأَحْجَارَهُ، حَتَّى فَرَعْنَا<sup>(٦)</sup> —  
بِحَوْلٍ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ — أَبْرَاجَهُ الْمَنِيْعَةَ وَأَسْوَارَهُ،  
وَكَفَفْنَا عَنِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ أَضْرَارَهُ، بَعْدَ أَنْ اسْتَضَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ  
السَّهْلَةِ جَارَهُ؛ وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَحْنَاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَةً، وَأَزْوَادًا  
نَامِيَةً، وَعَمَلْنَا بِيَدِنَا فِي رَمِّ مَا ثَلَمَ الْقِتَالُ، وَبَقَرٍ مِنْ بُطُونِ  
مَسَابِقَةِ الرِّجَالِ، وَاقْتَدَيْنَا بَنِيَّنَا — صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ —  
فِي الْخَنْدَقِ<sup>(٧)</sup> لَمَّا حَمَى ذَلِكَ الْمَجَالُ، وَوَقَعَ الْارْتِجَازُ الْمَنْقُولُ  
حَدِيثُهُ وَالْارْتِجَالُ<sup>(٨)</sup>؛ وَمَا كَانَ لِيَقْرَ لِلْإِسْلَامِ مَعَ تَرْكِهِ الْقَرَارَ، وَقَدْ

(١) نفثت الحية السم : اذا لسعت بأنفها ، فاذا عضت بنابها قيل : نشطت .

(٢) الصل (بالكسر) : الحية التي لا تنفع فيها الرقية .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٤) الأوار (بالضم) : حرارة النار ، والشمس ، والعطش .

(٥) جلامدة ، جمع جلمد ؛ وهو الصخر . والملمومة : المستديرة الصلبة .

(٦) فرعنا : علونا .

(٧) كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة . الطبري ٣/٣٤٣ .

(٨) نقل السهيلي في الروض الأنف عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتجز يوم الخندق فيقول :

بسم الإله وبه بديننا  
ولو عبدنا غيره شقيننا  
فحبذا ربا وحب ديننا

سيرة ابن هشام ٣/٢٢٧ ، ٢٢٨ .

كشَبَ الْجَوَارَ ، وَتَدَاعَى الدَّعْرَةَ<sup>(١)</sup> وَتَعَاوَى الشَّرَارَ<sup>(٢)</sup> .

وَقَدْ كُنَّا أَغْرَيْنَا مَنْ بِالْجَهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَدِينَةِ بُرْغَةِ  
الَّتِي سَدَّتْ بَيْنَ الْقَاعِدَةِ تَيْنِ رُنْدَةٍ وَمَالَقَةِ الطَّرِيقِ ، وَالْبَسَتْ  
ذُلَّ الْفِرَاقِ ذَلِكَ الْفَرِيقِ ، وَمَنْعَتْهُمَا أَنْ يُسَيِّغَا الرِّيقَ ؛ فَلَا سَبِيلَ  
إِلَى الْإِلْمَامِ ، لَطِيفِ الْمَنَامِ ، إِلَّا فِي الْأَحْلَامِ ، وَلَا رِسَالَةَ إِلَّا فِي أَجْنَحَةِ  
هُدُلٍ<sup>(٣)</sup> الْحَمَامِ ؛ فَيَسِّرُ اللَّهُ فَتَحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ، بَعْدَ  
حَرْبٍ انْبَتَتَ فِيهَا النُّحُورُ ، وَتَرَيْنَتِ الْخُورُ . وَتَبَعَ هَذِهِ  
الْأُمُّ بَنَاتُ شَهِيرَةٍ ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرَةٌ<sup>(٤)</sup> ، فَشُنِي  
الشُّغْرُ مِنْ بُوسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ النَّاجِيَةِ  
بَعْدَ عَبُوسَةٍ .

ثُمَّ أَعْمَلْنَا الْحَرَكَةَ إِلَى مَدِينَةِ إِطْرِيرَةٍ ، عَلَى بُعْدِ الْمَدَى ، وَتَغْلَغَلْنَا فِي  
بِلَادِ الْعَدَا ، وَاقْتَحَمَ هَوْلَ الْفَلَاوِغُولِ الرَّدِيِّ ؛ مَدِينَةٍ تَبَنَّتْهَا حِمَى<sup>(٥)</sup>

(١) رَجُلٌ دَاعِرٌ (بِالْمُهْمَلَةِ) : يَسْرِقُ ، وَيُزْنِي ، وَيُؤْذِي النَّاسَ ؛ وَالْجَمْعُ دَعْرَةٌ .

(٢) تَعَاوَتْ الشَّرَارُ : تَجَمَّعَتْ لِلْفِتْنَةِ ، وَتَعَاوَوْا عَلَيْهِ : تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا .

(٣) الْهُدِيلُ : ذَكَرُ الْحَمَامِ . وَالْجَمْعُ هُدُلٌ ، كَسَرِيرٍ وَسُرُرٍ .

(٤) الْخَيْرَةُ : الْمُخْتَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ يَرِيدُ : بِقَاعِ مُخْتَارَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ .

(٥) يَرِيدُ أَشْيَاءَ ؛ سَمَّاها حِمَى جَنْدُ بَنِي أُمِيَّةٍ الَّذِي نَزَلَ بِهَا حِينَ جَاءَ مِنْ حِمَى الشَّامِ .

وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَدَنِ الْأَنْدَلُسِ . يَأْقُوتُ ٣/٤٢٤ .

فَأَوْسَعَتِ الدَّارَ ، وَأَغْلَتِ الشَّوَارَ <sup>(١)</sup> ، وَرَاعَتِ  
الاسْتِكْثَارَ ، وَبَسَطَتِ الْاِعْتِمَارَ <sup>(٢)</sup> ؛ رَجَّحَ لَدَيْنَا قَصْدَهَا عَلَى الْبُعْدِ ،  
وَالْحَرِيقِ الْجَمْعِ ، مَا أَسَفَتْ <sup>(٣)</sup> بِهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اِسْتِصْالِ طَائِفَةٍ  
مِنْ أَسْرَاهُمْ ، مَرُّوا بِهَا آمِنِينَ ، وَبَطَّأَتْهَا الْمُشْتُومُ مَتَمِّينَ ، قَدْ  
أَنَهَكَهُم <sup>(٤)</sup> الْاِعْتِقَالُ ، وَالْقِيُودُ الشِّقَالُ ، وَأَضْرَعَهُمِ الْاَسَارُ وَجَلَّلَهُمِ  
الْاِنْكَسَارُ ، فَجَدَّلُوهُمْ <sup>(٥)</sup> فِي مَضْرَعٍ وَاحِدٍ ، وَتَرَكَوهُمْ عِبْرَةً لِلرَّائِي  
وَالْمُشَاهِدِ ، وَأَهْدُوا بِوَقِيعَتِهِمْ إِلَى الْاِسْلَامِ كُلَّ الْوَاجِدِ <sup>(٦)</sup> ، وَتَرَةً  
لِلْمَاجِدِ <sup>(٧)</sup> ؛ فَكَبَسْنَاهَا كَبْسًا ، وَفَجَّأْنَاهَا بِإِلْهَامٍ مِنْ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى  
وَصَبَّحَتِهَا الْخَيْلُ ، ثُمَّ تَلَّاحَقَ الرَّجُلُ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وَحَاقَ بِهَا الْوَيْلُ ؛  
فَأَبْيَحَ مِنْهَا الذَّمَّارُ <sup>(٨)</sup> ، وَآخَذَهَا الدَّمَارُ ، وَوَحِّقَتْ <sup>(٩)</sup> مِنْ مَصَانِعِهَا  
الْبَيْضُ الْأَهْلَةَ وَخَسَفَتِ الْاَقْمَارُ ، وَشَفِيَتْ مِنْ دَمَاءِ أَهْلِهَا الضُّلُوعُ

(١) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشتري من الصداق الذي  
يدفعه الزوج ؛ وتجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووطاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حمص»  
أماً لا طرية قد زوجها وجزتها ، فتغالت - لما في الأم من حب لابنتها - في هذا الجهاز الخ .  
فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التي اصطلحوا عليها .

(٢) يريد بالاعتار : الاستعمار ، والاستغلال .

(٣) أسفاه : أطاشه حله ، وحمله على الطيش .

(٤) أنهكهم : أجدهم ، وأضناهم

(٥) فجدلوهم : صرعوهم

(٦) الشكل : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده أيضاً . والواجد : الغضبان .

(٧) الترة : الدحل والثأر . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .

(٨) الدمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يحمله . والدمار (بالهملة) : الهلاك .

(٩) المحق : النقصان وذهاب البركة . لسان العرب (محق)



الحرار<sup>(١)</sup> ، وسلطت على هياكلها النار ، واستولى على الآلاف  
العديدة من سبيها الأسار ، وانتهى الى إشبيلية الشكلى المغار<sup>(٢)</sup>  
فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار<sup>(٣)</sup> ، واستولت  
الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله<sup>(٤)</sup> الأوقار<sup>(٥)</sup> .

وعدنا والأرض تموج سبيا ، لم نترك بعفرين شبلا<sup>(٦)</sup> ولا  
بوجرة ظبيا<sup>(٧)</sup> ، والعقائل<sup>(٨)</sup> حسري ، والعيون ينهرها الصنع<sup>(٩)</sup>  
الأسرى<sup>(١٠)</sup> وصبح السرى قد حيد من بعد المسرى<sup>(١١)</sup> ، فسبحان  
الذي أسرى<sup>(١٢)</sup> ؛ ولسان الحمية ينادي ، في تلك الكنائس المخربة  
والنوادي : يا لآثارات الأسرى !

(١) الضلوع الحرار : العطشى .

(٢) المغار : مصدر ميمي بمعنى الاغارة .

(٣) جلل وجوههم : عم وجوههم . والصغار : الذل .

(٤) اقل الشيء : أطاق حمله .

(٥) الأوقار : جمع وقر ، وهو الحمل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .

(٦) عفرين بلد تكثر فيه الأسود . والشبل : ولد الأسود .

(٧) وجرة : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير .

(٨) ( تاج - وجر ) .

(٩) جمع عقيلة ؛ وهي المرأة الكريمة ، النفيسة .

(١٠) الصنع الأسرى : الأشراف ، والارفع .

(١١) ينظر الى المثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » ، الذي يضرب للرجل يجتمل

المشقة رجاء الراحة . أنظر الميداني ٣٠٤/٢ .

(١٢) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . وأسرى : سار ليلا .

ولم يكن إلا أن نُفِلَت الأنفال<sup>(١)</sup>، ووُسِّمَت بالأوضح  
 الأغفال<sup>(٢)</sup>، وتميّزت الهوادي والأكفال<sup>(٣)</sup>، وكان إلى غزو  
 مدينة جيان الإحتفال، قدنا إليها الجرد<sup>(٤)</sup> تَلَاعب الظلال  
 نشاطا، والأبطال تفتح الأخطار رضى بما عند الله واغتباطا،  
 والمهتدة الدلق<sup>(٥)</sup> تسبق إلى الرقاب استلالا واختراطا،  
 واستكثرتنا من عدد القتال احتياطاً، وأزحنا العِلل عمن أراد  
 جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطا، ونادينا الجهاد الجهاد  
 يا أئمة الجهاد! راية النبي الهاداة الجنة تحت ظلال السيوف  
 الحداد!، فبرز النداء إلى الله تعالى كل عامر وغامر<sup>(٦)</sup>، واثمر الجمل  
 من دعوى الحق إلى أمرٍ أمر، وأتى الناس من الفجوج<sup>(٧)</sup> العميقة  
 رجالاً وعلى كل ضامر<sup>(٨)</sup>، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لوناً  
 وعداً، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً، ومدّ

(١) الأنفال، جمع نفل؛ وهو الغنيمة. ونفلت: أعطيت.

(٢) الأوضح، جمع وضع؛ وهو البياض. والأغفال: الأراضي الموات؛ يقال أرض غفل: لا علم بها، ولا سمه.

(٣) هو ادى كل شيء: اوائله. يريد: تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة، من الأكفال (جمع كفل): وهم الذين يكونون في مؤخر الموقعة همهم التأخر، والفرار.

(٤) جمع أجرد؛ وهو الفرس القصير الشعر، وذلك في علامات العتق والكبرم.

(٥) سيف دلق: سهل الخروج من غمدة؛ والجمع: دلق.

(٦) العامر من الأرض: المستغل. والغامر: الذي يغمره الماء؛ ويراد به الأرض التي لم تستثمر. يريد: أقبل الناس من كل جانب.

(٧) جمع فج؛ وهو الطريق البعيد، والواسع، والذي بين جبلين.

(٨) الجمل الضامر: الخفيف الجسم.

بجرها الزاخر مدًا ، فَلَا يَجِدُهَا النَّاظِرُ وَلَا الْمُنَاطِرُ حَدًّا :

وهذه المدينة هي الأمُّ الولُود ، والجنة التي في النار لِسُكَّانِهَا  
من الكُفَّار الخُلُود ؛ وَكُرْسِيُّ الْمَلِك ، وَجَنَّةُ<sup>(١)</sup> الْوُسْطَى من  
السِّلَك ؛ بَاءَتْ بِالْمَزَايا العديدة وَنَجَحَتْ ، وَعِنْدَ الْوِزَان بغيرها من  
أُمَات<sup>(٢)</sup> الْبُلْدَان ، رَجَحَتْ ، غَابُ الْأَسُود ، وَجُحِرَ الْحَيَّات  
السُّود ، وَمُنْصَبُ<sup>(٣)</sup> التَّمَاثِيلِ الْهَائِلَةِ ، وَمُعَلَّقُ النِّوَاقِيسِ الْمَصْلُصَةِ .

فَأَذْنَيْنَا إِلَيْهَا الْمَرَا حِل ، وَعَيْنُنَا بِبِحَارِ الْمُحِلَّاتِ الْمُسْتَقِلَّاتِ مِنْهَا  
السَّاحِل<sup>(٤)</sup> ، وَلَمَّا أَكْشَبْنَا<sup>(٥)</sup> جِوَارَهَا ، وَكِدْنَا نَلْتَمِحُ<sup>(٦)</sup> نَارَهَا ،  
تَحَرَّكْنَا إِلَيْهَا وَوَشَّاحُ<sup>(٧)</sup> الْأُفُقِ الْمَرْقُومِ ، بَزْهُرِ النُّجُومِ ، قَدْ دَارَ  
دَائِرُهُ ، وَاللَّيْلُ مِنْ خَوْفِ الصَّبَاحِ ، عَلَى سَطْحِهِ الْمُسْتَبَاحِ ، قَدْ

(١) الجنة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل  
المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .

(٢) أمات ، جمع أم ؛ ويفاد ان تأتي جمعاً لام ما لا يعقل . وانظر اللسان « أم » ، « أمه » .

(٣) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التماثيل .

(٤) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلون به . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٥) أكتب : تارب ، ودنا من الشيء .

(٦) التمحه : ابصره بنظر خفيف .

(٧) الوشاح : شيء ينسج عريضاً من اديم ، ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها

وكشعها .

شَابَتْ غَدَائِرُهُ ، وَالنَّسْرُ<sup>(١)</sup> يُرْفَرُ بِالْيُمْنِ طَائِرُهُ ، وَالسَّمَاءُ  
الرَّامِحُ<sup>(٢)</sup> يَشَارُ بِعِزِّ الْأَسْلَامِ نَائِرُهُ ، وَالنَّعَائِمُ رَاعِدَةٌ<sup>(٣)</sup> فَرَائِصُ<sup>(٤)</sup>  
الْجَسَدِ ، مِنْ خَوْفِ الْأَسَدِ<sup>(٥)</sup> ، وَالْقَوْسُ<sup>(٦)</sup> يُرْسِلُ سَهْمَ السَّعَادَةِ<sup>(٧)</sup> ،  
بَوَاقِ الْعَادَةِ ، إِلَى أَهْدَافِ النِّعَمِ الْمُعَادَةِ ، وَالْجُوزَاءُ<sup>(٨)</sup> عَابِرَةُ نَهْرِ

(١) النسران : كوكبان شاميان ؛ أحدهما واقع ، والآخر طائر . فالواقع كوكب نير ،  
خلفه كوكبان أصغر منه ، يكونان معه صورة الاثني ؛ ويقولون : هما جناحاه وقد ضمهما إليه حين  
وقع . وأما الطائر ؛ فهو ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب  
منير بين كوكبين تخيلوها جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب « الانواء » لابن قتيبة ص ١٣٣  
لسان ( نسر ) .

(٢) السماء الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لا نوء له  
ويقابله السماء الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٣) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك  
نعائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت  
وصدرت ، أي رجعت عنها . لسان العرب ( نعم ) .

(٤) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة . والفرائص ، جمع فريضة ، وهي مرجع الكتف الى  
الخاصرة في وسط الجنب .

(٥) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(٦) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة  
على صورة شخص نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه على صورة  
فرس . وكواكبه ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(٧) السهم - في مصطلح المنجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين  
طولي كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم في استخراج طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا  
الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(٨) الجوزاء ، وتسمى التوأمن : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهي صورة  
انسانين رأسها ، وسائر كواكبها في الشمال والمشرق عن المجرة ، وأرجلها الى الجنوب والمغرب  
في نفس المجرة ؛ وهما كالمتماقنين . كواكبها ٢٥ كوكبا .

المَجَرَّة<sup>(١)</sup> ، والزُّهْرَة<sup>(٢)</sup> تَغَارُ من الشِّعْرَى المَبُور<sup>(٣)</sup> بالضَّرَّة ؛  
وَعَطَارِد<sup>(٤)</sup> يُسْنَدِي في حَبَل الحُرُوب ، على البَلَد المَحْرُوب<sup>(٥)</sup>  
وَيُلَحِّمُهُ ، وَيُنَظِر على أَشْكَالها الهِنْدَسِيَّة فيُفَحِّمُهُ ، والأَحْمَر<sup>(٦)</sup>  
يَبْهَر ، وبعَلَمه الأَبْيَض يُغْرِي وَيَنْهَر ، والمُشْتَرِي يُبْدِي في فَضْل  
الْجِهَاد وَيُعِيد ، وَيُزَاحِم في أَلْفَقَات ، على مَا لِلسَّعَادَةِ من الصَّفَقَات ،

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التبانين ؛ وهي كواكب صفراء ، متقاربة ، متشابكة لا تميز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصفرها صارت كأنها لطخات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها .  
(٢) الزهرة ، كتؤدة : نجم أبيض مضيء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسمى المنجمون السعد الأصفر ، لأنها في السعادة دون المشتري . تاج العروس ( زهر ) .

(٣) الشعري المبور ( بكسر الشين ) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، في حجم الزهرة ونورها تقريبا ؛ يقال لها الشعري المبور ، ومرزم الشعري ؛ ذكرت في القرآن : « وأنه هو رب الشعري » ( ٤٩ من سورة النجم ) . وقد عبدها قوم من العرب في الجاهلية . وسميت المبور لأنها - فيما يزعمون - عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها غيرها ، فلذلك عبدها . تاج العروس ( شعر ) .

(٤) عطارد ، ويسمى - في عرف أهل المغرب - الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل على الخسف والزوال ، وبالمريخ يدل على الشدائد .

(٥) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٦) الأحمر وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فإذا كان في البرج الرابع من الطالع ، دل ذلك على كثرة القتل في الحروب ، وشدة الهول .

وَيَزِيدُ<sup>(١)</sup>؛ وَزُحَلُ<sup>(٢)</sup> عَنِ الطَّالِعِ<sup>(٣)</sup> مُنْزَحِلُ<sup>(٤)</sup>، وَعَنِ الْعَاشِرِ<sup>(٥)</sup>  
مُرْتَحِلُ<sup>(٦)</sup>، وَفِي زَلَقِ السُّعُودِ وَحِلْ؛ وَالْبَدْرُ يَطَالِعُ حَجَرَ الْمُنْجَنِيْقِ<sup>(٧)</sup>،  
كَيْفَ يَهْوِي إِلَى النَّيْقِ<sup>(٨)</sup>، وَمَطْلِعُ الشَّمْسِ يُرْقَبُ، وَجِدَارُ الْأَفْقِ  
يَكَاذُ بِالْمُيُونِ عَنْهَا يُنْقَبُ.

ولما فشا سرُّ الصُّبْحِ، واهتزت أعطاف الرِّايَاتِ بتحياتِ  
مُبَشِّرَاتِ الرِّيحِ، أَطْلَلْنَا<sup>(٩)</sup> عَلَيْهَا إِطْلَالَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْفَرَاثِ،  
وَالْفُحُولِ عَلَى الْعَرَاثِ؛ فَنَظَرْنَا مَنْظَرًا يَرُوعُ بِأَسَاءٍ وَمَنْعَةٍ<sup>(١٠)</sup>، وَيُرُوقُ  
وَضَعًا وَصَنْعَةٍ، تَلَفَّعَتْ<sup>(١١)</sup> مَعَا قَلْبُهُ الشَّمُّ لِلسَّحَابِ بِبِرُودٍ، وَوَرَدَتْ مِنْ  
غُدْرِ الْمُزْنِ فِي بَرُودٍ<sup>(١٢)</sup>، وَأَشْرَعَتْ لِأَقْطَافِ أَزْهَارِ النُّجُومِ وَالذَّرَاعِ

(١) زحل ، والمشتري ، والمريخ ، إذا اقترنت بعضها ببعض ، أو تناظرت ؛ بأن كانت ناظرة  
بعضها إلى بعض نظر عداوة ، وذلك عند التربيع والمقابلة - إذا حصل ذلك عند حلول الشمس  
برأس الحمل ، فإن ذلك يدل على وقوع حرب .

(٢) رحل ، وهو كيوان : إذا اتصل به القمر اتصال عداوة ، فإن ذلك يدل على البلاء  
والرزايا .

(٣) الطالع : هو البرج الذي على الأفق الشرقي .

(٤) زحل عن مكانه : زل ، وحاد .

(٥) العاشر : هو البرج الذي يقع فوق سمت الرأس .

(٦) المنجنيق ( بفتح الميم وكسرهما ) : آلة لرمي الحجارة على العدو في الحرب . شفاء الغليل  
ص ١٣٢ .

(٧) الينق : أرفع موضع في الجبل .

(٨) أطللنا عليها : أشرفنا عليها .

(٩) منعة : قوة تمنع من يريده بسوء .

(١٠) تلفع : تلفف .

(١١) البرود من الشراب : ما يبرد الغلة .

بين النطاق معاصم رُود<sup>(١)</sup> ، وبلداً يعيي الماسح والذارع<sup>(٢)</sup> ، وينتظم المحاني والأجارع<sup>(٣)</sup> ؛ فقلنا : اللهم نقله أيدي عبادك ، وأرنا فيه آية من آيات جهادك ؛ ونزلنا بساحتها العريضة المتون ، نزول الغيث الهتون ، وتيمنا من فحصها بسورة « التين والزيتون » ، متبرئة من من امان الرحمان للبلد المفتون ؛ وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة ، وسجية شجاعتهم البئيسة<sup>(٤)</sup> ، عن ان تبوأ<sup>(٥)</sup> للقتال المقاعد<sup>(٦)</sup> ، وتُدني باسماع شهير النفير منهم الاباعد ، وقبل ان يلتقي الخديم بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم ؛ فدفعوا من اصحر اليهم من الفرسان . وسبق الى حومة الميدان<sup>(٧)</sup> ، حتى أحجروهم في البلد ، ولبوهم لباس الجلد<sup>(٨)</sup> ، في موقف يذهل الوالد عن الولد ، صابت السهام

(١) رخصة ناعمة .

(٢) مسح الارض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .

(٣) المحاني ، جمع محنية ؛ وهي منحرج الوادي ، وما انحنى من الارض . والاجارع ، جمع أجرع ؛ وهي الارض الطيبة المنبت ، والارض فيها حزونة .

(٤) الشديدة البأس .

(٥) تبوأ : تهيأ .

(٦) المقاعد : مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ كل مقاتل مكاناً معيناً . اشارة الى الآية « واذ غدوت من اهلك تبويء المؤمنين مقاعد للقتال » ( ١٢١ من سورة آل عمران ) .

(٧) حومة الميدان : أشد موضع فيه وقت القتال .

(٨) الجلد : القوة ، والصبر .

فيه غماما<sup>(١)</sup>، وطارت كأسراب الحمام تُهْدِي حَمَامًا<sup>(٢)</sup>، واضحت  
القَنَا-قَصْدًا<sup>(٣)</sup>، بعد أن كانت شهاباً رَصْدًا؛ ومَاجَ بَحْرُ الْقَتَامِ<sup>(٤)</sup>  
بأمواج النُّصُول، واخذ الأرض الرَجْفَانُ لَزْزَال الصِّياح الموصول؛  
فلا ترى إلا شهيداً تُظِلُّ مَصْرَعَهُ الحُور<sup>(٥)</sup>، وصريراً تقذف به  
إلى الساحل تلك البحور؛ ونواشِب<sup>(٦)</sup> تَبْأَى<sup>(٧)</sup> بها الوجوه الوجيئة  
عند الله والنُّجُور؛ فالْمِقْضَبُ<sup>(٨)</sup>، فَوْدُهُ<sup>(٩)</sup> يُخَضَّبُ، والأَسْمَرُ،  
غُصْنُهُ يُسْتَمَرُّ، والمِغْفَرُ<sup>(١٠)</sup>، حِمَاهُ يُخْفَرُ، وظهورُ القَيْسِ تُقْصَمُ<sup>(١١)</sup>،  
وعِصْمُ الجُنْدِ الكَوَافِرُ تُقْصَمُ<sup>(١٢)</sup>، وورقُ اليلب<sup>(١٣)</sup> في المنقلب

- 
- (١) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .  
(٢) الحمام ( بالكسر ) : قضاء الموت وقدره .  
(٣) قصدا : قطعا ؛ يقال : القنا قصدا أي مكسورة .  
(٤) القتام : الغبار .  
(٥) جمع حوراء ؛ وهي التي اشتد بياض عيناها ، وسواد سوادها .  
(٦) نواشب : سهام ناشبة في وجوه المحاربين ، أو في أعناقهم .  
(٧) تبأى بها : تنشق .  
(٨) سيف مقضب : قطاع .  
(٩) الفود : معظم شعر اللمة مما يلي الأذن . واسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .  
(١٠) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .  
(١١) تقصم : تكسر .  
(١٢) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ؛  
والكوافر جمع كافرة . وهو يريد هنا أن الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تقصم :  
تقطع وتنفصل . مقتبس من الآية : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .  
(١٣) اليلب : الدروع ، والدرق .



يَسْقُطُ ، وَالْبَيْضُ تَكْتُبُ وَالسُّمَرُ تَنْقُطُ <sup>(١)</sup> ، فَاقْتَحِمَ الرِّبْضُ الْإِعْظَمَ  
لَحِينَهُ ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ لَعْيُونَ الْمَبْصَرِينَ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ ، وَتَبَرَأَ  
الشَّيْطَانُ مِنْ خَدِينِهِ <sup>(٢)</sup> ، وَنَهَبَ الْكُفَّارَ وَخَذَلُوا ، وَبِكُلِّ مَرْصَدٍ  
جَدَلُوا ، ثُمَّ دَخَلَ الْبَلَدُ بَعْدَهُ غِلَابًا ، وَجَلَّلَ <sup>(٣)</sup> قَتْلًا وَاسْتَلَابًا ،  
فَلَا تَسَلُ إِلَّا الظُّبَا <sup>(٤)</sup> وَالْأَسْلَ <sup>(٥)</sup> عَنْ قِيَامِ سَاعَتِهِ ، وَهَوْلِ يَوْمِهَا  
وَشَنَاعَتِهِ ، وَتَخْرِبُ الْمَبَائِتَ <sup>(٦)</sup> وَالْمَبَانِي ، وَغْنَى الْأَيْدِي مِنْ  
خَزَائِنِ تِلْكَ الْمَغَانِي ، وَنَقَلَ الْوُجُودَ الْأَوَّلَ إِلَى الْوُجُودِ الثَّانِي <sup>(٧)</sup> ،  
وَتَخَارَقَ السَّيْفُ فِجَاءً بِغَيْرِ الْمُعْتَادِ ، وَنَهَلَتْ الْقَنَا الرُّدَيْنَةَ مِنَ الدِّمَاءِ ،  
حَتَّى كَادَتْ تُورِقُ كَالْأَغْصَانِ الْمُفْتَرَسَةِ وَالْأَوْتَادِ ، وَهَمَّتْ أَفْلَاكُ  
الْقِسِيِّ وَسَحَّتْ ، وَأَرَنْتِ حَتَّى بُجِّتْ ، وَنَفَدَتْ مَوَادُّهَا فَشَحَّتْ ،  
مِمَّا أَلَحَّتْ ، وَسَدَّتْ الْمَسَالِكَ جِثُّ الْقَتْلَى فَمَنَعَتِ الْعَابِرَ ، وَاسْتَأْصَلَ

(١) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(٢) الخدين : الصديق .

(٣) جلل قتلا : عمه القتل .

(٤) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(٥) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنا أسلا ، على

التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(٦) المبات ، جمع مبيت ، مكان اليتوتة .

(٧) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بالعين الملموس . أما الوجود

الثاني فهو الوجود الذهني ؛ والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن

كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ٥٧/١ ( طبع

استانبول سنة ١٢٧٧ هـ )

الله من عدوه الشَّافَةَ وَقَطَعَ الدَّابِرَ<sup>(١)</sup> ، وَأَزَلَفَ الشَّهيدَ وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ<sup>(٢)</sup> ، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الْفَتْحِ الَّذِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ .  
تَنْقُلُ الْبُشْرَى مِنْ أَفْوَاهِ الْحَابِرِ ، إِلَى آذَانِ الْمَنَابِرِ .

أَقْمْنَا بِهَا أَيَّاماً نَعْقِرُ الْأَشْجَارَ<sup>(٣)</sup> ، وَنَسْتَأْصِلُ بِالتَّخْرِيبِ الْوَجَارَ<sup>(٤)</sup> ،  
وَلِسَانُ الْإِنْتِقَامِ مِنْ عِبْدَةِ الْأَصْنَامِ ، يُنَادِي : يَا لِسَارَاتِ  
الْأَسْكَندَرِيَّةِ<sup>(٥)</sup> تَشْفِيّاً مِنَ الْفِجَارِ<sup>(٦)</sup> ، وَرُعِيّاً لِحَقِّ الْجَارِ ، وَقَفْنَا  
وَأَجْنَحَةُ الرِّايَاتِ ، بِرِيَّاحِ الْعِنَايَاتِ ، خَافِقَةً وَأَوْفَاقَ<sup>(٧)</sup> ، التَّوْفِيقِ ،

(١) الشَّافَةُ : الْأَصْلُ ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ شَافَتَهُ أَيَّ أَصْلِهِ . وَقَطَعَ الدَّابِرَ : اسْتَأْصَلَ آخِرَهُمْ .  
(٢) أَزَلَفَ الشَّهيدَ : قَرَّبَهُ إِلَيْهِ . وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ : أَعْطَاهُ مَا يَرْضَى ، أَوْ أَعْطَاهُ حَقَّ  
قَالَ حَسْبِي .

(٣) نَعْقِرُ الْأَشْجَارَ : نَقْطَعُ رُؤُوسَهَا ، فَتَيْبَسُ .  
(٤) الْوَجَارُ ( بِالْكَسْرِ وَيَفْتَحُ ) : جَحْرُ الضَّبْعِ ، وَالْأَسَدِ ، وَالثَّعْلَبِ ، وَالذَّبِّ وَنَحْوِهَا .  
(٥) يُشِيرُ ابْنُ الْخَطِيبِ إِلَى «الْوَاقِعَةِ» الَّتِي حَدَّثَتْ بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ سَنَةَ ٧٦٧ هـ ، وَبِمَجْلَمِهَا أَنَّ سَاكِمَ  
قَبْرِصَ ، انْتَهَزَ غَيْبَةَ حَاكِمِ الْأَسْكَندَرِيَّةِ فِي الْحِجَازِ لِلْحَجِّ ، فَهَاجَمَ الْبَلَدَ فِي اسْطُولٍ بَلَّغَتْ قَطْعُهُ نَحْوَ ٧٠  
فِيمَا قَالُوا ، وَقَدْ خَرَجَ أَهْلُ الْأَسْكَندَرِيَّةِ لِلنَّزْهَةِ غَيْرَ مُقَدِّرِينَ لِلْخَطَرِ ، وَكَانَتْ الْحَامِيَّةُ الْمَوْجُودَةُ قَلِيلَةً ،  
وَالْأَسْوَارُ وَالْحَصُونُ خَالِيَةً مِنَ الْمُدَافِعِينَ ، فَهَاجَمَ الْعَدُوُّ الْأَهْلِيَّ الْعَزْلَ الْأَمْنِينَ ، فَفَرُّوا إِلَى الْمَدِينَةِ ،  
وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَأَحْرَقُوا الْعَدُوَّ وَافْتَحَمَ الْبَلَدُ عَلَيْهِمْ .. فَكَانَتْ مَذَابِحُ هَتَكَتْ فِيهَا حَرَمَاتُ .  
وَانْظُرْ تَفْصِيلَهَا فِي الْعَبْرَةِ هـ .

(٦) شَبَّهَ مَهَاجَةَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ الْآمَنَةَ بِحَرْبِ «الْفِجَارِ» ، الَّتِي سَمِيَتْ بِذَلِكَ لَمَّا اسْتَحْلَ فِيهَا مِنْ  
حَرَمَاتٍ ، حَيْثُ كَانَتْ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

(٧) أَوْفَاقُ ، جَمْعُ وَفْقٍ ؛ وَهِيَ مَرَبَعَاتٌ تَحْتَوِي عَلَى بَيْوتٍ مَرَبَعَةٍ صَغِيرَةٍ ، وَتَوْضَعُ فِي تِلْكَ  
الْبَيْوتِ أَرْقَامٌ ، أَوْ حُرُوفٌ ، عَلَى نِظَامٍ بِحَيْثُ لَا يَتَكَرَّرُ عِدَدٌ فِي بَيْتَيْنِ ، وَبِحَيْثُ يَكُونُ مَجْمُوعُ اضْلَاعِ  
الْمَرَبَعِ ، وَمَجْمُوعُ اقْطَارِهِ مُتَسَاوِيًّا ؛ وَيُسَمَّى الْوَفْقُ - بَعْدَ ذَلِكَ - بِمَا فِي أَحَدِ اضْلَاعِهِ مِنْ بَيْوتٍ ؛  
فَيُقَالُ : الْمَثَلُ ، وَالْمَرَبَعُ ، وَالْخَمْسُ الْخُ ؛ وَقَدْ يَحْتَوِي عَلَى مِائَةٍ مِنَ الْبَيْوتِ فَيُقَالُ : الْوَفْقُ الْمِائِي .  
وَيَقُولُ أَصْحَابُ الْاَوْفُقِ : إِنَّ لِلْأَعْدَادِ - فِي هَذَا الْوَضْعِ - خَوَاصَّ رُوحَانِيَّةً ، وَآثَاراً عَجِيبَةً ، إِذَا  
اسْتَعِيرَ لِلْعَمَلِ بِهَا وَقْتُ مُنَاسِبٍ ، وَسَاعَةٌ شَرِيفَةٌ . وَكَلَامُ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّجَوُّزِ .

النَّاشِئَةُ مِنْ خُطُوطِ الطَّرِيقِ ، مُوَافِقُهُ ، وَأُسُوقُ الْعِزِّ بِاللَّهِ نَافِقُهُ ،  
وَحُمَلَاءُ الرِّفْقِ مَصَاحِبَةُ اللَّهِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - مُرَافِقُهُ ؛ وَقَدْ ضَاقَتْ  
ذُرُوعُ الْجِبَالِ ، عَنْ أَعْنَاقِ الصُّهْبِ السِّبَالِ <sup>(١)</sup> ، وَرُفِعَتْ عَلَى الْأَكْفَالِ ،  
رُدَفَاءُ كِرَائِمِ الْأَنْفَالِ ، وَقُلِقِلَتْ مِنَ النَّوَاقِيسِ أَجْرَامُ الْجِبَالِ ،  
بِالْهِندَامِ <sup>(٢)</sup> وَالْأَحْتِيَالِ ؛ وَهَلَكَ يَمْهَلِكُ هَذِهِ الْأُمُّ بَنَاتُ كُنْ  
يَرْتَضِعْنَ ثُدْيَهَا الْحَوَافِلِ <sup>(٣)</sup> ، وَيَسْتَوَثِرْنَ حِجْرَهَا الْكَافِلِ ؛ شَمَلِ  
التَّخْرِيبُ أَسْوَارَهَا ، وَعَجَلَتْ النَّارُ بَوَارَهَا .

ثُمَّ تَحَرَّكْنَا بَعْدَهَا حَرَكَةَ الْفَتْحِ ، وَأَرْسَلْنَا دَلَاءَ الْأَدْلَاءِ <sup>(٤)</sup> قَبْلَ  
الْمَتَحِ <sup>(٥)</sup> ، فَبَشَّرَتْ بِالْمَنْحِ ؛ وَقَصَدْنَا مَدِينَةَ أُبْدَةَ ، وَهِيَ ثَانِيَةُ  
الْجَنَاحَيْنِ ، وَكُبْرَى الْأَخْتَيْنِ ، وَمُسَاهِمَةُ جِيَّانَ فِي حِينَ الْحَيْنِ <sup>(٦)</sup> ؛  
مَدِينَةُ أَخَذَتْ عَرْضَ الْفَضَاءِ الْأَخْرَقِ <sup>(٧)</sup> ، وَتَمَشَّتْ فِيهِ أَرْبَاضُهَا تَمْشِي

(١) الصهب : جمع اصهب ، وهو الابيض تخالطه حمرة . والسبال : جمع سبلة ؛ وهي اللحية ،  
او ما على الشارب من شعر ؛ ويقال للاعداء عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لان الصهوبة في الروم ،  
وقد كانوا اعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الاعداء : هم صهب السبال .

(٢) الهنداء آلة يَحْتَالُ بها على رفع او تحريك الاشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان  
المجردة ان ترفعها ، او تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته .

(٣) الحوافل : جمع حافلة ، الضرع الممتلئ لبناً .

(٤) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والادلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قدمنا  
- قبل بدء القتال - طلائع لنكشف ما عند العدو من استعداد .

(٥) المنح : الاستقاء .

(٦) الحين : الهلاك .

(٧) الأخرق : البعيد الواسع .

الكتابة الجارية في المهرق<sup>(١)</sup>؛ المشتمة على المتاجر والمكاسب،  
والوضع المتناسب، والفلح المعني ريعه<sup>(٢)</sup> عمل الحاسب و كواره<sup>(٣)</sup>  
الدبر<sup>(٤)</sup> اللاسب<sup>(٥)</sup> المتعددة اليعاسب<sup>(٦)</sup>؛ فأناخ العفاء<sup>(٧)</sup> برؤوعها  
العامرة، ودارت كؤؤوس عقار<sup>(٨)</sup> الختوف<sup>(٩)</sup>، ببنان السيوف،  
على متديريها المعاقرة<sup>(١٠)</sup>، وصبحتها طلائع الفاقرة<sup>(١١)</sup>، وأغرقت  
ببطون أسوارها عوج المعاول<sup>(١٢)</sup> الباقرة<sup>(١٣)</sup>؛ ودخلت مدينتها عنوة  
السيف، في أسرع من خطرة الطيف، ولا تسأل عن الكيف،  
فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة، وعقيدة في حلل المحاسن  
رافلة<sup>(١٤)</sup>، ما بلغ من هذه البائسة<sup>(١٥)</sup> التي سجدت لالهة النيران

- (١) المهرق : الصجيفة البيضاء يكتب فيها .  
(٢) الربيع : النماء ، والزيادة ؛ وارض مريضة : محضبة ، وهذا هو المراد هنا .  
(٣) الكوار ، والكواره : شيء يتخذ للنحل من القضبان .  
(٤) الدبر : النحل .  
(٥) لاسبته النحلة ؛ لسمته .  
(٦) اليعسوب : امير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .  
(٧) أناخ الجمل : برك . والعفاء : المحو ، والازالة .  
(٨) العقار : الخمر .  
(٩) الختوف : جمع ختف ؛ وهو الموت .  
(١٠) معاقر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بمتديريها ، ديارها .  
(١١) الفاقرة : الداهية الكاسرة .  
(١٢) جمع معول ؛ وهو الحديد تنقر بها الجبال . او هو الفأس .  
(١٣) بقر الشيء بقرأ : فتحه ، ووسعه ، وشقه .  
(١٤) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً اذا مشت .  
(١٥) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من اجلها .

أَبْرَأُجَهَا ، وَتَضَائِلَ<sup>(١)</sup> بِالرَّغَامِ<sup>(٢)</sup> مِعْرَأُجَهَا ؛ وَصَفَتْ<sup>(٣)</sup> عَلَى أَعْطَافِهَا<sup>(٤)</sup> مَلَابِسُ الْخِذْلَانِ ، وَأَقْفَرُ مِنْ كَنَائِسِهَا<sup>(٥)</sup> الْغِزْلَانِ .

ثُمَّ تَأْهَبْنَا لِنُزَوِّدَ أُمَّ الْقُرَى الْكَافِرَةَ ، وَخَزَائِنَ الْمَزَايِنِ<sup>(٦)</sup> الْوَافِرَةَ ، وَرَبَّةَ الشُّهْرَةِ السَّافِرَةَ<sup>(٧)</sup> ، وَالْأَنْبَاءَ الْمَسَافِرَةَ ؛ قُرْطُبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ : ذَاتُ الْأَرْجَاءِ الْحَالِيَةِ<sup>(٨)</sup> الْكَاسِيَةِ<sup>(٩)</sup> ، وَالْأَطْوَادِ الرَّاسِخَةِ الرَّاسِيَةِ ، وَالْمَبَانِي الْمُبَاهِيَةِ ، وَالزَّهْرَاءِ<sup>(١٠)</sup> الزَّاهِيَةِ ، وَالْمَحَاسِنِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ ؛ حَيْثُ هَالَةٌ بَدْرُ السَّمَاءِ قَدْ اسْتَدَارَتْ مِنَ السُّورِ الْمَشِيدِ الْبِنَاءِ دَارًا ، وَنَهْرُ الْمَجْرَةِ مِنْ نَهْرِهَا الْفَيَاضِ ، الْمَسْلُولِ حُسَامُهُ مِنْ غُمُودِ الْفَيَاضِ<sup>(١١)</sup> ، قَدْ لَصِقَ بِهَا جَارًا ، وَفَلَكَ الدُّوْلَابُ ،

(١) تضامل : تصاهر وذل .

(٢) الرغام ( بالفتح ) : التراب .

(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .

(٤) عطفًا كل شيء : جانباه ، والجمع اعطاف .

(٥) الكناس : موضع في الشجر يستكن فيه الطي ويستقر ، إذا اشتد الحر .

(٦) المزائن : ما يتزين به .

(٧) السافرة : الزاهية كل مذهب .

(٨) الحالية : التي لبست حلياً .

(٩) الكاسية : المكسية .

(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بناها الناصر المرواني أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أول سنة ٣٢٥ هـ ، وسمّاها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت أن يبني لها مدينة في جبل العروس ، ويسمّيها باسمها . وقد وصفها المقرئ في نفح الطيب ١ / ٣٤٤ - ٣٧٤ طبع ليدن .

(١١) الفيضة : مفيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر ؛ وجعها غياض .

المُعْتَدِلِ الانْقِلَابِ ، قَدْ اسْتَقَامَ مَدَارَا ، وَرَجَعَ الْحَنِينَ اسْتِيَاقًا إِلَى  
الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ وَادِّكَارًا<sup>(١)</sup> حَيْثُ الطَّوْدُ كَالْتَّاجِ ، يَزْدَانُ بِلُجَيْنِ  
الْعَذْبِ الْمُجَاجِ<sup>(٢)</sup> ، فَيُزْرِي بَتَاجَ كَسْرَى وَدَارَا ؛ حَيْثُ قِسي  
الْجُسُورِ<sup>(٣)</sup> الْمَدِيدَةِ ، كَأَنَّهَا عُوجُ<sup>(٤)</sup> الْمَطِيِّ الْعَدِيدَةِ ، تَعْبُرُ النَّهْرَ  
قِطَارًا ؛ حَيْثُ آثَارُ<sup>(٥)</sup> الْعَامِرِيِّ<sup>(٦)</sup> الْمُجَاهِدِ<sup>(٧)</sup> ، تَعْبَقُ<sup>(٨)</sup> بَيْنَ تِلْكَ

(١) يريد أن قرطبة دائماً الحنين إلى الحكم الإسلامي الذي انتظمها منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ حيث سقطت في أيدي الأسبان .

(٢) المجاج : العسل ، ومجاج المزن : مطرها .

(٣) الذي نعرف أن على نهر قرطبة جسرين ، بني الأعظم منهما - بأمر عمر بن عبد العزيز - السمع بن مالك الحولاني ، أو عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت اقواسه سبع عشرة قوساً ، سعة الواحدة منها خمسون شبراً . نفح الطيب ١/٢٢٦ ، ٢٤٦ بولاق .

(٤) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الابل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطي ظهره .

(٥) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة « الزاهرة » التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١/٢٦٠ ، ٢٧٤ - ٢٧٧ بولاق .

(٦) هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافري ، دخل جده الأندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجبته ابن أبي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمى بالحاج المنصور . توفي مبطوناً بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ أو ٣٩٤ . العبر لابن خلدون م ؛ .

(٧) كان المنصور بن أبي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه - مدة ملكه - نيفاً وخمسين غزوة ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا قل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك :

ألم ترني بعت المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيول الضوامر

وبدلت بعد الزعفران وطيبه صدى الدرع من مستحكات المسامر

فلا تحسبوا أنني شغلت بلذة ولكن أطعت الله في كل كافر

وكان يأمر أن ينفذ غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وأن يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفنه إذا وضع في قبره . رحمه الله . العبر م ؛ .

(٨) عبق الطيب : فاح وانتشر . (تاج) .

المعاهد ، شذوى معطارا ؛ حيث كرائم السحاب ، ترور عرائس  
الرياض الحباب ، فتحمل لها من الدرّ نثارا ؛ حيث شمول الشمال<sup>(١)</sup>  
تدار على الأذواح<sup>(٢)</sup> ، بالغدو والرواح ، فترى الغصون سُكاري ،  
وما هي بسُكاري ؛ حيث أيدي الافتتاح ، تفتض من شقائق<sup>(٣)</sup>  
البطاح ، أبكارا ؛ حيث ثغور الأقاح<sup>(٤)</sup> الباسم ، تقبلها بالسحر  
زوار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغياري ؛ حيث المصلّى<sup>(٥)</sup>  
العتيق ، قد رُحِبَ مجالا وطال منارا<sup>(٦)</sup> ، وأزرى ببلاط الوليد<sup>(٧)</sup>

(١) الشمول : الحمر . والشال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال ؛ خمر مشمولة اذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٢) جمع دوحة : وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

(٣) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشقر ايضا ، وهي نور احمر ، والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسميت شقائق النعمان ، وغلب عليها اسم الشقائق .

(٤) جمع اقحوان ، وهو نبت طيب الريح ، له نور أصفر ، وحواليه ورق ابيض ، كأنه ثغر جارية حديثة السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ٨/٤٨ . والصواب : « الاقح البواسم » .

(٥) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميري في الروض المعطار وصفاً مفصلاً ص ١٥٣ - ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ١/٣٥٨ - ٣٦٠ طبع ليدن .

(٦) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً ، وقاسها كذلك ، الحميري في الروض المعطار ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٧) كان الوليد بن عبد الملك من افضل خلفاء بني امية ؛ أعطى المجذمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ؛ وكان صاحب بناء واتخذ المصانع والضيايع ؛ وكان الناس في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبني المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، الذي أنفق عليه اموالا عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الاسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبري ٨/٥٨ - ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ١/٢١٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤ طبع دار الكتاب اللبناني - بيروت .

احتقاراً؛ حيثُ الظهور<sup>(١)</sup> المثاراة بسلاح<sup>(٢)</sup> الفلاح، تُجَبُّ عن مثل  
أسنمة<sup>(٣)</sup>. المَهَارَى<sup>(٤)</sup>، والبُطُون<sup>(٥)</sup> كأنها لتدِميث<sup>(٦)</sup> الغنائم، بُطُونُ  
العذارى، والأذواح العاليه، تُخْتَرَقُ أعلامها الهاديه، بالجداول  
الحيارى<sup>(٧)</sup>. فما شئتَ من جَوٍّ بَقِيل<sup>(٨)</sup>، ومُعَرَّسٍ للحُسْنِ ومَقِيلٍ،  
ومالكٍ للعقلِ وعَقِيل<sup>(٩)</sup>؛ وخمائل، كم فيها للبلايل، من قال وقيل،  
وخفيفٍ يجاورُ بشَقِيلٍ؛ وسَنَابِلَ تحكي من فوق سُوقها، وقَصَبِ  
سُوقها، الهمزاتِ على الألفات، والعصافيرِ البديعة الصِّفات، فوقَ  
القُضْبِ المؤتلفات، تميلُ لِهُجُوبِ الصَّبَا والجَنُوبِ، مائلة  
الجُيُوبِ، بدُرِّ الجُوبِ؛ وبِطَاحٍ لا تعرف عَيْنُ المَحَلِّ<sup>(١٠)</sup>،

(١) الظهر من الارض : ما غلظ وارتفع .

(٢) أثار الارض بالسن - وهي الحديدة التي تحرث بها الارض - اذا قلبها على الحب بعد ما فتحت مرة ، وفي القرآن : « وأثأروا الارض » : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها .

(٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .

(٤) ابل مَهْرِيَّة : منسوبة الى مهرة بن حيدان أبي قبيلة ، وهم حي عظيم ؛ والجمع مَهَارَى .

(٥) جمع بطن ؛ والبطن من الارض : ما لان وسهل واطمأن .

(٦) دمث الشيء : مرسه حتى لان .

(٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الامر ، لا يدري وجهة يهتدي اليها . ويريد ان الجداول لالتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التبست عليه السبل .

(٨) الجو : المنخفض من الارض . والبقيـل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات اخضرت به الأرض فهو بقل .

(٩) يوري بمالك وعقيل ابني فارح بن مالك ؛ نديمي جذية الابرش ، ولهما مع عمرو بن عدي خبر تجد تفصيله في تاريخ الطبري ٣٠/٢ - ٣١ .

(١٠) المحل : الجذب ؛ وهو انقطاع المطر .



فَتَطْلَبُهُ بِالذَّحْلِ<sup>(١)</sup> ، وَلَا تَصْرِفُ فِي خِدْمَةِ بَيْضِ قَبَابِ الْأَزْهَارِ ،  
عِنْدَ افْتِتَاحِ السَّوْسَنِ وَالْبَهَارِ<sup>(٢)</sup> ، غَيْرَ الْعُبْدَانِ مِنْ سُودَانِ النَّحْلِ ؛  
وَبَحْرِ الْفِلَاحَةِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ سَاحِلُهُ ، وَلَا يَبْلُغُ الطِّيبَةِ<sup>(٣)</sup> الْبَعِيدَةَ  
رَاحِلُهُ ؛ إِلَى الْوَادِي ، وَسَمَرِ النَّوَادِي<sup>(٤)</sup> ، وَقَرَارِ دُمُوعِ  
الْغَوَادِي<sup>(٥)</sup> ؛ لِلتَّجَاسُرِ عَلَى تَحَطِّيبِهِ ، عِنْدَ تَمَطُّبِهِ<sup>(٦)</sup> ، الْجِسْرِ  
الْعَادِي ؛ وَالْوَطَنِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ عَمْرٍو وَلَا زَيْدٍ ، وَالْفَرَا الَّذِي فِي  
جَوْفِهِ كُلُّ صَيْدٍ<sup>(٧)</sup> ؛ أَقْلٌ كَرَسِيَّهُ خِلَافَةُ الْأَسْلَامِ ، وَأَغَارُ  
بِالرُّصَافَةِ<sup>(٨)</sup> وَالْجِسْرِ دَارَ السَّلَامِ<sup>(٩)</sup> ؛ وَمَا عَسَى أَنْ تُطْنِبَ فِي وَصْفِهِ  
أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ أَوْ تُعَبِّرَ بِهِ عَنْ ذَلِكَ الْكَمَالِ فَنُونَ الْكَلَامِ .

(١) الذحل : الثَّار .

(٢) البهار - عند اهل المغرب - : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقماع  
يخرج منها نور ينبسط منه ورق ابيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه  
هي الصفة التي اثبتها اهل المشرق للترجس ، حيث قالوا : هو ياقوت اصفر بين در ابيض على زمرد  
اخضر . فالبهار عند اهل المغرب هو الترجس عند اهل المشرق .

(٣) الطيبة : الناحية .

(٤) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح : أندية .

(٥) الغادية : السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، والجمع غواد .

(٦) تمطيه : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(٧) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من اعظم ما يصطاده الناس ، وفي الكلام اشارة الى  
المثل : « كل الصيد في جوف الفرا » الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٥٥/٢ .

(٨) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل ، في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذها لسكناه ،  
نقل اليه من الشام كثيراً من اشجار الفاكهة والأزهار ؛ وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك .  
معجم البلدان ٢٥٧/٤ .

(٩) يريد بغداد ، وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ انظر

تاريخ بغداد ٦٦/١ - ٦٧ .

فَاعْمَلْنَا إِلَيْهَا السُّرَى وَالسَّيْرَ ، وَقُدْنَا إِلَيْهَا الْخَيْلَ قَدْ عَقَدَ اللَّهُ فِي  
نَوَاصِيهَا الْخَيْرَ<sup>(١)</sup> . وَلَمَّا وَقَفْنَا بِظَاهِرِهَا الْمُبْتِثِ الْمُعْجَبِ ، وَاصْطَفَفْنَا  
بِخَارِجِهَا الْمُنْبِتِ الْمُنْجِبِ ؛ وَالْقُلُوبُ تَلْتَمِسُ الْإِعَانَةَ مِنْ مُنْعَمٍ  
مُجْزِلٍ ، وَتَسْتَزِلُ مَدَدَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مُنْجِدٍ مُنْزِلٍ ، وَالرَّكَائِبُ  
وَاقِفَةٌ مِنْ خَلْفِنَا بِمَعَزِلٍ ، تَتَنَاشَدُ فِي مَعَاهِدِ الْإِسْلَامِ :

« قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ<sup>(٢)</sup> »

بَرَزَ مِنْ حَامِيَتِهَا الْمُحَارِمِيهِ ، وَوَقُودِ النَّارِ الْحَامِيهِ ، وَبَقِيَّةِ  
السَّيْفِ الْوَافِرَةِ عَلَى الْحِصَادِ النَّامِيَةِ ، قَطَعَ الْغَنَائِمَ الْهَامِيَةَ ، وَأَمْوَاجَ  
الْبُحُورِ الطَّامِيَةِ ؛ وَاسْتَجَنَّتْ<sup>(٣)</sup> بِظِلَالِ أَبْطَالِ الْمَجَالِ ، أَعْدَادُ الرِّجَالِ ،  
النَّاشِبَةُ<sup>(٤)</sup> وَالرَّامِيَةُ ، وَتَصَدَّى لِلنِّزَالِ ، مِنْ صَنَادِيدِهَا<sup>(٥)</sup> الصُّهْبِ  
السَّبَالِ ، أَمْثَالُ الْمِضَابِ الرَّاسِيَةِ ، تَجَنُّهَا<sup>(٦)</sup> جَنَّ<sup>(٧)</sup> السَّوَابِغِ الْكَاسِيَةِ ،

(١) إشارة إلى حديث البخاري : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » . الجامع  
الصحيح ١٨٧/٤ طبع الاستانة .

(٢) مطلع المعقة المشهورة لامرئ القيس .

(٣) استجنت : استترت .

(٤) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

(٥) الصناديد : السيد الشجاع . والجمع صناديد .

(٦) تجننها : تسترها .

(٧) الجنن : جمع جنة ، وهي السترة .

وقواميسها<sup>(١)</sup> المفادية للصلبان يوم بُوسها بنفوسها المواسية<sup>(٢)</sup> ،  
 وخنازيرها التي عدتها<sup>(٣)</sup> عن قبول حجاج الله ورسوله ، سُتُور الظلم  
 الغاشية ، وصخور القلوب القاسية ؛ فكان بين الفريقين أمام جسرهما  
 الذي فرق البحر ، وحلّي بلجّينه ، ولا آلي زينه ، منها النحر ،  
 حرب لم تنسج الأزمان على منوالها<sup>(٤)</sup> ، ولا أتت الايام الحبالى  
 بمثل أجنة<sup>(٥)</sup> أهوالها ؛ من قاسها بالفجار<sup>(٦)</sup> أفك وفجر<sup>(٧)</sup> ؛ او  
 مثلها يحفر الهباءة<sup>(٨)</sup> خرف وهجر<sup>(٩)</sup> ؛ ومن شَبَّها بحرب داحس  
 والغبراء<sup>(١٠)</sup> ، فما عرف الخبر ، فليسأل من جرّب وخبر ؛ ومن نظرها

( ١ ) القواميس ، جمع قوس ( بوزن جوهر ) ؛ وهو مرافق الملك ، ونديه ، والامير .

( ٢ ) المواسي : المعين .

( ٣ ) عديته فتعدى : اي تجاوز الحد الذي حد له .

( ٤ ) المنوال : المنسج تنسج عليه الثياب . يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب .

( ٥ ) حبالى : جمع حبل . والاجنة جمع جنين .

( ٦ ) حروب الفجار عدة ؛ واشهرها -- وهي آخرها -- تلك التي كانت بين قريش وكنانة ،  
 وبين هوازن . وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار ،  
 وسيت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الاشهر الحرم . العقد الفريد ٣/٣٦٨ - ٣٧١ .

( ٧ ) أفك : كذب . وفجر : مال عن الحق .

( ٨ ) جفر الهباءة : يوم كان لعيس على ذبيان ، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقوفتهم ؛ وهو  
 مستنقع في ارض غطفان . العقد الفريد ٣/٣١٦ - ٣١٧ ، ياقوت ٨/٤٤٠ ، الميداني ٢/٢٦٩ .

( ٩ ) خرف : فسد عقله . هجر : خلط في كلامه وهذى .

( ١٠ ) داحس والغبراء : يوم من اشهر ايامهم ، بلغ من بعد اثره ان اتحدوه مبدءاً من مبادئ  
 توارىخهم في الجاهلية ؛ ويقال انه دام اربعين سنة . وكان بين عيس وذبيان .

وداحس والغبراء : فرسان ، وسمي اليوم بهما لما انه كان بينهما ، انظر العقد الفريد

بيومِ شَعْبِ جَبَلَه<sup>(١)</sup> فهو ذو بَلَه<sup>(٢)</sup> ؛ او عادَلها ببطنِ عاقل<sup>(٣)</sup> ،  
 فغيرُ عاقل ؛ او احتجَّ بيومِ ذي قار<sup>(٤)</sup> ، فهو الى المعرفة ذو افتقار ؛  
 او ناضل بيوم الكديد<sup>(٥)</sup> ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مقاماً غير  
 معتاد ، ومرعى نفوس لم يف بوصفه لسانُ مرتاد<sup>(٦)</sup> وزلزال جبال  
 اوتاد<sup>(٧)</sup> ، ومتلف<sup>(٨)</sup> مذخورٍ لسلطان الشيطان وعَتاد<sup>(٩)</sup> ؛ أعلم<sup>(١٠)</sup>  
 فيه البطلُ الباسل<sup>(١١)</sup> ، وتوردُ الأبيضُ الباتر<sup>(١٢)</sup> ، وتأوّد الاسمر<sup>(١٣)</sup>

( ١ ) كان يوم شعب جيلة لعامر وعبس على ذبيان ، وكان - فيما يقول ابو عبيدة - قبل  
 الاسلام بأربعين سنة ( وشعب جيله : هضبة حمراء بنجد ) . العقد الفريد ٣/٣٠٧ - ٣١٠ ، ياقوت ٣/٥١  
 ( ٢ ) البله : الغفلة .

( ٣ ) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، ( او كان بين بني ختم ، وبني حنظلة ) ،  
 ذكر سببه في العقد الفريد ٣/٣٠٥ - ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .

( ٤ ) يوم ذي قار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال : «انه  
 اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم » . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد  
 ٣/٣٧٤ - ٣٧٨ .

( ٥ ) كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكدم ، فارس كنانة . وانظر  
 العقد الفريد ٣/٣٢٦ .

( ٦ ) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجاة واختيار المرعى الحسن .

( ٧ ) أوتاد الارض : جبالها .

( ٨ ) المتلف : المفازة ، والقفرة ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .

( ٩ ) العتاد : العدة تعدها لأمر ما .

( ١٠ ) أعلم الفارس : جعل نفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسمها بسيا الحرب .

( ١١ ) الباسل : الشجاع .

( ١٢ ) تورد : احمر . الابيض الباتر : السيف القاطع .

( ١٣ ) تأوّد : اعوج وانثنى . الاسمر : الرمح .

العاسل<sup>(١)</sup> ، ودوّم الجَلْمَدَ<sup>(٢)</sup> المتكاسِل ، وانبعث من حَدَب<sup>(٣)</sup> الحَنِيَّة<sup>(٤)</sup> ، الى هدف الرِّمِيَّة<sup>(٥)</sup> ، الناشر<sup>(٦)</sup> النّاسِل<sup>(٦)</sup> ، ورُوِيَتْ لمرّسلات السِّهَام المراسِل ؛ ثم أفضى امرُ الرِّمَاح الى التَّشَاوُج والارتباك ، ونشبت الأسنّة في الدُّرُوع نَشَبَ السَّمَك في الشِّبَاك ؛ ثم اختلط المرعى بالهمل<sup>(٧)</sup> ، وعزّل الرُّدِينِي عن العمل ؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شقّت عُدرَ السَّوابغ خلعانا ؛ واتّحدت جداولُ الدُّرُوع ، فصارت بحراً ، وكان التّعانق ، فلا ترى الا نحرّاً يُلازم نحرّاً ، عناقَ ودّاع ، وموقف شمل ذي انصداع ، وإجابة مُنادٍ إلى فراق الأبد ودّاع ؛ واستكشفت مآل الصّبر الأنفس الشّفافَة<sup>(٨)</sup> ، وهبّت بريح النّصر الطّلائعُ المبشرة الهفّافة<sup>(٩)</sup> ؛ ثم أمدّ السَّيْل ذلك العباب ، وصعّل الاستبصار الألباب ، واستخلص العزمُ صفوة الدُّباب ، وقال لسان النّصر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأصبحت طوائف الكفّار ، حصائد مناجل

(١) غسل الرمح : اضطرب واهتز ، ورمح عاسل : مضطرب لدن .

(٢) دوم : تحرك ودار . والجلمد : الصخر .

(٣) حدب الحنية : تقوسها وانعطافها .

(٤) الحنية : القوس ؛ فعيلة بمعنى مفعولة ؛ وأكثر ما تكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .

(٥) الرمية : الطريدة التي يرميها الصائد .

(٦) الناشر : المهتز . والناسل : المسرع .

(٧) هو مثل والمرعى : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من الاعم لا راعي لها .

(٨) أنفُس شفافَة : فاضلة .

(٩) الهفّافة : السريعة المرور في هبوبها .

السِّفَار ، فَمَغَا فَرُّهُمْ قَدْ رَضِيَتْ حُرْمَاتُهَا بِالْإِخْفَار <sup>(١)</sup> ، وَرَوَّسَهُمْ  
مَحْطُوطَةٌ فِي غَيْرِ مَقَامِ الْإِسْتِغْفَار ، وَعَلَتْ الرِّأْيَاتُ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ  
الْأَبْرَاجِ الْمُسْتَطَرِّقَةِ وَالْأَسْوَار ، وَرَقَرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ جَنَاحُ الْبَوَار ،  
لَوْلَا الْإِنْتِهَاءُ إِلَى الْحَدِّ وَالْمِقْدَار ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ اخْتِفَاءِ سِرِّ الْأَقْدَار  
ثُمَّ عَبَرْنَا نَهْرَهَا ، وَشَدَدْنَا بِأَيْدِي اللَّهِ قَهْرَهَا ، وَضَيَّقْنَا حَصْرَهَا ،  
وَأَدْرْنَا بِلَالِي الْقِيَابِ الْبَيْضَ خَضْرَهَا ، وَاقَمْنَا بِهَا أَيَّامًا تَحُومُ عَقْبَانُ  
الْبُنُودِ عَلَى فَرِيستِهَا حَيَامًا <sup>(٢)</sup> ، وَتَرْمِي الْأَدْوَا حِ بَبَوَارَهَا ، وَتُسَلِّطُ  
النِّيرَانَ عَلَى أَقْطَارَهَا ؛ فَلَوْلَا عَائِقُ الْمَطَرِ ، لَحَصَلْنَا مِنْ فَتْحِ ذَلِكَ  
الْوَطَنِ عَلَى الْوَطَرِ ، فَرَأَيْنَا أَنْ نَرَوْضَهَا بِالْاجْتِثَاثِ <sup>(٣)</sup>  
وَالْإِنْتِسَافِ <sup>(٤)</sup> ، وَنُوَالِي عَلَى زُرُوعِهَا وَرُبُوعِهَا كَرَّاتٍ رِيَّاحِ  
الْإِعْتِسَافِ ؛ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لِلْإِسْلَامِ لَوْكُ طَعْمَتِيهَا ، وَيَتَهَيَّأَ بِفَضْلِ اللَّهِ إِرْثِ  
نِعْمَتِهَا ؛ ثُمَّ كَانَتْ مِنْ مَوَاقِفِهَا الْإِفَاضَةُ مِنْ <sup>(٥)</sup> بَعْدِ نَحْرِ النُّحُورِ ،  
وَقَذْفِ جِمَارِ الدَّمَارِ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَدْحُورِ ، وَتَدَافَعَتْ خَلْفَنَا  
السَّيِّقَاتُ <sup>(٦)</sup> الْمَتَّسِقَاتُ تَدَاوُفَعِ أَمْوَاجُ الْبُحُورِ .

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه . والهجرة فيه للإزالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : دوم ودار .

(٣) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة »

و « النحر » ، و « رمي الجمار » تورية واضحة بالمعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السيقات : ما استأفه العدو من الدواب ، ويقال لما سيق من النهب فطرد ، سيقة .

وبعد أن الحنا على جناتها المصحرة<sup>(١)</sup>، و'كرو'ها المستبحرة  
إلحاح الغريم<sup>(٢)</sup>، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم،  
وطاف عليها طائف من رينا فأصبحت كالصرير<sup>(٣)</sup>، وأغرينا  
حلاق<sup>(٤)</sup> النار بجثم الجميم<sup>(٥)</sup>، ورا كمننا في احواف أجرافها<sup>(٦)</sup>  
غمائم الدخان؛ يذكّر طيبه البان بيوم الغيم<sup>(٧)</sup>، وارسلنا رياح  
الفارات « لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »<sup>(٨)</sup>؛  
واستقبلنا الوادي يهول مدًا، ويروع سيفه الصّقل حدًا؛ فيسره  
الله من بعد الاعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرصة أيدي  
الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات<sup>(٩)</sup> فأفتى برجحان

(١) المتسعة؛ يقال أصحر المكان: أي اتسع.

(٢) الغريم: الذي له الدين.

(٣) الصريم: الليل، وأصبحت كالصرير: احترقت وصارت في مثل سواده؛ والاشارة الى الآية: « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصرير ».

(٤) حلاق الشعر: ازالته بالموسى. والكلام على تشبيه احراق النبات بخلق شعر الرأس.

(٥) الجمم: جمع جمّة؛ وهي الشعر الكثير. والجمم نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر.

(٦) الأحواف، جمع حوف وهو الناحية. والأجراف جمع جرف؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق الوادي، وعرض الجبل. ويريد الأمكنة الفائرة، والمطمئنة.

(٧) الغيم: موضع بين مكة والمدينة. ويوم الغيم: من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة سيرة ابن هشام ٣٤/٤ - ٣٥.

(٨) الرميم: البالي.

(٩) يوري بأسد بن الفرات بن سنان: أي عبد الله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ - ٢١٣) على خلاف في المولد والوفاة. وانظر ترتيب المدارك مخطوطة دار الكتب ١١٨/١، معالم الإيمان ٢/٢ - ١٧، ديباج ٩٨.

الجواز ، فعمَّ الاكتِساحُ والاستباحُ جميع الاحواز <sup>(١)</sup> فأدِيل <sup>(٢)</sup>  
المصون ، وانتهبت القرى ، وهدَّت الحُصُون ، واجتُثت الأصول ،  
وُحطِّمت النُصُون ؛ ولم نرفع عنها الى اليوم غارة تصابحها بالبُوس ،  
وتُطلَعُ عليها غررَها الضَّاحكة باليوم العَبوس ؛ فهي الآن مجرى  
السوابق ومجرُّ العوالي <sup>(٣)</sup> ، على التوالي ، والحسرات تتجدد في  
أطلالها البوالي ؛ وكأنَّ بها قد ضرَّعت ، والى الدعوة المُحمَّدية  
أسرعت ، بقدرةٍ مَنْ لو ازل القرآن على الجبال لحشَّعت من خشية  
الله وتصدعت <sup>(٤)</sup> ، وعِزة من أذعنت الجبايرة لعزِّه وخضَّعت ،  
وعدنا والبُنود لا يعرف اللفُ نشرَها ، والوجوهُ المُجاهدة لا يُخالط  
التَّقْطِيبُ بشرَها ؛ والأيدي بالعرْوة الوثْقَى متعلِّقة ، والألسنُ  
بشُكر نِعَم الله منطلِقة ، والسيوفُ في مضاجيع النُمود قَلِقَه ،  
وسرَّابيلُ الدُّروع <sup>(٥)</sup> خلَقَه <sup>(٦)</sup> ، والجياد من ردها الى المَرباط  
والأواري <sup>(٧)</sup> ، ردَّ العواري ، حَنِقة ، وبعبرات الغَيْظِ المَكْظُوم

(١) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .

(٢) أدِيل : أهين .

(٣) أجره الرمح : طعنه به وتركه فيه يجره والعالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . ومجر العوالي : المكان الذي يقع فيه الإجراء والطعن .

(٤) اقتباس من الآية ٣١ من سورة الحشر .

(٥) السراويل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سراويل .

(٦) الخلق : البالي ؛ يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيهما . لسان العرب

(٧) الأواري : جمع آري ؛ وهو مربوط الدابة ومحبسها .



مُخْتَفَةً ؛ تَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَ الْعَاتِبِ ، وَتَعُودُ مِنْ مَيَادِينِ الْاِخْتِيَالِ  
وَالْمَرَّاحِ ، تَحْتَ حُلِّ السِّلَاحِ ، عَوْدَ الصَّبِيَّانِ إِلَى الْمَكَاتِبِ ؛ وَالطَّبْلُ  
بِلِسَانِ الْعِزِّ هَادِرٌ <sup>(١)</sup> ، وَالْعَزْمُ إِلَى مُنَادِي الْعَوْدِ الْحَمِيدِ مُبَادِرٌ <sup>(٢)</sup> ،  
وَوُجُودُ نَوْعِ الرِّمَاحِ ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِفَاحِ نَادِرٌ ، وَالْقَاسِمُ يَرْتَبُ  
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ السُّبِيِّ النَّوَادِرِ ، وَوَارِدَ مَنَاهِلِ الْأَجُورِ ، غَيْرَ الْمُحَلَّاءِ <sup>(٣)</sup> ،  
وَلَا الْمَهْجُورِ ، غَيْرُ صَادِرٍ <sup>(٤)</sup> ، وَمُنَازِلُ الْفُضْلِ الْآتِي ، عَقِبَ أَخِيهِ  
الشَّاتِي ، عَلَى الْمَطْلُوبِ الْمُوَاقِي مُصَادِرٌ <sup>(٥)</sup> وَاللَّهُ عَلَى تَنْسِيرِ الصَّعَابِ ،  
وَتُخْوِيلِ الْمِنَنِ الرَّغَابِ <sup>(٦)</sup> ، قَادِرٌ ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَمَا أَتَجَمَّلَ لَنَا  
صُنْعَهُ الْحَفِيِّ <sup>(٧)</sup> ، وَأَكْرَمَ بِنَا لُطْفَهُ الْخَفِيِّ ، اللَّهُمَّ لَا تُخْصِي ثَنَاءً  
عَلَيْكَ ، وَلَا تَلْجَأْ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا تَلْتَمِسْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
إِلَّا لَدَيْكَ ؛ فَأَعِدْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ ، يَا مُبْدِي ؛ يَا مُعِيدَ ، وَأَعِنَّا  
مِنْ وَسَائِلِ شُكْرِكَ ، عَلَى مَا يَنْشَأُ بِهِ الْمَزِيدُ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا فَعَّالُ  
لِمَا يُرِيدُ <sup>(٨)</sup> .

(١) هَادِرٌ : يردد صوته .

(٢) بَادِرُهُ الْأَمْرُ : عَاجِلُهُ .

(٣) حَلَّ الْمَاشِيَةِ عَنِ الْمَاءِ : صَدَّهَا وَحَبَسَهَا عَنِ الْوُرُودِ .

(٤) الْوَارِدُ الَّذِي يَرُدُّ الْمَاءَ . وَالصَّادِرُ : الَّذِي رَجَعَ مِنَ الْمَاءِ بَعْدَ الْوُرُودِ .

(٥) مُصَادِرٌ : مُرَاجِعٌ ؛ صَادِرُهُ عَلَى كَذَا : رَاجِعُهُ .

(٦) الرِّغْبَةُ : الْعَطَاءُ الْكَثِيرُ ، وَالْأَمْرُ الْمَرْغُوبُ فِيهِ ، وَالْجَمْعُ رَغَابٌ .

(٧) الصَّنْعُ الْحَفِيُّ : اللَّطِيفُ .

(٨) كَذَا فِي الْأَصْلِ : « يَا فَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ » . وَالْمُنَادِي هُنَا مِمَّا يَجِبُ فِيهِ الصَّبْرُ . فَلِذَلِكَ الْأَصَحُّ :

يَا فَعَّالًا .

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حَذَقَ فَتَحَ<sup>(١)</sup> بَعِيدَ صَيْتِهِ<sup>(٢)</sup>  
 مُشْرَتَبٍ لَيْتِهِ<sup>(٣)</sup> ، وَفَخِرَ مِنْ فَوْقِ النُّجُومِ الْعَوَاتِمِ<sup>(٤)</sup> مَمِيَّتُهُ ؛ عَجِبْنَا  
 مِنْ تَأْتِي أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقُلْنَا : الْبَرَكَةُ فِي قَدَمِ الْوَارِدِ ؛ وَهُوَ أَنْ  
 مَلِكِ النَّصَارَى لَا طَفْنَا بِجُمْلَةٍ مِنَ الْحِصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ  
 الْإِسْلَامِ قَدْ غَضِبَتْ ، وَالتَّهْمَائِيلُ<sup>(٥)</sup> فِيهَا بِيُوتِ اللَّهِ قَدْ نُصِبَتْ  
 أَدَالَهَا<sup>(٦)</sup> اللَّهُ - بِمُحَاوَلَتِنَا - الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ ، وَالتَّوْحِيدَ مِنَ  
 التَّثْلِيثِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ عَوْدَ الْأَبِ الْغَائِبِ ، إِلَى الْبَنَاتِ  
 الْحَبَائِبِ ، يَسْأَلُ عَنْ شُؤُونِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرِّقَّةِ مِنْ جُفُونِهَا ؛  
 وَهِيَ لِلرُّومِ خُطَّةٌ خَسَفَ<sup>(٧)</sup> قَلَمًا ارْتَكَبُوهَا فِيمَا نَعْلَمُ مِنَ الْعُهُودِ ،  
 وَنَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ الْوُجُودِ . وَإِلَى اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ عَوَارِفُ<sup>(٨)</sup> الْجُودِ ،  
 وَجَعَلْنَا فِي مَحَارِيبِ الشُّكْرِ مِنَ الرُّكْعِ السُّجُودِ .

(١) حَذَقَ الْغَلَامُ الْقُرْآنَ حَذَقًا : مَهَرَ فِيهِ ؛ وَيُقَالُ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَخْتَمُ فِيهِ الْقُرْآنُ : هَذَا يَوْمُ حَذَاقٍ ، وَالْعَادَةُ أَنْ يَحْتَفَلَ بِهَذَا الْيَوْمِ .

(٢) بَعِيدَ الصَّيْتِ ، مُشْتَهَرُ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ .

(٣) اشْرَأَبَ : ارْتَفَعَ وَعَلَا . وَاللَّيْتُ بِالْكَسْرِ : صَفْحَةُ الْعُنُقِ .

(٤) النُّجُومُ الْعَوَاتِمُ : الَّتِي تَظَلُّ مِنَ الْغُبَرَةِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْجَدَبِ ؛ لِأَنَّ نَجُومَ الشِّتَاءِ أَشَدَّ إِضَاءَةً لِقَاءَ السَّمَاءِ .

(٥) التَّهْمَائِيلُ : الْأَصْنَامُ .

(٦) أَدَالَهَا اللَّهُ : أَبْدَلَهَا .

(٧) الْخُطَّةُ : الطَّرِيقَةُ . وَالْخَسَفُ : الذَّلُّ ، وَتَحْمِيلُ الْإِنْسَانِ مَا يَكْرَهُ .

(٨) الْعَوَارِفُ : جَمْعُ عَارِفَةٍ ، وَهِيَ الْعَطِيَّةُ .

عَرَفْنَاكُمْ بِمُجْزَمَاتِ أُمُورٍ تَحْتَهَا نَفْسِيرٌ، وَيُؤْمِنُ مِنَ اللَّهِ وَتَيْسِيرٌ،  
إِذِ اسْتِيفَاءِ الْجَزْئِيَّاتِ عَسِيرٍ لِنُسِيرَكُمْ بِمَا مَنَحَ اللَّهُ دِينَكُمْ، وَنُتَوِّجَ  
بِعِزِّ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ جَبِينَكُمْ، وَنَخْطُبَ بَعْدَهُ دُعَاءَكُمْ وَتَأْمِينَكُمْ؛  
فَإِنَّ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ سِلَاحٌ مَاضٍ، وَكَفِيلٌ  
بِالْمَوَاهِبِ الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مُتَقَاضٍ<sup>(١)</sup>؛ وَأَنْتُمْ أَوْلَى مَنْ  
سَاءَ لَهُمْ فِي بَرٍّ، وَعَامَلَ اللَّهَ بِخُلُوصٍ سِرٍّ؛ وَأَيْنَ يَذْهَبُ الْفَضْلُ عَنْ  
بَيْتِكُمْ، وَهُوَ صِفَةُ حَيِّكُمْ، وَتُرَاثُ مَيِّتِكُمْ؛ وَلَكُمْ مَزِيَّةُ الْقَدَمِ،  
وَرُسُوخُ الْقَدَمِ؛ وَالْخِلَافَةُ مَقَرُّهَا إِيوَانُكُمْ، وَأَصْحَابُ الْإِمَامِ  
مَالِكٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُسْتَقَرُّهَا قَيْرَوَانُكُمْ، وَهَجِيرُ الْمَنَابِرِ<sup>(٢)</sup>  
ذِكْرُ إِمَامِكُمْ، وَالتَّوْحِيدُ إِعْلَامُ أَعْلَامِكُمْ، وَالْوَقَائِعُ الشَّهِيرَةُ فِي  
الْكُفْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَيَّامِكُمْ، وَالصَّحَابَةُ الْكَرَامُ فَتَحَةُ أَوْطَانِكُمْ،  
وَسُلَالَةُ الْفَارُوقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَائِجُ سُلْطَانِكُمْ<sup>(٣)</sup>؛ وَنَحْنُ نَسْتَكْشِرُ  
مِنْ بَرَكَةِ خِطَابِكُمْ، وَوُضْلَةِ جَنَابِكُمْ؛ وَلَوْلَا الْأَعْدَارُ لَوَالِينَا  
بِالْمُتَزَيِّدَاتِ تَعْرِيفَ أَبْوَابِكُمْ.

وَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَتَوَلَّى عَنَّا مِنْ شُكْرِكُمُ الْمُحْتُومِ، مَا قَصَّرَ

(١) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٢) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٣) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك .

المَكْتُوبُ مِنْهُ عَنِ الْمَكْتُومِ ؛ وَيُبْقِيَكُمْ لِقَامَةِ الرُّسُومِ ، وَيُحِلُّ  
مَحَبَّتَكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ حِلَّ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْجُسُومِ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ  
سَعْدَكُمْ ، وَيُخْرِسُ مُجْدَكُمْ ، وَيُؤَالِي نِعَمَهُ عِنْدَكُمْ .

وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ ، الطَّيِّبُ الزَّكِيُّ الْمُبَارَكُ الْبَرُّ الْعَمِيمُ ، يَخْصُكُمْ  
كَثِيرًا أَثِيرًا ، مَا أَطْلَعَ الصُّبْحُ وَجْهًا مُنِيرًا ، بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ النَّسِيمُ  
سَفِيرًا ، وَكَانَ الْوَمِيزُ<sup>(١)</sup> الْبَاسِمُ لَا كُؤُوسِ الْغَنَائِمِ<sup>(٢)</sup> ، عَلَى أَزْهَارِ  
الْكَنَائِمِ<sup>(٣)</sup> ، مُدِيرًا ؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَكُتِبَ إِلَيَّ يَهْنِئَتِي بِمَوْلُودٍ ، وَيُعَاتِبُ عَلَى تَأْخِيرِ الْخَبَرِ بَوْلَادِهِ  
عَنْهُ<sup>(٤)</sup> :

هَنِيئًا أَبَا الْفَضْلِ الرَّضَا وَأَبَا زَيْدٍ وَأُمْنَتَ مَنْ بَنِي يُخَافُ وَمَنْ كَيْدٍ  
بَطَالِعِ يُنْزِلُ طَالَ فِي السَّعْدِ شَأْوُهُ<sup>(٥)</sup> فَمَا هُوَ مِنْ عَمْرِو الرِّجَالِ وَلَا زَيْدٍ  
وَقَيْدٍ بِشُكْرِ اللَّهِ أَنْعَمَهُ الَّتِي

أَوَابِدُهَا<sup>(٦)</sup> تَأْتِي سِوَى الشُّكْرِ مِنْ قَيْدٍ

(١) الوميز : اللامع من البرق لعماً خفياً .

(٢) شبه الفطرات من الماء تنثرها الغنائم على الزهور ، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين .

(٣) الكنائم : جمع كنامة ، وهي غطاء النور وبرعومته .

(٤) قدم لها ابن الخطيب في ريجانة الكتاب بقوله : ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي  
زيد ابن خلدون .

(٥) الشأو : الشوط والغاية .

(٦) جمع أبدة ، وهي في الأصل البهيمة توحشت ، ونفرت من الانس .

أهلاً بدرِّي المَكاتب<sup>(١)</sup>، وَصَدْرِي المراتب، وَعُتْبَى الزَّمن<sup>(٢)</sup>  
العَاتِب<sup>(٣)</sup> وَبَكْرِ الْمُشْتَرِي والكاتب<sup>(٤)</sup>؛ وَمرحباً بالطالع، فِي أَسْعَدِ  
المَطَالع، وَالثَّاقِب<sup>(٥)</sup>، فِي أَجَلَى المَرَاقِب؛ وَسَهْلاً بِغَنِيِّ البَشِيرِ،  
وَعِزَّةِ الأهل والعَشِيرِ، وَتاجِ الفَخْرِ الَّذِي يَقْصُرُ عَنْهُ كِسْرَى  
وَأَرْدَشِير<sup>(٦)</sup>؛ الْآنَ اعْتَصَدَتِ الحِلَّةُ الحَضْرَمِيَّةُ<sup>(٧)</sup> بِالفَارِسِ، وَأَمِنَ  
السَّارِح<sup>(٨)</sup> فِي حِمَى الحَارِسِ، وَسَعِدَتِ بِالمُنِيرِ الكَبِيرِ، أَفْلاكُ  
التَّدْوِيرِ<sup>(٩)</sup>، مِنْ حَلَقَاتِ المَدَارِسِ، وَقَرَّتْ بِأَجْنَى الكَرِيمِ عَيْنُ  
الفَارِسِ، وَاحْتَقَرَتْ أَنْظَارُ الأَبْلَى وَأَبْجَاثُ ابْنِ الدَّارِسِ؛ وَقِيلَ

- (١) كوكب دري : ثاقب شديد الإضاءة ، عظيم المقدار .  
(٢) أعتبه : أزال عتبه ؛ والعتبي : اسم من الإعتاب . وفي المثل : « لك العتي ولا أعود » .  
أي لك مني أن أرضيك ؛ بقوله الثاقب المعتذر مجمع الأمثال ١٠٢/٢ .  
(٣) الزمن العاتب : الغاضب .  
(٤) كان ابن الخطيب شغوفاً بأن يوري في كتابته بمصطلحات العلوم ؛ وهو ها ناظر الى ما  
اصطلح عليه النجومون من أن القمر اذا اتصل - وهو في البروج الصاعدة - بالمشترى ، وهو -  
كوكب سعد ، وبالكاتب - وهو عطارد في عرف أهل المغرب - دل ذلك على أن المولود ذكر ،  
وأن حظه من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .  
(٥) الثاقب : المرتفع .  
(٦) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة الساسانية ( ٢٢٦ - ٢٤١ م ) . وقد ورد في  
بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : « أردشير » بالزاي . وهو تصنيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر :  
« وسمعت من يذكره بالزاي » . تاج العروس ٢٨٨/٢ ، الطبري ٥٦/٢ .  
(٧) الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن  
خلدون .  
(٨) السارح : الذي يغدو عليك ويروح .  
(٩) فلك التدوير - لكل كوكب - هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير  
الكوكب .

لِلْمُشْكَلَاتِ : طَالَمَا أَلِفْتَ الْخِمْرَةَ <sup>(١)</sup> ، وَأَمْضَيْتِ عَلَى الْأَذْهَانِ  
الْأَمْرَةَ <sup>(٢)</sup> ، فَتَأَهَّبِي لِلْغَارَةِ الْمُبِيحَةِ لِحِمَاكَ ، وَتَحْيِزِي إِلَى فِئَةِ الْبَطَلِ  
الْمُسْتَأْثَرِ بِرُشْفِ لِمَاكَ . وَلِلَّهِ مِنْ نَصَبَةٍ <sup>(٣)</sup> أَحْتَفَى فِيهَا الْمُشْتَرِي  
وَأَحْتَفَلَ ، وَكَفَى سِنِيَّ تَرْبِيَّتَهَا وَكَفَلَ ، وَاخْتَالَ عَطَارِدُ فِي حُلَلِ  
الْجَذَلِ لَهَا وَرَفَلَ ، وَاتَّضَحَّتِ الْخُدُودُ <sup>(٤)</sup> ، وَتَهَلَّلَتِ الْوُجُوهُ <sup>(٥)</sup> ،  
وَتَنَا فَسْتِ الْمُثَلَّثَاتِ <sup>(٦)</sup> تَوْمِلُ الْحِظَّ وَتَرْجُوهُ ، وَنَبَّهَ الْبَيْتُ عَلَى <sup>(٧)</sup>

(١) الخمر : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصب : الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالاته على الحوادث .

(٤) قسم النجوم درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ،  
قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يخص كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسماه حد ذلك  
الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسوا كل قسم منها وجهها ، ثم فرقوها  
على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكباً من السبعة  
السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام - بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها  
تتفق في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو  
هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها  
صاحب المثلث المقدم بالنهار ، والثاني المقدم بالليل ، والثالث شريكهما في الليل والنهار . ومعنى ذلك  
أن الكوكب اذا كان في واحد من هذه البروج التي تكون مثلثته ، قيل انه في مثلته ، أي انه  
في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ،  
بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

واجبه ، وأشار لحظ الشرف<sup>(١)</sup> بحاجبه ، وأسرع نير النوبة<sup>(٢)</sup> في الأوبة<sup>(٣)</sup> ، قائما في الاعتذار مقام التوبة ؛ واستأثر بالبروج المولدة بيت البنين<sup>(٤)</sup> ، وتخللت خط القمر رأس الجوزهر<sup>(٥)</sup> وذنب التين ؛ وساوق منها حكم الأصل ، حذوك النعل بالنعل ، تحويل السنين<sup>(٦)</sup> ، وحقق هذا المولود بين المواليد نسبة عمر الوالد ، فتجاوز درجة المئين ؛ واقترن بعاشره<sup>(٧)</sup> السعدان<sup>(٨)</sup> اقتران الجسد ، وثبت بدقيقة مركزه قلب الأسد ، وسرق من بيت أعدائه<sup>(٩)</sup>

(١) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعاده ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، الا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٢) نير النوبة يكون في الغاب الهلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(٣) الأوبة : الرجوع والعودة .

(٤) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويزعمون أنه كلما كان الخامس احد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

(٥) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدتين ، ونقطة التقاطع الشمالية منهما ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الرأس ، والتي تقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

(٦) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس احد الفصول الاربعة . ولهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٧) العاشر : هو بيت السلطان .

(٨) السعدان : المشتري والزهرة ، واكبرهما المشتري .

(٩) بيت الإعداء ؛ هو البيت الثاني عشر .

‘خَرْثِي’<sup>(١)</sup> الغلِّ والحسد ؛ ونُظِّفْتُ ‘طُرُقُ’ التَّسْيِيرِ<sup>(٢)</sup> ، كما نفعلُ بينَ  
يَدَيِ السَّادَةِ عِنْدَ الْمَسِيرِ ، وَسَقَطَ الشَّيْخُ الْهَرَمُ مِنَ الدَّرَجِ فِي الْبَيْرِ ،  
وَدُفِعَ الْمُقَاتِلُ إِلَى الْوَبَالِ<sup>(٣)</sup> الْكَبِيرِ .

لَمْ لَا يَنَالُ الْعُلَا أَوْ يُعَقِّدُ التَّاجُ  
وَالْمُشْتَرِي طَالِيعُ وَالشَّمْسُ هِمْلَاجُ<sup>(٤)</sup>  
وَالسَّعْدُ يَرْكُضُ فِي مِيدَانِهَا مَرَحاً  
جَذْلَانِ وَالْفَلَكَ الدَّوَّارُ هِمْلَاجُ<sup>(٥)</sup>

كَأَنَّ بِهِ — وَاللَّهُ يَهْدِيهِ — قَدْ انْتَقَلَ مِنْ مَهْدِ التَّنْوِيمِ ، إِلَى النَّهْجِ  
الْقَوِيمِ ؛ وَمِنْ أَرِيكَةِ الذَّرَاعِ ، إِلَى تَصْرِيفِ الْيَرَاعِ<sup>(٦)</sup> ، وَمِنْ كَتَدِ<sup>(٧)</sup>  
الدَّايَةِ<sup>(٨)</sup> ، إِلَى مَقَامِ الْهَدَايَةِ ، وَالْغَايَةِ الْمُخْتَطَفَةِ<sup>(٩)</sup> الْبِدَايَةِ ؛ جَعَلَ اللَّهُ

(١) الخَرْثِي ( بالضم ) : أثاث البيت ، أو اردأ المتاع .  
(٢) التَّسْيِيرُ : أن ينظرَكم بين الهملاج ( دليل العمر ) ، وبين السعد أو النحس ، فيؤخذ  
لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة أو النحس إلى كذا وكذا سنة .  
(٣) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ؛ ويسمى  
نظيره ، ومقابله ؛ وذلك أن يكون بينهما ستة بروج ، وهي نصف الفلك .  
(٤) الهملاج : دليل العمر ؛ والهماليج خمسة : الشمس ، والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة ،  
وجزء الاجتماع والاستقبال . وإنما كانت أدلة العمر لأنها تسير إلى السعود والنحوس .  
(٥) الهملاج : المركب الحسن السير ، والمسرع . يقول : لم لا ينال العلا ، وقد انخذ الفلك  
مركباً له .

(٦) يعني بأريكة الذراع عهد الطفولة . واليراع : القصب ، ويريد الاقلام .

(٧) الكتد : جمع الكتفين من الانسان ، وكأهله .

(٨) الداية : القابلة .

(٩) يريد أنه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير .



وقايتة عليه عُوذَةٌ<sup>(١)</sup> ، وقسم حسدته قسمة مُحَرَّم اللحم ، بين  
 'مُنْخَنَقَةٍ'<sup>(٢)</sup> و'نَطِيحَةٍ'<sup>(٣)</sup> و'مُتَرَدِّيةٍ'<sup>(٤)</sup> و'مَوْقُوذَةٍ'<sup>(٥)</sup> ؛ وَحَفِظَ هَلَالَهُ  
 فِي الْبِدَارِ<sup>(٦)</sup> إِلَى تِمِّهِ وَبَعْدَ تِمِّهِ ، وَأَقْرَبَ بِهِ عَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ . غَيْرَ أَنِّي —  
 وَاللَّهِ يَغْفِرُ لِسَيِّدِي — بَيِّدَ أَنِّي رَاكِعٌ فِي سَبِيلِ الشُّكْرِ وَسَاجِدٌ ، فَأَنَا  
 عَاتِبٌ وَوَاجِدٌ ؛ إِذْ كَانَ ظَنِّي أَنَّ الْبَرِيدَ بِهَذَا الْخَبَرِ إِلَيَّ يُعْمَلُ ، وَأَنَّ  
 إِتْحَافِي بِهِ لَا يُهْمَلُ ، فَانْعَكَسَتْ الْقَضِيَّةُ ، وَرَأَيْتُ الْحَالُ الْمَرِضِيَّةَ ،  
 وَفَضَلْتُ الْأُمُورَ الذَّاتِيَّةَ الْأُمُورِ الْعَرَضِيَّةَ ، وَالْحُكْمَ جَازِمَ ، وَأَحَدُ  
 الْفَرَضَيْنِ لَا زِمَ ؛ إِمَّا عَدَمَ السَّوِيَّةِ<sup>(٧)</sup> ، وَيُعَارِضُهُ اعْتِنَاءُ حَبْلِهِ  
 'مُغَارٍ'<sup>(٨)</sup> ، وَعُهُدَةُ سَلَمٍ لَمْ يَدْخُلْهَا جِزْيَةٌ وَلَا صَغَارٌ ؛ أَوْ جَهْلٌ  
 بِمِقْدَارِ الْهَبَةِ ، وَيُعَارِضُهُ عِلْمٌ بِمِقْدَارِ الْحَقِّ ، وَرَضَى مُنَافٍ لِلْعُتُوقِ ،  
 فَوَقَعَ الْأَشْكَالَ ؛ وَرَبُّهَا لَطْفٌ عُذْرٌ كَانَ عَلَيْهِ الْإِتِّكَالُ . وَإِذَا لَمْ يُبَشِّرْ  
 مِثْلِي بِمِنْحَةِ اللَّهِ قَبْلَ تِلْكَ الذَّاتِ السَّرِيَّةِ ، الْخَلِيقَةِ بِالنِّعَمِ الْحَرِيَّةِ ؛ فَمَنْ

(١) العوذة : ما يعلق على الإنسان ليقبضه من العين ونحوها .

(٢) المنخنة : الشاة ، وغيرها ؛ تَخْنَقُ بِجِلٍّ أَوْ غَيْرِهِ .

(٣) النطيحة : الشاة تنطحها الأخرى بقرونها ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(٤) المتردية . الساقطة من جبل ، أَوْ فِي بَثَرٍ .

(٥) الموقوذة . المقتولة ضرباً بالخشب أَوْ بِالْحَجَرِ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَصْنَافِ قَدْ حُرِّمَ أَكْلُهَا الْقُرْآنُ

عَلَى الْمُسْلِمِ . وَانْظُرِ الْآيَةَ رَقْمَ ٣ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَاحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

(٦) يدعوه بِأَنْ يَصَاحِبَهُ الْحَفِظَ فِي سَائِرِ أَطْوَارِ نَحْوِهِ إِلَى أَنْ يَكْتَمَلَ .

(٧) السوية . العدل ، والنصفة .

(٨) جبل مغار : محكم القتل .

الذي يُبَشِّرُ ، وعلى من يُعرضُ بُزُّهَا<sup>(١)</sup> أو يُنْشَرُ ، وهي التي واصلت  
التَّفَقُّدُ<sup>(٢)</sup> ، وبَهْرَجَتْ<sup>(٣)</sup> المَعَامِلَةَ وَأَبَتْ أَنْ تَنْقُدَ ، وَأَنْتِ الْغُرْبَةُ  
وُجِرُحُهَا غَيْرُ مُنْدَمِلٍ<sup>(٤)</sup> ، وَنَفَسَتْ الْكُرْبَةَ وَجَنَحُهَا<sup>(٥)</sup> عَلَى  
الْجَوَانِحِ<sup>(٦)</sup> مُشْتَمِلٍ ؛ فَمَتَى فَرَضَ نِسْيَانُ الْحَقُوقِ لَمْ يَنْلَنِي فَرَضُ ،  
وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيَّ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ ؛ وَإِنْ قَصَّرَ فِيمَا يَجِبُ لِسَيِّدِي عَمَلٌ ،  
لَمْ يُقْصِرْ رَجَاءٌ وَلَا أَمَلٌ ، وَلِي فِي شَرْحِ حَمْدِهِ نَاقَةٌ وَجَمَلٌ<sup>(٧)</sup> . وَمِنْهُ  
جَلٌّ وَعَلَا نَسْأَلُ أَنْ يُرِيَهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَبَنِيهِ ، وَيُخْغَلِ  
أَكْبَرَ عَطَايَا الْهَيَالِجِ أَصْغَرَ سِنِيهِ ، وَيُقَلِّدَ عَوَاتِقَ<sup>(٨)</sup> الْكُؤَاكِبِ  
الْبَابَانِيَةِ<sup>(٩)</sup> حَمَائِلَ أَمَانِيهِ . وَإِنْ تَشَوَّفَ سَيِّدِي إِحَالَ وَلِيَّهِ ، فَخَلَاةٌ  
طَيِّبَةٌ ، وَرَحْمَةٌ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ صَبِيَّةٌ ، وَبَرْقٌ يُشَامُ<sup>(١٠)</sup> ، فَيَقَالُ : حَدِثْ  
مَا وَرَاءَكَ يَا هِشَامَ . وَلِلَّهِ دَرُّ شَيْخِنَا إِذَا يَقُولُ :

(١) الْبَزُّ : الثِيَابُ .

(٢) التَّفَقُّدُ : التَّعَرُّفُ لِأَحْوَالِ النَّاسِ ، وَتَعَمُّدُهَا .

(٣) بَهْرَجَ : عَدَلَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَسْلُوكِ .

(٤) اَنْدَمِلَ الْجَرْجُ . بَرَى .

(٥) الْجَنَحُ : الظِّلَّةُ .

(٦) الْجَوَانِحُ : الضَّلُوعُ تَحْتَ التَّرَائِبِ مِمَّا يَلِي الصَّدْرَ .

(٧) هُوَ عَكْسُ أَمْنَى الْمَثَلِ : « لَا نَاقَتِي فِي هَذَا ، وَلَا جَمَلِي » ، الَّذِي يَضْرِبُ لِلتَّبْرِي مِنْ الشَّيْءِ ،

الْمِيدَانِي ١١٣/٢ ، ١١٤ .

(٨) الْعَوَاتِقُ : جَمْعُ عَاتِقٍ ؛ وَهُوَ مَا بَيْنَ الْمَنْكَبِ وَالْعُنُقِ .

(٩) الْكُؤَاكِبُ الْبَيَانِيَاتُ ( أَوِ الْبَابَانِيَةُ ) : هِيَ الَّتِي لَا تَنْزِلُ الشَّمْسُ بِهَا ، وَلَا الْقَمَرُ .

(١٠) شَامَ الْبَرْقُ : نَظَرَ إِلَى سَعَابَتِهِ أَيْنَ تَطَرَّ .

لا بارك الله فيَّ إن لم أُصرِّف النَّفسَ في الأهمِّ  
وكثُر الله في هُمومي إن كان غيرُ الخلاصِ هَمِّي

وإن أنعم سيدي بالاماع بحاله ، وحال الولد المبارك ، فذلك  
من غرر إحسانه ، ومنزله في لَحْظِ لَحْظِي بمنزلة إنسانه ؛  
والسلام .

### العودة الى المغرب الاقصى

ولما كنتُ في الاعتقال في مُشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب<sup>(١)</sup> ، كما ذكرتُ تفاصيله ، وانا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها احمد بن يوسف بن مزني ، وهو صاحب زمام رياح ، واكثر عطائهم من السلطان مُفترض عليه في جباية الزاب<sup>(٢)</sup> ، وهم يرجعون اليه في الكثير من امورهم ؛ فلم اشعر الا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب ، وغر صدره<sup>(٣)</sup> ، وصدق في ظنونه وتوهّماته ، وطاوع الوشاة فيما يُوردون على سمعه من التّقوّال والاختلاق ، وجاش صدره بذلك ؛ فكتب الى ونزمار بن عريف ، ولي السلطان ، وصاحب شواره ، يتنفّس الصّعداء من ذلك ، فأنهاه الى السلطان ؛ فاستدعاني لوقتّه ، وارتحلتُ من بسكرة بالأهل والوالد ، في يوم

(١) هو ابو فارس ؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن ابي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، بويح سنة ٧٦٧ ، وتوفي سنة ٧٧٤ . من ألمع ملوك بني مرين ؛ أعاد الى الدولة قوتها وشبابها ، وأزال عنها حجر المستبدّين ؛ والى أبي فارس هذا أهدي ابن خلدون مقدمته ، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بديباجة النسخة المطبوعة ببولاق .

(٢) بلاد الزاب : منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس ، وتشمل بسكرة ، وما حولها . ياقوت ٣٦٥/٤ .

(٣) وغر صدره : امتلأ غيظاً وحقداً .

المولد الكريم ، سنة اربع وسبعين ، متوجّهاً الى السلطان ، وقد كان طرّقه المرض ؛ فما هو الا ان وصلتْ مِلْيَانَة من اعمال المغرب الأوسط ؛ فلقيني هنالك خبر وفاته ، وأن ابنه ابا بكر السعيد<sup>(١)</sup> نُصِبَ بعده للامر ، في كفالة الوزير ابي بكر بن غازي وانه ارتحل الى المغرب الاقصى مُغْذّاً السير الى فاس ؛ وكان على مِلْيَانَة يومئذ عليُّ بنُ حُسُون بن ابي علي اليناطي من قوَّاد السلطان وموالي بيته ؛ فارتحلتُ معه الى احياء العطّاف ، ونزلنا على اولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبذَرَقَ لي بعضهم الى حِلَّة اولاد عريف : أمراء سُويْد ؛ ثم لحِقَ بنا بعد ايام ، عليُّ بنُ حُسُون في عسكره ، وارتحلنا جميعاً الى المغرب على طريق الصحراء ؛ وكان ابو حمو قد رجع بعد مهْلِك السلطان من مكان انتبأ به بالفقر في تيكورارين الى تِلِمْسَان ، فاستولي عليها وعلى سائر اعماله ؛ فأوعز الى بني يَغْمُور من شيوخ عبيد الله من المَعْقِل ان يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين<sup>(٢)</sup> مَخْرَج وادي زا<sup>(٣)</sup> فاعترضونا هنالك ، فنجا من نجا ممّا على

(١) السعيد محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن . كناه ابن خلدون هنا ، « أبا بكر » . وفي الجذوة لابن القاضي ، والاستقصا للناصري : أن كنيته « أبو زيان » بويغ - وهو صي لم يعد سنة الخامسة - سنة ٧٧٤ ، وخلع سنة ٧٧٦ . الاستقصا ١٣٣/٢ .

(٢) يعرف رأس العين الآن بعين بني مطهر ؛ وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو ، وبها مركز حربي تابع لبركان .

(٣) كتبه ابن خلدون صاداً في وسطه زاي - اشارة الى أن نطقه بين الصاد والزاي . ويقع هذا الوادي في جنوب عين البرديل - عن عين وادي ملوية - بنحو ٥١ كيلو متراً .

خيولهم الى جبل دَبْدُو ، وانتهبوا جميع ما كان معنا ، وأرجلوا  
الكثير من الفرسان و كنتُ فيهم ؛ وبقيتُ يومين في قَفْرِهِ ، ضاحياً<sup>(١)</sup>  
عارياً الى ان خَلَصْتُ الى العُمران ، ولحقتُ باصحابي بجبل دَبْدُو ،  
ووقع في خلال ذلك من اللطاف ما لا يُعَبَّرُ عنه ، ولا يسع الوفاء  
بشكره . ثم سِرنا الى فاس ، ووفدتُ على الوزير ابي بكر ، وابن  
عمه محمد بن عثمان بفاس ، في جمادى من السنة ؛ وكان لي معه قديمُ  
صحبةٍ واختصاص ، منذ نزع معي الى السلطان ابي سالم بجبل  
الصَّفِيحة ؛ عند إجازته من الاندلس ، لطلب ملكه ، كما مرَّ في غير  
موضع من الكتاب ؛ فلقيني من برِّ الوزير وكرامته ، وتوفير  
جرايته وإقطاعه ، فوق ما أحتسب ، وأقمتُ بمكاني من دولتهم اثيرَ  
المحل ، نأيه الرُّتبة ، عريضَ الجاه ، مُنَوِّه المجلس . ثم انصرم فصلُ  
الشتاء ، وحدث بين الوزير ابي بكر بن غازي ، وبين السلطان ابن  
الاحمر ، مُنافرةٌ بسبب ابن الخطيب ، وما دعا اليه ابنُ الاحمر من  
إبعاده عنهم ؛ وأنفَ الوزير من ذلك ، فأظلم الجوُّ بينهما ؛ وأخذ  
الوزيرُ في تجهيز بعض القَرابة من بني الأحر ، للاجلا ب على الاندلس ،  
فبادرَ ابن الاحمر الى اطلاق الامير عبد الرحمن بن ابي يَفْلُوَسَنَ من

(١) الضاحي : الذي لا يستره حائط ولا غيره ، فيصبيه حر الشمس وأذاها .

ولّد السلطان ابي علي ، والوزير مسعود بن رَحُو بن ماساي<sup>(١)</sup> ،  
كان حبسهما ايام السلطان عبد العزيز ، وبإشارته بذلك لابن الخطيب ،  
حين كان في وزارته بالاندلس ؛ فأطلقهما الان ، وبعثهما لطلب الملك  
بالمغرب ، وأجازهما في الاسطول الي سواحل غساسة ، فنزلوا بها ،  
ولحقوا بقبائل بطّوية<sup>(٢)</sup> هنالك ، فاشتملوا عليهم ، وقاموا بدعوة  
الامير عبد الرحمن . ونهض ابن الاحمر من غرناطة في عساكر الاندلس ؛  
فنزل على جبل الفتح ليحاصره . وبلغت الاخبار بذلك الي الوزير ابي  
بكر بن غازي القائم بدولة بني مرين ، فجهّز لحينه ابن عمه محمد بن  
الكاس الي سبتة لامداد الحامية الذين لهم بالجل ، ونهض هو في  
العساكر الي بطّوية لقتال الامير عبد الرحمن ، فوجده قد ملك تازي ،  
فأقام عليها يحاصره ؛ وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني  
ابيه المرشعين ، فحبسهم بطنجة ، فلما وافى محمد بن الكاس سبتة ،  
وقعت المراسلة بينه وبين ابن الاحمر ، وعتب كل منهما صاحبه على  
ما كان منه ، واشتدّ عذل ابن الاحمر على إخلائهم الكرسي من  
كفّته ، ونصّبهم السعيد بن عبد العزيز صبيّاً لم يُشغَر ؛ فاستعتب له

(١) هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي . تولى محاربة أبي حو ، وأخراجه من تلمسان سنة  
٧٧٠ في أيام أبي عنان . له في حوادث المغرب مواقف تجدها في الاستقصا ١٠٣/٢ ، ١٠٤ ، ١٣٢ .  
ورحو - في اللغة البربرية - تصغير عبد الرحمن .

(٢) تقع أرض غساسة عند مصب وادي ملوية ، وهناك أيضاً كانت قبائل بطوية . العبرم ٧ .

محمد ، واستقال من ذلك ؛ فحمله ابنُ الاحمر على ان يُبايع لاحد الابناء المحبوسين بطنجة ؛ وقد كان الوزير ابو بكر اوصاه ايضاً بأنه ان تضايق عليه الامر من الامير عبد الرحمن ، فيفرج عنه بالبيعة لاحد اولئك الابناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان ابو سالم لابنه احمد ايام ملكه ، فبادر من وقته الى طنجة ، واخرج احمد بن السلطان ابي سالم<sup>(١)</sup> من محبسه ، وبايع له ، وسار به الى سبتة ، وكتب لابن الاحمر يعرفه بذلك ، ويطلب منه المدد على ان ينزل له عن جبل الفتح ؛ فأمدّه بما شاء من المال والعسكر ، واستولى على جبل الفتح ، وشحنه بحاميته ؛ وكان احمد بن السلطان ابي سالم ، قد تعاهد مع بني ابيه في محبسهم ، على ان من صار الملك اليه منهم ، يُجيزُ الباقيين الى الاندلس ؛ فلهذا بويع له ذهب الى الوفاء لهم بعهدهم ، واجازهم جميعاً ؛ فنزلوا على السلطان بن الاحمر ؛ فاکرم نُزُلهم ووفّر جراياتهم . وبلغ الخبرُ بذلك كله الى الوزير ابي بكر بمكانه من حصار الامير عبد الرحمن بتازة ، فأخذهُ المقيمُ المُقعدُ من فَعْلَة ابن عمه ، وقوَّض<sup>(٢)</sup> راجعاً

(١) هو السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم : إبراهيم بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني يلقب بالمستنصر بالله . بويع بطنجة سنة ٧٧٥ ، وتمت له البيعة العامة بالمدينة البيضاء من فاس الجديد سنة ٧٧٩ ؛ وخلع سنة ٧٨٨ . وفي سجن أبي العباس هذا ، مات ابن الخطيب السلماي لسان الدين . الاستقصا ١٣٣/٢ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) قوض خيامه : هدمها . والجيش : فرقه . ولا معنى لها . وفي ب : وكر راجعاً .



الى دار الملك ، وعسكر بكندية العرائس من ظاهرها ، وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان ، فاعتذر بأنه إنما امثل وصيته ، فاستشاط وتهددده ؛ واتسع الخرق بينهما ، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس الى أن احتل بجبل زرّهون<sup>(١)</sup> المطل على مكناسة<sup>(٢)</sup> ، وعسكر به ، واشتملوا عليه ؛ وزحف إليهم الوزير أبو بكر ، وصعد الجبل ، فقَاتلوه وهزموه ، ورجع الى مكانه بظاهر دار الملك . وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن ، والاعتضاد به ، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه ؛ فرأسله محمد بن عثمان في ذلك ، واستدعاه ، واستمدّه . وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجوبينه وبين الوزير أبي بكر ، لأنه سأله - وهو يحاصر تازي - في الصلح مع الأمير عبد الرحمن

(١) جبل واقع في شمال مدينة مكناسة الزيتون ، على بعد نحو ٣٠ كيلو مترا منها ، وبه مدفن المولى ادريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب . وبالجبل تقع مدينة وإبلى التاريخية .  
(٢) مكناسة : مدينة قديمة أسستها قبيلة مكناسة البربرية قبل الإسلام ؛ وقد ازدهرت أيام بني مرين ، فبنوا فيها المساجد ، والفنادق ، والمدارس ؛ ولا تزال مدرسة أبي عنان بها تلفت الأنظار ، ولا سيما أبوابها النحاسية المزخرفة . وقد اتخذها السلطان المولى اسمعيل العلوي عاصمة ملكه سنة ١٠٨٤ هـ .

ولمكاسة - من بين مدن المغرب - تاريخ حافل ، ولذلك حظيت بعناية المؤرخين فكتبوا في تاريخها ما خلد مآثرها . وآخر من خصها بالبحث المؤرخ الضليع ، المرحوم المولى عبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ ؛ فقد ألف فيها كتابه الحافل الذي سماه : « انخاف أعلام الناس ، بجبال أخبار حاضرة مكناس » وقد طبع منه خمسة مجلدات بالمغرب .

فامتنع - وأتته بـداخلته ، والميل له ، فاعتزم على القبض عليه ،  
ودس إليه بذلك بعض عيونه ، فركب الليل ، ولحق بأحياء  
الأحلاف من المعقل<sup>(١)</sup> ، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن ، ومعهم  
علي بن عمر الويعلاني<sup>(٢)</sup> كبير بني ورتاجن ، كان انتقض على الوزير  
ابن غازي ، ولحق بالسوس<sup>(٣)</sup> ، ثم خاض القفر الى هؤلاء الأحلاف ،  
فنزل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن . فجاءهم ونزمار  
مفلتاً من حباله الوزير أبي بكر ، وحرّضهم على ما هم فيه ، ثم  
بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ، ووزيره محمد بن عثمان ،  
وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم ، وخرج من تازي  
فلقيتهم ، ونزل بين أحيائهم ، ورحلوا جميعاً الى إمداد السلطان أبي  
العبّاس ، حتى انتهوا الى صفووي . ثم اجتمعوا جميعاً على وادي النجا ،  
وتعاقدوا على شأنهم ، وأصبحوا من الغد على التغيّث ، كل من  
ناحيته .

(١) يرجح ابن خلدون - في المصل - أنهم من عرب اليمن ؛ وهم من أوفر القبائل عدداً  
بالغرب الأقصى ، وكانت مساكنهم موزعة من تلمسان الى البحر المحيط ؛ وقد ملكوا قصور زناتة التي  
كانت بالصحراء ، والتي منها قصور « تيكورارين » . العبر ٦ .

(٢) سبق التعريف به هكذا : علي بن عمر بن ويعلان ، شيخ بني مرين .

(٣) السوس : إقليم واسع خصب ؛ يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس ،  
ويتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس ، تتفرع منه فروع عدة ؛ وحول الوادي وفروعه مزارع  
واسعة ، بها أشجار ونخل . وبإقليم السوس مدن كبيرة ؛ منها تارودانت ، وتزنيت . وعلى ساحلي  
البحر المحيط ، حيث مصب وادي سوس ، تقع مدينة أجادير . العبر ٦ . أما ياقوت فلاس في كلامه  
عن « سوس » ما يعول عليه .

وَرَكِبَ الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ لِقَاتِلِهِمْ فَلَمْ يُطِيقْ ، وَوَلَّى مُنْهَزِمًا ،  
فَانْحَجَرَ بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ <sup>(١)</sup> ، وَخَسِمَ الْقَوْمُ بِكُذِبَةِ الْعَرَائِشِ  
مُحَاصِرِينَ لَهُ ، وَذَلِكَ أَيَّامَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ،  
فَحَاصِرُوهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَأَخَذُوا بِمَخَنَّقِهَا إِلَى أَنْ جَهَدَ الْحِصَارُ  
الْوَزِيرَ وَمَنْ مَعَهُ ، فَأَذْعَنَ لِلصُّلْحِ عَلَى خَلْعِ الصِّيِّ الْمَنْصُوبِ  
السَّعِيدِ بْنِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَخُرُوجِهِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ  
عَمِّهِ ، وَالْبَيْعَةِ لَهُ ، وَكَانَ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ ، وَالْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ،  
قَدْ تَعَاهَدُوا — عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ بِوَادِي النَّجَا — عَلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ ،  
عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ لِلْسُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ بِسَائِرِ أَعْمَالِ الْمَغْرِبِ ، وَأَنَّ لِلْأَمِيرِ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِلَادَ سَجِلْمَاسَةَ وَدَرْعَةَ <sup>(٢)</sup> ، وَالْأَعْمَالُ الَّتِي كَانَتْ لَجَدِّهِ  
السُّلْطَانِ أَبِي عَلِيٍّ أَخِي السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ؛ ثُمَّ بَدَأَ لِلْأَمِيرِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ

(١) تسمى أيضا المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس ملاصقة ؛ وكان ذلك سنة ٧٦٤ هـ وانظر الاستقصا ٢/٢٢٠ .

(٢) درعة ( وتنطق اليوم درا ) وكذلك تكتب على الخرائط : مقاطعة كبيرة خصبة وراء جبال الأطلس ، تقع في شرق إقليم السوس ، وتمتد من شرقه الى جنوبه ، حيث تتصل بالبحر المحيط ، وتفصل بينها وبين إقليم سلسلة السوس جبال الأطلس الخارجية ؛ وفي هذه المقاطعة واد كبير قده روافد تتفرع من جبال الأطلس ، وحول الوادي وفروعه ، تقوم قرى المقاطعة ، ومدنها الصغيرة ؛ وأكبر هذه المدن ورزازت التي تقع في السفح الجنوبي لجبال الأطلس مرتفعة عن سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متراً ؛ وسكان هذه المقاطعة خليط من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الاقليم هو الوطن الاصلي لدولة السعديين بالمغرب . وانظر العبرم ٦ ، الاستقصا ٢/٣ . وما في باقوت عن « درعة » أيضاً ليس بشيء .

في ذلك أيام الحصار ، واشتطَّ بطلَبَ مرّا كُشَّ وأعمالِها<sup>(١)</sup> ، فأغضوا له في ذلك ، وشارطوه عليه حتى يتمَّ لهم الفتح ؛ فلما انعقد ما بين السلطان أبي العباس ، والوزير أبي بكر ، وخرج اليه من البلد الجديد ، وخلعُ سلطانِه الصَّبيِّ المنصوب ، ودخل السلطانُ أبو العباس الى دار الملك ، فاتحَ ستِّ وسبعين ، وارتحل الأميرُ عبد الرحمن يُغذُّ السَّيرَ الى مرّا كُشَّ ، وبدا للسلطان أبي العباس ، ووزيره محمد ابن عثمان في شأنه ، فسرحوا العساكر في اتِّباعه ، وانتهوا خلفه الى وادي بهت<sup>(٢)</sup> ، فواقفوه ساعةً من نهار ، ثم أحجموا عنه ، وولوا على راياتهم وسار هو الى مرّا كُشَّ ، ورَجَعَ عنه وزيرُه مسعود بنُ ماساي ، بعد أن طلبَ منه الاجازة الى الأندلس يتودَّع بها ، فسرحه لذلك ، وسار الى مرّا كُشَّ فملكها .

وأما أنا فكنتُ مقيماً بفاس ، في ظلِّ الدَّولةِ وعنايتها ، منذُ قدِمْتُ على الوزير سنة أربعٍ وسبعين كما مرَّ ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسِه ؛ فلما جاء السلطانُ أبو العباس ، والأميرُ عبدُ الرحمن ،

(١) في م ٧ : « واشتط عايمهم الأمير عبد الرحمن التجاني له عن أعمال مراکش ، وأن يدلوه بها من سجلاسة » .

(٢) في « المعجب » لعبد الواحد المراكشي ص ٢٤٣ : « وفيما بين مكناسة ، وسلا نهر يدعى بهتا ، ينصب الى البحر الأعظم ايضاً » ؛ ينبع بالقرب من مدينة أزرو ، ثم يتصل بوادي سبو ، حيث ينصب وادي سبو في المحيط الأطلسي .

وَعَسَّكَرُوا بِكُدَيْةِ الْعَرَائِشِ ، وَخَرَجَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ ، مِنَ الْفُقَهَاءِ ،  
وَالْكَتَّابِ ، وَالْجُنْدِ ، وَأُذِنَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً فِي مُبَاكَرَةِ أَبْوَابِ  
السُّلْطَانَيْنِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ فِي ذَلِكَ ، فَكَنتُ أَبَا كَرِهًا مَعاً . وَكَانَ  
بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَزِيرِ مُحَمَّدَ بْنِ عَثْمَانَ مَا مَرَّ ذِكْرَهُ قَبْلَ هَذَا ، فَكَانَ يُظْهِرُ  
لِي رِعَايَةَ ذَلِكَ ، وَيُكْثِرُ مِنَ الْمَوَاعِيدِ ؛ وَكَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ  
يَهِيلُ إِلَيَّ وَيَسْتَدْعِينِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ يُشَاوِرُنِي فِي أَحْوَالِهِ ؛ فَغَضَّ  
بِذَلِكَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ ، وَأَغْرَى سُلْطَانَهُ فَقَبَضَ عَلَيَّ . وَسَمِعَ  
الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ جَرَّاءِهِ ، فَحَلَفَ  
لِيُقَوِّضَنِي خِيَامَهُ ، وَبَعَثَ وَزِيرَهُ مَسْعُودَ بْنَ مَاسَايَ لِذَلِكَ ،  
فَأَطْلَقُونِي مِنَ الْغَدِ ، ثُمَّ كَانَ افْتِرَاقُهَا لِمَالِثِهِ . وَدَخَلَ السُّلْطَانُ أَبُو  
الْعَبَّاسِ دَارَ الْمُلْكِ ، وَسَارَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى مَرَّاكُشَ ، وَكَنتُ  
أَنَا يَوْمَئِذٍ مُسْتَوْحِشًا ، فَصَحِبْتُ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مُعْتَزِماً عَلَى  
الْإِجَازَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَاحِلِ أُسْفِي ، مَعَوَّلاً فِي ذَلِكَ عَلَى صِحَابَةِ  
الْوَزِيرِ مَسْعُودِ بْنِ مَاسَايَ لِهَوَايَ فِيهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مَسْعُودُ انْشَنَى  
عَزْمِي فِي ذَلِكَ ، وَلَحِقْنَا بَوَنْزَمَارَ ابْنَ عَرِيفَ بِمَكَانِهِ مِنْ نَوَاحِي  
كَرْسِيفَ لِنُقَدِّمَهُ وَسِيلَةً إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ ، صَاحِبِ فَاسَ فِي  
الْجَوَازِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَوَأَفِينَا عِنْدَهُ دَاعِيَ السُّلْطَانِ فَصَحْبَنَاهُ إِلَى

فاس ، واستأذنه في شأني ، فأذن لي بَعْدَ مطاولة ، وعلى كُرهِ من  
الوزير مُحَمَّد بن عثمان ، وسليمان بن داود بن أعراب ، ورجال الدولة .

وكان الأخ يَحْيَى لَمَّا رَحَلَ السلطانُ أبو حَمُو من تِلِمْسَانَ ،  
رَجَعَ عنه من بلاد زُنْجَبَةِ إلى السلطان عبد العزيز فاستقرَّ في خدمته ،  
وبَعْدَهُ في خِدْمَةِ ابنه مُحَمَّد السَّعِيد المنصوب مكانه . ولما استولى  
السلطانُ أبو العبَّاس على البلد الجديد ، استأذن الأخُ في اللِّحاق  
بِتِلِمْسَانَ ، فأذن له ، وقَدِمَ على السلطان أبي حَمُو ، فأعادَهُ إلى كِتَابَةِ  
سِرِّهِ كما كان أول مرة ، وأذن لي أنا بَعْدَهُ ، فانطَلَقْتُ إلى الأندلس  
بِقَصْدِ القَرَارِ والدَّعَةِ ، إلى أن كان ما نذكُر .

## الاجازة ثانية الى الاندلس ، ثم الى تلمسان ، واللاحق

باحياء العرب ، والمقامة عند اولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس ،  
والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ، ثم الرجوع عنه الى ونزمار بن  
عريف ، طلباً لوسيلته في انصرافي الى الاندلس بقصد القرار  
والانقباض ، والمكوف على قراءة العلم ، فتم ذلك ، ووقع الاسعاف  
به بعد الامتناع ، وأجزت الى الاندلس في ربيع [سنة] ست  
وسبعين ، ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته ،  
وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر ، من بعد ابن  
الخطيب ، الفقيه أبا عبد الله بن زمرك<sup>(١)</sup> ، ذاهباً الى فاس في غرض  
التهنئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته باجازة أهلي وولدي  
إلى غرناطة ؛ فلما وصل إلى فاس ، وتحدث مع أهل الدولة في  
إجازتهم ، تنكروا لذلك ، وساء لهم استقرار بالاندلس ، واتهموا

(١) ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك .

وزمرك بفتح الزاي والراء ، بينهما ميم ساكنة ؛ وقد اضطرب ضبط ابن خلدون له ؛  
فضبطه تارة بفتح الزاي والميم ، وسكون الراء ، وطوراً بفتح الزاي والراء وسكون الميم بينهما .

أَنِي رَبَّهَا أَحْمِلَ السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،  
 الَّذِي اتَّهَمُونِي بِمُلَابَسَتِهِ، وَمَنَعُوا أَهْلِي مِنَ اللَّحَاقِ بِي. وَخَاطَبُوا  
 السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ فِي أَنْ يُرْجِعَنِي إِلَيْهِمْ؛ فَأَبَى مِنْ ذَلِكَ، فَطَلَبُوا  
 مِنْهُ أَنْ يُجِيزَنِي إِلَى عُدُوَّةِ تَلِيمْسَانَ؛ وَكَانَ مَسْعُودُ بْنُ مَاسَايَ قَدْ  
 أَذْنُو لَهُ فِي اللَّحَاقِ بِالْأَنْدَلُسِ، فَحَمَلُوهُ عَلَى مُشَافَهَةِ السُّلْطَانَ بِذَلِكَ،  
 وَأَبَدُوا لَهُ أَنِّي كُنْتُ سَاعِيًا فِي خِلَاصِ ابْنِ الْخَطِيبِ، وَكَانُوا قَدْ  
 اعْتَقَلُوهُ لِأَوَّلِ اسْتِيْلَانِهِمْ عَلَى الْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَظَفَرِهِمْ بِهِ. وَبَعَثَ إِلَيَّ  
 ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ مَحْبِسِهِ مُسْتَصْرَخًا بِي، وَمَتَوَّسِّلًا. فَخَاطَبْتُ فِي  
 شَأْنِهِ أَهْلَ الدَّوْلَةِ، وَعَوَّلْتُ فِيهِ مِنْهُمْ عَلَى وَزَرُمَارَ، وَابْنَ مَاسَايَ،  
 فَلَمْ تُنْجِحْ تِلْكَ السَّعَايَةَ، وَقُتِلَ ابْنُ الْخَطِيبِ بِمَحْبِسِهِ؛ فَلَمَّا قَدِمَ ابْنُ  
 مَاسَايَ عَلَى السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ - وَقَدْ أَغْرَوهُ بِي - فَأَلْقَى إِلَى  
 السُّلْطَانَ مَا كَانَ مِنِّي فِي شَأْنِ ابْنِ الْخَطِيبِ، فَأَسْتَوْحَشَ لَذَلِكَ،  
 وَأَسْعَفَهُمْ بِأَجَازَتِي إِلَى الْعُدُوَّةِ، وَنَزَلْتُ بِهَنْئِينَ، وَالْجَوْ بَيْنِي وَبَيْنَ  
 السُّلْطَانَ أَبِي حَمُو مُظْلَمَ، بَمَا كَانَ مِنِّي فِي إِجْلَابِ الْعَرَبِ عَلَيْهِ بِالزَّابِ  
 كَامَرٍ. فَأَوْعَزَ بِمُقَارِي بِهَنْئِينَ، ثُمَّ وَفَدَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَرِيفٍ فَعَدَلَهُ فِي  
 شَأْنِي، فَبَعَثَ عَنِّي إِلَى تَلِيمْسَانَ، وَاسْتَقَرَّرْتُ بِهَا بِالْجَبَّادِ. وَلَحِقَ بِي  
 أَهْلِي وَوَلَدِي مِنْ فَاسَ، وَأَقَامُوا مَعِيَ، وَذَلِكَ فِي عِيدِ الْبُطْرِ سَنَةِ



سِتِّ و سَبْعِينَ ، وَأَخَذْتُ فِي بَثِّ الْعِلْمِ . وَعَرَضَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي حَمُو  
أَثْنًا ، ذَلِكَ رَأْيِي فِي الدَّوَاوِدَةِ ، وَحَاجَةٌ إِلَى اسْتِثْلَافِهِمْ ، فَاسْتَدْعَانِي ،  
وَكَلَّفَنِي السِّفَارَةَ إِلَيْهِمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ ، فَاسْتَوْحِشْتُ مِنْهُ ، وَنَكِرْتُهُ  
عَلَى نَفْسِي ، لِمَا آثَرْتُهُ مِنَ التَّخَايِي وَالْإِنْقِطَاعِ ، وَأَجَبْتُهُ إِلَى ذَلِكَ  
ظَاهِرًا ، وَخَرَجْتُ مُسَافِرًا مِنْ تِلِمْسَانَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْبَطْحَاءِ <sup>(١)</sup> ،  
فَعَدَلْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى مَندَاسَ ، وَلَحِقْتُ بِأَحْيَاءِ أَوْلَادِ عَرِيفِ  
قَبْلَةَ جَبَلِ كَزُولِ <sup>(٢)</sup> ، فَتَلَقَّوْنِي بِالتَّحَفِّي وَالْكَرَامَةِ ، وَأَقَمْتُ بَيْنَهُمْ  
أَيَّامًا حَتَّى بَعَثُوا عَنْ أَهْلِي وَوَلَدِي مِنْ تِلِمْسَانَ ، وَأَحْسَنُوا الْعُذْرَ إِلَى  
السُّلْطَانِ عَنِّي فِي الْعَجْزِ عَنْ قَضَاءِ خِدْمَتِهِ ، وَأَنْزَلُونِي بِأَهْلِي فِي قَلْعَةِ  
ابْنِ سَلَامَةَ <sup>(٣)</sup> ، مِنْ بِلَادِ بَنِي تَوْجِينَ <sup>(٤)</sup> الَّتِي صَارَتْ لَهُمْ بِإِقْطَاعِ  
السُّلْطَانِ <sup>(٥)</sup> ، فَأَقَمْتُ بِهَا أَرْبَعَةَ أَعْوَامَ ، مُتَخَلِّيًا عَنِ الشُّبُورِ أَيْ غَلِّهَا ؛

(١) كان موقع البطحاء البسيط الذي بين مدينة الريزان ، وبسيط وادي شلف .

(٢) يقع جبل كزول في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كيلو مترات .

(٣) قلعة ابن سلامة ( أو بني سلامة ) هذه ، وتسمى قلعة تاوغزوت ، تقع في مقاطعة وهران من

بلاد الجزائر .

أما سلامة الذي تنسب إليه ، أو إلى بنيهِ ، القلعة ؛ فهو سلامة بن علي بن نصر بن سلطان  
رئيس بني يدلات من بطون توجين . سكن تاوغزوت ، واختط بها القلعة ، فنسبت إليه ، وإلى  
بنيهِ ، وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المنقطعين من سويد . العبر م ٧ .

(٤) كان لبني توجين من الأراضي ما بين قلعة سعيدة إلى المدية ؛ وكانت لهم قلعة ابن سلامة ،

ومنداس ، ووانشريس . العبر م ٦ .

(٥) في م ٦ : « وأقطع السلطان أبو عزان ، ونزمار بن عريف « السرسو » ، وقلعة ابن

سلامة ، وكثيراً في بلاد توجين » .

وشرعتُ في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مُقيمُ بها ، وأكملتُ  
المقدمة منه على ذلك النحو الغريب ، الذي اهتديتُ إليه في تلك  
الخلوة ، فسألتُ فيها شأيبُ الكلام والمعاني على الفكر ، حتى  
امتخضتُ زبدتها ، وتألفتُ نتائجها ؛ وكانت من بعد ذلك  
الفيئةُ الى تونس كما نذكره .

#### الفيئة الى السلطان ابي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلتُ بقاعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف ، وسكنتُ  
منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها ، وكان من أحفل  
المساكن وأوثقها . ثم طالُ مقامي هنالك ، وأنا مستوحشٌ من دولة  
المغرب وتامسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب ، وقد  
فرغتُ من مقدمته الى أخبار العرب والبربر وزناتة ، وتشوّفتُ  
الى مطالعة الكتب والدواوين التي لا تُوجد إلا بالأمصار ، بعد أن  
أملتُ الكثير من حفظي ، وأردتُ التّقيح والتّصحيح ؛ ثم  
طرقني مرضٌ أوفى بي على الشّنية ، لولا ما تدارك من لطف الله ،  
فحدث عندي ميلٌ الى مُراجعة السلطان أبي العباس ، والرحلة الى  
تونس ، حيث قرارُ آبائي ، ومسارِكنهم ، وآثارهم ، وقبورهم ؛

فبادرت الى خطاب السلطان بالفبيئة الى طاعته ، والمراجعة ،  
وانتظرت ، فما كان غير بعيد ، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان ،  
والاستيحاءات للقدوم ؛ فكان الخفوف للرحلة ؛ فظننت عن  
أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح ، كانوا هنالك  
ينتجعون الميرة بمنداس . وارتحلنا في رجب سنة ثمانين ، وسلكنا  
القفر الى الدؤسن من أطراف الزاب . ثم صعدت الى التل مع  
حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار<sup>(١)</sup> ، الضيعة التي اختطها  
بالزاب ، فرحلتهم معي<sup>(٢)</sup> الى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة ، ومعه  
صاحبها الأمير إبراهيم بن السلطان أبي العباس بمخيّمه ، وفي عسكره ؛  
فحضرت عنده ، وقسم لي من برّه ، وكرامته فوق الرضى .  
وأذن لي في الدخول الى قسنطينة ، وإقامة أهلي في كفالة إحصانه ،  
بينما أصل الى حضرة أبيه . وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه  
أبي دينار في جماعة من قوّمهم ، وسرنا الى السلطان أبي العباس ، وهو  
يومئذ قد خرج من تونس في العساكر الى بلاد الجريد ، لاستئصال  
شيوخها عن كراسي النشنة التي كانوا عليها ، فوافيته بظاهر سوسة ،

(١) فرفار : واحة صغيرة تقع على بعد ٣٣ كيلو مترا من مدينة بسكرة ، في الجنوب الغربي لها .

(٢) كذا ، وفي ب : فرحلت معهم .

فحياً وفادتي ، وبرّ مقدّمي ، وبالع في تانيسي ، وشاورني في مهمّات  
أموره ؛ ثم ردّني الى تونس ، وأوعز الى نائبه بها مولاه فارح  
بتهيئة المنزل ، والكفاية في الجراية ، والعلوفة ، وجزيل  
الأحسان ؛ فرجعت الى تونس في شعبان من السنة ، وآويت الى  
ظلّ ظليل من عناية السلطان وحرّمته ، وبعثت عن الأهل  
والولد ، وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة ، وأقيت عصا التسيار ؛  
وطالت غيبة السلطان الى أن افتتح أمصار الجريد ، وذهب  
فلهم في النواحي ، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول<sup>(١)</sup> ببسكرة ،  
ونزل على صهره ابن مزني ، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده ،  
فأنزل ابنه محمد المنتصر بتوزر<sup>(٢)</sup> ، وجعل نفطة ، ونفزاوة<sup>(٣)</sup> من  
أعماله ، وأنزل ابنه أبابكر بقفصة ، وعاد الى تونس مظفراً ، ماهداً ،

(١) يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول أمير توزر . يرجع نسبهم - فيما يقولون - الى تنوخ من  
طوابع العرب الداخلة للمغرب . وقد ضبط ابن خلدون « يملول » بفتح الياء وسكون الميم ، وضم  
اللام بعدها واو ، فلام ؛ وتنطق اليوم املول بهمزة مكسورة بدل الياء ؛ وهي قاعدة صوتية  
تكاد تطرد في النطق المغربي فيما أوله ياء ، وما قبل آخره حرف مد ؛ فيقولون في مثل : يكون ،  
ويدوم ، وينام : اكون ، ادوم ، انام - بهمزات مكسورات بدل الياء .

(٢) توزر : ضبطها ابن خلدون بضم التاء ، ( وفي ياقوت بفتحها ) ، وسكون الواو بعدها  
زاي مفتوحة : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لشط الجريد ، Chatt El-Djerid ، بينها وبين نفطة  
عشرة فراسخ ( مرحلة ) .

(٣) نفزاوة . ضبطها ابن خلدون بفتح النون ( وفي ياقوت بكسرها ) ، ويتفقان على تسكين  
الفاء ، وفتح الزاي المتلوة بألف ، ثم واو مفتوحة تليها هاء . وهي مدينة من مدن الجريد أيضاً ،  
وبينها وبين نفطة مرحلة واحدة .

فأقبل عليّ ، واستدّ ناني لمجالسته ، والنّجّيّ في خلّوته ، فنصّ  
بطانته بذلك ، وأفاضوا في السّعايات عند السلطان فلم تُنجح ؛  
وكانوا يعكفون على إمام الجامع ، وشيخ الفُتيا ، محمد بن عرفة<sup>(١)</sup> ،  
وكانت في قلبه نُكْتةٌ من الغيرة من لدُن اجتماعنا في المرّبي  
بمجالس الشيوخ ، فكثيراً ما كان يظهرُ شفو في<sup>(٢)</sup> عليه ، وإن كان  
أسنّ مني<sup>(٣)</sup> ، فاسودّت تلك النُّكْتة في قلبه ، ولم تُفارقْه . ولما قدّمت  
تونس انشال عليّ طلبه العِلْم من أصحابه وسواهم ؛ يطلبون  
الافادة والاشتغال ، واسعفتهم بذلك ، فعظم عليه . وكان يُسرُّ  
التنفير الى الكثير منهم فلم يقبلوا ، واشتدّت غيْرته ،  
ووافق ذلك اجتماعُ البطانة إليه ، فاتّفقوا على شأنهم في التّأليب  
عليّ ، والسّعاية بي ، والسُّلطان خلال ذلك مُعرّض عنهم  
في ذلك ، وقد كلفني بالاكّباب على تأليف هذا الكتاب  
لتشوّيه إلى المعارف والاخبار ، واقتناء الفضائل ، فأكملتُ

(١) او عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي ( ٧١٦ - ٨٠٣ ) . يتبوأ المكانة  
العالية بين علماء المالكية ؛ درس بالزيتونة ، وأم بها خمسين عاماً . دخل مصر حاجاً سنة ٧٩٢ هـ ،  
وأجاز ابن حجر العسقلاني ؛ وله تأليف .

(٢) النفوف هنا بمعنى الظهور والامتيّاز . وفي لسان العرب : شف عليه شفوفاً اذا زاد او  
نقص - وهي من الأضداد - وهنا بمعنى الزيادة .

(٣) ولد ابن عرفة قبل ابن خلدون بست عشرة سنة ، حيث كانت ولادته عام ٧١٦ ، وولادة

ابن خلدون عام ٧٣٢ .

منه أخبار البربر ، وزناته . وكتبت من أخبار الدولتين  
وما قبل الاسلام ما وصل إليّ منها ، وأكملت منه نسخة  
رفعتها إلى خزانته . وكان ممّا يُغرون به السلطان عليّ ،  
قعودي عن امتداحه ، فإني كنت قد أهملت الشعر  
وانتجاله جملة ، وتفرغت للعلم فقط ، فكانوا يقولون له  
إنما ترك ذلك استهانةً بسطانك ، لكثرة امتداحه للملوك  
قبلك ، وتذسّمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من  
بطانتهم ؛ فلهذا رفعت له الكتاب ، وتوّجّته باسمه ، أنشدته  
ذلك اليوم ، هذه القصيدة أمدحُه ، وأذكر سيره  
وفتوحاته ، وأعتذر عن انتحال الشعر ، وأستعطفه بهدية  
الكتاب إليه ؛ وهي هذه :

هال غير بابيك للغريب مؤمّل<sup>١</sup> أو عن جنابك للأمان مَعْدِلُ  
هي همةٌ بعثت إليك على النوى عزماً كما شحذ الحسام الصيقل<sup>(١)</sup>  
مُتَبَوِّأُ الدُّنْيَا وَمُنْتَجَعُ الْمَنَى وَالغَيْثُ حَيْثُ الْعَارِضُ الْمُتَهَلِّلُ  
حَيْثُ الْقُصُورُ الزَّاهِرَاتُ مَنِيفَةٌ تُغْنِي بِهَا زُهْرُ النُّجُومِ وَتُحْفِلُ

(١) الصيقل ( كبحدر ) : شحاذ السيوف ، وجلّاؤها .

حيثُ الحيامُ البيضُ يُرَفَعُ للعُلاَ والمكرُماتِ طِرافُها<sup>(١)</sup> المتهدِّلُ  
حيثُ الحمى للعزِّ في سَاحاتِه ظلُّ أفاءتِه الوَشيجُ الذُّبُلُ<sup>(٢)</sup>  
حيثُ الكرامُ يُنوبُ عَن نارِ القِرى عَرَفُ الكِباءِ بِحِجِّهم والمندَلُ<sup>(٣)</sup>  
حيثُ الرِّماحُ يَكادِ يورِقُ عودُها مِمَّا تُعَلُّ منَ الدِّماءِ وتُنهَلُّ  
حيثُ الجيادُ أَمْلَهُنَّ بَنُو الوَغى مِمَّا أَطالوا في المَغارِ وأوْغَلوا  
حيثُ الوجوهُ الغُرُّ قَنَعَهَا الحِيا والبِشرُ في صَفَحَاتِها يَتَهَلَّلُ  
حيثُ الملوِكُ الصِّيدُ والنَّفَرُ الألى عزُّ الجِوارِ لَدِيهمُ والمِـنـزَلُ  
من شِيعَةِ المَهدِي بل من شِيعَةِ التَّوْحِيدِ<sup>(٤)</sup> جاءَ بِهِ الكِتابُ يَفْصَلُ  
بل شِيعَةِ الرَّحْمَنِ أَلْقَى حَبَّهم في خَلْقِه فَسَمَوْا بِذاكِ وَفَضَّلُوا  
شَادُوا على التَّقوى مَبَانِي عَزَّهم اللهُ ما شَادُوا بِذاكِ وَأَثَلُوا

(١) الطراف : بيت من آدم ؛ والطراف من الخباء : ما رفعت من نواحيه لتبظر الى خارج

— قاموس .

(٢) الوشيج : أصلب القنا . والذبل ، جمع ذابل ؛ وهو القنا الدقيق اللاصق القشر ؛ وذلك

أمتن ما يكون .

(٣) الكباء : المتبخر به كالمندل .

(٤) يريد مهدي الموحدين ؛ وهو محمد بن تومرت ، مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب .

وقد جعل أصل دعوته ففي التجسيم الذي آل اليه مذهب أهل المغرب حيث تركوا التأويل

في المتشابه من النصوص الشرعية ؛ وسى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . العبر م ٦ .

قَوْمٌ أَبُو حَفْصٍ<sup>(١)</sup> أَبٌ لَهُمْ وَمَا أَدْرَاكَ الْفَارُوقُ<sup>(٢)</sup> جَدُّ أَوَّلُ  
 نَسَبٍ كَمَا أَطْرَدَتْ أَنْيَابُ الْقَنَّا<sup>(٣)</sup> وَأَتَى عَلَى تَقْوِيمِهِنَّ مُعَدِّلُ  
 سَامٍ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ لِلْفَخْرِ تَاجٌ بِالْبُدُورِ مُكَلَّلُ  
 فَخَلَّ الْأَنَامَ حَدِيثُهُمْ وَقَدِيمُهُمْ وَلَا أَنْتَ إِنْ فَضَلُوا أَعَزُّ وَأَفْضَلُ  
 وَبَنَوْا عَلَى قَلَلِ النُّجُومِ وَوُطِدُوا وَبَنَازُكَ الْعَالِي أَشَدُّ وَأَطْوَلُ

...

وَلَقَدْ أَقُولُ لِحَائِضِ بَحْرِ الْفَلَا وَاللَّيْلِ مُزَبَدُ الْجَوَانِبِ أَلِيلُ<sup>(٤)</sup>  
 مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدُّجَى لَا يَتَّبِعِي تَيْهًا وَذَايِلُهُ ذِبَالُ<sup>(٥)</sup> مُشْعَلُ  
 مُتَقَلِّبٍ فَوْقَ الرِّحَالِ كَأَنَّهُ طَيْفٌ بِأَطْرَافِ الْمِهَادِ مُوَكَّلُ  
 يَبْغِي مَنَالَ الْفَوْزِ مِنْ طُرُقِ الْغِنَى وَيَرُودُ مُخَصَّبَهَا الَّذِي لَا يُنْجِلُ  
 أَرْحَ الرِّكَابِ فَقَدْ ظَفِرَتْ بِوَاهِبِ

يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعِمِينَ فَيُجْزِلُ

(١) هو أبو حفص عمر بن عبد الله الصنهاجي ، ويعرف بأزناج ، وعمر ومزال ؛ وكان يسمى قبل « فصكة » ، أو « فار صكات » ، فسماه ابن تومرت عمر ويعرفونه بعمر انيتي ، من أهل تينمل من قبيلة مسكالة . كان من أوائل أصحاب ابن تومرت منشيء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن علي واليه تنسب الدولة الحفصية . العبر م ٦ ، المعجب ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) ذكر ابن خلدون في العبر ٢٧٥/٦ : أن نسب الحفصيين ينتهي إلى عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين وإلى ذلك يشير هنا .

(٣) أنبوب الرمح ، والقصة : كعبهما . والجمع أنياب .

(٤) بحر مزبد : مائج يقذف بالزبد ؛ والكلام على التوسع . وليل أليل : شديد طول .

(٥) الذابل : القنا الدقيق اللاصق الليط . والذبال ، جمع ذبالة ؛ وهي الفتيله .



لله من 'خلق' كرم في الندي كلروض حياه 'ندي' 'مخضل'  
 هذا أمير المؤمنين إمامنا في الدين والدنيا إليه الموثل  
 هذا أبو العباس خير خليفة شهدت له الشيم التي لا تجبل  
 مستنصر بالله في قهر العدا وعلى إعانة ربه متوكل  
 سبق الملوك الى العلا متمهلاً لله منك السابق المتهمل  
 فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا يتسابقون الى العلاء وأكمل  
 قايس قديماً منكم بقديهم فالأمر فيه واضح لا يجهل  
 دانوا لقومكم بأقوم طاعة هي عروة الدين التي لا تفصل  
 سائل تلمساناً بها وزناة ومرين قبلهم كما قد ينقل  
 وأسأل بأندلس مدائن ملكها

تخبرك حين استيأسوا واستوهلوا  
 وأسأل بذا مرأ كشاً وقصورها ولقد تجيب رؤسوها من يسأل

..

يا أيها الملك الذي في نعته ملء القلوب وفوق ما يتمثل  
 لله منك مؤيد ، عزماته تمضي كما يمضي القضاء المرسل

جِئْتَ الزَّمانَ بِحَيْثُ أُعْضِلَ خَطْبُهُ فَاْفْتَرَ عَنْهُ وَهُوَ أَكْلَحُ أُعْصَلُ<sup>(١)</sup>  
وَالشَّمْلُ مِنْ أُنْبَائِهِ مُتَصَدِّعٌ وَحِمَى خِلَافَتِهِ مُضَاعٌ مُهْمَلٌ  
وَالْخَلْقُ قَدْ صَرَفُوا إِلَيْكَ قُلُوبَهُمْ

وَرَجَوْا صَلاَحَ الْحَالِ مِنْكَ وَأَمَلُوا  
فَعَجِلَتَهُ لَمَّا انْتَدَبْتَ لِأَمْرِهِ بِالْبَأْسِ وَالْعَزْمِ الَّذِي لَا يُنْهَلُ  
ذُلَّتْ مِنْهُ جَامِحاً لَا يَنْشِي سَهَّلَتْ وَغَرّاً كَادَ لَا يَتَسَهَّلُ  
وَأَلَنْتَ مِنْ شَرِّسِ الْعَتَاةِ وَذُدْتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي قَدْ حَلُّوا  
كَانَتْ لِمَصُولَةِ صَوْلَةٍ وَلِقَوْمِهِ يَعْدُوا وَاذْؤَيْبُ بِهَا وَتَسْطُو الْمَعْقِلُ  
وَمُهْلِيلُ تَسْدِي وَتُلْجِمُ فِي الَّتِي مَا أَحْكَمُوهَا بَعْدُ فَهِيَ مَهْلِيلُ

المراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة امير اولاد ابي الليل .  
وذؤيب : هو ابن عمه أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب من  
أحلافهم . ومهلل : هم بنو مهليل بن قاسم انظارهم  
وأقتالهم<sup>(٢)</sup> . ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى وَصْفِ الْعَرَبِ وَأَحْيَائِهِمْ :

عَجِبَ الْأَنَامُ لِمُشَايَرِهِمْ بِأَدُونٍ قَدْ قَذَفَتْ بِحِجَّتِهِمُ الْمَطِيَّ الدَّلُّ

(١) الكلوح : تكسر في عبوس ، ودهر كالح على المثل . وأعصل : معوج شديد ملتو .

(٢) انظار : جمع نظر ؛ كمثل وزناً ومعنى . والاقبال : جمع قتل ( بكسر القاف ) ؛ وهو القرن في القتال وغيره .

رَفَعُوا الْقِبَابَ عَلَى الْعِمَادِ وَعِنْدَهَا <sup>(١)</sup> الْجُرْدُ السَّلَاحُ <sup>(٢)</sup> وَالرِّمَاحُ الْعُسَلُ <sup>(٣)</sup>  
 فِي كُلِّ ظَامِي التُّرْبِ مَتَقِدِ الْحَصَى تَهْوِي لِلْجَيْتِ الظِّمَاءِ فَتَنْهَلُ  
 جَنُّ شَرَابِهِمُ السَّرَابُ وَرَزَقَهُمْ رُمَحٌ يَرُوحُ بِهِ الْكَمِيُّ وَمَنْصُلُ  
 حَيٍّ حُلُولٌ بِالْعَرَاءِ وَدُونَهُمْ قُذُفُ النَّوَى <sup>(٤)</sup> إِنْ يَظْعَنُوا أَوْ يُقْبِلُوا  
 كَانُوا يَرُوعُونَ الْمُلُوكَ بِمَا بَدَوْا وَغَدَتْ تَرْفَهُ بِالنَّعِيمِ وَتَخَضَّلُ  
 فَبَدَوَتْ لَا تَلْوِي عَلَى دَعَةٍ وَلَا تَأْوِي إِلَى ظِلِّ الْقُصُورِ تَهْدِلُ  
 طَوْرًا يُصَافِحُكَ الْهَجِيرُ وَتَارَةً فِيهِ بِخَفَاقِ الْبُنُودِ تُظَلِّلُ  
 وَإِذَا تُعَاطِي ضَمْرًا يَوْمَ الْوَعَى كَأْسَ النَّجِيعِ فَبِالضَّهْلِ تُعَلِّلُ  
 مُخْشَوْنَنَا فِي الْعِزِّ مُعْتَمِلًا لَهُ فِي مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ الْمُسْتَعْمَلُ  
 تَفْرِي حَشَا الْبَيْدَاءِ لَا يَسْرِي بِهَا رَكْبٌ وَلَا يَهْوِي إِلَيْهَا جَحْفَلُ  
 وَتَجْرُ أَذْيَالُ الْكَتَائِبِ فَوْقَهَا تَخْتَالُ فِي السُّمْرِ الطَّوَالِ وَتَرْفُلُ  
 تَرْمِيهِمْ مِنْهَا بِكُلِّ مَدَجِّجٍ شَاكِي السِّلَاحِ إِذَا اسْتَعَارَ الْأَعْزَالَ  
 وَبِكُلِّ أَسْمَرَ غَضْنُهُ مَتَأَوَّدٌ وَبِكُلِّ أُنْيَضَ شَطُّهُ مُتَهَدِّلُ  
 حَتَّى تَفَرِّقَ ذَلِكَ الْجَمْعُ الْأُلَى عَصَفَتْ بِهِمْ رِيحُ الْجِلَادِ فزُلُّوا  
 ثُمَّ اسْتَمَلَتْهُمْ بِأَنْعُمِكَ الَّتِي خَضَعُوا لِعِزِّكَ بَعْدَهَا وَتَذَلَّلُوا  
 وَنَزَعْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَرِيدِ غَوَايَةَ كَانَتْ بِهِمْ أَبَدًا تَجْدُ وَتَهْزِلُ

(١) السَّلاَاحُ ، جمع سَلَابٍ : وهو الطَّوِيلُ الْعَظِيمُ مِنَ الْخَيْلِ .

(٢) رُمَحٌ عَاسِلٌ : لَدُنْ مُضْطَرَبٍ ؛ وَالْجَمْعُ عُسَلٌ .

(٣) نِيَّةٌ قُذْفٌ ( بَضْمَتَيْنِ ) : بَعِيدَةٌ . وَالنَّوَى ، وَالنِّيَّةُ : الْوَجْهُ بِنُورِهِ الْمُسَافِرُ مِنْ قَرَبِ

أَوْ بَعْدَ . وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ .

خَرَّبْتَ مِنْ بُنْيَانِهَا مَا شِيدُوا      وَقَطَعْتَ مِنْ أَسْبَابِهَا مَا أَصْلُوا  
وَنَظَّمْتَ مِنْ أَمْصَارِهِ وَتُغُورِهِ      لِلْمُلْكِ عِقْدًا بِالْفُتُوحِ يُفْصَلُ  
فَسَدَدْتَ مُطْلَعَ النِّفَاقِ وَأَنْتَ لَا      تَنْبُو ظَبَاكَ وَلَا الْعَزِيمَةَ تَنْكُلُ<sup>(١)</sup>  
بِشَكِيمَةٍ مَرُهَوْبَةٍ وَسِيَّاسَةٍ      تَجْرِي كَمَا يَجْرِي 'فِرَات' سَدْسَلُ  
عَذْبِ الزَّمَانِ لَهَا وَلَذَّ مَذَاقِهِ      مِنْ بَعْدِ مَا قَدَرَّ مِنْهُ الْخَنْظَلُ  
فَضَوَى الْأَنَامُ لِعِزِّ أَرْوَاحِ مَا لَكَ      سَهْلِ الْخَلِيقَةِ ، مَا جَدَّ مُتَفَضِّلُ  
وَتَطَابَقَتْ فِيكَ الْقُلُوبُ عَلَى الرَّضَى      سَيَّانَ مِنْهَا الطِّفْلِ وَالْمُتَكَهِّلُ  
يَا مَالِكًا وَسِعَ الزَّمَانُ وَأَهْلَهُ      دَعَا وَأَمْنًا فَوْقَ مَا قَدَّ أَمَلُوا  
فَالْأَرْضُ لَا يُخْشَى بِهَا غُولٌ وَلَا      يَعْدُو بِسَاحَتِهَا الْهَزَبُ الْمُشْبِلُ  
وَالسَّفَرُ يَجْتَأُونَ كُلُّ تَنْوَفَةٍ<sup>(٢)</sup>      سِرْبِ الْقَطَا مَا رَاعَهُنَّ الْأَجْدَلُ<sup>(٣)</sup>  
سُبْحَانَ مَنْ يَمْلَأُكَ قَدْ أَحْيَا الْمُنَى      وَأَعَادَ حَلِيَّ الْجِيدِ وَهُوَ مُعْطَلُ  
سُبْحَانَ مَنْ يَهْدَاكَ أَوْضَحَ لِلْوَرَى

قَصْدَ السَّبِيلِ فَأَبْصَرَ الْمُتَأَمِّلُ<sup>(٤)</sup>

فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا عَرُوسٌ تُجْتَلَى      فَتَمِيسُ فِي حُلَلِ الْجَمَالِ وَتَرْفُلُ  
وَكَأَنَّ مُطَبَّعَةَ الْبِلَادِ يَعْدِلُهُ      عَادَتُ فَسِيحًا لَيْسَ فِيهِ مَجْهَلُ  
وَكَأَنَّ أَنْوَارَ الْكَوَاكِبِ ضَوْعَفَتْ      مِنْ نُورِ غُرَّتِهِ الَّتِي هِيَ أَجْمَلُ

(١) تنكل : تجبن ، وتنكص

(٢) التَّنَوُّفَةُ : القفر من الأرض لا ماء فيه .

(٣) الاجدل : الصقر .

(٤) سقط هذا البيت من إحدى النسخ .

وَكَاثِمًا رُفِعَ الْحِجَابُ لِنَظَرٍ فَرَأَى الْحَقِيقَةَ فِي الَّذِي يَتَخَيَّلُ  
ومنها في العذر عن مدحه :

مَوْلَايَ غَاظَتْ فِكْرَتِي وَتَبَلَّدَتْ مَنِّي الطَّبَاعُ فَكُلُّ شَيْءٍ مُشْكِـلٌ  
تَسْمُو إِلَى دَرَكِ الْحَقَائِقِ هَمَّتِي فَأُصِدُّ عَنْ إِدْرَاكِ كَهْنٍ وَأُعْزَلُ  
وَأَجِدُّ لَيْلِي فِي أَمْتِرَاءٍ قَرِيبَتِي<sup>(١)</sup> وَتَعُودُ غَوْرًا بَيْنَمَا تَسْتَرْسِلُ  
فَأَيَّتُ يَعْتَدِجُ الْكَلَامُ بِخَاطِرِي وَالنَّظْمُ يَشْرُدُ وَالْقَوَافِي تُجْفِلُ  
مَنْ بَعْدَ حَوْلٍ أَنْتَقِيهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الشَّعْرِ حَوْلِي يُعَابُ وَيُهْمَلُ<sup>(٢)</sup>  
فَأُصُونُهُ عَنْ أَهْلِهِ مُتَوَارِيًا أَنْ لَا يَضُمَّهُمْ وَشِعْرِي مَحْفِلُ  
وَهِيَ الْبِضَاعَةُ فِي الْقَبُولِ نَفَاقًا سَيَّانَ فِيهَا الْفَحْلُ وَالْمَتَطَفَّلُ  
وَبَنَاتُ فِكْرِي إِنْ أَتَتْكَ كَلِيلَةٌ مَرَهَاءُ<sup>(٣)</sup> تَخْطُرُ فِي الْقُصُورِ وَتَخْطُلُ  
فَلَهَا الْفَخَارُ إِذَا مَنَحْتَ قُبُولَهَا وَأَنَا عَلَى ذَاكَ الْبَلِيغِ الْمِقُولُ

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف لخزائنه :

وَإِلَيْكَ مِنْ سِيرِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ عِبْرًا يَدِينُ بِفَضْلِهَا مَنْ يَعْدِلُ  
صُحُفًا تُتَرَجَّمُ عَنْ أَحَادِيثِ الْأَلَى غَبَرُوا فَتُجْمِلُ عَنْهُمْ وَتُقْصَلُ

(١) امتراء القريجة : استدراها .

(٢) يشير الى ما عرف عن زهير بن ابى سلمى الشاعر ، من انه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لانه كان يحوك القصيدة في سنة .

(٣) امرأة مرهاء : غير مكتحة ؛ وعين مرهاء : خالية من الكحل . ويريد أن قصيدته هذه ، تنقصها الزينة والاحتفال .

تُبْدِي التَّبَاعُ وَالْعَمَالِقُ سِرَّهَا وَثُمُودُ قَبْلَهُمْ وَعَادُ الْأَوَّلُ  
وَالْقَائِمُونَ بِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مُضَرٍّ وَبَرٍّ بَرِهِمْ إِذَا مَا حَصَلُوا  
لَخَصَّتْ كُتُبَ الْأَوَّلِينَ لَجْمَعِهَا وَأَتَيْتُ أَوَّلَهَا بِمَا قَدْ أَغْفَلُوا  
وَأَلَنْتُ حَوْشِي الْكَلَامِ كَأَنَّا شُرُدُ اللُّغَاتِ بِهَا لِنُطْقِي ذُلُّ  
أَهْدَيْتُ مِنْهُ إِلَى عِلَاكَ جَوَاهِرًا مَكُونَةً وَكَوَاكِبًا لَا تَأْفُلُ  
وَجَعَلْتُهُ لَصَوَانٍ مُلْكِكَ مَفْخَرًا

يَبْأَى<sup>(١)</sup> النَّدَى بِهِ وَيَزُوهُ الْمَحْفِلُ  
وَاللَّهُ مَا أَسْرَفْتُ فِيمَا قُلْتُهُ شَيْئًا وَلَا الْأَسْرَافُ مِمَّا يَجْمَلُ  
وَلَأَنْتَ أَرْسَخُ فِي الْمَعَارِفِ رُتَبَةً مِنْ أَنْ يُمَوِّهَ عِنْدَهُ مَتَطَفَّلُ  
فِيْلَاكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَحَقِيقَةٍ بِيَدَيْكَ تَعْرِفُ وَضَعَهَا إِنْ بَدَّلُوا  
وَالْحَقُّ عِنْدَكَ فِي الْأُمُورِ مُقَدَّمٌ أَبَدًا فَمَاذَا يَدْعِيهِ الْمُبْطِلُ  
وَاللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا فَاحْكُمْ بِمَا تَرْضَى فَأَنْتَ الْأَعْدَلُ  
أَبْقَاكَ رَبُّكَ لِلْعِبَادِ تَرْبُهُمْ فَاللَّهُ يَخْلُقُهُمْ وَرَعِيكَ يَكْفُلُ

وَكُنْتُ لَمَّا انْصَرَفْتُ عَنْهُ مِنْ مَعَسَاكَرِهِ عَلَى سُوسَةَ إِلَى تُونِسَ ،  
بَلَّغَنِي - وَأَنَا مُقِيمٌ بِهَا - أَنَّهُ أَصَابَهُ فِي طَرِيقِهِ مَرَضٌ ، وَعَقِبَهُ إِبْلَالٌ ،  
فَخَاطَبْتُهُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

(١) يَبْأَى : بِفَخْرٍ .

ضحكت وُجوهُ الدَّهْرِ بعدُ بوس وتجلَّاتنا رحمةً من بوس  
 وتوضحت غرر البشائر بعد ما انبهمت فأطلعتها حداة العيس<sup>(١)</sup>  
 صدعوا بها ليل الهموم كأنها صدعوا الظلام بجذوة المقبوس  
 فكأنهم بثوا حياة في الوري نشرت لها الآمال من مرموس<sup>(٢)</sup>  
 قرَّت عيون الخلق منها بالتي أضفت من النعماء خير لبوس  
 فكان قومي نادمتهم قرقف<sup>(٣)</sup> شربوا النعيم لها بغير كؤوس  
 يتمايلون من المسرة والرضى ويقابلون أهلة بشموس  
 من راكب وافى يحمي راكبا وجليس أنس قاده جليس  
 ومشفع لله يؤنس عنده أثر الهدى في المعبد المأنوس  
 يعتد منها رحمة قدسية فيبوء للرحمن بالتقديس  
 طب بإخلاص الدعاء وإنه يشفي من الداء العيا ويوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم ، جامع الزيتونة بتونس .  
 يا ابن الخلائف والذين بنورهم نهجت سبيل الحق بعد دروس  
 والناصر الدين القويم بعزيمة طرد استقامتها بغير عكوس  
 هجر المنى فيها ولذات المنى في لذة التهجير والتغليس<sup>(٤)</sup>

(١) جمع أعيس ، او عيساء ؛ وهي التي في لونها أدمة .

(٢) المرموس : القبور .

(٣) القرقف : الخمر .

(٤) التهجير الى الصلاة : التبكير والمبادرة اليها ؛ وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا اليه . والتغليس : السير الى صلاة الصبح وقت الفلح ، وهو ظلة آخر الليل .

حَاطَ الرِّعْيَةَ بِالسِّيَاسَةِ فَانْضَوْتَ مِنْهُ لَا كَرَمٍ مَالِكٍ وَسَوْؤُسُ  
 أَسَدٍ يُحَامِي عَنْ حِمَى أَشْبَالِهِ حَتَّى ضَوُّوا مِنْهُ لِأَمْنٍ خَيْسٍ<sup>(١)</sup>  
 قَسَمًا بِمَوْثِي الْبِطَاحِ وَقَدْ غَدَتِ تَحْتَالُ زَهْوًا فِي ثِيَابِ عُرُوسِ  
 وَالْمَائِلَاتِ مِنَ الْخَنَازِيَا جُشْمًا يُخْبِرُنَ عَنْ طَسَمٍ وَفَلَّ جَدِيسٍ<sup>(٢)</sup>  
 خَوْصٌ<sup>(٣)</sup> مُضْمَرَةُ الْبُطُونِ كَأَنَّهَا أَنْضَاءُ<sup>(٤)</sup> رَكَبٍ فِي الْفَلَاةِ حَيْسٍ<sup>(٥)</sup>  
 وَخَزَّ الْبَلَى مِنْهَا الْغَوَارِبُ وَالذُّرَى

فَلَفْتَنَ خَزْرَاءَ بِالْعَيُونِ الشُّوسِ<sup>(٦)</sup>

لَبَقَاكَ حِرْزَ الْأَنَامِ وَعَصْمَةَ وَحْيَاةٍ أَرْوَاحٍ لَنَا وَنُفُوسِ  
 وَلَأَنْتَ كَافِلٌ دِينَنَا بِحِمَايَةٍ لَوْلَاكَ ضَيِّعَ عَهْدُهَا وَتُنُوسِي  
 اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا وَحِبَاكَ حَظًّا لَيْسَ بِالْمُوكُوسِ<sup>(٧)</sup>  
 تَعْنُو الْقُلُوبُ إِلَيْكَ قَبْلَ وَجُوهِنَا سَيَّانَ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ مَرْءٍ وَسِ  
 فَإِذَا أَقْمَتَ فَإِنَّ رُعْبَكَ رَاحِلٌ يُجْنِي عَلَى الْأَعْدَاءِ كُلِّ وَطِيسِ

(١) ضووا : لجأوا ، والخيس : موضع الأسد .

(٢) طسم وجديس : حيان من العرب البائدة ؛ كان مسكنها البحرين ، واليامة . وقد أوقع حسان بن تبع بقبيلة جديس ، وإلى ذلك ينظر ابن خلدون . الطبري ٣٨/٢ - ٣٩ .

(٣) خوص : لونها اشهب ، مثلها يصبح لون الرأس عندما يستوي فيه سواد الشعر وبياضه . لسان العرب .

(٤) جمع نضو ؛ وهو المهزول .

(٥) حيس : محبوس .

(٦) الغوارب : جمع غارب ، وهو مقدم سنام البعير . والذرى : جمع ذروة ؛ وهي أعلى سنام البعير ؛ يعني أن البلى قد عمها . والشوس : النظر بمؤخر العين غيظا وغضباً .

(٧) الموكوس : المنقوص .



وَإِذَا رَحَلْتَ فَلِلسَّاعَةِ آيَةً تَقْتَادُهَا فِي مَوْكِبٍ وَخَمِيسٍ  
وَإِذَا الْأَدِلَّةُ فِي الْكَمَالِ تَطَابَقَتْ جَاءَتْ بِمَسْمُوعٍ لَهَا وَمَقِيسٍ  
فَأَنْعَمَ بِمُلْكِكَ دَوْلَةً عَادِيَةً<sup>(١)</sup> تُشْقِي الْأَعَادِي بِالْعَذَابِ الْبَيسِ

..

وَإِلَيْهَا مَنِّي عَلَى خَجَلٍ بِهَا عِذَاءٌ قَدْ حَلَيْتُ بِكُلِّ نَفِيسٍ  
عُذْرًا فَقَدْ طَمَسَ الشَّبَابُ وَنُورُهُ وَأَضَاءُ صُبْحِ الشَّيْبِ عِنْدَ طُمُوسٍ  
لَوْلَا عِنَايَتُكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي مَا كُنْتُ أُعْنَى بَعْدَهَا بِطُرُوسٍ  
وَاللَّهِ مَا أَبَقْتُ مُمَارَسَةَ النَّوَى مَنِّي سِوَى مَرَسِ أَحْمَ<sup>(٢)</sup> دَرِيسٍ  
أَنْحَى الزَّامَانَ عَلَيَّ فِي الْأَدَبِ الَّذِي دَارَسْتُهُ بِمَجَامِعٍ وَدُرُوسٍ  
فَسَطًا عَلَى وَفْرِي وَرَوْعَ مَا مَنِي وَأَجْتَحْتُ مِنْ دَوَحِ النَّشَاطِ غُرُوسِي  
وَرِضَاكَ رَحْمَتِي الَّتِي أَعْتَدْتُهَا تُحْيِي مَنِّي نَفْسِي وَتُذْهِبُ بُوسِي

ثُمَّ كَثُرَتْ سَعَايَةُ الْبِطَانَةِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّعَايَاتِ ، وَابْنُ  
عَرَفَةَ يَزِيدُ فِي إِغْرَائِهِمْ مَتَى اجْتَعَمُوا إِلَيْهِ ، إِلَى أَنْ أَغْرَاوا السُّلْطَانَ  
بِسَفَرِي مَعَهُ ، وَلَقَّنُوا النَّائِبَ بَتُونِسَ الْقَائِدَ فَارِيحَ مِنْ مَوَالِي  
السُّلْطَانَ أَنْ يَتَفَادَى مِنْ مُقَامَتِي مَعَهُ ، خَشْيَةً عَلَى أَمْرِهِ مِنْ بَزْغَمِهِ ،

(١) نسبة الى عاد، الامة المعروفة . ويريد أنها طويلة الامد .

(٢) المرس ( بفتح الميم والراء ) : الحبل . والاحم : الاسود . والدريس : الخاق ، البالي .

وتواطأوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان ، فشهد به في غيبة مني ، ونكر السلطان عليهم ذلك ، ثم بعث إليّ وأمرني بالسفر معه ، فسارعتُ إلى الامتثال ، وقد شق ذلك عليّ ، إلا أنني لم أجد مَحِيصاً [عنه] ، فخرجت معه ، وانتهيتُ إلى تَبَسَّة ، وسط تلّول إفريقية ، وكان منحدرًا في عساكره وتواليفه من العرب إلى توزر ؛ لأن ابن يَمْلُول كان أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين ، واستنقذها من يد ابنه ، فسار السلطان إليه ، وشرده عنها ، وأعاد إليها ابنه وأولياءه . ولما نهض من تَبَسَّة ، رجعتُ إلى تُونِس ، فأقمتُ بضيعتي الرّياحين من نواحيها لضمّ زُرُوعِي<sup>(١)</sup> بها ، إلى أن قفل السلطان ظافراً منصُوراً ، فصحبته إلى تُونِس .

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين ، أجمع السلطان الحركة إلى الزّآب ؛ بما كان صاحبه ابن مَزْنِي قد آوى ابن يَمْلُول إليه ، ومهد له في جواره ؛ فخشيتُ أن يعودَ في شأني ما كان في السّفرة قبلها . وكانت بالمرسى سفينة لتجار الاسكندرية قد شحنها التجار بأمّعتهم وعروضهم ، وهي مقلّعة إلى الاسكندرية ، فتطارحتُ على السلطان ، وتوسّلتُ إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي ،

(١) كذا ، وفي ب : لضم زراعتي .

فأذن لي في ذلك ، وخرجت الى المرسي ، والناس متسايلون علي  
أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم . فودعتم ، وركبت  
البحر منتصفا شعبان من السنة ، وقومت عنهم بحيث كانت  
الخيرة من الله سبحانه ، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار  
العلم ، والله ولي الأمور سبحانه .

## الرحلة الى المشرق ، وولاية القضاء بمصر

ولما رَحَلت من تُونس مُنتَصِفَ شعبان من سَنَةِ اربع وثمانين ،  
أقمنا في البحر نحواً من اربعين ليلة ، ثم وافينا مَرَسِي الاسكندرية  
يوم الفطر . ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر على التَّخت ،  
واقْتِعاد كُرْسِيِّ المُلْكِ دُونِ أهله بني قلاوُن ؛ وكُنَّا على ترُقُب  
ذلك ، لما كان يؤثِّرُ بِقَاصِيَةِ البلاد من سُمُوِّهِ لذلك ، وتمهيداً له .  
وأقمتُ بالاسكندرية شهراً لتهيئة اسباب الحج ولم يُقدَّرْ عامُئذ ،  
فانتقلتُ الى القاهرة اولَ ذي القعدة ، فرأيتُ حُضرةَ الدُّنيا ، وبُستان  
العالم ، ومحشَرَ الامم ، ومَدْرَجَ الذَّرِّ<sup>(١)</sup> من البشر ، وإيوان الاسلام ،  
وكُرْسِيَّ المُلْكِ ، تلوح القصور والأواوين في جوِّهِ ، وترَهَرُ  
الحوائِكُ<sup>(٢)</sup> والمدارس بأفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من  
علمائه ؛ قد مَثَلَ بِشَاطِئِ بحر النيل نهر الجنة<sup>(٣)</sup> ومدفع مياه السماء ،

(١) المدرج : الطريق . والذر : النمل الاحمر الصغير .

(٢) جمع خانقاه .

(٣) يشير ابن خلدون هنا الى ما يقص حول نهر النيل من انه احد انهار الجنة ، كدجلة  
والفرات ، وسيحان . خطط المقرئى ٨٠/١ - ٨١ طبع مصر سنة ١٢٣٤ . على ان ابن خلدون  
لم يلتفت الى هذا حين تحدث عن هذه الأنهار في مقدمته ؛ وقد نقد ياقوت هذه الاقاصيص بأنها  
« حديث خرافة » .

يَسْقِيهِمُ النَّهْلَ وَالْعَلَلَ سَيَحُهُ<sup>(١)</sup> وَيَجْنِي اليهم الثمرات والخيرات  
ثَجُهُ<sup>(٢)</sup> ؛ ومررتُ في سكك المدينة تغصُ بزحام المارة ، واسواقها  
ترخر بالنعم . وما زلنا نحدثُ عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران ،  
واتساع الاحوال ؛ ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا  
واصحابنا ، حاجيهم وتأجرهم ، بالحديث عنه . سألتُ صاحبنا قاضي  
الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ؛ أبا عبد الله المقرئ ، مقدّمه من  
الحج سنة اربعين ، فقلتُ له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم  
يرها لم يعرف عزّ الاسلام .

وسألتُ شيخنا ابا العباس ابن إدريس<sup>(٣)</sup> كبير العلماء ببجاية مثلَ  
ذلك فقال : كأننا انطلقَ اهلُه من الحساب ؛ يُشير الى كثرة أممه  
وأمنهم العواقب<sup>(٤)</sup> .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس ، الفقيهُ الكاتب ابو القاسم  
البرّجي بمجلس السلطان ابي عنان ، منصرفه من السفارة عنه الى

(١) السيج : الماء الجاري على وجه الارض .

(٢) الثج : الصب الكثير . وفي القرآن : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » وثجيج  
الوادي : سيله .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن إدريس البجائي المالكي المتوفى بعد سنة ٧٦٠ .

(٤) يقول المقرئ : « . . . قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون - رحمه الله  
تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » . الخطط ٧٩/١ طبع مصر سنة ١٣٢٤ .

ملوك مصر ، وتأدية رسالته النبوية <sup>(١)</sup> الى الضريح الكريم ، سنة  
ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال :

اقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : ان الذي يتخيله  
الانسان ، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل  
محسوس ، الا القاهرة ، فانها اوسع من كل ما يُتخيل فيها . فأعجب  
السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها ، أقمتُ اياماً ، وانثال عليّ طلبة العلم بها ، يلتمسون  
الافادة مع قلّة البضاعة ، ولم يُوسعوني عُذراً ؛ فجلستُ للتدريس  
بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبرّ اللّقاء ، وأُنس الغربة ، ووفّر  
الجرّاية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلي  
وولدي من تونس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السّفر ، اغتباطاً  
بعوّدي إليه ، فطلبتُ من السلطان صاحب مصر الشّفاعَةَ إليه في تخليّة

(١) هي رسالة اعتادوا ان يكتبوها في مناسبات مختلفة ، ويبعثوا بها الى قبر الرسول صلى  
الله عليه وسلم ؛ يحملها رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم .  
وفي نفع الطيب أمثلة لهذا النوع من الرسائل .

(٢) جاء في « السلوك » : « وفي هذا الشهر ( رمضان ) ، قدم شيخنا أبو زيد عبد الرحمن  
ابن خلدون من بلاد المغرب ، واتصل بالامير الطنبغا الجوباني وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ،  
فأقبل الناس عليه ، وأعجبوا به » .

سبيلهم ، فخاطبه في ذلك بما نصّه <sup>(١)</sup> :

بسم الله الرحمن الرحيم <sup>(٢)</sup> .

عبدُ الله وولِيّه أخوه برقوق <sup>(٣)</sup> [.....] <sup>(٤)</sup>

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السَّيد الأجلّ ، العالم  
العادل ، المؤيّد المجاهد ، المُرابط المُثاغر ، المظفّر ، الشّاهنشاه ، سيف  
الدُّنيا والدين ، سلطان الاسلام والمُسلمين ، مُحْيِي العدل في العالمين ،  
مُنصِف المظلومين من الظالمين ، وارث المُلك ، سلطان العرب والعجم  
والترك ، اسكندر الزّمان ، مولي الاحسان ، مُملِك أصحاب  
التخوت والأسرة والتيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطّغاة

(١) سقط نص هذه الرسالة في أكثر النسخ .

(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول  
عنها الفلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم المكتابة الى صاحب فاس ، وغيره من  
ملوك المغرب :

« ... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير  
بياض ، ما مثاله : « عبد الله ووليه » : ثم يخلى مقدار بيت العلامة ، ثم يكتب الالقاب الشريفة من  
أول السطر مساهما للبسملة ، وهي : السلطان الاعظم الخ » .

(٣) في خطط المقرئزي ٢١١/٢ بولاق : « واما البريد ، وخلص الحقوق والظلامات ،  
فانه ( السلطان ) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه : « اخوه فلان ، او  
والده فلان ، وأخوه » .

(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملي » ،  
وعمل ذلك الملوك بعده . خطط المقرئزي ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الاعشى  
٣٧٨/٧ .

والبُغاة والكفار ، مَلِكَ الْبَحْرَيْنِ ، مُسْلِكَ سَبِيلِ الْقَبْلَتَيْنِ ، خَادِمَ  
الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، ظَلَّ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمَ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، سُلْطَانَ  
الْبَسِيطَةِ مُؤَمِّنَ الْأَرْضِ الْمُحِيطَةِ ، سَيِّدَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، قَسِيمٌ<sup>(١)</sup>  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup> ، أَبُو سَعِيدٍ بَرُّقُوقِ ابْنِ الشَّهِيدِ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ  
أَبِي الْمَعَالِي أَنَسٍ<sup>(٣)</sup> . خَلَدَ اللَّهَ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جِيوشَهُ وَأَعْوَانَهُ —  
يَخْصُ الْحَضْرَةَ السَّنِيَّةَ السَّرِيَّةَ ، الْمَظْفَرَةَ الْمَيْمُونَةَ ، الْمَنْصُورَةَ الْمَصُونَةَ ،  
حَضْرَةَ السُّلْطَانَ الْعَالِمَ ، الْعَادِلَ الْمُؤَيَّدَ ، الْمُجَاهِدَ الْأَوْحَدَ ، أَبِي الْعَبَّاسِ ،  
ذُخْرَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، عُدَّةَ الدُّنْيَا وَالْدِينِ ، قُدُوةَ الْمُوَحِّدِينَ ،  
نَاصِرَ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ ، سَيْفَ جَمَاعَةِ الشَّاكِرِينَ ، صَلاحَ الدُّوَلِ . لَا  
زَالَتْ مَمْلَكَتُهُ بِقُوَّتِهِ عَامِرَةً ، وَمِهَابَتُهُ لِنَفُوسِ الْجَبَابِرَةِ قَاهِرَةً ، وَمَعْدَلَتُهُ  
تَبَوُّؤُهُ غُرُفَاتِ الْعِزِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . سَلامٌ صَفَا وَرَدُّهُ وَضَفَا  
بُرْدُهُ ، وَثَنَاءٌ فَاحَ نَدُّهُ ، وَلاَحَ سَعْدُهُ ، وَوَدَادٌ زَادَ وَجْدَهُ ، وَجَادَ  
جَدُّهُ .

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْقُلُوبَ اجْزَاءً مَجْنُودَةً ، وَاسْبَابَ الْوُدَادِ

(١) الْقَسِيمُ بِمَعْنَى الْقَاسِمِ ؛ وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَاسَمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَلِكِ ، وَسَاهَمَهُ فِي الْأَمْرِ ، فَصَارَ  
فِيهِ مَشْتَرِكِينَ . صَبْحُ الْأَعَشَى ٧/٦٥، ١١٣ .

(٢) هُوَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُعْتَصِدِ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِي . وَلِيَ سَنَةَ ٧٦٣ هـ  
وَامْتَدَّتْ أَيَّامُهُ ٤٥ سَنَةً ، حُبِسَ فِيهَا وَخُلِعَ ؛ وَمَاتَ سَنَةَ ٨٠٨ هـ . « تَارِيخُ الْخُلَفَاءِ »  
ص ٢٠٢، ٢٠٣ .

(٣) كَذَا ، وَهُوَ سَيْفُ الدِّينِ ابْنُ الْجُرْكَسِيِّ الْعُمَيْيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٨٣ هـ .



على البعاد مؤكدة ، ووسائل المحبة بين الملوكة في كل يوم مجددة ؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله ، الذي نصره الله بالرعب مسيرة شهر وأيّده<sup>(١)</sup> وأعلى به منار الدين وشيّد به وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤددّه ، صلاة دائمة مؤبّدة . فاننا نوضح لعالمه الكريم ، أن الله - وله الحمد - جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف واهله ، ورفع شأنه ، ونشر اعلامه ، ومحبة اهله وخدّامه ، وتيسير مقاصدهم ، وتحقيق املمهم ، والاحسان اليهم ، والتقرب الى الله بذلك في السر والعلانية ؛ فان العلماء رضي الله عنهم ورثة الانبياء وقرّة عين الاولياء ، وهداة خلق الله في ارضه ؛ لا سيما من رزقه الله الدراية فيما عليمه من ذلك ، وهداه للدخول اليه من احسن المسالك ، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس<sup>(٢)</sup> السامي ، الشّيخي ، الأجاّبي ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلي ، الاثيلي ، الاثيري ، الامامي ، العلّامي القدوة ، المقتدي ، الفريدي ، المحققي ، الأصيلي ، الاوحدى ، الماّجدي ، الوكّوي<sup>(٣)</sup> ، جمال الاسلام

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . ( كنوز الحقائق ) للمناوي .

(٢) هذا النوع من الحلى والالقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ؛ فالاولى : درجة « المقر » ؛ والثانية : درجة « الجناّب » ، والثالثة : درجة « المجلس » ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و « المجلس السامي » احد فروع درجة « المجلس » . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ١٥/٧ ، ١٥٤-١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى « ولي الدين » .

والمسلمين ، جمال العلماء في العالمين ، اوجد الفضلاء ، قدوة البلغاء ،  
 علامة الامة ، إمام الأئمة ، مفيد الطالبين ، خالصه الملوك والسلاطين<sup>(١)</sup>  
 عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أدام الله نعمته ؛ فانه أولى بالاكرام ،  
 وأحرى ، وأحقُّ بالرعاية وأجلُّ قدراً ؛ وقد هاجر الى ممالكنا الشريفة ،  
 وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحبباً  
 إلينا ، وتقرباً الى خواطرتنا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ،  
 وصفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يحلُّ عن  
 الوصف ويُربي على التعداد . ياله من غريبٍ وصفٍ ودار ، قد أتى  
 عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يُبالغ في شكر  
 الحضرة العلية ، ومدح صفاتها الجميلة ، الى ان استمال خواطرتنا الشريفة  
 الى حبِّها ، وآثرنا المكاتبة اليها .

« والعين تعشق قبل الاذن احياناً »<sup>(٢)</sup>

وذكر لنا في اثناء ذلك ، ان اهله واولاده ، في مملكة تونس

(١) اصطالحوا على ان يلحقوا بآء النسب بآخر الالقاب المفردة للبالغة في التعظيم ، ثم جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب ارفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان « الاجلي » و « القاضوي » ارفع رتبة من « الجلاي » ، و « القضائي » . صبح الاعشى ٧٨/٦ . ثم ان لهذه الالقاب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها الفلقشندي في صبح الاعشى ٧٣-٢٠/٧ .

(٢) عجز بيت لبشر بن برد ؛ وصدره — كما في الاغاني ١٩/٣ بولاق :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقه والاذن .....

تحت نظر الحضرة العلية ، وقصد إحضارهم اليه ليقيموا عنده ، ويجتمع  
شمله بهم مدة إقامته عندنا ، فاقترضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة الى  
الحضرة العلية لهذين السبيين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية  
بذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدِّمُ  
امره العالي بطلب اهل الشيخ ولي الدين المشار اليه ، وإزاحة  
اعذارهم ، وإزالة عوائقهم ، والوصية بهم ، وتجهيزهم اليه مُكرِّمين ،  
محترمين ، على اجل الوجوه صُحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف  
السالك الاوحد ، سعد الدين مسعود المكناسي ، الواصل بهذه المكاتبة  
اعزه الله ؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية ،  
مع توصية من بها من البحرية بمضايفة إكرام المشار اليهم ورعايتهم ،  
والتأكيد عليهم في هذا المعنى ، واذا وصل من بها من البحرية ، كان  
لهم الأمن والاحسان فوق ما في أنفسهم ، ويُرني على أملهم ؛ بحيث  
يَهْتَمُ بذلك على ما عُهد من محبته ، وجميل اعتياده ، مع ما يُتخف به  
من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباته . والله تعالى يجرُّسه بملائكته  
وآياته ، بِدَنِّهِ وَيُؤَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

كُتِبَ خَامِسَ عَشَرَ صَفَرِ الْمُبَارَكِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ  
حَسَبَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ  
وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية<sup>(١)</sup> بمصر ، من رَ قَف صلاح الدين بن أيُّوب ، فولاني تدرّسها مكانه<sup>(٢)</sup> ، وبيننا أنا في ذلك ، إذ سَخِطَ السلطانُ قاضي المالكية<sup>(٣)</sup> في دولته ، لبعض النزاعات فعزله ، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب ، يُدعى كلُّ منهم قاضي القضاة ، تمييزاً عن الحكّام بالنيابة عنهم ، لاتّساع خُطّة هذا المعمور ، وكثرة عوالمه ، وما يرتفعُ من الخصومات في جوانبه ؛ وكبيرُ جماعتهم قاضي الشافعية ، لعموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً ، وبالصَّعيد<sup>(٤)</sup> والفيوم<sup>(٥)</sup> ، واستقلاله بالنظر في أموال الأيتام ،

(١) كان موقع القمحية بجوار الجامع العتيق ( جامع عمرو ) بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل ، فهدمها صلاح الدين ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ورتب فيها مدرسين ، وجعل لها أوقافاً كانت منها ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان مدرسوها يتقاسمونه ، ولذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية . خطط المقرئزي ٣٦٤/٢ بولاق .

(٢) في السلوك في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفي ٢٥ محرم ، دّرس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضاً عن علم الدين سليمان البساطي بعد موته ، وحضر معه الأمير الطنبغا الجوباني ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة القضاة والأعيان » .

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكي ( ٧٢١ - ٧٩١ ) .

(٤) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشالي من قرب القاهرة ، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل الى أسوان الذي كان عندهم نهاية الصعيد الجنوبية ؛ وفيها بين أسوان ، واخميم ، كان الصعيد الأعلى ؛ ومن اخميم الى مدينة البهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل ، كان يسمى الصعيد الأوسط ؛ أما الصعيد الأدنى فكانت بدايته البهنسا ، ونهايته في الشمال ، قرب الفسطاط . ياقوت ٣٦٠/٥

(٥) تقع الفيوم المدينة المعروفة ، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون ، في الغرب من وادي النيل .

والوصايا ؛ ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له .

فلما عُزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين ، اختصني السلطان بهذه الولاية ، تأهيلاً لمكاني ، وتنوياً بذكرى ؛ وشافهته بالتفادي من ذلك ، فأبى إلا إمضاءه ؛ وخلع عليّ بياوانه ، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم<sup>(١)</sup> بالمدرسة الصالحية<sup>(٢)</sup> بين القصرين ، فقامت بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدي بما أمني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الحق لومة ، ولا يزُعي عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً في ذلك بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكّمين<sup>(٣)</sup> ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ؛ جانحاً الى التثبت في سماع البيّنات ، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب ملتبساً بالخبيث ، والحكّام منسكون عن انتقادهم ،

(١) في السلوك :

« وفي يوم الاثنين تاسع عشرة ( جمادى الثانية ) ، استدعي شيخنا ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون الى القلعة ، وفوض اليه السلطان قضاء المالكية ، وخلع عليه ، ولقب « ولي الدين » ، واستقر قاضي القضاة عوضاً عن جمال الدين عبد الرحمن بن خير ؛ وذلك بسفارة الأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس ، وقرىء تقليده في المدرسة الناصرية بين القصرين على العادة ؛ وتكلم على قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات ، والأرض والجبال الآية » .

(٢) نسبة الى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) كذا بالاصول ؛ والمراد « المختكمين » .

مُتَجَاوِزُونَ عَمَّا يَظْهَرُونَ عَلَيْهِ مِنْ هَنَاتِهِمْ ، لَمَّا يُمَوِّهُونَ<sup>(١)</sup> بِهِ مِنْ  
الْإِعْتِصَامِ بِأَهْلِ الشُّوْكَةِ ؛ فَإِنْ غَالِبَهُمْ مَخْتَلِطُونَ بِالْأُمَرَاءِ ، مُعَلِّمِينَ  
لِلْقُرْآنِ ، وَأَثَمَةً فِي الصَّلَوَاتِ ، يَدَيِّسُونَ عَلَيْهِم بِالْعَدَالَةِ ، فَيَظُنُّونَ بِهِمْ  
الْخَيْرَ ، وَيَقْسِمُونَ لَهُم الْحَظَّ مِنْ الْجَاهِ فِي تَرْكِيتِهِمْ عِنْدَ الْقَضَاةِ ؛  
وَالْتَّوَسَّلَ لَهُمْ ؛ فَأَعْضَلَ دَاوَاهُمْ ، وَفَشَتِ الْمَفَاسِدُ بِالتَّزْوِيرِ وَالتَّدْلِيسِ  
بَيْنَ النَّاسِ مِنْهُمْ ؛ وَوَقَفْتُ عَلَى بَعْضِهَا فَعَاقِبْتُ فِيهِ بِمَوْجِعِ الْعِقَابِ ،  
وَمُؤَلِّمِ النِّكَالِ ؛ وَتَأَدَّى إِلَيَّ الْعِلْمُ بِالْجَرْحِ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، فَسَمِعْتُهُمْ  
مِنْ تَحْمُلِ الشَّهَادَةِ ؛ وَكَانَ مِنْهُمْ كِتَابُ لَدَاوِينَ الْقَضَاةِ ، وَالتَّوْقِيعِ فِي  
مَجَالِسِهِمْ ، قَدْ دَرَبُوا<sup>(٢)</sup> عَلَى إِمْلَاءِ الدَّعَاوَى ، وَتَسْجِيلِ الْحُكُومَاتِ<sup>(٣)</sup> ،  
وَاسْتُخْدِمُوا لِلْأُمَرَاءِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الْعُقُودِ ، بِإِحْكَامِ كِتَابَتِهَا ،  
وَتَوْثِيقِ شُرُوطِهَا ؛ فَصَارَ لَهُمْ بِذَلِكَ شُفُوفٌ<sup>(٤)</sup> عَلَى أَهْلِ طَبَقَتِهِمْ ،  
وَتَمُويُهُ<sup>(٥)</sup> عَلَى الْقَضَاةِ بِجَاهِهِمْ ، يَدَّرِعُونَ<sup>(٥)</sup> بِهِ مِمَّا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ عَثَبِهِمْ ،  
لِتَعَرُّضِهِمْ لِذَلِكَ بِفَعْلَاتِهِمْ ؛ وَقَدْ يُسَلِّطُ بَعْضُ مَنْهُمْ قَلَمَهُ عَلَى الْعُقُودِ  
الْمُحْكَمَةِ ، فَيُوجِدُ السَّبِيلَ إِلَى حَلِّهَا بِوَجْهِ فَتْهِيٍّ ، أَوْ كِتَابِيٍّ ؛ وَيُبَادِرُ  
إِلَى ذَلِكَ مَتَى دَعَا إِلَيْهِ دَاعِي جَاهٍ أَوْ مَنَحَةٍ ؛ وَخُصُوصاً فِي الْأَوْقَافِ

(١) التَّمْوِيهِ : التَّلْبِيسُ وَالْخَدَاعُ .

(٢) دَرَبُوا : مَرَّنُوا .

(٣) جَمْعُ حَكُومَةٍ ، وَهِيَ الْحُكْمُ .

(٤) الشُّفُوفُ : الْفَضْلُ .

(٥) اِدْرَعُ : لَبَسَ الدَّرْعَ ، وَالْمُرَادُ يَجْتَمِعُونَ .

التي جاوزت حدود النّهاية في هذا المصّر بكثرة عوالمه ؛ فأصبحت خافية الشّهرة ، مجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكّام بالبلد ؛ فمن اختار فيها بيعاً أو تملكاً ، شارطوه وأجابوه ، مُفتاتين فيه على الحكّام الذين ضربوا دونه سدّ الحظر والمنع حماية عن التّلاعب ؛ وفشا في ذلك الضّرر في الأوقاف ، وطرق الفرر<sup>(١)</sup> في العقود والأُملاك .

فعاملتُ الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم ؛ ثم التفتُ الى الفُتيا بالمذهب ، وكان الحُكّام منهم على جانبٍ من الخبرة ، لكثرة مُعارضتهم ، وتلقينهم الخصوم ، وفُتياهم بعد نُفوذ الحُكم ؛ وإذا فيهم أصاغر ، بيناهم يتشَبّثون بأذيال الطّلب والعدالة ولا يكادون ؛ إذا بهم طفروا الى مراتب الفُتيا والتّدرّيس ، فاقعدوها ، وتناولوها بالجزاف ، واجتازوها من غير مُثرب<sup>(٢)</sup> ولا منتقدٍ للأهليّة ولا مُرشّح ؛ اذ الكثرة فيهم بالغة ، ومن كثرة السّاكن مُشتقة ، وقلم الفُتيا في هذا المصّر طلق ، وعنائها مُرسل ، يتجاذب كل الخصوم منه رَسنا ، ويتناول من حافته شقاً<sup>(٣)</sup> ، يروم به الفُلج<sup>(٤)</sup>

(١) الفرر : الخطر . وهي مستعملة في العقود بمعنى الخداع ، وهو استعمال خاطئ . .

(٢) المثرب : اللّاثم .

(٣) الشق ( بالكسر ) : الجانب .

(٤) الفلج : الظفر والفوز ، والاسم بالضم .

على خصمه ، ويستظهر به لارغامه ، فيعطيه المفتي من ذلك ملء  
رضاه ، وكفاء أمنيته ، متتبعا آياه في شعاب الخلاف ؛ فتعارض  
الفتاوى وتتناقض ، ويعظم الشغب ان وقعت بعد نفوذ الحكم ؛  
والخلاف في المذاهب كثير ، والانصاف متعذر ، وأهلية المفتي أو  
شهرة الفتيا ليس تميزها للعالمي ؛ فلا يكاد هذا المدد ينحسر<sup>(١)</sup> ، ولا  
الشغب ينقطع .

فصدعت في ذلك بالحق ، وكبحت أجنة أهل الهوى والجهل ،  
ورددتهم على أعقابهم . وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب ؛  
يشعرون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، لا ينتمون  
الى شيخ مشهور ، ولا يعرف لهم كتاب في فن ، قد اتخذوا الناس  
هزوا ، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ، ومأبنة<sup>(٢)</sup> للحرم ؛  
فأرغمهم ذلك مني ، وملاهم حسداً وحقداً علي ، وخلوا الى أهل  
جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشترون بها الجاه  
ليجيروا به على الله ؛ وربما اضطرأ أهل الحقوق الى تحكيمهم ،  
فيحكمون بما يليق الشيطان على أسنتهم يترخصون به للاصلاح ، لا  
يذعنهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل ؛ فقطعت الجبل في  
أيديهم ، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه ، فلم يغنوا عنه من الله

(١) ينحسر : ينقطع .

(٢) مأبنة : مكانا للاتهام بالشر .



شيئاً ، وأصبحت ذواياهم مهجورة ، وبشرهم التي يمتأحون منها  
 معللة . وانطلقوا يراطنون<sup>(١)</sup> السفهاء في النيل من عرضي ، وسوء  
 الأحدث عني بمختلف الافك ، وقول الزور ، يشوونه في الناس ،  
 ويدسون الى السلطان التظلم مني فلا يصني اليهم ؛ وأنا في ذلك  
 محتسب عند الله ما منيت به من هذا الأمر ، ومعرض فيه عن  
 الجاهلين ؛ وماض على سبيل سواء من الصرامة ، وقوة الشكيمة ،  
 وتحري المعدلة ، وخلّص الحقوق ، والتكّب عن خطة الباطل متى  
 دُعيت اليها ، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني  
 لامسها ؛ ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة ، فكروه علي ،  
 ودعوني الى تبعيم فيما يصطليحون عليه من مرضات الأكابر ،  
 ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة ، أو دفع الخصوم  
 اذا تعذرت ، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود  
 غيره ، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه .

ولبت شعري اما عذرهم في الصور الظاهرة ، إذا علموا  
 خلافاً ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك : « من قضيت له  
 من حق أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار »<sup>(٢)</sup> .

(١) يراطنونهم : يكلونهم بالعجبية .

(٢) ورد نص هذا الحديث في صحيح البخاري بروايات مختلفة ، لا توافق الصيغة التي أوردها  
 عليها ابن خلدون . الموطأ مع شرحه : « تنوير الحوالك » ١٠٦/٢ ، ١٠٧ . طبع التجارية سفة

فَأَبَيْتُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا إعطاءَ المَهْدَةِ حَقَّهَا ؛ والوفاءَ لَهَا وَلَمَنْ  
 قَلَّدْنِيهَا ، فَأَصْبَحَ الْجَمِيعُ عَلَيَّ أَلْبَا<sup>(١)</sup> ، وَلَمَنْ يَنَادِي بِالتَّأْفُفِ مِنِّي عَوْنًا ،  
 وَفِي النُّكْرِ عَلَيَّ أُمَّةٌ ؛ وَأَسْمَعُوا الشُّهُودَ الْمَمْنُوعِينَ أَنْ قَدْ قَضَيْتُ فِيهِمْ  
 بَغِيرَ الْحَقِّ ، لِاعْتِمَادِي عَلَى عِلْمِي فِي الْجَرْحِ ، وَهِيَ قَضِيَّةُ إِجْمَاعٍ ؛  
 وَانْطَلَقْتُ الْأَلْسِنَةَ ، وَارْتَفَعَ الصَّخَبُ ، وَأَرَادَنِي بَعْضُ عَلَى الْحُكْمِ  
 بَغَرَضِهِمْ فَوَقَفْتُ ، وَأَغْرَوَا بِي الْخُصُومَ فَتَنَادَوْا بِالتَّظْلِمِ عِنْدَ السُّلْطَانِ ؛  
 وَجَمَعَ الْقُضَاةَ وَأَهْلَ الْفُتْيَا فِي مَجْلِسٍ حَفَلٍ لِلنَّظَرِ فِي ذَلِكَ ، فَخَلَّصْتُ  
 تِلْكَ الْحُكُومَةَ مِنَ الْبَاطِلِ خُلُوصَ الْإِبْرِيزِ ، وَتَبَيَّنَ أَمْرُهُمُ لِلسُّلْطَانِ ،  
 وَامْضَيْتُ فِيهَا حُكْمَ اللَّهِ إِرْغَامًا لَهُمْ ، فَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ، وَدُسُّوا  
 لِأَوْلِيَاءِ السُّلْطَانِ وَعِظَاءِ الْخَاصَّةِ ، يَقْبَحُونَ لَهُمْ إِهْمَالُ جَاهِهِمْ ، وَرَدُّ  
 شَفَاعَتِهِمْ مُمَوِّهِينَ بِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَى ذَلِكَ جَهْلُ الْمِصْطَلَحِ ، وَينَقِفُونَ هَذَا  
 الْبَاطِلَ بِعِظَائِهِمْ يَنْسُبُونَهَا إِلَيَّ ، تَبْعَثُ الْحَلِيمُ ، وَتُغْرِي الرَّشِيدُ ،  
 يَسْتَشِيرُونَ حَفَائِظَهُمْ عَلَيَّ ، وَيُشْرِبُونَهُمُ الْبَغْضَاءَ لِي ؛ وَاللَّهُ بِحَازِيهِمْ  
 وَمُسَائِلِهِمْ .

فَكَثُرَ الشَّنْبُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَظْلَمَ الْجَوْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِ

(١) الْأَلْب (بِالْفَتْحِ) : التَّدْبِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ .

الدولة . ووافق ذلك مُصايي بالأهل والوالد<sup>(١)</sup> ، واصلوا من المغرب في السفين<sup>(٢)</sup> ، فأصابها قاصف<sup>(٣)</sup> من الرّيح ففرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النصيح<sup>(٤)</sup> ممن استشرته ، خشية من نكير السلطان وسخطه ؛ فوقفت بين الورد والصدّر ، وعلى صراط الرجاء واليأس ؛ وعن قريب تدار كني اللطف الرباني ، وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها ؛ فردّها الى صاحبها الأول<sup>(٥)</sup> ، وأنشطني من

(١) في تاريخ ابن قاضي شعبة ، في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفيه ( رمضان ) غرق مركب كبير يقال له « ربع الدنيا » ، حضر من المغرب ، وفيه هدايا جليّة من صاحب المغرب ، وغرقت فيه زوجة القاضي ولي الدين بن خلدون ، وخمس بنات له ، وما كان معهن من الأموال والكتب ؛ وكان السلطان قد أرسل رسولا الى صاحب تونس بسبب أولاد الشيخ ولي الدين بن خلدون . وسلم ولداه : محمد وعلي ، فقدموا القاهرة . على أن انفراد ابن قاضي شعبة بهذه التفاصيل مما يبعث على التثبت والحذر . »

(٢) السفين : جمع سفينة ؛ غير ان ابن خلدون يستعمل السفين ويريد السفينة .

(٣) قصف الرّيح : اشتد صوته .

(٤) النصيح : الناصح .

(٥) في « السلوك » سنة ٧٨٧ :

« وفي سابع عشر جمادى الأولى ، خلع على جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، وأعيد الى قضاء القضاة المالكية عوضاً عن ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ... وفي ٢٢ منه قرىء تقليد ابن خير بالمدسة الناصرية على العادة . »

عَقَّالَهَا ؛ فَانْطَلَقْتُ حَمِيدُ الْأَثَرِ ، مُشِيعًا مِنَ الْكَافَّةِ بِالْأَسْفِ وَالْدُّعَاءِ .  
وَحَمِيدُ الشَّنَاءِ ؛ تَلَحُّظُنِي الْعُيُونُ بِالرَّحْمَةِ ، وَتَتَنَاجَى الْأَمَالُ فِي الْعُودَةِ ؛  
وَرَتَعْتُ فِيمَا كُنْتُ رَاتِعًا فِيهِ قَبْلُ مِنْ مَرَاعِي نِعْمَتِهِ وَظِلِّ رِضَاهِ  
وَعِزَايَتِهِ ، قَانِعًا بِالْعَافِيَةِ الَّتِي سَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى وَسَلَّمَ مِنْ رَبِّهِ ،  
عَاكِفًا عَلَى تَدْرِيسِ عِلْمٍ ، أَوْ قِرَاءَةِ كِتَابٍ ، أَوْ إِعْمَالِ قَلَمٍ فِي تَدْوِينِ أَوْ  
تَأْلِيفٍ ، مُؤَمِّلًا مِنَ اللَّهِ . قَطَعَ صِبَابَةُ الْعُمَرِ<sup>(١)</sup> فِي الْعِبَادَةِ ، وَنَحَوِ  
عَوَائِقِ السَّعَادَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ .

(١) صِبَابَةُ الْعُمَرِ : بَقِيَّتُهُ .

## السفر لقضاء الحج

ثم مكثتُ بعد العزل ثلاثَ سنين ، واعتزمتُ على قضاء  
 الفريضة ، فودّعتُ السلطان والأمرأ ، وزوّدوا وأعانوا فوق  
 الكفاية . وخرجتُ من القاهرة منتصفَ رمضان [سنة] تسع وثمانين ،  
 الى مَرَسَى الطُّور<sup>(١)</sup> بالجانب الشرقيّ من بحر السويس ؛ وركبتُ البحر  
 من هنالك ، عاشرَ الفطر ، ووصلنا الى اليَنبُع<sup>(٢)</sup> لشهر ، فوافينا  
 المحمل ، ورافقتهم من هنالك الى مكّة<sup>(٣)</sup> ، ودخلتها ثانيَ ذي الحجة ،  
 فقضيتُ الفريضة في هذه السنة ، ثم عدتُ الى اليَنبُع ، فأقمتُ به  
 خمسين ليلةً حتى تهيأ لنا ركوب البحر . ثم سافرنا الى أن قاربنا مَرَسَى  
 الطُّور ، فاعترضتنا الرّياح ، فما وسعنا إلا قطعُ البحر الى جانبه  
 الغربيّ ونزلنا بساحل القصير<sup>(٤)</sup> ، ثم بذَرَقْنَا<sup>(٥)</sup> مع أعراب تلك

(١) الطور : مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء . ياقوت ٦٧/٦ ، ٦٩ .

(٢) ينبع : مدينة من مدن الجزيرة العربية ، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ؛ وهي  
 بفتح الياء المثناة التحتيّة ، وضم الباء الموحدة ، بينهما فون ساكنة . ياقوت ٥٢٦/٨ .

(٣) مكّة : قبلة المسلمين ، أم القرى ، وبيت الله الحرام . تحدث عنها ياقوت ٨ / ١٣٣ -

١٤٣ .

(٤) القصير بلفظ تصغير قصر : مرفأً على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، تؤمه السفن التجارية  
 من الجزيرة العربية واليمن ، بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام . ياقوت ١١٥/٧ .

(٥) البذرقة ( بالذال المهملة ، وبالعين الموحدة أيضا ) : الحفارة .

النّاحية الى مدينة قوص<sup>(١)</sup> قاعدة الصّعيد ، فأرحنا بها أياما ، ثمّ ركبنا في بحر النيل الى مصر ، فوصلنا اليها لشهر من سفرنا ، ودخلتها في جمادى [سنة] تسعين ؛ وقضيت حقّ السلطان في لقائه ، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدّعاء له ، فتقبّل ذلك ( مني ) بقبول حسن ، وأقت فيما عهدت من رعايته وظلّ إحسانه .

و كنت لما نزلت بالينبع ، لقيت بها الفقيه الأديب الاتقن ، أبا القاسم بن محمد ابن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومُنْفِق سوق البلاغة ، أبي إسحق إبراهيم السّاحلي المعروف جدّه بالطّويج<sup>(٢)</sup> ، وقد قدم حاجّا ، وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم ، كاتب سرّ السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظيّ لديه ، أبي عبد الله بن زمرّك ؛ خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوّق ، ويذكّر بعهود الصّحبة نصّه :

سَلُوا الْبَارِقَ النَّجْدِيَّ مِنْ عِلْمِي نَجْدٍ  
تَبَسَّمَ فَاسْتَبَكَنِي جَفَوْنِي مِنَ الْوَجْدِ

(١) قوص : مدينة واسعة ؛ كانت قصبة صعيد مصر ، وكان أهلها أرباب ثروة واسعة ، لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن ؛ وأكثر تجار عدن من مدينة قوص . ياقوت ٧ / ١٨٣ .

(٢) الطويج ، بضم الطاء ، وفتح الواو ، وبسكون التّحّية المثناة ، وكسر الجيم هكذا كان يضبط اسمه بخطه ؛ وفي « نثر الجمان » ، و « نفي الطيب » : أنه بفتح الجيم .

أَجَادَ رَبُّوعِي بِأَلْلَوَى بُورِكَ أَلْلَوَى<sup>(١)</sup>

وَسَحَّ بِهِ صَوْبُ الْقِيَامِ مِنْ بَعْدِي

وَيَازَاجِرِي الْأَظْمَانَ وَهِيَ ضَوَامِرُ

دَعُوهَا تَرِدُ هَيْمًا عِطَاشًا عَلَى نَجْدِ

وَلَا تَنْشَقُّوا الْأَنْفَاسَ مِنْهَا مَعَ الصَّبَا

فَإِنَّ زَفِيرَ الشَّوْقِ مِنْ مِثْلِهَا يُعْدِي

بِرَاهَا الْهَوَى بَرِّي الْقِدَاحِ وَخَطَّهَا

حُرُوفًا عَلَى صَنْحٍ مِنَ الْقَفْرِ مُمْتَدٍّ<sup>(٢)</sup>

عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي تُجَادِبُنِي الْهَوَى

وَمَا شَوْقُهَا شَوْقِي وَلَا وَجْدُهَا وَجْدِي

لَكُنْ شَاقِقًا بَيْنَ الْعُذِيبِ وَبَارِقِ مِيَاهُ بَقِيَّةِ الظِّلِّ لِلْبَانِ وَالرَّندِ<sup>(٣)</sup>

فَمَا شَاقِقِي إِلَّا بُدُورُ خُدُورِهَا

وَقَدْ لَحْنُ يَوْمِ النَّفْرِ فِي قُضْبٍ مُلْدٍ<sup>(٤)</sup>

(١) اللوى : واد من أودية بني سليم .

(٢) براها الهوى : نحتها ، وشفها . والقداح : السهام قبل أن تراش وتنصر .

(٣) العذيب : ماء لبني تميم ، وكذلك بارق . وكانت هذه الأمكنة دياراً لبني تميم باليامة .  
والبان : شجر يسمو ويطول في استواء ؛ ومنه يستخرج دهن البان . والرند : هو شجر الفار ؛  
وهو نبات طيب الريح يستخرج منه دهن .

(٤) جمع أملد ؛ وهو الناهم اللين من الفصون وغيرها .

فكم في قبابِ الحَيِّ من شمسٍ كُلَّةٍ وفي فَلَكِ الأُزُرارِ من قمرٍ سَعْدٍ  
وكم صارِمٍ قد سُلَّ من لَحْظِ أَحورٍ وكم ذابلٍ قد هُزَّ من ناعمِ القَدِّ  
خُذُوا الحذرَ من سُكَّانِ رامةٍ إِنَّهَا

ضَمِيفَاتٍ كَرَّ اللَّحْظُ تَفْتِكُ بِالْأُسْدِ<sup>(١)</sup>

سَهَامُ جُفُونٍ عَنْ قِسْيٍ حَوَاجِبٍ يُصَابُ بِهَا قَلْبُ الْبَرِيِّ عَلَى عَمْدٍ  
وَرَوْضُ جَمَالِ ضَاعَ عَرَفُ نَسِيمِهِ وَمَا ضَاعَ غَيْرُ الْوَرْدِ فِي صَفْحَةِ الْحَدِّ  
وَنَزَجَسَ لَحْظُ أَرْسَلِ الدَّمْعِ لَوْ لَوْأَ فَرَشَ بَمَاءِ الْوَرْدِ رَوْضاً مِنَ الْوَرْدِ  
وَكَمْ غُصْنٍ قَدْ عَانَقَ الْغُصْنَ مِثْلَهُ وَكُلُّ عَلَى كُلٍّ مِنَ الشَّوْقِ يَسْتَعْدِي  
قَبِيحٌ وَدَاعٌ قَدْ جَلَا نُعْيُونَنَا مُحَاسِنَ مِنْ رَوْضِ الْجَمَالِ بِلَا عَدٍّ  
رَعَى اللَّهُ لَيْلَى لَوْ عَلِمَتْ طَرِيقَهَا فَرَشَتْ لِأَخْفَافِ الْمَطِيِّ بِهِ خَدَّيْ  
وَمَا شَاقَنِي وَالطَّيْفُ يُرْهِبُ أَذْ مُعِي وَيَسْبَحُ فِي بَحْرِ مِنَ اللَّيْلِ مُزْبَدٌ  
وَقَدْ سُلَّ خَفَّاقُ الذُّوَابَةِ بَارِقٌ كَمَا سُلَّ لَمَاعُ الصِّقَالِ مِنَ الْغَمْدِ<sup>(٢)</sup>  
وَهَزَّتْ مُحَلَاةٌ يَدُ الشَّوْقِ فِي الدُّجَى

فَحُلُّ الَّذِي أَتْرَمْتُ لِلصَّبْرِ مِنْ عَقْدِي

وَأَفْلَقَ خَفَّاقُ الْجَوَانِحِ نَسْمَةً تَنِمُّ مَعَ الْإِصْبَاحِ خَافِقَةُ الْبُرْدِ

(١) رامة : موضع بالعقيق.

(٢) خفّاق : مضطرب . وذوابة كل شيء : أعلاه . والبارق : سحب ذو برق .



وهبَّ عليلٌ لَفَّ طيَّ بُرُودِهِ

أَحَادِيثَ أَهْدَاهَا إِلَى الْغُورِ مِنْ نَجْدٍ<sup>(١)</sup>

سَوَى صَادِحٍ فِي الْأَيْكَ لَمْ يَدْرِ مَا الْبُؤَى

وَلَكِنْ دَعَا مِنِّي الشُّجُونِ عَلَى وَعْدٍ

فَهَلْ عِنْدَ لَيْلَى نَعَمَ اللَّهُ لَيْلَهَا بِأَنْ جُفُونِي مَا تَمَلُّ مِنْ السُّهْدِ

وَلَيْلَةٌ إِذْ وَلَّى الْحَجِيجُ<sup>(٢)</sup> عَلَى مِنًى<sup>(٣)</sup>

وَفَتَ لِي الْمُنَى مِنْهَا بِمَا شِئْتُ مِنْ قَصْدٍ

فَقَضَّيْتُ مِنْهَا - فَوْقَ مَا أَحْسَبُ - الْمُنَى

وَبُرْدُ عَفَافِي صَانِهِ اللَّهُ مِنْ بُرْدِ

وَلَيْسَ سَوَى لَحْظٍ خَفِيَ نُجِيلُهُ وَشَكْوَى كَمَا رَفَضَ الْجَمَانُ مِنَ الْعَيْدِ

غَفَرْتُ لِدَهْرِي بَعْدَهَا كُلَّ مَا جَنَى

سَوَى مَا جَنَى وَفَدُ الْمَشِيبِ عَلَى قَوْدِي

عَرَفْتُ بِهَذَا الشَّيْبِ فَضْلَ شَيْبَتِي وَمَا زَالَ فَضْلُ الضِّدِّ يُعْرِفُ بِالضِّدِّ

(١) الغور : غور تهامة ، وهو ما بين ذات عرق إلى البحر ، وكل ما انحدر سبله مغرباً عن

تهامة فهو غور . ياقوت ٦ / ٣١١ .

(٢) الحجيج : جماعة الحاج .

(٣) موضع في جبل عرفة بجانب مكة ، يذكر كثيراً في باب « الحج » من حيث صلته بكثير

من أعمال الحجاج .

ومن نام في ليل الشباب ضلالةً سيوقظه صبح المشيب الى الرشد  
أما والهوى ما حلت عن سنن الهوى

ولا جرت في طرق الصباة عن قصدي  
تجاوزت حد العاشقين الألى قضا

وأصبحت في دين الهوى أمةً وحدي  
نسيت وما أنسى وفائي خلتي وأقفر ربع القلب إلا من الوجد

...

إليك أبا زيد شكاةً رفعها

وما أنت من عمرو لدي ولا زيد<sup>(١)</sup>

بعيشك خبرني وما زلت مفضلاً

أعندك من شوق كمثل الذي عندي

فكم ثارني شوق إليك مبرح

فظلت يد الأشواق تفتح من زندي

وصفق حتى الريح في لعم<sup>(٢)</sup> الربي وأشفق حتى الطفل في كبد المهد

يقابلني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدي

(١) الشكاة : الشكوى .

(٢) جع لمة ( بالكسر ) ؛ وهي شعر الرأس اذا كان فوق الوفرة .

وَتُوهِمُنِي الشَّمْسُ الْمَنِيرَةَ غُرَّةً<sup>(١)</sup> بَوَجْهِكَ صَانَ اللَّهُ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّ  
مُحْيَاكَ أَجَلِي فِي الْعُيُونِ مِنَ الضُّحَى

وَذِكْرُكَ أَحْلَى فِي الشِّفَاهِ مِنَ الشَّهْدِ  
وَمَا أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي عُلوِّ أَفْقِهَا تُفِيدُكَ مِنْ قُرْبٍ وَتُلْحِظُ مِنْ بُعْدٍ  
وَفِي عَمَةٍ<sup>(٢)</sup> مَنْ لَا تَرَى الشَّمْسَ عَيْنُهُ

وَمَا تَنْفَعُ نُورَ الشَّمْسِ فِي الْأَعْيُنِ الرَّؤْمِدِ  
مَنْ الْقَوْمِ صَانُوا الْمَجْدَ صَوْنَ عُيُونِهِمْ

كَمَا قَدْ أَبَاحُوا الْمَالَ يُنْهَبُ لِلرَّفْدِ  
إِذَا زِدَ حَتَّ يَوْمًا عَلَى الْمَالِ أُسْرَةٌ<sup>(٣)</sup> فَمَا زِدَ حَمَوًا إِلَّا عَلَى مَوْرِدِ الْمَجْدِ  
وَمَهْمَا أَغَارُوا مُنْجِدِينَ<sup>(٤)</sup> صَرَّيْجَهُمْ

يَشُبُّونَ نَارَ الْحَرْبِ فِي الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ  
وَلَمْ يَقْتُوا بَعْدَ الْبِنَاءِ ذَخِيرَةَ

سِوَى الصَّارِمِ الْمَصْقُولِ وَالصَّافِنِ النَّهْدِ<sup>(٥)</sup>  
وَمَا أَقْتَسَمَ الْأَنْفَالِ إِلَّا مُدَّحٍ<sup>(٦)</sup> بَلَاهَا بِأَعْرَافِ الْمُطَهَّمَةِ الْجُرْدِ<sup>(٧)</sup>

(١) العمه في البصيرة ؛ كاعمى في البصر .

(٢) الصربخ كالصارخ ؛ المستغيث .

(٣) الصافن ( من الخيل ) : القائم على ثلاث ، وعدوا ذلك دليلا على كرم الأصل . والنهد :  
الفرس الجميل الحسن .

(٤) الأعراف : جمع عرف ؛ وهو شعر عنق الفرس . والمطهمة : البارعة الجمال التامة .  
والجرد : القصيرة الشعر .

أَتَنَسَى وَلَا تَنَسَى لِيَالَيْنَا الَّتِي خَلَسْنَا بِهِنَّ الْعَيْشَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ  
 رَكِبْنَا إِلَى اللَّذَاتِ فِي طَلْقِ الصَّبَا مَطَايَا اللَّيَالِي وَادْعَيْنَا إِلَى حَدِّ  
 فَإِنْ لَمْ نَزِدْ فِيهَا الْكُؤُوسَ فَإِنَّا وَرَدْنَا بِهَا الْأَنْسَ مُسْتَعْدَبِ الْوَرْدِ  
 أَتَيْتُكَ فِي غَرْبٍ وَأَنْتَ رَئِيسُهُ وَبَابُكَ لِلْأَعْلَامِ مُجْتَمَعِ الْوَفْدِ  
 فَأَنْسَتْ حَتَّى مَا شَكَوْتُ بِغُرْبَةٍ وَوَالَيْتَ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَضْضَ الْفَقْدِ  
 وَعُدْتُ لِقَطْرِي شَاكِرًا مَا بَلَوْتُهُ

مِنْ الْخُلُقِ الْمَحْمُودِ وَالْحَسَبِ الْعِدِّ<sup>(١)</sup>

إِلَى أَنْ أَجَزْتَ الْبَحْرَ بِأَبْحَرٍ نَحْوَنَا وَزُرْتَ مَزَارَ الْغَيْثِ فِي عَقَبِ الْجَهْدِ  
 أَلَذَّ مِنَ النُّعْمَى عَلَى حَالِ فَاقَةٍ وَأَشْهَى مِنَ الْوَصْلِ الْهَنَى عَلَى صَدِّ  
 وَإِنْ سَاءَ نِي أَنْ قَوَّضْتُ رِحْلَكَ النَّوَى

وَعَوَّضْتُ عَنَّْا بِالذِّمِيلِ وَبِالْوَخْدِ<sup>(٢)</sup>

لَقَدْ سَرَّيْنِي أَنْ لُحْتُ فِي أَفْقِ الْعَلَا عَلَى الطَّاوِزِ الْمَيْمُونِ وَالطَّلَاعِ السَّعْدِ  
 طَلَعَتْ بِأَفْقِ الشَّرْقِ نَجْمَ هِدَايَةٍ فَجِئْتُ مَعَ الْأَنْوَارِ فِيهِ عَلَى وَعْدِ

..

(١) الحسب العد : القديم .

(٢) الذميل : السير الاين . والوخد الاسراع في المشي ، أو سعة الخطو .

يَمِيناً بِمَنْ تَسْرِي الْمَطِيَّ سَوَاهِمَا

عَلَيْهَا سِهَامٌ قَد رَمَتْ هَدَفَ الْقَصْدِ<sup>(١)</sup>

إِلَى بَيْتِهِ كَيْمَا تَرُورَ مَعَاهِدًا<sup>(٢)</sup> أَبَانَ بِهَا جَبْرِيلُ عَنْ كَرَمِ الْعَهْدِ

لَأَنْتَ الَّذِي مَهَا دَجَائِلُ مُشْكِلٍ قَدَحْتَ بِهِ لِلْأُورِ وَاِرِيَةَ الزُّنْدِ

وَحَيْثُ اسْتَقَلَّتْ بِي رِكَابٌ لَطِيبَةٌ<sup>(٣)</sup>

فَأَنْتَ نَجِيُّ النَّفْسِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ

..

وَإِنِّي بَبَابِ الْمُلْكِ حَيْثُ عَهْدَتْنِي

مَدِيدَ ظِلَالِ الْجَاهِ مُسْتَحْصَفَ الْعَقْدِ<sup>(٤)</sup>

أَجْهَزَ بِالْإِنْشَاءِ كُلَّ كَتِيبَةٍ

مِنَ الْكُتُبِ؛ وَالْكِتَابُ فِي عَرْضِهَا جُنْدِي

فَلَوْذُ مَنْ الْمَوْلَى الْإِمَامَ مُحَمَّدٍ بِظِلِّ عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ مُمْتَدِّ

إِذَا فَاضَ مِنْ يُمْنَاهُ بِحَرِّ سَمَاحَةٍ وَعَمَّ بِهِ الطُّوفَانُ فِي النُّجُودِ وَالْوَهْدِ

رَكِبْنَا إِلَى الْإِحْسَانِ فِي سُفُنِ الرَّجَا بُحُورَ عَطَاءٍ لَيْسَ تَجْزُرُ عَنْ مَدِّ

(١) جمع ساهمة ؛ وهي الناقة الضامرة .

(٢) يريد بيت الله ؛ وهو الكعبة الشريفة .

(٣) الطيبة ( بالكسر ) : الناحية .

(٤) استحصف : استحكم ؛ ويريد متمكن المنزلة .

فَمَنْ 'مَبْلِغُ' الْأَمْصَارِ عَنِ الْوَكَاةِ

'مُغْلَغَلَةً' فِي الصِّدْقِ 'مُنْجَزَةً' الْوَعْدِ<sup>(١)</sup>

بِآيَةٍ مَا أُعْطِيَ الْخَلِيفَةُ رَبُّهُ مِفَاتِيحَ فَتَحَ سَاقَهَا سَائِقُ السَّعْدِ  
وَدُونِكَ مِنْ رَوْضِ الْحَامِدِ نَفْحَةَ

تَفَوْتُ إِذَا اصْطَفَى النَّدِيُّ عَنِ النَّدَى<sup>(٢)</sup>

ثَنَاءً يَقُولُ الْمَسْكُ إِنِّ ضَاعَ عَرْفُهُ أَيَّاكَ مِنْ نَدَى أَمَا لَكَ مِنْ نَدَى<sup>(٣)</sup>

وَمَا الْمَاءُ فِي جَوْفِ السَّحَابِ مُرَوِّقًا بِأَطْهَرِ ذَاتَاتِكَ فِي كَنْفِ الْمَهْدِ<sup>(٤)</sup>

فَكَيْفَ وَقَدْ حَلَّتْكَ أَسْرَابُهَا الْحُلَى وَبَاهَتْ بِكَ الْأَعْلَامُ بِالْعَلَمِ الْفَرْدِ

وَمَا الطَّلُّ فِي ثَغْرِ مَنْ الدَّهْرُ بِاسْمِ

بِأَصْفَى وَأَدْكَى مِنْ ثَنَائِي وَمِنْ وَدِّي

وَلَا الْبَدْرُ مَعْصُوبًا بِتَاجِ تَهَامِهِ بِأَبْهَرِ مِنْ وَدِّي وَأَسِيرَ مِنْ حَمْدِي

بَقِيَّتَ ابْنِ خَلْدُونٍ إِمَامَ هِدَايَةِ وَلَا زِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ

ووصلها بقوله : سَيِّدِي عِلْمُ الْأَعْلَامِ ، كَبِيرُ رُؤَسَاءِ الْأَنْسِلَامِ ،

مُشْرِفُ حَمَلَةِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ، جَمَالُ الْخَوَاصِّ وَالظُّهَرَاءِ ، أَثِيرُ

(١) الالوكة : الرسالة .

(٢) اصطفوا : قاموا صفوفا . والندي ، والنادي : مجلس القوم ؛ ويريد القوم أنفسهم .

(٣) الند ( بالفتح ) الطيب ؛ والند ( بالكسر ) : المثل .

(٤) الماء المروق : الصافي .

الدُّوَل ، خَالِصَةُ الْمُلُوك ، مُجْتَبَى الْخُلَفَاء ، نَيْرَ أَفْقِ الْعَلَاء ، أَوْحَدَ  
الْفُضَلَاء ، قُدْوَةُ الْعُلَمَاء ، حِجَّةُ الْبُلَغَاء .

أَبْقَاكُمْ اللَّهُ بِقَاءِ جَمِيلًا يَعْقِدُ لَوَاءَ الْفَخْرِ ، وَيُعْلِي مَنَارَ الْفَضْلِ ،  
وَيَرْفَعُ عِمَادَ الْمَجْدِ ، وَيُوضِحُ مَعَالِمَ السُّودُدِ ، وَيُرْسِلُ أَشْعَةَ  
السَّعَادَةِ ، وَيُفِيضُ أَنْوَارَ الْهَدَايَةِ ، وَيُطْلِقُ أَلْسِنَةَ الْحَامِدِ ، وَيَنْشُرُ  
أَفْقَ الْمَعَارِفِ ، وَيُعَذِّبُ مَوَارِدَ الْعِنَايَةِ وَيُمَتِّعُ بِعُمُرِ النَّهَايَةِ وَلَا  
نَهَايَةَ .

بِأَيِّ التَّحِيَّاتِ أَفَاتَحُكَ وَقَدْرُكَ أَعْلَى ، وَمَطْلِعَ فَضْلِكَ  
أَوْضَحُ وَأَجْلَى ؛ إِنْ قُلْتَ 'تَحِيَّةُ' كَسَرَى فِي السَّنَاءِ وَتُبَّعُ<sup>(١)</sup> فَأَثَرُ لَا  
'يُقْتَفَرُ'<sup>(٢)</sup> وَلَا يُتَّبَعُ ، تِلْكَ تَحِيَّةُ عَجَبَاءَ لَا تَبِينُ وَلَا تُبَيِّنُ ، وَزَمَزَمَةٌ  
نَافَرَهَا اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ ، وَهَذِهِ جَهَالَةٌ جَهْلَاءَ ، لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا  
'حُرُوفُهَا الْإِسْتِعْلَاءُ' ، قَدْ حَمَارُ سُومَهَا الْجَفَاءُ ، وَعَلَى آثَارِ دُمْنَتِهَا الْعَفَاءُ ؛

(١) ابن زمرك ينظر الى قول أبي العلاء المعري :

تَحِيَّةُ كَسَرَى فِي السَّنَاءِ وَتُبَّعُ لِرَبْعِكَ لَا أَرْضَى تَحِيَّةُ أَرْبَعِ

وكانت تحية كسرى السجود له ، أما تحية ملوك العرب من لحم وجذام ، فكانت : « أبيت  
اللعن » ، ويقول ابن قتيبة في « المعارف » : ان قحطان أول من من حياه ولده بتحية الملوك :  
« أبيت اللعن » . وكانت تحية ملوك غسان : « يا خير الفتيان » . لسان العرب « كفر » ،  
تاريخ الطبري ١٦١/٢ .

(٢) يقتفر : يقتفى ، ويتتبع .

وإن كانت التَّحِيَّتَانِ طالما أَوْجَفَ بهما الرِّكَابَ وَقَقَعَ الْبَرِيدُ ،  
ولكن أين يَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ .

تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ آصِلٌ فِي الْفَخْرِ نَسَبًا ، وَأَوْصَلُ بِالْشَّرْعِ سَبَبًا ،  
فَالأَوَّلَى أَنْ أُحْيِيكَ بِمَا حَيَّا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ رُسُلَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ ، وَحَيَّتْ بِهِ  
مَلَائِكَتُهُ فِي جَوَارِهِ أَوْلِيَاءَهُ فَأَقُولُ :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يُرْسِلُ مِنْ رَحْمَاتِ اللَّهِ غَمَامًا ، وَيَفْتَقُ مِنْ الطُّرُوسِ  
عَنْ أَزْهَارِ الْمَحَامِدِ كِهَامًا ، وَيَسْتَضْحِبُ مِنَ الْبَرَكَاتِ مَا يَكُونُ عَلَى  
الَّذِي أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ تَهَامًا ، وَأَجِدُّ السُّؤَالِ عَنْ الْحَالِ الْحَالِيَةِ بِالْعِلْمِ  
وَالدِّينِ ، الْمُسْتَمِدَّةُ مِنْ أَنْوَارِهَا سُجُجُ الْمُهْتَدِينَ . زَادَهَا اللَّهُ صَلَاحًا ،  
وَعَرَفَهَا نَجَاحًا يَتَّبِعُ فَلَاحًا ، وَأَقَرَّرَ مَا عِنْدِي مِنْ تَعْظِيمٍ أَرْتَقِي  
كُلَّ آوَنَةٍ شَرَفَهُ ، وَاعْتَقَادٍ جَمِيلٍ يَرْفَعُ عَنْ وَجْهِ الْبَدْرِ كُأَفَّهُ ،  
وَتِلْكَ أَنْشُرُ بِيَدِ التُّرُكِ صُحُفَهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ أَثِيهَا السَّيِّدَ الْمَالِكِ ، فَقَدْ  
تَشَعَّبَتْ عَلَيَّ فِي مُخَاطَبَتِكَ الْمَسَالِكُ ، إِنْ أَخَذْتُ فِي تَقْرِيرِ فَخْرِكَ  
الْعَمِيمِ ، وَحَسَبَكَ الصَّمِيمِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّ ثَنِيَّةٍ لِلْفَخْرِ يُرَفَعُ  
الْعَلَمُ ، وَفِي أَيِّ بَحْرِ مِنْ ثَنَائِكَ يَسْبَحُ الْقَلَمُ ، الْأَمْرُ جَلَلٌ ،  
« وَالشَّمْسُ تَكْبُرُ عَنْ حَلِي وَعَنْ حُلِّ » ، وَإِنْ أَخَذْتُ فِي شِكَاةٍ



الفراق ، والاستعداد على الأشواق ، اتسع المجال ، وحصرت<sup>(١)</sup>  
 الروية والارتجال ، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها  
 رياح الأشواق ، وأسلة<sup>(٢)</sup> اليراع تخضب مفارق الطروس بنجيع  
 الحبر المراق ؛ وغيرك من تركض في مخاطبته جياذ اليراع ، في  
 مجال الرقاع ، مستولية على أمد الابداع والاختراع ؛ إنما هو  
 بث يبكى ، وفراق يشكى ، فيعلم الله حرصي على أن أشافه عن  
 أنباتك ثغور البروق البواسم ، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء  
 النواسم ، وأن ، أجتلي غرر ذلك الجبين في محيا الشارق<sup>(٣)</sup> ،  
 ولمح البارق .

ولقد وجهت لك جملة من الكتب والقصائد ، ولا كالقصيدة  
 الفريدة في تأيين الجواهر التي استأثر بهن البحر ؛ قدس الله  
 أرواحهم ، وأعظم أجرك فيهم ؛ فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً ،  
 ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع ، وغدر وُصوله بعد  
 المسافة ؛ والذي يطرق لي سوء الظن بذلك ، ما صدر في مقابله  
 منكم . فإني على علم من كرم قصدكم ، وحسن عهدكم .

(١) حصر : عيي .

(٢) أسلة اللسان : طرف شبائه الى مستدقه . وأسالة النصل : مستدقه .

(٣) الشارق : الشمس ؛ وبه فسر الازهري قولهم : لا آتيك ماذر شارق .

ومن حين استقلّ نيرُكم بذلك الأفق الشرقيّ ، لم يصلني منكم كتاب ، مع علمي بضيا ع اثنين منها بهذا الأفق الغربي . انتهى .

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر ، ويطلب مني رفعها إلى السلطان ، وعرضها عليه بحسب الامكان ؛ وهي على روي الهزّة ، ومطلعها :

أمدامعٌ منهلةٌ أمّ لؤلؤٌ لؤلؤٌ لَمّا استهلّ العارضُ المتلالي .

وبعثها في طي الكتاب ، واعتذر بأنه استناب في نسخها ، فكتبت هزّة رويها ألفا ، قال وحققها أن تكتب بالواو ، لأنها تُبدل بالواو ، وتسهل بين الهزّة والواو ، وحرف الاطلاق أيضاً يسوقها واوا . هذا مقتضى الصناعة ، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفاً على كل حال ، على لغة من لا يسهل ، لكنه ليس بشيء .

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط الشرقي لتسهيل قراءتها عليهم ففعلت ذلك ، ورفعت النسخة والأصل للسلطان ، وقرأها كاتب سرّه عليه ، ولم يرجع إليّ منها شيء ، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان ، فضاعت من يدي .

وكان في الكتاب فصلٌ عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن

رُحُو المستَبَدِّ بأمر المَغْرِبِ لذلك العهد ، وما جاء به من الانتقاض عليهم ، والكُفْران لصَنيعهم ، يقول فيه :

كان مَسْعُود بن رُحُو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يَتَبَنَّى النِّعَم<sup>(١)</sup> ، ويقودُ الدُّنْيَا ، ويتَخَيَّرُ العَيْشَ والْجَاهَ ، قد أَجِيزُ صُحْبَةً وَلَدَ أَبِي عِنَانٍ ، كما تعرَّفتم من نُسخة كِتَابِ أنشأته بِجَبَلِ الفَتْحِ لِأَهْلِ الحَضْرَةِ ، فاستَوَلَى عَلَى المَمْلَكَةِ ، وَحَصَلَ عَلَى الدُّنْيَا ، وانفرد بِرِياسَةِ دارِ المَغْرِبِ ، لضعف السلطان رَحِمَهُ اللهُ ؛ ولم يكن إِلَّا أن كُفِرَتِ الحُقُوقُ ، وَحُظِلَّتِ<sup>(٢)</sup> نَخْلَتُهُ السَّحُوقُ<sup>(٣)</sup> ؛ وَشَفَّ<sup>(٤)</sup> عَلَى سَوَادِ جِلْدَتِهِ العُقُوقُ<sup>(٥)</sup> ؛ وَدَاخَلَ مَنْ بِسَبْتَةٍ ، فانتَقَضَت طاعةُ أَهْلِهَا ، وَظَنُّوا أَنَّ القَصَبَةَ لَا تَثْبُتُ لَهُمْ ؛ وَكَانَ قَائِدُهَا الشَّيْخُ البُهْمَةُ ، فَلِإِحْصَارِ وَحَلِيِّ القِتَالِ ، وَمِحْشِ الحَرْبِ ، أَبُو زَكْرِيَا بْنُ شَعِيبٍ ، فثَبَتَ لِلصَّدَمَةِ ، وَنَوَّرَ لِلأَنْدَلُسِ<sup>(٦)</sup> فَبَادَرَهُ المَدَدُ مِنَ الجَبَلِ ، وَمِنْ مَالَقَةٍ . وَتَوَالَتِ الأُمَدَادُ ، وَخَافَ أَهْلُ البَلَدِ ، وَرَاجَعَ شُرَفَاؤُهُ ، وَدَخَلُوا القَصَبَةَ . وَاسْتَغَاثَ أَهْلُ البَلَدِ بِمَنْ جَاوَرَهُمْ وَجَاءَهُم المَدَدُ

(١) تَبَنَّى فِي النِّعَمِ : أَقَامَ بِهِ ، وَتَمَكَّنَ .

(٢) حَظَلَّتِ النَخْلَةُ : فَسَدَتْ أَصُولُ سَعْفِهَا . وَفِي الْأَصُولِ « حَظَلَّتْ » ، وَهِيَ لَفَةٌ أَنْكَرَتْهَا

جَمَهَرَتِهِمْ . تَاجُ العُرُوسِ « حَظَلَّ » ٣٩٢/٧ ، ٣٩٣ .

(٣) نَخْلَةُ سَحُوقٍ : طَوِيلَةٌ .

(٤) شَفَّ : وَضَعَ وَظَهَرَ .

(٥) انْظُرْ خَبَرَ قَمْرَدَةَ عَلَى ابْنِ الْأَحْمَرِ فِي الْأَسْتَقْصَا ١٣٨/٢ وَمَا بَعْدَهَا .

(٦) نَوَّرَ : أَضَاءَ ؛ وَيُرِيدُ أَوْقَدَ نَارَ اسْتِغَاثَةٍ ، وَطَلَبَ النِّجْدَةَ .

أيضا . ثم دَخَلَ الصَّالِحُونَ فِي رَغْبَةٍ هَذَا الْمَقَامَ ، وَرَفَعَ الْقِتَالَ . وَفِي  
 أَثْنَاءِ ذَلِكَ غَدَرُوا ثَانِيَةً ، فَاسْتَدْعَى الْحَالُ إِجَازَةَ السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ أَبِي  
 الْعَبَّاسِ لِتُبَادِرِ الْقَصْبَةِ بِهِ ، وَيتَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَى الْمَغْرِبِ ، لِرَغْبَةِ (بَنِي)  
 مَرِّينَ وَغَيْرِهِمْ فِيهِ ، وَهُوَ وَلَدُ السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ أَبِي سَالِمِ الَّذِي  
 قَلَّدَ كُمْ رِيَاسَةَ دَارِهِ ، وَأَوْجَبَ لَكُمْ الْمَرْيَةَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَأَنْصَارِهِ  
 . انتهى .

وبعدَه فصلٌ آخرٌ يطلبُ فيه كُتُباً من مصر يقول فيه :

والمَرْغُوبُ مِنْ سَيِّدِي أَنْ يَبْعَثَ لِي مَا أُمْكِنُ مِنْ كَلَامِ فُضْلَاءِ  
 الْوَقْتِ وَأَشْيَاخِهِمْ عَلَى « الْفَاتِحَةِ » ، إِذْ لَا يُمْكِنُ بَعْثُ تَفْسِيرٍ كَامِلٍ ؛  
 لِأَنِّي أَثْبَتُ فِي تَفْسِيرِهَا مَا أَرْجُو النَّفْعَ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ . وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّ  
 عِنْدِي التَّفْسِيرَ أَوْصَلَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ عُثْمَانُ التَّجَانِي مِنْ تَأْلِيفِ الطَّبَّيِّ<sup>(١)</sup> ،

---

(١) الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ( أَوْ عَبْدَ اللَّهِ ) بْنُ عَبْدِ اللَّهِ شَرْفُ الدِّينِ الطَّبَّيِّ ( تُوْفِيَ سَنَةَ ٧٤٣ ) لَهُ  
 حَاشِيَةٌ قِيَمَةٌ عَلَى « الْكَشَافِ » فِي أَرْبَعِ مَجْلَدَاتٍ ضَخْمَةٍ ، وَجَاءَ فِي الدَّرَرِ الْكَامِنَةِ : « ثُمَّ شَرَعَ فِي  
 جَمْعِ كِتَابِ فِي التَّفْسِيرِ » فَلَا نَدْرِي أَيَّ الْكِتَابَيْنِ يَطْلُبُ ابْنُ زَسْرَكِ .

وَالسَّفَرُ الْأَوَّلَ مِنْ تَفْسِيرِ أَبِي حَيَّانَ <sup>(١)</sup> ، وَمَا خَصَّ إِعْرَابَهُ <sup>(٢)</sup> ،  
وَكِتَابَ الْمُغْنِيِّ لَابْنِ هِشَامٍ <sup>(٣)</sup> وَسَمِعْتُ عَنْ بَدْأَةِ تَفْسِيرِ لِلَامَامِ بِهِاءِ  
الدِّينِ بْنِ عَقِيلٍ <sup>(٤)</sup> ، وَوَصَلَتْ إِلَيَّ بَدْأَةٌ مِنْ كَلَامِ أَكْلِ الدِّينِ  
الْأَثِيرِيِّ <sup>(٥)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ . وَلَكِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَّا لِلْبَسْمَلَةِ ، وَذَكَرَ  
أَبُو حَيَّانَ فِي صَدْرِ تَفْسِيرِهِ أَنَّ شَيْخَهُ سَلِيمَانَ النَّقِيبَ <sup>(٦)</sup> ، أَوْ أَبَا سَلِيمَانَ .  
لَا أَدْرِي الْآنَ ، صَنَّفَ كِتَابًا فِي الْبَيَانِ فِي سَفَرَيْنِ ، جَعَلَهُ

(١) أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف النحوي الغرناطي (٦٥٤-٧٤٥) . دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير ، فكان في طليعة من وطد قواعد المدرسة النحوية الأندلسية بمصر . ومن قرأ كتبه في النحو عامة ، ومقدمة تفسيره « البحر المحيط خاصة » ، عرف أي مكانة عليه كان يحتلها بين نخاة العربية ، تحدث عن نفسه كثيراً في أول « البحر » الذي طبع بمصر في ٨ مجلدات سنة ١٣٢٨ هـ على نفقة سلطان المغرب الأقصى سابقاً المولى عبد الحفيظ .

(٢) لخص أعراب « البحر المحيط » شخصان كلاهما كان تلميذاً لأبي حيان ؛ أحدهما برهان الدين السفاقي وسمي كتابه « المجيد » ، في أعراب القرآن المجيد . والثاني منها شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي الشافعي الشهير بالسمين وسمي كتابه « الدر المصون في علم الكتاب المكنون »

(٣) جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الانصاري (٧٠٨-٧٦١) النحوي المصري الطائر الصيت . وفيه وردت كلمة ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيويه » . وقد طبع كتابه القيم « المغني » مراراً . وانظر كلمة لابن خلدون عن كتاب « المغني » في « مقدمته » في آخر فصل النحو منها .

(٤) عبدالله بن عبد الرحمن بن عبدالله ... بن عقال القرشي الهاشمي (٦٩٨-٧٦٩) بهاء الدين النحوي المعروف . من تأليفه تفسير للقرآن ، وصل فيه إلى آخر سورة « آل عمران » .

(٥) له أكمل الدين محمد بن محمود (أو محمد) البابرقي الحنفي المتوفى سنة ٧٨٦ ، له حاشية على « الكشف »

(٦) هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحسين بن الحسين المقدسي الحنفي عرف بابن النقيب (٦١١-٦٩٨) . أخذ عنه أبو حيان ، واعتمد عليه كثيراً في تفسيره .

مُقَدِّمَةٌ فِي كِتَابِ تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ ، فَإِنْ أَمَكَّنَ سَيِّدِي تَوْجِيهَهُ .  
انتهى .

وَفِي الْكِتَابِ فُصُولٌ أُخْرَى فِي أَغْرَاضٍ مُتَعَدِّدَةٍ لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا هُنَا . ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ بِالسَّلَامِ ، وَكَتَبَ اسْمَهُ : مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ابْنِ زُمْرَكٍ الصَّرِيحِيِّ ، وَتَارِيخَهُ الْعَشْرُونَ مِنْ مُحَرَّمٍ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ .

وَكَتَبَ إِلَيَّ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بَغْرَنَاطَةَ ؛ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الْبُنِّي <sup>(١)</sup> :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ .

يَا سَيِّدِي وَوَاحِدِي وَدَّاءُ وَحَبَّاءُ ، وَنَجِيَّ الرُّوحِ بَعْدَ اقْرَبَاءِ . أُنْقَاكَمُ اللَّهُ ، وَثُوبُ سَيَادَتِكُمْ سَابِغٌ ، وَقَمَرُ سَعَادَتِكُمْ - كُلُّمَا أَفَلَّتِ الْأَقْمَارُ - بَاذِغٌ ، أَسْلَمَ بِأَتَمِّ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ ، وَاقْرَأْ رُبْعَ مَا لَدَيَّ مِنَ الْأَشْوَاقِ إِلَيْكُمْ ، مِنْ حَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ - مَهَّدَهَا اللَّهُ - ، عَنْ ذِكْرِ لَكُمْ يَتَضَوَّعُ طَيْبُهُ ، وَشُكْرٍ لَا يَذْوِي - وَانْ طَالِ الزَّمَانُ - رَطِيبُهُ ، وَقَدْ كَانَ بَلَغَ مَا جَرَى مِنْ تَأْخِيرِكُمْ عَنِ الْوَلَايَةِ الَّتِي تَقْلُدُنَّكُمْ أَمْرَهَا ، وَتَحْمَلُنَّ مَرْهَا ، فَتَمَثَّلْتُ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ ابْنِ

(١) ضبطه ابن خلدون بالحركات بضم الباء ، وبكسرهما . وهو نسبة إلى (بنة) وقد ذكرها ياقوت ٢٩٤/١ ، وصاحب تاج العروس ، ( بن ) ولم يذكرها فيها بضم الباء .

الجِيَاب<sup>(١)</sup> ، عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم<sup>(٢)</sup> عن خِيَّة  
القضاء :

لا مرحباً بالنَّاشِزِ الفَارِكِ      اذ جَهِلْتَ رفعةَ مقدارِكِ  
لو أنَّها قد أُوتِيتْ رُشدَها      ما بَرَحْتَ تَعُشُّو الى نارِكِ<sup>(٣)</sup>

ثم تعرَّفتُ كيفية انفصالكم ، وأنه كان عن رغبةٍ من السلطان  
المؤيد هنالكُم ، فردَّدْتُ - وقد توَّهَّمتُ مُشاهدتِكم - هذه  
الآبيات<sup>(٤)</sup> :

لَكَ اللهُ يَا بَدْرَ السَّامَةِ وَالْبِشْرِ  
لَقَدْ حَزَّتْ فِي الْأَحْكَامِ مَنَزَلَةَ الْفَخْرِ  
::

ولكنَّكَ استعَفَّيتَ عنها تَوَرَّعاً وتلك سَبِيلُ الصَّالِحِينَ كما تَذَرِي  
::

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن عي بن سليمان الغرناطي الشهير بابن الجياب  
(٦٧٣ - ٧٤٩) .

(٢) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الحسني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي  
(٦٩٨ - ٧٦٠) الإحاطة ١٢٩/٢ .

(٣) انظر « رفع الحجب المستورة » ١٨/١ للشريف الغرناطي هذا حيث أورد البيتين ضمن  
آبيات آخر ، والإحاطة ١٢٠/٢ .

(٤) الآبيات من قصيدة لأبي الحسن النباهي ، أوردها في كتابه « المرقبة العليا » ص ١٥٨  
وما بعدها . وفي نفع الطيب ٣/٢٠٣ بولاق . يختلف الروي منها عما في « المرقبة العليا » .

جريت على نهج السلامة في الذي تخيرته أبشر بأمنك في الحشر

...

وحقق بأن العلم ولاك خطة من العز لا تنفك عنها مدى العمر  
تريد على مر الجديدين جدّة

وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري

ومن لاحظ الأحوال وازن بينها ولم ير الدنيا الدنية من خطر  
وأقصى لأنواع الولايات نابذاً فغير نكير أن تواجه بالشكر  
فيهنك يهنك الذي أنت أهله من الزهد فيها والتوقي من الوزر  
ولا تكثرت من حاسديك فإنهم

حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البدر

ومن عامل الأقوام بالله مخلصاً له منهم نال الجزيل من الأجر  
بقيت لرابع الفضل تحمي ذماره وخارلك الرحمن في كل ما تجري

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأطنتم في كتابكم في  
الثناء على السلطان الذي أنعم بالبقاء ، والمساعدة على الانفصال عن  
خطة القضاء ، واستوهم الدعاء له ممن هنا من الأولياء ، والله  
دركم في التثية على الارشاد الى ذلكم ، فالدعاء له من الواجب ،  
إذ فيه استقامة الأمور ، وصلاح الخاصة والجمهور ، وعند ذلك



ارتفعت أصواتُ العلماءِ والصلحاءِ بهذا القطرِ له ولكم بجميلِ الدعاءِ .  
 أجابَ الله فيكم أحسنَه وأجملَه ، وبلغَ كلَّ واحدٍ منكم ما قصَدَه  
 وأملَه . وأنتم أيضاً من أنتم من أهلِ العلمِ والجلالةِ . والفضلِ  
 والأصالةِ ، وقد بلغتُم بهذه البلادِ الغايةَ من التنويه ، والحظَّ الشريفِ  
 النبِيَّه ، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لحاسنكم في تلك البلادِ  
 المعظِّمةِ ظهور ، وتحدثُ بعد الأمورِ أمورٌ ، وبكلِّ اعتبارٍ ،  
 فالزَّمانُ بكم - حيثُ كنتم - مباءً ، والمحامدُ مجموعةٌ لكم جمعَ  
 تناء . ولما وقف على مكتوبكم إليَّ مولانا السلطان أبو عبد الله ،  
 أطال الثناء على مقاصدكم ، وتحققَ صحيحَ ودادكم ، وجميلَ  
 اعتقادكم ، وعمرَ مجلسه يومئذ بالثناء عليكم ، والشكر لما لديكم .  
 ثم ختم الكتابَ بالسَّلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن  
 مؤرخاً بصفرِ تسعين .

وفي طيه مدرجة بخطه ، وقد قصر فيها عن الاجادة نصها :

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأظفر يمينكم بدوائب  
 مناكم .

أعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيه بغير خطي ، فإني في  
 الوقتِ محالٍ مرضٍ من عيني ، ولكم العافية الواقية ، فيسعني

سَمَحُكُمْ ؛ وربما أن لديكم تشوقاً لما نَزَلَ في هذه المدَّة بالمغرب من  
الهرج حاطه الله ، وأَمَّنَ جميعَ بلاد المسلمين .

والموجب أن الحصَّة الموجهة لتك البلاد في خدمة أميرهم  
الوَائِق ، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكها رهينة ،  
وجعلهم في القيود الى أن يقع الخروج لهم عن مدينة سبته . وكان  
القائد على هذه الحصَّة العليج المسمى مَهْد ، وصاحبه الفتى المدعو نصر  
الله . وكثر التردد في القضية ، الى أن أبرز القَدَرُ توجيه السلطان  
أبي العباس - تولاه الله - صحبة فرج بن رضوان بحصَّة ثانية ،  
وكان ما كان ، حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وسع الوقت من  
الكلام . ثم دعا ، وختم .

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا  
التعريف بالمؤلف ، لأن فيها تحقيقاً لهذه الواقعات ، وهي مذكورة  
في أماكنها من الكتاب ، فربما يحتاج الناظر الى تحقيقها من هذا  
الموضع .

وبعد قضاء الفريضة ، رجعت الى القاهرة محفوفاً بستر الله  
ولطفه ولقيت السلطان ، فتلقاني أيده الله - بمعهود مبرته  
وعنايته . وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين . ولحقت

السلطان النكبة التي تحصه الله فيها وأقاله ، وجعل الى الخير فيها  
عاقبته وما له ؛ ثم أعاده الى كرسيه للنظر في مصالح عباده ؛ فطوقه  
القلادة التي ألبسه كما كانت ؛ فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته ،  
ولزمت كسر البيت ممتعاً بالعافية ، لابساً بُرد العزلة ، عاكفاً على  
قراءة العلم وتدريسه ، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين .

### ولاية الدروس والخوانق

أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون - على القدم منذ عهد مواليتهم ملوك بني أيوب - بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رؤسوم الفقراء في التخلُّق بأداب الصوفيَّة السنيَّة في مطارحة الأذكار ، ونوافل الصلوات . أخذوا ذلك عن قلوبهم من الدول الخلافة ؛ فيختطون مبانيها ويقفون الأراضى المغلة للانفاق منها على طلبه العلم ، ومتدري الفقراء . وإن استفضل الرعي شيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذرية الضعاف من العيلة<sup>(١)</sup> . واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية ، وآثارها الجميلة الخالدة .

(١) العيلة ( بفتح العين ) : الفقر والفاقة .

و كنت لأوّل قدومي على القاهرة ، وُحصولي في كفاة  
السلطان ، شغرت مدرّسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب ،  
وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه ، ووقف عليها أراضى من  
الفيوم تُغلّ القمح ، فسُميت لذلك القمحية ؛ كما وقف أخرى على  
الشافعية هنالك ؛ وتوفي مدرّسها حينئذ ، فولّاني السلطان  
تدريسها ، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة ست وثمانين ، كما  
ذكرت ذلك من قبل ؛ وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من  
أكابر الأمراء تنويهاً بذكري ، وعناية من السلطان ومنهم بجاني ،  
وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة أملت فيها بذكر القوم  
بما يناسبهم ، ويوفي حقهم ، ووصفت المقام ، وكان نصّها :

الحمد لله الذي بدأ بالنعم قبل سُؤالها ، ووفق من هداه  
لشكر على منالها ، وجعل جزاء المحسنين في محبته ، ففازوا  
بعظيم نوالها . وعلم الانسان الأسماء والبيان ، وما لم يعلم  
من أمثالها ، وميّزه بالعقل الذي فضّله على أصناف الموجودات  
وأجياها ، وهداه لقبول أمانة التكليف ، وتحمل أثقالها  
وخلق الجن والانس للعبادة ، ففاز منهم بالسعادة من جدّ في  
امتثالها ، ويسرّ كلاً لما خلق له <sup>(١)</sup> ، من هداية نفسه أو إضلالها ؛

(١) يشير الى الحديث : « كل مبسر لما خلق له » ، والذي رواه الإمام احمد في مسنده .

وَفَرَّغَ رَبُّكَ مِنْ خَلْقِهَا وَخُلِقَ وَأَرْزَاقُهَا وَأَجَالُهَا . وَالصَّلَاةُ عَلَى  
سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نُكْتَةُ الْأَكْوَانِ وَجَمَالُهَا ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ لِلَّهِ عَلَى  
كَمَالِهَا ، الَّذِي رَقَّاهُ فِي أَطْوَارِ الْأَصْطِفَاءِ ، وَآدَمُ بَيْنَ الطِّينِ وَالْمَاءِ ؛  
فَجَاءَ خَاتِمَ أَنْبِيَائِهَا وَأَرْسَالَهَا <sup>(١)</sup> ؛ وَنَسَخَ الْمَلَلِ بِشَرِيعَتِهِ الْبَيَّضَاءِ  
فَتَمَيَّزَ حُرَامُهَا مِنْ حَلَالِهَا ؛ وَرَضِيَ لَنَا الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَأَتَمَّ عَلَيْنَا  
النِّعْمَةَ بِإِكْمَالِهَا <sup>(٢)</sup> .

وَالرَّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ غِيُوثَ رَحْمَتِهِ الْمُنْجِمَةِ وَطِلَالِهَا <sup>(٣)</sup> ،  
وَأُيُوثَ مَلَاحِمِهِ <sup>(٤)</sup> الْمَشْتَهَرَةِ وَأَبْطَالِهَا ، وَخَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ،  
فِي تَوْسِطِهَا وَاعْتِدَالِهَا ، وَظُهُورِ الْهَدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي أَحْوَالِهَا ،  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلَاةً تَتَّصِلُ الْخَيْرَاتُ بِاتِّصَالِهَا ، وَتُنَالُ  
الْبَرَكَاتُ مِنْ خِلَالِهَا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا أَقْرَأَ هَذِهِ الْمَلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي  
نِصَابِهَا ، وَشَفَّاهَا مِنْ أَذْوَانِهَا وَأَوْصَابِهَا <sup>(٥)</sup> ، وَأَوْرَثَ الْأَرْضَ عِبَادَهُ

(١) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على ارسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع .

(٢) يشير إلى الآية ٣ من سورة المائدة : اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .

(٣) الطلال جمع ظل ؛ وهو اخف المطر .

(٤) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

(٥) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع اوصاب .

الصّالحين من أيدي عُصَابِهَا ، بَعْدَ أَنْ بَاهَتِ فَارِسُ بَتَاجِهَا ،  
وَعِصَابِهَا<sup>(١)</sup> ، وَخَلَّتِ الرُّومُ إِلَى تَمَاثِيلِهَا وَأَنْصَابِهَا ، وَجَعَلَ لَهَا مِنْ  
الْعُلَمَاءِ حَفْظَةً وَقُوَّامًا ، وَنُجُومًا يَهْتَدِي بِهَا التَّابِعُ وَأَعْلَامًا ،  
يَقْرَبُونَهَا لِلدِّرَايَةِ تَبَيَّنًا وَإِفْهَامًا ، وَيُوسِعُونَهَا بِالتَّدْوِينِ تَرْتِيبًا  
وَإِحْكَامًا ، وَتَهْذِيبًا لِأَصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَنِظَامًا . ثُمَّ اخْتَارَ لَهَا  
الْمُلُوكُ يَرْفَعُونَ عِمَدَهَا ، وَيُقِيمُونَ صَفَاهَا<sup>(٢)</sup> بِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ  
وَأَوْدَهَا ، وَيَدْفَعُونَ بَغْزَاتِهِمْ الْمَاضِيَةَ فِي صَدْرٍ مِنْ أَرَادَهَا بِنَكْيَادٍ  
أَوْ قَصْدَهَا ؛ فَكَانَ لَهَا بِالْعُلَمَاءِ الظُّهُورُ وَالْإِنْتِشَارُ ، وَالذِّكْرُ السَّيَّارُ ،  
وَالْبَرَكَاتُ الْمَخْدُودَةُ وَالْآثَارُ ؛ وَلَهَا بِالْمُلُوكِ الْعِزُّ وَالْفَخَارُ ،  
وَالصَّوْلَةُ الَّتِي يَلِينُ لَهَا الْجَبَّارُ ، وَيَذِلُّ لِعِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا الْكُفَّارُ ،  
وَتُجَلَّلُ وَجُوهَ الشَّرِكِ مَعَهَا الصَّغَارُ ؛ وَلَمْ تَزَلِ الْأَجْيَالُ تَتَدَاوَلُ عَلَى  
ذَلِكَ وَالْأَعْصَارُ ، وَالْدُّوْلُ تَحْتَفِلُ وَالْأَمْصَارُ ، وَاللَّيْلُ يَخْتَلِفُ  
وَالنَّهَارُ ، حَتَّى أَظَلَّتِ الْإِسْلَامَ دُؤْلُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ مِنْ  
التُّرُكِ ، الْمَاحِينَ بِأَنْوَارِ أَسْنَنَتِهِمْ ظَلَمَ الضَّلَالَةَ وَالشَّكَّ ، الْقَاطِعِينَ  
بِنِصَالِهِمُ الْمَرْهَفَةَ عَلائِقَ الْمَيِّنِ وَالْأَفْكَ ، الْمُصِيبِينَ بِسَهَامِهِمُ النَّافِذَةَ  
تَغْرِ الْجَهَالَةِ وَالشَّرِكِ ، الْمُظْهِرِينَ سِرَّ قَوْلِهِ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ

(١) العصاب : ما يعصب به الرأس من عمامة أو نحوها .

(٢) الصفا : المبل

أُمَّتِي» <sup>(١)</sup> فِيمَا يَتَنَاولُونَهُ مِنَ الْأَخْذِ وَالتَّرْكِ ؛ فَفَسَحُوا خِطَّةَ  
 الْإِسْلَامِ ، وَقَامُوا بِالدَّعْوَةِ الْخِلَافِيَّةِ أَحْسَنَ الْقِيَامِ ، وَبَشُّوْهَا فِي أَقْصَى  
 التُّخُومِ مِنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ ؛ وَاعْتَمَدُوا فِي خِدْمَةِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مَا  
 فَضَّلُوا بِهِ مُلُوكَ الْأَنْامِ . وَاقْتَعَدُوا كُرْسِيَّ مُضَرَ الَّذِي أَلْقَتْ لَهُ  
 الْأَقَالِيمُ يَدَ الْإِسْتِسْلَامِ ، عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ ؛ فَزَخَرَ بِهَا مِنْذُ  
 دَوْلَتِهِمْ بِحَرِّ الْعُمَرَانِ ، وَتَجَاوَبَتْ فِيهَا الْمَدَارِسُ بِتَرْجِيْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ  
 وَعُمِّرَتْ الْمَسَاجِدُ بِالصَّلَوَاتِ وَالْأَذَانِ ، تُكَاثِرُ عِدَدَ الْحَصَى  
 وَالشُّبَّانِ . وَقَامَتِ الْمَآذِنُ عَلَى قَدَمِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالسُّبْحَانَ <sup>(٢)</sup> مُعَلِّنَةً  
 بِشِعَارِ الْإِيمَانِ ، وَازْدَانَ جَوْهَرُهَا بِالْقَصْرِ فَالْقَصْرِ وَالْإِيوَانَ فَالْإِيوَانَ .  
 وَنُظِمَ دَسْتُهَا بِالْعَزِيزِ ، وَالظَّاهِرِ ، وَالْأَمِيرِ ، وَالسُّلْطَانِ . فَمَا شِئْتَ  
 مِنْ مَلِكٍ يَخْفُقُ الْعِزُّ فِي أَعْلَامِهِ ، وَتَتَوَقَّدُ فِي لَيْلِ الْمَوَآكِبِ  
 نِيرَانُ الْكَوَاكِبِ مِنْ أَسِنَّتِهِ وَسَهَامِهِ ؛ وَمِنْ أَسْرَةِ الْعُلَمَاءِ تَتَنَاوَلُ  
 الْعِلْمَ بَوَاعِدِ الصَّادِقِ وَلَوْ تَعَلَّقَ بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ <sup>(٣)</sup> ، وَتُنِيرُ سِرَاجَهُ فِي  
 جَوَانِبِ الشُّبَّهِ الْمُدْهَمَّةِ الظُّلُمِ ، وَمِنْ قُضَاةٍ يُبَاهُونَ بِالْعِلْمِ وَالسُّؤْدَدِ

(١) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الإسلام » ، ومسلم في بابي  
 « الإمارة » و « الإيمان » . شرح العيني على « صحيح » البخاري ٥٧٩/٧ ، وشرح النووي  
 على « صحيح » مسلم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

(٢) السبحان : التسبيح .

(٣) أعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من أقطارها .



عند الانتماء ، ويشتملون الفضائل والمناقب اشتمال الصماء<sup>(١)</sup> ،  
ويَنصِلون الخُصومات برأي يفرق بين اللبن والماء .

ولا كدولة السلطان الظاهر ، والعزیز القاهر ، يعسوب<sup>(٢)</sup>  
المصائب والجاهر ، ومطلع أنواع العز الباهر ، ومصرف الكتائب  
تزرِي بالبحر الزاخر ، وتقوم بألحجة للقيسي على الأهلة في  
المفاخر ؛ سيف الله المنتضى على العدو الكافر ، ورحمته المتكفلة  
للعباد بالطف السائر ؛ رب التيجان والأسرة والمنابر ، والأواوين  
العالية والقصور الأزاهر ، والمُلك المؤيد بالبيض البواتر ،  
والرماح الشواجر<sup>(٣)</sup> ، والأقلام المرتضعة أخلاف<sup>(٤)</sup> العز في هود  
المحابر ، والفيض الرباني الذي فاق قدرة القادر ، وسبقت به العناية  
للأواخر . سيد الملوك والسلاطين ، كافل أمير المؤمنين ، أبو سعيد  
أمدّه الله بالنصر المصاحب . والسعد المؤازر ، وعرفه آثار عنايته  
في الموارد والمصادر ، وأراه حسن العاقبة في الأولى وسرور  
المنقلب في الآخر ؛ فإنه لما تناول الأمر بعزائمه وعزمه ، وآوى

(١) اشتمال الصماء ان تجل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ؛ وهي ان يرد الكساء  
من قبل يمينه على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه  
الأيمن فيغطيها جميعاً .

(٢) يعسوب امير النحل .

(٣) الشواجر من الرماح : المتداخلة حين القتال .

(٤) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

الملك الى كنفه العزيز وحزيمه ، أصاب شاكلة الرأي عندما سدد من سهميه ، وأوقع الرعايا في ظل من أمنيه ، وعدل من حكميه ، وقسم البأس والجود بين حربه وسلميه ؛ ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار الله لأركانها ، وشده بهم أزره في رفع القواعد من بنيانها ؛ من بين مصرف لعنائها ، متقدم القدم على أعيانها ، في بساط إيوانها ؛ ورب مشورة تضي جوانب الملك بلمعانها ، ولا يذهب الصواب عن مكانها ؛ ومنفذ أحكام يشرق الحق في بيانها ، ويضوع العدل من أردانها<sup>(١)</sup> ونجى خلوة<sup>(٢)</sup> في المهم الأعظم من شأنها ؛ وصاحب قلم يفضي بالأسرار الى الأسرار الجرار ، فيشفي الغليل بإعلانها . حفظ الله جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعمهم ومتبوعهم .

ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب الى أفق المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحه المشرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تميد وشلنا<sup>(٣)</sup> من فرائده المندق ؛ أولوني عناية وتشريفا ،

(١) الأردن : الأكام . وفي الكلام تجوز .

(٢) النجي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجي فلان ، أي ينجيه دون سواه .

(٣) الوشل : الماء القليل .

وَعَمَّرُونِي إِحْسَانًا وَمَعْرُوفًا ، وَأَوْسَعُوا بُهْمَتِي <sup>(١)</sup> إِيْضَاحًا ، وَنَكَّرَتِي  
تَعْرِيفًا ؛ ثُمَّ أَهْلُونِي لِلْقِيَامِ بِوُضُفَةِ السَّادَةِ الْمَالِكِيَّةِ بِهَذَا الْوَقْفِ  
الشَّرِيفِ ، مِنْ حَسَنَاتِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ أَيُّوبَ مَلِكِ الْجِلَادِ  
وَالْجِهَادِ ، وَمَا حَيَّ آثَارَ التَّثْلِيثِ وَالرَّفْضِ الْخَبِيثِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَمُطَهَّرِ  
الْقُدْسِ الشَّرِيفِ مِنْ رَجَسِ الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ النُّوَاقِيسُ وَالصُّلْبَانُ  
فِيهِ بِمَكَانِ الْعُقُودِ مِنَ الْأَجْيَادِ . وَصَاحِبِ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ يَسْعَى  
نُورُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي يَوْمِ التَّنَادِ <sup>(٢)</sup> ؛ فَأَقَامَنِي السُّلْطَانُ - أَيْدِهِ اللَّهُ -  
لِتَدْرِيسِ الْعِلْمِ بِهَذَا الْمَكَانِ ، لَا تَقْدُمًا عَلَى الْأَعْيَانِ ، وَلَا رَغْبَةً عَنْ  
الْفُضْلَاءِ مِنْ أَهْلِ الشَّانِ ؛ وَإِنِّي مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ ، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ ،  
مُعْتَرِفٌ بِالْعِجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ فِي هَذَا الْقَضَاءِ ؛ وَأَنَا أَرْغَبُ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ  
الْبَيْضَاءِ ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَّسِعَةِ الْفَضَاءِ ، أَنْ يَلْمَحُوا بَعِينَ الْإِرْتِضَاءِ ،  
وَيَتَغَمَّدُوا بِالصَّفْحِ وَالْإِغْضَاءِ ، وَالْبِضَاعَةِ بَيْنَهُمْ مُرْجَاةٌ <sup>(٣)</sup> ، وَالْإِعْتِرَافُ  
مِنَ اللَّوْمِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مُنْجَاةٌ ؛ وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ .  
وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْفَعُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي مَدَارِجِ الْقَبُولِ أَعْمَالَهُ ، وَيَبْلِّغُهُ فِي  
الدَّارَيْنِ آمَالَهُ ، وَيَجْعَلُ لِلْحُسْنَى وَالْمَقَرِّ الْأُسْنَى ، مُنْقَلَبَهُ وَمَأْلَهُ ؛  
وَيُدْخِلُهُ عَلَى السَّادَةِ الْأُمَرَاءِ نِعْمَتَهُ ، وَيَحْفَظُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِانْتِظَامِ

(١) البهمة : السواد ، ويريد بها ما يقابل الوضوح .

(٢) يوم التناد : يوم ينادي « أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . لسان العرب .

(٣) بضاعة مرجاة : قليلة .

الشَّمْل دَوْلَتِهِمْ ودَوْلَتِهِ ، وَيُمِدُّ قُضَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَّامَهُمْ بِالْعَوْنِ  
وَالْتَّسَدِيدِ ، وَيُمَتِّعُنَا بِانْفِسَاحِ آجَالِهِمْ إِلَى الْأَمَدِ الْبَعِيدِ ، وَيَشْمَلُ  
الْحَاضِرِينَ بِرِضْوَانِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَانْفُضَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ ، وَقَدْ شَيَّعَتْنِي الْعُيُونُ بِالتَّجِلَّةِ وَالْوَقَارِ ،  
وَتَنَاجَتِ النُّفُوسُ بِالْأَهْلِيَّةِ لِلْمَنَاصِبِ ؛ وَاقَمْتُ عَلَى الْإِشْتَغَالِ بِالْعِلْمِ  
وَتَدْرِيسِهِ إِلَى أَنْ سَخِطَ السُّلْطَانُ قَاضِيَ الْمَالَكِيَّةِ يَوْمَئِذٍ فِي تَرْعَةِ  
مِنَ النَّزَعَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ، فَعَزَلَهُ ، وَاسْتَدْعَانِي لِلْوِلَايَةِ فِي مَجْلِسِهِ ، وَبَيْنَ  
أُمْرَائِهِ ؛ فَتَفَادَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَبَى إِلَّا إِمْضَاءَهُ . وَخَلَعَ عَلَيَّ ، وَبَعَثَ  
مَعِيَ مَنْ أَجْلَسَنِي بِمَقْعَدِ الْحُكْمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْعَصَالِحِيَّةِ<sup>(١)</sup> فِي رَجَبِ سَنَةِ  
وِثْمَانِينَ ؛ فَقُمْتُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْحَمُودِ ، وَوَفَّيْتُ عَهْدَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ  
رُسُومِ الْحَقِّ ، وَتَحْرِيرِ الْمَعْدَلَةِ ، حَتَّى سَخِطَنِي مِنْ لَمْ تُرِضْهُ أَحْكَامُ  
اللَّهِ ، وَوَقَعَ مِنْ شَغَبِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْمِرَاءِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَكَنتُ عِنْدَ وَصُولِي إِلَى مِصْرَ بَعَثْتُ عَنْ وَلَدِي مِنْ تُونِسَ ،  
فَمَنَعَهُمْ سُلْطَانُ تُونِسَ مِنَ اللَّحَاقِ بِي اغْتِبَاطًا بِمَكَانِي ؛ فَرِغْتُ مِنْ  
السُّلْطَانِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ فِي شَأْنِهِمْ ، فَأَجَابَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالشَّفَاعَةِ ؛  
فَرَكِبُوا الْبَحْرَ مِنْ تُونِسَ فِي السَّفِينِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَرَسِي

(١) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

الأسكندرية ؛ فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه ، وما فيه ، وذهب الموجد والمولد ؛ فعظم الأسف ، واختلط الفكر ، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني ، وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتاليفاً .

ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته<sup>(١)</sup> بين القصرين ، وجعل فيها مدافن أهله ، وعيّن لي فيها تدريس المالكية ؛ فأنشأت خطبة أقوم بها في يوم مفتتح التدريس على عاداتهم في ذلك ونصّها :

« الحمد لله الذي منّ على عباده ، بنعمة خلقه وإيجاده ، وصرّفهم في أطوار استعباده بين قدره ومُرادِه ، وعرفهم أسرار توحيدِه ، في مظاهر وجوده ، وآثار لطفه في وقائع عباده ، وعرضهم على أمانة التكليف ليبلّوهم بصادق وعده وإبعاده<sup>(٢)</sup> ، ويسرّ كُلاً لما خلق له ، من هدايته أو إضلاله ، وغيّبه أو رشّاده ، واستخلف الإنسان في الأرض بعد أن هداه النّجدتين<sup>(٣)</sup> لصلاحه أو فسادِه ، وعَلّمه ما لم يكن يعلم ، من مدارك سمعه وبصرِه والبيان عمّا في

(١) هي المدرسة الظاهرية ، وتسمى البروقية أيضاً . عهد في بنائها إلى الأمير جهر كس الخليلي ، فشرع في بنائها سنة ٨٨٦ ، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

(٢) ينظر إلى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » .

(٣) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

فُؤَادِهِ ؛ وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَمَلُوكًا يُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ،  
وَيُثَابِرُونَ عَلَى مَرْضَاتِهِ فِي اعْتِمَالِ الْعَدْلِ وَاعْتِمَادِهِ ؛ وَرَفَعَ الْبُيُوتَ  
الْمُقَدَّسَةَ بِسُبُحَاتِ<sup>(١)</sup> الذِّكْرِ وَأُورَادِهِ .

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ مِنْ نَسْلِ  
آدَمَ وَأَوْلَادِهِ ، لَا . بَلْ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ<sup>(٢)</sup> فِي الْعَالَمِ مِنْ إِنْسِهِ وَجِنِّهِ  
وَأَرْوَاحِهِ وَأَجْسَادِهِ ، لَا . بَلْ سَيِّدِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ ، الَّذِي خَتَمَ  
[ اللَّهُ ] كَمَالَهُمْ بِكَمَالِهِ وَآمَدَهُمْ بِآمَادِهِ ، الَّذِي شَرَّفَ بِهِ الْأَكْوَانِ  
فَأَضَاءَتْ أَرْجَاءُ الْعَالَمِ لِنُورِ وَلَادِهِ ؛ وَفَصَّلَ لَهُ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ  
تَفْصِيلًا ، كَذَلِكَ لِيُثَبَّتَ مِنْ فُؤَادِهِ<sup>(٣)</sup> وَأَلْقَى عَلَى قَلْبِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ  
بِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِعِبَادِهِ<sup>(٤)</sup> ؛ فَدَعَا إِلَى اللَّهِ  
عَلَى بَصِيرَةٍ بِصَادِقِ جِدَالِهِ وَجِلَادِهِ<sup>(٥)</sup> وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ ،  
وَكَانَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ مِنْ إِمْدَادِهِ ، حَتَّى ظَهَرَ نُورُ اللَّهِ عَلَى رَغَمٍ مِنْ  
رَغَمٍ<sup>(٦)</sup> . بِإِطْفَائِهِ وَإِخْمَادِهِ ، وَكَمُلَ الدِّينُ الْحَنِيفُ فَلَا تُخْشَى وَالْحَمْدُ

(١) السُّبُحَاتُ جَمْعُ سُبْحَةٍ ؛ وَهِيَ التَّطَوُّعُ فِي الذِّكْرِ ، وَالصَّلَاةُ .

(٢) الثَّقَلَانِ : الْجَنُّ وَالْإِنْسُ .

(٣) يُشِيرُ إِلَى الْآيَةِ ٣٢ مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ  
جَمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » .

(٤) يُشِيرُ كَذَلِكَ إِلَى الْآيَتَيْنِ ١٩٣ ، ١٩٤ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : « نُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى  
قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » .

(٥) الْجِلَادُ : الْجِهَادُ .

(٦) عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمٍ : مِنْ أَسَاءَ ؛ وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْآيَةِ ٣٢ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ : « يَرِيدُونَ  
أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ » .

لله غائلة انقطاعه ولا نفاذه ؛ ثم أعد له من الكرامات ما أعد في معاده ، وفضله بالمقام المحمود في عرصات القيامة بين أشهاده ، وجعل له الشفاعة فيمن انتظم في أمته ، واعتصم بمقاده .

والرّضى عن آله وأصحابه ، غيوث رحمة ، وليوث إنجاده ، من ذوي رحمه الطاهرة وأهل وِداده المتزودين بالتقوى من خير أزواده ، والمُراغمين بسُيوفهم من جاهر بمكابرة الحق وعناده ، وأراد في الدين بظلمه وإلحاده ، حتى استقام الميسم<sup>(١)</sup> في دين الله وبلاده ، وانتظمت دعوة الاسلام أقطار العالم ، وشعوب الأنام ، من عربه وعجمه وفارسه ورؤمه وتركه وأكراده . صلى الله عليه وعليهم صلاة تؤذن باتصال الخير واعتياده ، وتؤهل لاقتناء الثواب وزياده ، وسلم كثيرا ؛ وعن الأئمة الأربعة<sup>(٢)</sup> ، علماء السنة المتبعة ، والفئة المجتابة المصطنعة ؛ وعن إمامنا من بينهم الذي حمل الشريعة وبينها ، وحرر مقاصدها الشريفة وعينها ، وتعرض في الآفاق منها والمطالع ، بين شهبها اللوامع ، فزيناها . نُكتة الهداية إذا حقق مناوطها ، وشرط التحصيل والدراية إذا روعيت أشراطها ،

(١) الميسم : الجمال .

(٢) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ،

وأحمد بن حنبل .

وَقَصْدُ الرَّكَابِ إِذَا ضُرِبَتْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَبْطَاهَا<sup>(١)</sup> ، عَالَمُ الْمَدِينَةِ  
وَأِمَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَمِينَةِ ، وَمُقْبِسُ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ مِنْ مَشْكَاةِهَا  
الْمُبِينَةِ ، الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ . الْحَقُّهُ اللَّهُ بِرِضْوَانِهِ ، وَعَرَفْنَا  
بَرَكَاتِ الْإِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَعِرْفَانِهِ ، وَعَنْ سَلَفِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهْتَدِينَ ،  
وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ يَكْنُفُهُمْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَيَكْفُلُهُمْ  
بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَيُيَسِّرُهُمْ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ بِآدَابِ دِينِهِ وَشِرْعَاتِهِ ،  
وَيَحْمِلُهُمْ فِي الْعِنَايَةِ بِأُمُورِهِمْ ، وَالرِّعَايَةِ لْجُمُهورِهِمْ ، عَلَى مَنَاهِجِ  
سُنَّتِهِ وَلَطَائِفِ حِكْمَتِهِ . وَلِذَلِكَ اخْتَارَ لَهُمُ الْمُلُوكَ الَّذِينَ جَبَلَهُمْ عَلَى  
الْعَدْلِ وَفِطَرْتَهُ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى التَّمَسُّكِ بِكَلِمَتِهِ . ثُمَّ فَضَّلَهُمْ بِمَا خَوَّلَهُمْ  
مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَبَسْطَتَهُ وَاشْتِقَاقِ التَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ مِنْ قُدْرَتِهِ ،  
فَتَسَابَقُوا بِالْخَيْرَاتِ إِلَى جَزَائِهِ وَمَثُوبَتِهِ ، وَذَهَبُوا بِالدرجاتِ الْعُلَى  
فِي وَفُورِ الْأَجْرِ وَمَزَيَّتِهِ .

وَإِنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ ، الْعَزِيزَ الْقَاهِرَ ، الْعَادِلَ  
الظَّاهِرَ ، الْقَائِمَ بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ عِنْدَمَا أُعْيَا حَمْلُهَا الْإِكْتَادَ<sup>(٢)</sup> ، وَوُقُطْبَ

(١) يُشِيرُ إِلَى الْحَدِيثِ : « نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَلَا يَوْجِدُ عَالَمَ أَعْلَمَ مِنْ عَالَمِ الْمَدِينَةِ » ، وَسَيَأْتِي لَهُ بَعْدُ .

(٢) جَمْعُ كَتَدَ ؛ وَهُوَ يَجْمَعُ الْكَتِفَيْنِ مِنَ الْإِنْسَانِ .



دائرة المُلْك الذي أطلع الله من حاشيته الأبدال<sup>(١)</sup> وأنبت الأوتاد<sup>(٢)</sup> ، ومُنَفَّق أسواق العزِّ بما بذلَ فيها من جميل نظره المدخُور والعتاد ؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخلق ، ويدها المبسوطتان بالأجل والرِّزق ، وظلُّه الوافي للعباد بما اكتنفهم من العدل والحق ، قاصمُ الجبابة ، والمعفي على آثار الأعاظم من القياصرة ، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة ، أولي الأقيال<sup>(٣)</sup> والأساور<sup>(٤)</sup> ؛ وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة ، ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة ؛ مؤيد كلمة الموحدين ، ورافع دعائم الدين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سلطان المسلمين أبو سعيد . صدَّق الله فيما يقتضي من الله ظنونه ، وجعل النصرَ ظهيراً ، كما جعل السَّعدَ قرينه ، والعزَّ خدينه<sup>(٥)</sup> ، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعيته ، وبلغ الأئمة في اتصال أيامه ، ودوام

(١) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية ، وهم اشخاص سبعة : يسافرون بأرواحهم من مكان إلى آخر ، ويتركون جسدَهم في موضعهم الأول ، بحيث لا يحس أحد بسفرهم . عن « تعريفات » الجرجاني ص ٢٧ ، و « تعريفات » ابن العربي ص ٢ .  
(٢) والأوتاد عند الصوفية ايضاً : عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه في تلك الجهة . عن الجرجاني في « التعريفات » ص ٢٧ ، وابن العربي ص ٢ . ويريد ان الدولة غنية بالرجال .

(٣) جمع قيل وهو ، في مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك . ( عن التاج ) .

(٤) جمع اسوار ، وهو الرامي أو الفارس .

(٥) الخدين : الصديق .

سُلْطَانُهُ ، مَا يَرْجُوْنَهُ مِنْ اللَّهِ وَيُؤْمَلُونَهُ . لَمَّا قَلَدَهُ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ  
الَّذِي اسْتَوَى لَهُ عَلَى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ ، وَانْتَضَمَتْ عُقُودُ الدُّوَلِ فِي  
لَبَّاتِ الْأَيَّامِ ، وَكَانَتْ دَوْلَتُهُ وَاسِطَةً السِّلْكِ وَجَمَعَ لَهُ الدِّينَ بُولَايَةَ  
الْحَرَمَيْنِ ، وَالدُّنْيَا بِسُلْطَانِ التُّرْكِ . وَأَجْرَى لَهُ أَنْهَارَ مِصْرَ مِنَ الْمَاءِ  
وَالْمَالِ ؛ فَكَانَ مَجَازَهُ فِيهَا بِالْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالتَّرْكِ . وَجَمَعَ عَلَيْهِ قُلُوبَ  
الْعِبَادِ . فَشَهِدَ سِرُّهَا بِمُحَبَّةِ اللَّهِ [ لَهُ ] شَهَادَةً خَالِصَةً مِنَ الرَّيْبِ ،  
بَرِيئَةً مِنَ الشَّكِّ . حَتَّى اسْتَوَى مِنَ الْعِزِّ وَالْمُلْكِ عَلَى الْمَقَامِ الَّذِي  
رَضِيَهُ وَحَمِيدَهُ . ثُمَّ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَصَرَفَ قَصْدَهُ إِلَيْهِ  
وَاعْتَمَدَهُ ، وَسَارَعَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ بِنَفْسٍ مَطْمَئِنَّةٍ ، لَا يَسْأَلُ عَلَيْهَا  
أَجْرًا وَلَا يُكَدِّرُهَا بِالْمَنَّةِ ، وَأَحْسَنَ رِعَايَةَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ تَشْهَدُ بِهَا  
الْأَنْسُ وَالْجِنَّةُ ، لَا ؛ بَلِ النَّسَمُ وَالْأَجَنَّةُ . ثُمَّ آوَى الْخَلْقَ إِلَى عَدْلِهِ  
تَصَدِيقًا بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ظِلَالِهِ الْمُسْتَجِنَّةَ ، وَنَافَسَ فِي  
اتِّخَاذِ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ لِتَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ  
الْمُقَدَّسَةِ يَبْنِي لَهُ بِهَا اللَّهُ الْبُيُوتَ فِي الْجَنَّةِ ، وَاللَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلُ عَامِلٍ  
فِيمَا أَظْهَرَهُ أَوْ أَكَنَّهُ .

وَإِنَّ مَا أَنْتَجَتْهُ قَرَائِحُ هِمَّتِهِ وَعِنَايَتِهِ ، وَأَطْلَعَتْهُ آفَاقُ عَدْلِهِ  
وَهِدَايَتِهِ ، وَوَضَحَتْ شَوَاهِدُهُ عَلَى بُعْدِ مَدَاهِ فِي الْفَخْرِ وَغَايَتِهِ ،  
وَنَجَحَ مَقَاصِدُهُ فِي الدِّينِ وَسَعَايَتِهِ ؛ هَذَا الْمَصْنَعُ الشَّرِيفُ ، وَالْهَيْكَلُ

السَّامِي المُنِيف ، الذي راق الكواكب حُسْنُهُ وَظَرْفُهُ ، وأَعْجَزَ  
 إِلَهُمَ البَشَرِيَّةَ تَرْتِيبُهُ وَرَصْفُهُ ، لا اِبلَ الكَلَامِ السَّحَرِيَّةَ تَمْثِيلُهُ وَوَصْفُهُ  
 وَشَمِخَ بِمِطَاوِلَةِ السُّحُبِ وَمَنَاوِلَةِ الشُّهُبِ مَارِئُهُ <sup>(١)</sup> الْعَزِيزُ وَأَنْفُهُ ، وَازْدَهَى  
 بَلْبُوسِ السَّعَادَةِ وَالْقَبُولِ مِنَ اللَّهِ عِطْفُهُ ؛ إِنْ فَآخَرَ بِلَاطَ الْوَلِيدِ ،  
 كَانَ لَهُ الْفَخَارُ ؛ أَوْ بَاهَى الْقَصْرَ <sup>(٢)</sup> وَالْإِيوَانَ ، شَهِدَ لَهُ الْمُخْرَابُ  
 وَالْمَنَارُ ؛ أَوْ نَاطَرَ صَنْعَاءَ وَغُمْدَانَ ، قَامَتْ بِحُجَّتِهِ الْإِثَارُ . إِنَّمَا  
 هُوَ بِهِوَ مَلُوءِ دِينٍ وَإِسْلَامٍ ، وَقَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ ، وَفَضَاءٌ  
 رَبَّانِي يَنْشَأُ فِي جَوْهٍ لِلرَّحْمَةِ وَالسَّكِينَةِ ظِلَّةٌ وَغَمَامٌ ، وَكَوْكَبٌ  
 شَرْقٍ يُضَاحِكُ وَجْهَ الشَّمْسِ مِنْهُ ثَغْرٌ بِسَامٍ ؛ دَفَعَ إِلَى تَشْيِيدِ  
 أَرْكَانِهِ ، وَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنْ بُنْيَانِهِ ، سَيْفَ دَوْلَتِهِ الَّذِي اسْتَلَّهُ مِنْ  
 قِرَابِ مُلْكِهِ وَانْتَضَاهُ ، وَسَهْمَهُ الَّذِي عَجَمَ عِيدَانِ كِنَانَتِهِ  
 فَارْتَضَاهُ ، وَحَسَامَ أَمْرِهِ الَّذِي صَقَلَ فِرْنَدَهُ بِالْعِزِّ وَالْعِزْمِ وَأَمَضَاهُ ،  
 وَحَاكَمَهُ الْمُؤَيَّدَ الَّذِي طَالَبَ غَرِيمَ الْإَيَّامِ ، بِالْأَمَلِ الْعَزِيزِ الْمَرَامِ ؛  
 فَاسْتَوْفَى دَيْنَهُ وَاقْتَضَاهُ ، الْأَمِيرُ الْأَعَزُّ الْأَعْلَى جَهْرُكَسْ <sup>(٣)</sup>

(١) المارن : الانف .

(٢) اعلاه يريد قصر غمدان .

(٣) هو الأمير سيف الدين جهر كس ( ويكتب : جهار كس ، وجار كس ) بن عبد الله  
 اليلبغاوي الخليلي ، الذي ينسب إليه « خان الخليلي » المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق  
 سنة ٨٩١ هـ في الواقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق . خطط المقرئ ١٥٢/٣ - ١٥٣ ، طبع  
 مصر . وقد ضبط في « المنهل » : « جار كس » وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

الخليلي أمير الماخورية باسطبلة المنيع . حرسه الله من خطوب الأيام ، وقسم له من عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهم ، فقام بالخطو الوساع ، لأمره المطاع ، وأغرى بها أيدي الاتقان والابداع . واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصنّاع ، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع ؛ فكان العبقري<sup>(١)</sup> ، يفري - الفري<sup>(٢)</sup> ، أو العفاريت ، قدّمت من أماريت<sup>(٣)</sup> . وكانما حشرت الجن والشياطين ، أو نشرت القهارمة<sup>(٤)</sup> من الحكماء الأول والأساطين ، جابوا لها الصخر بالأذواد<sup>(٥)</sup> لا بالواد ، واستنزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد ، ورفعوا سمكها الى أقصى الآماد ، على بعيد المهوى من العباد . وغشوها من الوشي الأزهر ، المضاعف الصدف والمرمر ، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر ، بكلّ مسهم الحواشي حالي الأبراد ؛ وقدّروه مساجد للصلوات والأذكار ، ومقاعد

(١) العبقري نسبة الى «عبقر» ، وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون اذا تعجبوا من جودة شيء او غرابته ، او دقة صنعه : هو عبقري ، ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير - عبقرياً . لسان العرب .

(٢) يقال هو يفري الفري : اذا عمل عملاً فأجاده .

(٣) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المغارة والقفر لا نبات فيه .

(٤) القهارمة : جمع قهرمان ، وهو الأمر ، صاحب الحكم . لسان العرب .

(٥) الأزواد جمع زود ؛ وهو الجماعة من الابل . وفي تحديد عددها خلاف مذکور في

كتب اللغة .

للسُّبُحات <sup>(١)</sup> بالعَشِيِّ والابكار، ومجالسَ للتَّلاوة والاستغفار، في  
الآصال والأَسْحار، وزَوَايا للتَّخَلِّي عن ملاحظة الأسماع  
والأَبصار، والتَّعَرُّض للفتوح الرُّبَّانية والأنوار، ومدارسَ لِقَدْح  
زِنَاد الأفكار، وِنِتاح المعارف الأَبكار، وَصَوغ اللُّجَيْن والنُّضار،  
في مَحَكِّ القرائح والأَبصار. تَتَفَجَّر ينابيعُ الحكمة في رياضه  
وَبُسْتَانِه، وتَتَفَتَّحُ أبوابُ الجَنَّة من غُرَفِه وإِيوانِه، وتُتْقَادُ غُرُ  
السَّوابِق من العُلوم والحقائق، في طَلَقٍ <sup>(٢)</sup> مِيدَانِه، وَيَصْعَدُ الكَلِم  
الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالِحُ إلى الله من نواحي أَرْكَانِه؛ وتُوفَّرُ الاجور  
لغاشيته مُحْتَسَبَةً عند الله في ديوانه، راجِحَةً في ميزانه.

ثم اختارَ لها من أئمَّة المذاهب الأربعة أعياناً، ومن شيوخ الحقائق  
الصُّوفية فُرساناً؛ تَصَفَّحَ لهم أهل مَمْلَكَتِه إنساناً إنساناً، وأَشَادَ  
بمَدرهم عنايةً وإحساناً، ودَفَعهم إلى وظائفه توسُّعاً في مذاهب الخير  
وافتناناً. وعَهِدَ إليهم برياضة المريدِين، وإِفَادَةِ المستفيدِين، احتساباً  
لله وقرباناً، وتَقْيُّلاً <sup>(٣)</sup> لمذاهب الملوك من قومِه واستناناً؛ ثمَّ نظمني  
معهم تطوُّلاً وامْتِناناً، ونعمةً عَظُمَت موقِعاً وَجَلَّتْ شاناً؛ وأنا وإنِ  
كنتُ لِقصور البضاعة، متأخراً عن الجماعة، ولقُعود الهمة، عيالاً

(١) جمع سبحة؛ وهي التطوع في الدعاء والصلاة.

(٢) الطلق: الشوط الواحد في جري الخيل، والغاية التي يجري إليها الفرس في السباق.

(٣) بمعنى من تقيّل أباه: أشبهه، وعمل عمله.

على هؤلاء الأئمة ، فسمحهم يغطي ويلحف ، وبمواهب العفو والتجاوز يمنح ويتحف . وإنما هي رحمة من مولانا السلطان - أيده الله - خصت كما عمت ، ووسمت أغفال النكرة والاهمال وسمت ؛ وكملت بها مواهب عطفه وجبرده وتمت ؛ وقد ينتظم الدر مع المرجان ، وتلتبس العصائب بالتيجان ؛ وتراض المسومة<sup>(١)</sup> العراب<sup>(٢)</sup> على مسابقة الهجان<sup>(٣)</sup> ؛ والكل في نظر مولانا السلطان وتصريفه ، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتعريفه ، وقوام الحياة والامال بلطائف إحسانه وصنوفه ؛ والله يؤز عنا شكر معروفه ، ويوفئنا للوفاء بشرطه في هذا الوقف وتكليفه ، ويخمي حماه من غير الدهر وصروفه ، ويوفي على تمالك الاسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه ، ويؤريه قرّة العين في نفسه وبنيه ، وحاشيته وذويه ، وخاصته ولقيفه ، بمن الله وفضله .

ثم تعاون العداة عند أمير المأخورية ، القائم للسلطان بأمر مدرسته ، وأغروه بصدي عنها ، وقطع أسباني من ولايتها ، ولم يمكن السلطان إلا إسعافه فأعرضت عن ذلك ، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف .

(١) المسومة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٢) العراب من الابل ، والخيل : التي ليس فيها عرق هجين .

(٣) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذي ليس بعقيق .

ثم خرجتُ عامَ تسعةٍ وثمانينَ للحجِّ، واقتضيتُ إذنَ السلطانِ في ذلكَ فأسعَفَ، وزودَ هو وأمراؤه بما أوسعَ الحالَ وأرغده؛ ورَكبتُ بحرَ السويسِ من الطُّورِ إلى اليَنبُعِ؛ ثم صَعِدْتُ معَ المخمِلِ إلى مَكَّةَ؛ فقَضيتُ الفَرَضَ عامَئذٍ. وُعِدْتُ في البَحْرِ؛ فنزلتُ بِساحِلِ القُصَيْرِ؛ ثم سافرتُ منه إلى مدينةِ قُوصٍ في آخرِ الصَّعيدِ، ورَكبتُ منها بحرَ النيلِ إلى مصرَ، ولقيتُ السلطانَ، وأخبرتهُ بدُعائي له في أَمَاكِنِ الإجابةِ، وأعادني إلى ما عَهِدْتُ من كرامتهِ، وتَفَيُّ ظِلِّهِ.

ثم شَفَرَتُ وَظيفةَ الحديثِ بِمدرسةِ صُلغَمَش<sup>(١)</sup> فولاني أياها بدلاً من مدرسته وجلسْتُ للتدريسِ فيها في مُحَرَّمِ أَحَدٍ وتسعينَ، وقمتُ ذلكَ اليومَ - على العادة - بِخطبةٍ نصَّها :

« الحمد لله اجلالاً واعظاماً، واعترافاً بِحقوقِ النِّعمِ والتزاماً، واقتباساً لِلْمَزِيدِ منها واغتناماً، وشكراً على الذي أحسنَ وقاماً، وسِعَ كلَّ شيءٍ رَحمةً وانعاماً، وأقام على توحيدِهِ من أكوانه ووجودِهِ آياتٍ واضحةً وأعلاماً، وصَرَّفَ الكائناتِ في قبضةِ قُدْرتهِ ظُهوراً وخفاءً وإيجاداً وانعداماً، وأعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هداه إلى مَصالحِهِ

(١) كذا في الاصل : « صُلغَمَش » ، وأصلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها .  
والمدرسة الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع أحمد بن طولون ، تُنسب إلى بانيها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري أمير رأس نوبة ، المتوفى سجيناً في الاسكندرية سنة ٧٥٩ . خطط المقرئ  
٢٥٦/٤ - ٢٥٨ طبع مصر .

الهاماً ، وأودع مقدور قضاؤه في مسطور كتابه ، فلا يجد تحيصاً عنه ولا مراماً .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة الهامية غماماً<sup>(١)</sup> والملحمة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أئصناماً ، والعروة الوثقى ، فاز من اتخذها عصماً<sup>(٢)</sup> ، أول النبيين رتبة وآخرهم ختاماً ، وسيدهم ليلة قاب قوسين<sup>(٣)</sup> اذبات للملائكة والرسل اماماً ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا ركناً لدعوته وسناماً<sup>(٤)</sup> وحرباً على عدوه وسماماً<sup>(٥)</sup> ، وصلوا في مظهرته جداً واعتزماً ، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً ، حتى ملأوا الأرض ايماناً وأسلاماً ، وأوسعوا الجاحد والمعاند تبكيتاً<sup>(٦)</sup> وارغاماً<sup>(٧)</sup> فأصبح ثغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهماً<sup>(٨)</sup> . صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً ، صلاة ترجح القبول ميزاناً ، وتبوى عند الله مقاماً .

(١) همت السماء : امطرت ؛ والغمام : القطر نفسه .

(٢) العصام : رباط كل شيء . من حبل ونحوه .

(٣) قاب قوسين : قدر قوسين ، او طول قوسين .

(٤) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٥) السام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : ( الدنيا غذاؤها سام ) .

(٦) التبكيت : التقريع والتعنيف .

(٧) الارغام : الاكراه والاهانة .

(٨) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريهاً لا خير فيه .



والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهداة المتبعة ، مصابيح الأمان  
ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياماً وكانوا للمتقين إماماً .

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور ،  
والعز الخالد على الظهور<sup>(١)</sup> ، وانفساح خطته في افاق المعمور ،  
فلم يزل دولة عظيمة الآثار ، غزيرة الانصار ، بعيدة الصيت عالية  
المقدار ، جامعة — بحاسن ادابه وعزة جنابه — معاني الفخار ،  
منفقة بضائع علومه في الاقطار ، مفجرة ينابيعها كالبحار ، مطلعة  
كواكبها المنيرة في الافاق أضوا من النهار ؛ ولا كالدولة التي  
استأثرت بقبلة الاسلام ومنابر ، وفاخرت بحرّمات الله وشعائره  
واعتمدت بركة الايمان وئمن طائره ، في خدمة الحرمين الشريفين  
— بالمتين من أسباب الدين وأواصره ، واعتملت في اقامة رسوم  
العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لاؤله واخره .

وان مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، شرف  
الاولائل والاواخر ، ورافع لواء المعالي والمفاخر ، رب التيجان  
والاسرّة والمنابر ، والمجلّي في ميدان السابقين من الملوك الاكابر ،  
في الزمن الغابر ، حامل الامّة بنظره الرشيد ورأيه الظافر ، وكافل

(١) كذا في الاصل ، ولعلها : « الدهور » .

الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر ، ومُطْلِع انوار العز والسعادة من أفقه السافر ؛ واسطة السلك من هذا النظام ، والتَّاج المحلى في مفارق الدول والايام ، سيّد الملوك والسلاطين ، بركة الاسلام والمسلمين ، كافل امير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقامه ، وكافاً عن الامّة احسانه الجزيل وانعامه ، واطال في السعادة والخيرات المبدأة المعادة لياياله وايامه ؛ لما اوسع الدين والملك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حُجر كفالتة ، ومهاد كفايته ، وايقظ لتفقد الأمور ، وصلاح الخاصة والجمهور ، عين كلاءته ، كما قلّده الله رعايته<sup>(١)</sup> وأقام حكام الشريعة والسياسة يُوسعون نطاق الحق الى غايته ، ويُطلعون وجه العدل سافراً عن ايته . ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضي الدين بحسن اياله ، وأمنه على سلطانهِ ودولته ، وهو الوفيُّ - والحمد لله - بأمانته ؛ ثم صرف نظره الى بيوت الله يُعنى بإنشائها وتأسيسها ، ويعمل النظر الجميل في اشاداتها وتقديسها ، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتجهيزها وينصب فيها لبث العلم من يؤهّله لوظائفها ودروسها ؛ فيُضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها ، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها ، وفاخرت الانام بزمانها الزاهر وعصرها .

(١) كذا في الاصل ؛ ولعلها : « قلّده الله حق رعايته » ، او « واجب رعايته » ، او نحو هذا

وخضعت الاواوين لايوانها العالي وقصرها ؛ فابتهج العالم سروراً  
بمكانها ، واهتزت الاكوان للمفاخرة بشأنها ، وتكفل الرحمن ،  
لمن اعتز به الايمان ، وصلاح على يده الزمان ، بوفور المشوبة ورُجحانها  
وكان مما قد من به الان تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف  
الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك ، خفف الله حسابه وثقل في  
الميزان - يوم يُعرض على الرحمن - كتابه ، وأعظم جزاءه في هذه  
الصدقة الجارية وثوابه ، عناية جددي لباسها ، وإيثاراً بالنعمة  
التي صححت قياسها ، وعرفت منه انواعها وأجناسها ، فامتثلت  
المرسوم ، وانطلقت اقيم الرُسوم ، واشكر من الله وسُلطانه الحظ  
المقسوم . وأنا مع هذا مُعترف بالقصور ، بين أهل العصور ، مُستعِذٌ  
بالله وبركة هؤلاء الحضور ، السادة الصدور ، أن ينجح بي مَرَكَبُ  
الغرور ، أو يلبج شيطان الدعوى والزور ، في شيء من الأمور .  
والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله ، ويُعرفه الحسنَى وزيادة  
الحظ الأسنى في عاقبته ومآله ، ويُريه في سُلطانه وبنيه وحاشيته  
وذويه قرّة عينه ورضى آماله ، ويدم على السادة الأمراء ما خولهم  
من رضاه وإقباله ، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه  
واتصاله ، ويسدد قضايتهم وحكائهم لاعتماد الحق واعتداله بيمين الله  
وإفضاله .

وقد رأيتُ أن أقررَ للقراءة في هذا الدرس ، كتاب الموطأ  
للإمام مالك ابن أنس ، رضي الله عنه ، فإنه من أصول السُّنن ،  
وأُمّهات الحديث ، وهو مع ذلك أصلُ مذهبنا الذي عليه مدار  
مَسائله ، ومَنَاطُ أحكامه ، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه .

فلنفتح الكلامَ بالتعريف بمؤلفه - رضي الله عنه ، ومكانه  
من الأمانة والديانة ، ومنزلة كتابه « الموطأ » من كُتُب الحديث .  
ثم نذكر الروايات والطُّرق التي وقعت في هذا الكتاب ،  
وكيف اقتصرَ الناسُ منها على رواية يحيى بن يحيى ، ونذكرُ  
أسانيدَ فيها ، ثم نرجعُ الى الكلام على متن الكتاب .

أما الإمام مالك - رضي الله عنه ، فهو إمام دار الهجرة ،  
وشَيْخُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ غَيْرُ مُنَازَعٍ ، وَالْمَقْلَدُ الْمُتَّبَعُ  
لِأَهْلِ الْأَنْصَارِ وَخُصُوصاً أَهْلَ الْمَغْرِبِ .

قال البخاري : مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي . كُنْيَتُهُ  
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، حَلِيفُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ  
ابْنِ أَخِي طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . كَانَ إِمَاماً ، رَوَى عَنْهُ يَحْيَى بْنُ  
سَعِيدٍ . انْتَهَى كَلَامُ الْبُخَارِيِّ .

وَجَدُّهُ أَبُو عَامِرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْحَرِثِ بْنِ عُثْمَانَ وَيُقَالُ : غِيَانُ بَغِينَ

معجمة مفتوحة ، ويا تحتانية ساكنة ، ابن جُثَيل بجيم مضمومة وثاء .  
 مثلثة مفتوحة ، ويا تحتانية ساكنة ؛ ويقال حُثيل أو خُثيل بحاء .  
 مضمومة مهملة أو معجمة ، عوض الجيم ؛ ويقال حِثْل بحاء مهملة  
 مكسورة ، وسين مهملة ساكنة ، ابن عمرو بن الحارث ؛ وهو ذو  
 أَصْبَح . وَذُو أَصْبَح بطنٌ من حمير ، وهم إخوة يُخْضَب ،  
 ونسبهم معروف ؛ فهو حميري صليبة ، وقُرشي حلفاء . ولد سنة  
 إحدى وتسعين<sup>(١)</sup> — فيما قال ابن بُـكَيْر<sup>(٢)</sup> ، وأربع وتسعين — فيما قال  
 محمد بن عبد الله بن عبد الحكم<sup>(٣)</sup> ؛ ونشأ بالمدينة ، وتفقه بها . أخذ عن  
 ربيعة الرأي<sup>(٤)</sup> ، وابن شهاب<sup>(٥)</sup> وعن عمه أبي سهيل<sup>(٦)</sup> ، وعن جماعة  
 ممن عاصروهم من التابعين وتابعي التابعين ؛ وجلس للفتيا والحديث

- (١) في مولد مالك آخر غير ما ذكر ابن خلدون تجدها في « الانساب » للسهماني ،  
 و « وفيات » ابن خلكان ؛ و « الانتقاء » لابن عبد البر ص ١٠ .  
 (٢) هو يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي الخزومي بالولاء المصري [ ١٥٤ - ٢٣١ ] أحد رواة  
 « الموطأ » عن مالك .  
 (٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الحكم الفقيه الشافعي المصري المشهور [ ١٨٢ - ٢٦٨ ] .  
 « وفيات » ٥٧٨/١ .  
 (٤) هو أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر ... المعروف بربيعة  
 الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالانبار بمدينة « الهاشمية » سنة ١٣٦  
 على خلاف . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، ( وفيات ) ٢٢٨/١ .  
 (٥) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبيد الله بن شهاب الزهري القرشي . من أجل  
 فقهاء التابعين بالمدينة . أدرك جماعة من الصحابة [ ٥١ - ١٤٢ ] على خلاف في المولد والوفاء .  
 ( وفيات ) ابن خلكان ٥٧١/١ - ٥٧٢ .  
 (٦) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في إمارة أبي العباس .  
 تهذيب التهذيب ٤٠٩/١٠ .

في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يُناهز العشرين ، وأقام  
 مفتياً بالمدينة ستين سنة . وأخذ عنه أجمعُ الفقير من العلماء الأعلام ،  
 وارتحل اليه من الأمصار من لا يُحصى كثرة ؛ وأعظمُ من أخذ  
 عنه الامام محمد بن إدريس الشافعي <sup>(١)</sup> ، وابنُ وهب <sup>(٢)</sup> ،  
 والأوزاعي <sup>(٣)</sup> ، وسفيانُ الثوري <sup>(٤)</sup> ، وابنُ المبارك <sup>(٥)</sup> - في أمثال  
 لهم وأنظار . وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين  
 لوفاته ، وقال الواقدي <sup>(٦)</sup> : عاش مالك تسعين سنة ، وقال  
 سحنون <sup>(٧)</sup> عن ابن نافع <sup>(٨)</sup> : توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة ، ولم

(١) الامام المجتهد أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه الى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [ ١٥٠ - ٢٠٤ . « الانتقاء » لابن عبد البرص ٦٦ - ١٢٢ .

(٢) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري ( ١٢٥ - ١٩٧ ) ، لازم مالكاً مدة طويلة .

(٣) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي ، ونسبته اما الى « الأوزاع » بطن من همدان ، او من ذي كلاع من اليمن ، او الى « الأوزاع » قرية بدمشق نزل بها فنسب اليها أدخلته أمه « بيروت » فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده ببعلبك سنة ٨٨ ، او ٩٣ . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، « وفيات » ٣٤٥/١ .

(٤) أبو عبد الله سفيان بن سعيد المعروف بالثوري ، أحد الأئمة المجتهدين ، ولاء المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . « وفيات الاعيان » ٢٦٣/١ .

(٥) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة ، أحد رواة « الموطأ » عن مالك . « وفيات » ٣١١/١ .

(٦) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب « المغازي » ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفوه في الحديث [ ١٣٠ - ٢٠٧ ] . « وفيات » ٦٤٠/١ .

(٧) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور . [ ١٦٠ - ٢٤٠ ] .

(٨) أبو محمد عبد الله بن نافع بن أبي نافع . الصائغ الخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

يختلف أهل زمانه في أمانته ، وإتقانه ، وحفظه وتثبتته وورعه ، حتى لقد قال سفيان بن عيينة<sup>(١)</sup> : كُنَّا نَرَى فِي الْحَدِيثِ الْوَارِدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تُضْرَبُ أَكْبَادُ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَلَا يُوجَدُ عَالِمٌ أَعْلَمُ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » أَنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ .

وقال الشافعي : إِذَا جَاءَ الْأَثَرُ فَمَالِكُ النَّجْمِ ، وقال : إِذَا جَاءَكَ الْحَدِيثُ عَنْ مَالِكٍ ، فَشُدْ بِهِ يَدَيْكَ ؛ وقال أحمد بن حنبل<sup>(٢)</sup> : إِذَا ذَكَرَ الْحَدِيثَ فَمَالِكُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وقد ألف الناس في فضائله كتباً ، وشأنه مشهور .

وأما الذي بعثه على تصنيف « الموطأ » - فيما نقل أبو عمر بن عبد البر - فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون<sup>(٣)</sup> ، عمل كتاباً على مثال « الموطأ » ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة ، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث ، فأتي به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسن ما عمل هذا ! ولو كنت أنا الذي

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران أبو محمد المحدث المشهور ( ١٠٧ - ١٩٨ ) « وفيات » ٢٦٤ / ١ .

(٢) أبو عبد الله أحمد بن حنبل الإمام المجتهد المعروف ، ينتهي نسبه إلى بني شيان ( ١٦٤ - ٢٤١ ) . « وفيات » ٢٠ / ١ .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد في خلافة المهدي . « المعارف » ص ٢٠٣ ، « تهذيب التهذيب » ٦ / ٣٤٣ .

عَمِلْتُ لِبِدَاثِ الْإِثَارِ ، ثُمَّ شَدَّدْتُ ذَلِكَ بِالْكَلَامِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : حَبَّ  
أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ <sup>(١)</sup> ، وَلَقِبَهُ مَالِكُ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَكْرَمَهُ وَفَاوَضَهُ . وَكَانَ  
فِيمَا فَاوَضَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمَنْكَ ،  
وَقَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةَ ، فَضَعِ انْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفَعُونَ بِهِ ، تَجَنَّبُ  
فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(٢)</sup> وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ <sup>(٣)</sup> وَوَطْئَهُ لِلنَّاسِ  
تَوَطُّةً . قَالَ مَالِكُ : فَلَقَدْ عَلَّمَنِي التَّأْلِيفَ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ  
الْبَوَاعِثِ لِمَالِكٍ عَلَى تَصْنِيفِ هَذَا الْكِتَابِ ، فَصَنَّفَهُ وَسَمَاهُ « الْمَوْطَأُ »  
أَيَ الْمُسَهَّلِ <sup>(٤)</sup> . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَطُؤٌ يَوْطُؤُ وَطَاءَةٌ ، أَيِ صَارَ  
وَطِيئًا ؛ وَوَطْئَاتُهُ تَوَطُّةٌ ؛ وَلَا يُقَالُ وَطِيئُهُ <sup>(٥)</sup> . وَلَمَّا شَغِلَ بِتَصْنِيفِهِ  
أَخَذَ النَّاسُ بِالْمَدِينَةِ يَوْمئِذٍ فِي تَصْنِيفِ مُوَطَّاتٍ ، فَقَالَ لِمَالِكٍ

(١) أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ الثَّانِي  
تَوَلَّى الْخِلَافَةَ سَنَةَ ١٣٦ هـ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٥٨ هـ . لَهُ تَرْجُمَةٌ وَاسِعَةٌ فِي « تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ » ٢٥٤/٩ -  
٣٢٣ .

(٢) أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عِمْرَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ ، وَصَاحِبُهُ وَلَدَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٦٨ هـ عَلَى خِلَافٍ فِي سَنَةِ الْوَفَاةِ . تَارِيخُ  
الْإِسْلَامِ لِلذَّهَبِيِّ ٣ / ٣٠ - ٣٧ .

(٣) أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ، وَابْنُ  
صَاحِبِهِ . تَوَفَّى سَنَةَ ٧٣ هـ ، وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ٢٥ سَنَةً . تَارِيخُ الْإِسْلَامِ لِلذَّهَبِيِّ ٣ / ٢٧٧ -  
٢٨٤ .

(٤) ذَكَرَ الزُّرْقَانِيُّ فِي شَرْحِهِ لِلْمَوْطَأِ ١ / ٨ ، فَقَالَ عَنْ ابْنِ فَهْدٍ ، وَجْهًا آخَرَ لِتَسْمِيَّتِهِ بِالْمَوْطَأِ ،  
قَالَ : « ... قَالَ مَالِكُ : عَرَضْتُ كِتَابِي هَذَا عَلَى سَبْعِينَ فَقِيهًا مِنْ فَقَهَاءِ الْمَدِينَةِ ، فَكَلَّمَهُمْ وَإِطَّأَنِي  
عَلَيْهِ ، فَسَمِيَتْهُ بِالْمَوْطَأِ » .

(٥) انْظُرْ لِسَانَ الْعَرَبِ ( وَطَأَ ) .



أصحابه : نراك شغلت نفسك بأمرٍ قد شَرَكَكَ فيه النَّاسُ ؛ وأتي ببعضها فنظر فيه ، ثم طرحه من يده وقال : لِيُعْلَمَنَّ أن هذا لا يرتفع منه إلا ما أريد به وجهُ الله ؛ فكأنما أَلْقَيْتَ تلك الكُتُبَ في الآبار ، وما سَمِعَ لشيءٍ منها بعد ذلك ذكر ، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتوطئته ؛ فيُقال إنه أكمله في أربعين سنة . وتلقت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن لدُنْ صُنِفَ اليهلم<sup>(١)</sup> . وطال ثناء العلماء في كل عصر عليه ، ولم يختلف في ذلك اثنان . قال الشافعي ، وعبدُ الرحمن بن مهدي<sup>(٢)</sup> : ما في الأرض كتابٌ بعد كتابِ الله أنفع ، وفي رواية أصح ، وفي رواية أكثر صواباً ، من « موطأ » مالك<sup>(٣)</sup> . وقال يونس بن عبد الأعلى<sup>(٤)</sup> : ما رأيتُ كتاباً ألف في العلم أكثر صواباً من « موطأ » مالك .

(١) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في « مقدمته » في فصل الكيمياء ص . وانظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ٨٤/١ ، تاج العروس ( جر ) .

(٢) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفي سنة ١٩٨ . « تهذيب التهذيب » ٢٨١/٦ ، « المعارف » ص ٢٢٤ .

(٣) بعد أن ألف البخاري ، ومسلم صحيحهما ، لم تبق الموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا قول الشافعي هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوي ص ٢٥ ، مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ ١ / ٩ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن الكوفي ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ .

(٤) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقرئ المصري ( ١٧٠ - ٢٦٤ ) . تهذيب التهذيب ١١ / ٤٤٠ ، طبقات القراء ٢ / ٤٠٦ .

وأما الطرق والروايات التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه كتبه عن مالك جماعة نسب الموطأ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطأ فلان لراوييه عنه<sup>(١)</sup> فمنها موطأ الامام محمد بن إدريس الشافعي<sup>(٢)</sup> ، ومنها موطأ عبد الله بن وهب ، ومنها موطأ عبد الله بن مسلمة القعنبي<sup>(٣)</sup> ، ومنها موطأ مطرف بن عبد الله اليساري<sup>(٤)</sup> نسبة إلى سليمان بن يسار ، ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم<sup>(٥)</sup> رواه عنه سحنون بن سعيد ؛ ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي<sup>(٦)</sup> . رحل

(١) في « ترتيب المدارك » ٣٤/١ ظ ( نسخة خاصة ) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ٦/١ - كلمة جامعة عن الذين رَووا الموطأ عن مالك . وفي مقدمة عبد الحي الكنتوي لموطأ محمد بن الحسن : ان احد علماء « دهلي » ، اورد في كتاب له بالفارسية سماه « بستان المحدثين » القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عربها عن الفارسية عبد الحي الكنتوي ان صاحب « البستان » كاد ان يستقصي الموضوع .

(٢) قال احمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ اصحاب مالك ، فعدته على الشافعي لأنه اقومهم . زرقاني ٧/١ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي الحارثي المدني المتوفي سنة ٢٢١ او ٢٢٠ . سمع من الامام مالك نصف الموطأ بقراءة الامام ، وقرأ هو الصف الباقي على الامام .

(٤) مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي ابو مصعب المدني ابن اخت الامام مالك ( ١٣٧ - ٢١٤ ) ، على خلاف في وفاته . بهذيب التهذيب ١٧٥/١٠ الانتقاء ص ٥٨ .

(٥) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن جنادة العنقي المصري المالكي ( ١٢٨ - ١٩١ ) ، اول من نقل الموطأ الى مصر . وكان ابو الحسن القابسي يقدم روايته للموطأ على غيره : ويقول في ذلك انه - مع ما يتصف به من الفهم والورع - قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ، فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الرواة ، او تبدل الاسانيد ، وانما نقل كتاباً مصنفاً ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٦) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلسن المصمودي الببري الليثي بالولاء . ( ١٥٢ - ٢٣٤ ) وفيات ٢٨٥/٢ - ٢٨٧ .

الى مالك بن انس من الاندلس واخذ عنه الفقه والحديث ، ورَاجَعَ بعلم كثير وحديث جَمٍّ ؛ وكان فيما اخَذَ عنه « الموطأ » ، وادخله الاندلس والمغرب ؛ فأَكَبَ الناسُ عليه ، واقتَصَرُوا على روايته دون ما سواها <sup>(١)</sup> ، وعَوَّلُوا على نَسَقِهَا وترتيبها في شرحهم لكتاب « الموطأ » وتقاسيرهم ، ويشيرون الى الروايات الاخرى اذا عرضت في امكنتها ، فهُجِرَت الروايات الاخرى ، وسائرُ تلك الطُّرُق ، ودَرَسَت تلك الموطآت الا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته اخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه :

حدثني به جماعةٌ من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي الجماعة بتونس وشيخ الفُتَيَّا بها ، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ابن يوسف الهَوَّاري ، سَمِعْتُهُ عليه بمنزله بتونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المُسَنِّدِينَ بتونس ، الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القَيْنسي الوادي آشي ، سمعتُ عليه بَعْضَهُ ، وأجازني بِسائرِهِ . ومنهم شيخُ المَحَدِّثِينَ بالأندلس ، وكبيرُ القُضَاةِ بها ، أبو البركات

(١) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيد الله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحتمل أبوهما لم يسمعه الا مرة واحدة .

محمد بن محمد بن محمد - ثلاثة من المحدثين - بن ابراهيم بن الحاج البلفيقي، لقيته بفاس سنة ست وخمسين من هذه المائة الثامنة، تمّده من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب . وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس ؛ فسمعتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب ، وأجازني بسأئره . ثم لقيته لقاءً أخرى سنة اثنتين وستين ، استقّده ملك المغرب ، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه ؛ وكنت انا القارىء فيما يأخذه عنه ، فقرأت عليه صديراً من كتاب « الموطأ » ، وأجازني بسأئره إجازةً أخرى .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية ، ومفيد جماعتهم ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي ، قرأتُ عليه بعضه ، وأجازني بسأئره ، قالوا كلُّهم : حدثنا الشيخ المعمر ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي<sup>(١)</sup> ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي<sup>(٢)</sup> ، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الامام المسند . أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣-٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٣٠٣/٢ .

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ - ٦٢٥) . « التكملة لكتاب الصلة » ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ ، « تكميل الديباج » ص ٧٣ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار في « التكملة » ٢١٤/١ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ؛ وقال انه لم يقف على وفاته .

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات ، عن إمام المالكية بيجاية ،  
ناصر الدين أبي علي ، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي<sup>(١)</sup> ، عن  
الإمام شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي ، عن أبي الحسن علي  
ابن موسى بن النقرات<sup>(٢)</sup> عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَاني<sup>(٣)</sup> . قال  
الخزرجي والكناني : حدثنا أبو عبد الله محمد بن فرج<sup>(٤)</sup> مولى ابن  
الطَّلَاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث ابن الصَّفَّار  
قاضي الجماعة بقرطبة .

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو عبد الله بن جابر عن القاضي أبي العباس

(١) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزَّوَاوي المشدالي ناصر الدين . وهو لقب لزمه  
من المشرق ، حيث أنه رحل إليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول البغدادي في « رحلته » : أنه لم  
تكن له عناية بالرواية ؛ ومشدالة قبيلة من زواوة .

(٢) علي بن موسى بن علي ( ويقال ابن القاسم ) بن علي الأنصاري الجبلي يعرف بابن  
النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف أيضاً بابن أرفع رأسه ( ٥١٥ - ٥٩٣ ) ، ويقول ابن القاضي  
في جنوة الاقتباس أنه كان حياً في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ٥٨١/١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات  
الوفيات ٩٢/٢ ، تكملة الصلة ٦٧٤/٢ .

(٣) علي بن أحمد بن أبي بكر الكِنَاني ، يعرف بابن حنين ، يكنى أبا الحسن ( ٤٧٦ -  
٥٦٩ ) سمع من ابن الطَّلَاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٤) هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن فرج بن الطَّلَاع بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج  
يقول : كان فرج يطلي مع سيده اللجم في الرض الشرقي عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن  
قال الطَّلَاع بالعين فقد أخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة . وقالوا أيضاً : أن الطَّلَاع بالعين  
هو والد مولاه محمد بن يحيى البكري المعروف بابن الطَّلَاع . أما أبو بكر ابن برنجال الداني  
فيقول : هو بالعين لأن أباه كان يطلع النخل في قرطبة لاجتماعها فعرف بذلك . وقد رحل الناس إلى  
ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ والمدونة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج

أحمد ابن محمد بن الغمَّاز ، عن شيخه أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم<sup>(١)</sup> الكلاعي ، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حبيش ، وأبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون<sup>(٢)</sup> ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زرقون : حدثنا به أبو عبد الله الخولاني<sup>(٣)</sup> ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القيجاطي<sup>(٤)</sup> ، وقال ابن حبيش : حدثنا به القاضي أبو عبد الله بن أصبغ<sup>(٥)</sup> ويونس بن محمد بن مغيث ، قالوا : قرأناه على أبي عبد الله محمد بن الطَّلَّاع<sup>(٦)</sup> . وقال ابن حبيش أيضاً : حدثنا به أبو القاسم أحمد بن محمد ورد<sup>(٧)</sup> ، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن خلف ابن المُرابط<sup>(٨)</sup> ، عن المقرئ أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري

(١) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الكلاعي ( ٥٦٥ - ٦٣٤ ) .

(٢) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون ( ٥٠٢ - ٥٨٦ ) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولاني ( ٤١٨ - ٥٠٨ ) روى عن جماعة ، منهم أبو عمرو عثمان بن أحمد القيشطالي ( القيجاطي ) صلة ٧٦/١ .

(٤) عثمان بن أحمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكنى أبا عمرو ، ويعرف بالقيشطالي ( القيشطالي ، القيجاطي ) ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة . صلة ٣٩٧/٢ .

(٥) محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي أبو عبد الله . سمع من أبي عبد الله محمد بن فرج ، توفي سنة ٥٣٦ ، وهو من أبناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٦) محمد بن يحيى البكري المتوفى سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

(٧) أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي أبو القاسم ( ٤٦٥ - ٥٤٠ ) ، سمع الموطأ من أبي علي الفسائي . احاطة ٥٧/١ .

(٨) القاضي أبو عبد الله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المُرابط . إجازة أبو عمر الطلنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

الطَّلَمَنَكِيُّ<sup>(١)</sup>؛ قال القاضي ابو الوليد بن مُغِيث ، والمُتِجَاطِي ،  
والطَّلَمَنَكِيُّ : حدَّثنا ابو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى عن عم ابيه  
أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى . وقال  
الطَّلَمَنَكِيُّ : حدَّثنا ابو جعفر احمد بن محمد بن حُدَيْر البَزَّاز ، قال  
حدَّثنا ابو محمد قاسم بن أَصْبَغ<sup>(٢)</sup> ، قال حدَّثنا ابو عبد الله محمد بن  
وضاح<sup>(٣)</sup> ، قال حدَّثنا يحيى بن يحيى عن مالك ، إلا ثلاثة ابواب من  
آخر كتاب الاعتكاف ، أولها خروج المعتكف الى العيد فإنَّ يحيى  
شكَّ في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقَّب  
شَبْطُون<sup>(٤)</sup> عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يَحْضُرني الآن اتِّصالُ  
سَنَدِي فيها .

فمنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحَضْرَمِيِّ كاتب

(١) احمد بن محمد بن ابي عبد الله بن ابي عيسى المَعَاوَرِي ابو عمر الطلمنكي ، المتوفى سنة  
٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .

(٢) قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح ابو محمد الباني القرطي ( ٢٤٤ - ٣٤٠ ) ،  
سمع من ابن وضاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ٢٩٧/١ .

(٣) محمد بن وضاح بن بديع القرطي ابو عبد الله ( ١٩٩ - ٢٨٦ ) ، على خلاف في مولده ،  
ووفاته . سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٤) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطنون [ بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة  
ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فنون ] ، اول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس ، وكان  
اهلها قبله على مذهب الاوزاعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفح الطيب ٣٤٩/١ .

السلطان أبي الحسن ، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جلته سنة ثمان وأربعين ، وحضرت مجلسه ، وأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه بعض « الموطأ » ، وأجازني بالاجازة العامة ، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القايم القبتوري ، وجماعة من مشيخة أهل سبتة ، ويتصل سنده فيه بالقاضي عياض ، وأبي العباس العزفي صاحب كتاب ( الدر المنظم في المولد المعظم ) .

ومنها عن شيخنا أبي عبد الله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بقرناطة ، سمعت عليه بعضه وأجازني بسائره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبد الله بن بكار ، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس ، ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي <sup>(١)</sup> ، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما .

ومنها عن شيخنا المكيّ أبي عبد الله محمد بن سعد بن برّال الأنصاري شيخ القراءة بتونس ، ومعلمي كتاب الله ؛ قرأت عليه القرآن العظيم بالقراآت السبع وعرضت عليه قصيدتي الشاطبي <sup>(٢)</sup> في

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الأندلس بعلم كثير . ( ٤٩٤ - ٤٠٣ ) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بجزر الاماني ، والمشهورة بالسطبية ، والرائية ، وتسمى « عقيلة اتراب القصائد » .



القراءة ، وفي الرسم ، وعَرَضْتُ عليه كتابَ التَّقْصِي لابن عبد البر ،  
وغير ذلك ، وأجازني بالاجازة العامة ، وفي هذه بالاجازة الخاصة ،  
وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي ابي العباس أحمد بن محمد بن  
الغَمَّاز ، وعن شيخه ابي العباس أحمد بن موسى البَطْرَني بسندهما .

ومنها عن شيخنا الأستاذ ابي عبد الله محمد بن الصَّفَّار  
المَرَّاكشي ، شيخ القراءات بالمغرب ، سَمِعْتُ عليه بعض هذا  
الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان مَلِكِ المَغْرِب ، وهو يُسَمِّعُه إياه ،  
وأجازني بسائره ، وهو يروي عن شيخه مُحَدِّثِ المَغْرِبِ ابي عبد  
الله محمد بن رُشِيدِ الفِهْرِيِّ السَّبْتِيِّ <sup>(١)</sup> عن مشيخة اهل سَبْتَةَ ، واهل  
الأندلس ، حَسْبًا ذلك مذكور في كُتُبِ رواياتهم وطُرقِ أسانيدهم ،  
إلا أَنَّهُم لم تحضُرني الان ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفِّقنا أجمعين  
لطاقته وهذا حينَ أبتدي ، وبالله أهتدي .

وانقُضَ ذلك المجلس ، وقد لَاحَظْتُني بالتَّجِلَّة والوقار العُيون ،  
واستشعرت أَهْلِيَّتِي للمناصب القُلُوب ، وأَخْلَصَ النَّجِيَّ في ذلك  
الخاصة والجمهور ، وأنا أُنْتَابُ مجلسَ السلطان في أَكْثَرِ الأحيان ،  
لِتَأْدِيَةِ الوَاجِبِ مِنَ التَّحِيَّةِ والمُشَافَهَةِ بالدُّعَاءِ ، الى أن سَخِطَ السلطانُ

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر ..... بن رشيد الفهري السبتي

قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية ، فأبعده ، وأآخره  
عن خطة القضاء في رجب ست وثمانين وسبعمائة ، ودعاني للولاية في  
مجلسه ، وبين أمرائه فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا إمضاءه ، وخلع  
علي ، وبعث الأمراء معي الى مقعد الحكم بمدرسة القضاء ، فقيمت في  
ذلك المقام المحمود ، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق ،  
وتحريري المعدلة ، حتى سخطني من لم ترضه أحكام الله ، ووقع في  
ذلك ما تقدم ذكره ، وكثر شغب أهل الباطل والمراء ، فأعفاني  
السلطان منها لحول من يوم الولاية ، وكان تقدمها وصول الخبر  
بغرق السفين الواصل من تونس الى الأسكندرية ، وتلف  
الموجود والمولود ، وعظم الأسف ، وحسن العزاء ، والله قادر  
على ما يشاء .

ثم خرجت عام تسعة وثمانين لقضاء الفرض ، وركبت بخر  
السويس من الطور الى ينبع ، ورافقت المحمل الى مكة ، فقضيت  
الحج عامئذ ، وعدت الى مصر في البحر كما سافرت اولاً .  
وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلتميش ، فولاني السلطان  
إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين ، ومضيت على  
حالي من الانقباض ، والتدريس ، والتأليف ، حتى ولاني خائقاه  
بيبرس ، ثم عزلني عنها بعد سنة او أزيد ، بسبب انا أذكره الان .

## ولاية خانقاه بيبرس ، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الفَرَض سنة تسعين ، ومَضَيْتُ على حالي من التدريس والتأليف ، وتعاهد السلطان باللقاء والتَّحِيَّة والدعاء ، وهو ينظرُ اليَّ بعَيْن الشَّفَقَةِ ، ويُحَسِّن المَوَاعِيد . وكانت بالقاهرة خانقاه شَيْدَهَا السلطان بَيْبَرَس ، ثَامِنُ مُلُوكِ التُّرْكِ الَّذِي اسْتَبَدَّ على النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ <sup>(١)</sup> هو ورفيقه سَلَار <sup>(٢)</sup> وَأَيْفَ النَّاصِرِ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمَا ، وَخَرَجَ لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا حَاذَى الْكَرْكَ امْتَنَعَ بِهِ ، وَتَرَكَهُمْ وَشَأْنَهُمْ ، فَجَلَسَ بَيْبَرَسُ على التَّخْتِ مَكَانَهُ ، وَكَاتَبَ النَّاصِرُ أُمَرَاءَ الشَّامِ مِنْ مَمَالِيكِ أَبِيهِ ، وَاسْتَدْعَوْهُ لِلْقِيَامِ مَعَهُ ، وَزَحَفَ بِهِمْ إِلَى مِصْرَ ، وَعَادَ إِلَى سُلْطَانِهِ ، وَقَتَلَ بَيْبَرَسَ وَسَلَارَ سَنَةَ ثَمَانٍ

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة ٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع

مصر ٩٨/٢ - ١٠٢ .

(٢) الأمير سيف الدين سَلَار المنصوري ، كان من أسرى التتار ، فخاص وصار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور بن قلاوون ، واليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفى أمواله وقتله . العبرم ٥ .

وسبعمائة<sup>(١)</sup> . وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر<sup>(٢)</sup> من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها ريعاً ، وأكثرها أوقافاً ، وعين مشيختها ، ونظرها لمن يستعدّ له بشرطه في وقفه ، فكان رِزقُ النَّظر فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه ، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرض ، فولّاني السلطان مكانه توسعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقتُ على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

(١) في العبر ٥ : ان ذلك كان في سنة ٧١٠ وهو الأشبه بالصواب ، لان الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء السخ . ومقتضى السياق : « وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خائفاه ، وهي من اعظم المصانع واحفلها... الخ » .

## فتنة الناصري

وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول  
يليق بهذا الموضع ، ويطلعك على أسرار في تنقل  
أحوال الدول بالتدريج إلى الضخامة والاستيلاء ، ثم  
إلى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره .

وذلك أن الدول الكلّية ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً  
بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصبيّة النسب أو الولاء ،  
وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلّبهم ، فلا يزالون كذلك إلى  
انقراضهم ، وغلب مستحقّين آخرين يترعونه من أيديهم بالعصبيّة  
التي يقتدرون بها على ذلك ، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة  
الأولى ؛ يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة  
والكثرة في العصابة أو القلة ؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعانة  
البأس ، والافتقار من العيش لاستصحاب حال البداوة ، وعدم  
الثروة من قبل . ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها ،  
ويزّين حبّ الشهوات للاقتدار عليها ، فيعظم الترف في الملابس

والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك ، وسائر الأحوال ، ويزداد شيئاً فشيئاً بتزايد النعم وتتسع الأحوال أوسع ما تكون ، ويقصر الدخل عن الخرج ، وتضيق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم ، ويحصل ذلك لكل أحد ممن تحت أيديهم ، لأن الناس تبع لملوكهم ودولتهم ، ويراجع كل أحد نظره فيما هو فيه من ذلك ، فيرجع وراءه ، ويطلب كفاء خرج به بدخله .

ثم إن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشونة ، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والتنعم ؛ فيتطاول من بقي من رؤساء الدولة إلى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها . ويستعد لذلك بما بقي عنده من الخشونة ، ويحملهم على الاقلاع عن الترف ، ويستأنف لذلك العصابة بعشيرته أو بمن يدعو له ؛ فيستولي على الدولة ، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع ، وهو أحق الناس به ، وأقربهم إليه ؛ فيصير الملك له ، وفي عشيرته ؛ وتصير كأنها دولة أخرى ، تمر عليها الأوقات . ويقع فيها ما وقع في الأولى ؛ فيستولي آخر منهم كذلك إلى أن تنقرض الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الأولين أجمع . وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة هؤلاء في النسب ، أو الولاء . سنة الله في عباده .

وكان مبدأ هذه الدولة التركية ، أن بني أيوب لما ملكوا

مصرَ والشام ، كما قَصَصناه عَلَيْكَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَاسْتَقْلَّ بِهَا  
كَبِيرُهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ ، وَشُغِلَ بِالْجِهَادِ وَانْتَزَعَ الْقِلَاعَ وَالْحِصُونَ مِنْ  
أَيْدِي الْفَرَنْجِ الَّذِينَ مَلَكُوها بِالسَّوَاخِلِ ، وَكَانَ قَلِيلَ الْعِصَابَةِ ، إِنَّمَا  
كَانَ عَشِيرُهُ مِنَ الْكُرْدِ يُعْرَفُونَ بِبَنِي هَذَا<sup>(١)</sup> ، وَهُمْ قَلِيلُونَ ،  
وَإِنَّمَا كَثُرَ مِنْهُمْ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ ، بِهَمَّةِ الْجِهَادِ الَّذِي كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ  
يَدْعُو إِلَيْهِ ؛ فَعَظُمَتِ عِصَابَتُهُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْمَعَ دَاعِيَهُ ، وَنَصَرَ اللَّهُ  
الدِّينَ عَلَى يَدِهِ . وَانْتَزَعَ السَّوَاخِلَ كُلَّهَا مِنْ أَيْدِي نَصَارَى الْفَرَنْجِ ،  
حَتَّى مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَلَكُوهُ وَافْحَشُوا فِيهِ  
بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ؛ فَأَذْهَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْوَصْمَةَ عَلَى يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ ،  
وَانْقَسَمَ مُلْكُ بَنِي أَيُّوبَ بَعْدَهُ بَيْنَ وَلَدِهِ وَوَلَدِ أَخِيهِ . وَاسْتَفْحَلَ  
أَمْرُهُمْ ؛ وَاقْتَسَمُوا مَدُنَ الشَّامِ ، وَمَضَرَ بَيْنَهُمْ ، إِلَى أَنْ جَاءَ آخِرُهُمْ  
الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ ابْنُ الْكَامِلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي  
صَلَاحِ الدِّينِ ، وَأَرَادَ الاسْتِكْثَارَ مِنَ الْعِصَابَةِ لِحَايَةِ الدَّوْلَةِ ، وَإِقَامَةَ  
رِسُومِ الْمَلِكِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِاتِّخَاذِ الْمَالِيكَ ، وَالْأَكْثَارِ مِنْهُمْ ، كَمَا  
كَانَ آخِرًا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ؛ وَأَخَذَ التُّجَّارَ فِي جَلْبِهِمْ  
إِلَيْهِ ، فَاشْتَرَى مِنْهُمْ أَعْدَادًا ، وَأَقَامَ لِتَرْبِيَّتِهِمْ أَسَاتِيدَ مُعَلِّمِينَ لِحِرْفَةِ  
الْجِلْدِيَّةِ ، مِنْ الثَّقَافَةِ وَالرَّمْيِ ، بَعْدَ تَعْلِيمِ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْخَلْقِيَّةِ

(١) بفتح الهاء، والذال المعجمة، وبعدها ألف، ثم نون؛ وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأكر

الى ان اجتمع له منهم عددٌ جمٌ يناهز الألف ؛ وكان مقياً بأحواز  
 دِمياط<sup>(١)</sup> في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها  
 دِمياط . وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعةً سَمّاها المنصورة<sup>(٢)</sup> ،  
 وبها توفي رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلاً بها في مُدافعة ساكني دِمياط  
 من الفرنج ، فأصابه هنالك حادث الموت ، وكان ابنه المعظم  
 تورتشاه نائباً في حصن كيفا<sup>(٣)</sup> من ديار بكر وراء الفُرات ،  
 فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتفقّن الفرنج  
 لشأنهم ، فهجموا عليهم ، واقتتلوا فنصر الله المسلمين ، وأسر  
 ملك الفرنج ريد إفرنس ؛ فبعثوا به الى مصر . وحبس بدار  
 لقمان ، الى أن فادّوّه بدِمياط ، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب .  
 ونصبوا - للملك ، ولهذا اللقاء - زوجةً الصالح أيوب واسمها

(١) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الهمزة المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام  
 الزبيدي في « تاج العروس » ، والسمعاني في « الانساب » عن ابي محمد بن أبي حبيب الافندلى  
 قال السمعي معقّباً : « وما عرفناه الا بالبدال المهملة » . ياقوت ٤ / ٨٤ - ٨٨ ، تاج العروس  
 ( دمط ، ذمط ) .

(٢) بلدة أنشأها الملك الكامل بن المادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها في  
 وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنقذ دمياط في رجب  
 سنة ٦١٨ . ياقوت ٨ / ١٧٨ .

(٣) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجيزة ابن عمر من ديار بكر .  
 ياقوت ٣ / ٢٨٦ .



شَجَرُ الدَّرِّ<sup>(١)</sup> ، فكانت تحكم بين الجند ، وتكتب على المراسيم<sup>(٢)</sup> ، ورَ كبت يوم لقاء الفرنج ، تحت الصَّنَاجِقِ<sup>(٣)</sup> ، والجندُ مُخَدِّقُونَ بها ، حتى أعز الله دينه ، وأتم نصره . ثم وصل تورنشاه المعظم ، فأقاموه في خِطَّةِ المُلِكِ مكان أبيه الصالح أيوب ، ووَصَلَ معه مَمَالِكُ يُدَلُّونَ بمكانهم منه ، ولهم به اختصاص ، ومنه مكان ؛ وكان رؤساء الترك يومئذ القائون بالدولة من عهد أبيه وجده . أَقْطَايَ الْجَمْدَارِ<sup>(٤)</sup> وَأَيِّبُكَ التُّرْكَمَانِي ، وَقَلَاوُنُ الصَّالِحِي ، فَأَنْفُوا من تصرفات مَمَالِكِ تُونِشَاه ، واستعلائهم بالحِظِّ من السلطان ، وَسَخِطُوهُمْ وَسَخَطُوا ، وأجمعوا قتله . فلما رحل إلى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسكُو ، وقتلوه ، ونصبوا للأمر أَيِّبُكَ التُّرْكَمَانِي منهم ، واستحدثوا هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها ؛ وَهَلَكَ بعد أَيِّبُكَ ابنه علي المنصور ،

(١) بعضهم يكتبها : « شجرة الدر » ، وكان يحطب باسمها على المنابر ، ونقشت على « السكة » ، وكان نقشها : « السكة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل » ، و خليل هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة أبيه ، وكانت تكنى به . العبر ٥ الخطط ٢٣٧/٢ . ولاق (٢) يعني اتخذت لها « علامة » نغمت بها على المراسيم ، وكانت علامتها - فيما يرى ابن خلدون : « أم خليل » ، أما ابن الوردي فيقول : « والدة خليل » . العبر م ٥ ، ابن الوردي ١٨٣/٢ .

(٣) جمع سنجق وهو في الأصل الرمح ، وكانت تجعل في رأسه الراية ، ومن ثم أصبح معناه : الراية مباشرة . صبح الاعشى ٥ / ٤٥٨ .

(٤) أخبار أقطاي مفصلة في العبر م . والجمدار : هو الذي يتولى الباس السلطان ، أو الأمير ثيابه ؛ وأصله جاما دار فحذف الد منه فقليل : جدار ، وهو مركب من كلمتين فارسيين : « جاما » . ومعناها ثوب ، و « دار » ، ومعناها : ممسك . صبح الاعشى ٥ / ٤٥٩ .

ثم مولاه قُطز ، ثم الظاهر بَيْبَرَس البُنْدُقْدَارِي <sup>(١)</sup> . ثم ظهر أمر الطَّطَر <sup>(٢)</sup> ، واستفحل ملكهم . وزحف هولاءكو بن طولي بن جنكيزخان من خراسان الى بغداد ؛ فملكها ، وقتل الخليفة المستنصر آخر بني العباس . ثم زحف الى الشام ؛ فملك مدنه وحواضره من أيدي بني أيوب ، الى أن استوعبها . وجاء الخبر بأن بركة صاحب صراي شريكه في نسب جنكيزخان ، زحف الى خراسان ؛ فامتعض لذلك ، وكرّ راجعاً ، وشغل بالفتنة معه الى إن هلك . وخرج قُطز من مصر عندما شغل هولاءكو بفتنة بركة ؛ فملك الشام كله ، أمصاره ومدنه ، وأصاره للترك موالي بني أيوب . واستفحلت دولة هؤلاء المماليك ، واتصلت أيامها واحداً بعد واحد ، كما ذكرنا في أخبارهم . ثم جاء قلاوون عندما ملك بَيْبَرَس الظاهر منهم ؛ فتظاهر به ، وأصهر اليه ، والترف يومئذ لم يأخذ منهم ، والشدة والشكيمة موجودة فيهم ، والبأس والرجولة شعار لهم ؛ وهلك الظاهر بَيْبَرَس ، وابناه من بعده ، كما في أخبارهم . وقام قلاوون بالأمر ، فأتسع نطاق ملكه ، وطال ذرع سلطانه ، وقصرت أيدي الطَّطَر عن الشام بمهلك هولاءكو ، وولاية الأصغر من ولده ؛ فعظم ملك قلاوون ،

(١) انظر ترجمته في الخطط ٢ / ٣٠٠ ، ٢٣٨ بولاق . وخبر توليه السلطنة في العبر ٥ . والبندقداري : هو الذي يحمل غرارة البندق خلف السلطان . والبندق : الذي يرمي به وأصله البندق الذي يؤكل ، وهو في العربية الجلوز ؛ صبح الاعشى ٥ / ٤٥٧ .  
(٢) كذا بالأصل ، وهي : النتر .

وَحَسُنْتَ آثَارُ سِيَاسَتِهِ ، وَأَصْبَحَ حُجَّةً عَلَى مَنْ بَعْدَهُ ؛ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ  
ابْنَاهُ : خَلِيلُ الْأَشْرَفِ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ النَّاصِرِ . وَطَالَتْ أَيَّامُهُ ، وَكَثُرَتْ  
عَصَابَتُهُ مِنْ مَمَالِيكِهِ ، حَتَّى كَمُلَ مِنْهُمْ عَدَدٌ لَمْ يَقَعْ لغيرِهِ . وَرُتِبَ  
لِلدَّوْلَةِ الْمَرَاتِبُ ، وَقَدَّمَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ الْأَمْرَاءَ ، وَأَوْسَعَ لَهُمُ  
الْإِقْطَاعَ وَالْوِلَايَاتَ ، حَتَّى تَوَفَّرَتْ أَرْزَاقُهُمْ وَاتَّسَعَتْ بِالتَّخَرُّفِ أَحْوَالُهُمْ .  
وَرَحَلَ أَرْبَابُ الْبُضَائِعِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالتُّجَّارِ إِلَى مِصْرَ ؛ فَأَوْسَعَهُمْ حِجَابًا  
وَبِرًّا . وَتَنَافَسَتْ أَمْرَاءُ دَوْلَتِهِ فِي اتِّخَادِ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ وَالْخَوَانِقِ ،  
وَأَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُمْ غُرَّةً فِي الزَّمَانِ ، وَبِوَاسِطَةِ فِي الدَّوْلِ . ثُمَّ هَلَكَ  
النَّاصِرُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةً ، فَطَفِقَ أَمْرَاءُ دَوْلَتِهِ يَنْصِبُونَ بَنِيهِ لِلْمَلِكِ ،  
وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ ، مُسْتَبَدِّينَ عَلَيْهِمْ ، مُتَنَافِسِينَ فِي الْمَلِكِ ، حَتَّى يَغْلِبَ  
وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ ، فَيَقْتُلَهُ ، وَيَقْتُلَ سُلْطَانُهُ مِنْ أَوْلَادِ النَّاصِرِ ،  
وَيَنْصِبَ آخَرَ مِنْهُمْ مَكَانَهُ ، إِلَى أَنْ انْسَاقَ الْأَمْرُ لَوْلَدِهِ حَسَنِ النَّاصِرِ ؛  
فَقَتَلَ مُسْتَبَدَّهُ شَيْخُونَ ، وَمَلَكَ أَمْرَهُ . وَأَلْقَى زِمَامَ الدَّوْلَةِ بِيَدِ مَمْلُوكِهِ  
يَلْبُغَا ؛ فَقَامَ بِهَا ، وَنَافَسَهُ أَقْرَانُهُ ، وَأَغْرَوَا بِهِ سُلْطَانَهُ ؛ فَأَجْمَعَ قَتْلَهُ .  
وَنُمِيَ إِلَيْهِ الْخَبَرُ وَهُوَ فِي عُلُوفَةِ الْبَرْسِيمِ عِنْدَ خَيْلِهِ الْمُرْتَبِطَةِ لِذَلِكَ ؛  
فَاعْتَزَمَ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ ، وَاسْتَعَدَّ لَلْقَاءِ . وَاسْتَدْعَاهُ سُلْطَانُهُ ؛ فَتَشَاقَلَ  
عَنِ الْقُدُومِ . وَاسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ ، وَرَكِبَ فِي خَاصَّتِهِ إِلَيْهِ ، فَرَكِبَ  
هُوَ لِمَصَادِمَتِهِ . وَهَاجَمَ السُّلْطَانُ فِقْلَهُ ، وَرَجَعَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَهُوَ فِي  
إِتْبَاعِهِ ، فَلَمْ يُلْفِهِ بِقَصْرِهِ ، وَأَغْرَى بِهِ الْبَحْثَ فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ ،

واستصفاه ، وقتله ؛ ونَصَبَ للملك محمد المنصور بن المظفر حاجي بن  
الناصر . وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرى نفسه بالاستيكاثر من  
المماليك ، وتهذيبهم بالتربية ، وتوفير النعم عندهم بالاقطاع ،  
والولايات ، حتى كمل منهم عدد لم تعهده الدولة . ثم خلع المنصور بن  
المظفر لسنتين ، ونصب مكانه للملك شعبان الأشرف بن حسين بن  
الناصر ؛ فأقام على التخت وهو في كفalte ؛ وهو على أوله في إعزاز  
الدولة ، وإظهار الترف والثروة ، حتى ظهرت مخايل العز والنعم ، في  
المساكن والجياد والمماليك والزينة ؛ ثم بطروا النعمة ؛ وكفروا  
الحقوق ، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب ؛  
فهموا بقتله وخلصوا نجيا لذلك في متصيدهم الشتوي ، وقد برزوا  
له بنحيامهم وسلطانهم على عادتهم . ولما أحس بذلك ركب ناجيا بنفسه  
الى القاهرة ؛ فدخلوا على السلطان الأشرف ، وجاءوا به على إثره ،  
وأجازوا البحر ؛ فقبضوا عليه عشي يومهم ، ثم قتلوه في مخبئه  
عشاء . وانطلقت أيديهم على أهل البلد بممرات لم يعهدوها من أول  
دولتهم ، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث  
بالحرَم ، وإطلاق أعنة الشهوات والبغي في كل ناحية ؛ فمرج أمر  
الناس ، ورفع الأمر الى السلطان ، وكثر الدعاء واللجأ الى الله  
 واجتمع أكابر الأمر الى السلطان ، وفاوضوه في كف عاديتهم ؛  
فأمرهم بالركوب ، ونادى في جنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ،

والاحتياط بهم في قبضة القهر ؛ فلم يكن إلا كلمح البصر ، وإذا بهم في قبضة الأسر . ثم عمرت بهم السجون ، وصعدوا وطيف بهم على الجبال ينادى بهم ، إبلاغاً في الشهرة ؛ ثم وُسط<sup>(١)</sup> أكثرهم ، وتُبِعَ البقية بالنفي وألجس بالثغور القصية ، ثم أطلقوا بعد ذلك . وكان فيمن أطلق جماعة منهم بجس الكرك : فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك ، وبركة الجوباني<sup>(٢)</sup> ، والطنبغا الجوباني<sup>(٣)</sup> وجهر كس الخليلي .

وكان طشتمر<sup>(٤)</sup> ، دوادار يلبغا<sup>(٥)</sup> ، قد لطف محله عند السلطان الأشرف ، وولي الدوادارية له ، وكان يؤمل الاستبداد كما كان أستاذه يلبغا ، فكان يمتال في ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليلبغاوية من حيث سقطوا ، يريد بذلك اجتماعهم عصابة له على هواه ، ويُغري السلطان بها شفاهاً ورسالة ، إلى أن اجتمع أكثرهم

(١) وسطه توسيطاً : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موّسطاً .

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير زين الدين . كان أميراً شجاعاً يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ هـ .

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير ؛ كان من خيار الأمراء ديناً ، وعقلاً وشجاعة . مات في الواقعة بين منطاش والناصرى خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقاً لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه في العبرم هـ .

(٤) طشتمر بن عبد الله العلائي الدوادار الأمير سيف الدين ، توفي في دمياط منفياً سنة

أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة ، والظاهر برقوق .

(٥) لقب للذي يمسك دواة السلطان أو الأمير ، ويتولى من الأمور ما

حكم ، أو تنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٤٦٢/٥ .

ببَاب السُّلْطَان الْأَشْرَف ، وَجَعَلَهُمْ فِي خِدْمَةِ ابْنِهِ عَلِيٍّ وَلِيٍّ عَهْدِهِ .  
 فَلَمَّا كَثُرُوا ، وَأَخَذَتْهُمْ أَرْيَاحُ الْعِزِّ بِعَصَبِيَّتِهِمْ ، صَارُوا يَشْتَطُون  
 عَلَيَّ السُّلْطَان فِي الْمَطَالِب ، وَيَعْتَزُّون بِعَصْبِيَّةِ الْيُلْبُغَاوِيَّة . وَاعْتَزَم  
 السُّلْطَان الْأَشْرَفُ عَام سَبْعَةٍ وَسَبْعِينَ عَلَى قَضَاءِ الْفَرَض ، فَخَرَجَ لَذَلِكَ  
 خُرُوجاً فَخْماً ، وَاسْتَنَابَ ابْنَهُ عَلِيّاً عَلَى قَلْعَتِهِ وَوُملَكِهِ فِي كِفَالَةِ  
 قُرَاطِي<sup>(١)</sup> مِنْ أَكْبَرِ الْيُلْبُغَاوِيَّة ، وَأَخْرَجَ مَعَهُ الْخَلِيفَةَ وَالْقَضَاةَ . فَلَمَّا  
 بَلَغَ الْعُقْبَةَ<sup>(٢)</sup> اشْتَطَّ الْمَمَالِكُ فِي طَلَبِ جَرَايَتِهِمْ مِنَ الْعُلُوفَةِ وَالزَّادِ ،  
 وَاشْتَطَّ الَّذِينَ عَمَرَ كَذَلِكَ فِي طَلَبِ أَرْزَاقِهِمْ مِنَ الْمَتَوَلِّينَ لِلْجَبَايَةِ .  
 وَصَارَ الَّذِينَ مَعَ السُّلْطَانِ إِلَى الْمَكَاشِفَةِ فِي ذَلِكَ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ،  
 وَطَشْتَمَرِ الدَّوَادَارِ يُغْضِي عَنْهُمْ ، يَحْسَبُ وَقْتَ اسْتِبْدَادِهِ قَدْ أَزِفَ ،  
 إِلَى أَنْ رَأَوْهُمْ السُّلْطَانُ بِالزَّجْرِ ؛ فَرَكَبُوا عَلَيْهِ هُنَالِكَ ، وَرَكِبَ مِنْ  
 خِيَامِهِ مَعَ كَفِيفٍ مِنْ خَاصَّتِهِ ، فَتَضَحَّوهُ بِالنَّبْلِ ، وَرَجَعَ إِلَى خِيَامِهِ ،  
 ثُمَّ رَكِبَ الْهَجْنَ مَسَاءً ، وَسَارَ فَصَبَّحَ الْقَاهِرَةَ ، وَعَرَّسَ هُوَ وَلَفِيفُهُ  
 بِقُبَّةِ النَّصْرِ .

وَكَانَ قُرَاطِي كَافِلُ ابْنِهِ عَلِيٍّ الْمَنْصُورِ ، حَدَّثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَاضِرٍ

(١) قُرَاطِي ( أَوْ قُرَاطَاي ) بَنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُغْزِي الْأَشْرَفِي سَيْفُ الدِّينِ ، رَفِيقُ أَيْنَبِكْ ،  
 وَصَهْرُهُ ، وَكَانَ مِنْ أَصَاغِرِ الْأُمَرَاءِ فِي دَوْلَةِ الْأَشْرَفِ شُعْبَانَ بْنِ حُسَيْنٍ ، وَلَكِنَّهُ أَصْبَحَ فِي أَيَّامِ  
 وَلَدِهِ عَلِيٍّ أَمِيرَ مِثَّةٍ ، ثُمَّ مَقْدَمُ أَلْفٍ . وَاخْتَلَفَ مَعَ صَدِيقِهِ أَيْنَبِكْ ، فَجَبَّسَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ٧٧٩ .  
 (٢) مَوْقِعُهَا فِي النِّهَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّامِلَةِ لِحُلُجِ الْعُقْبَةِ .

الخاص المَقْسِي مكالمة عند مَغِيب السُّلْطَانِ أَحَقَّدَتْهُ . وجاشت بها  
 كان في نفسه ؛ فأغرى علياً المنصور بن السلطان بالتوثب على الملك ،  
 فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعقبه ؛ وقد أجلس  
 علياً مكفو له بباب الاسطبل ، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه  
 بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صَبَّحَهُم الخبر بوصول السلطان الأشرف  
 الى قبة النصر لَيْلَتِيذ ، فطاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا ؛ فوجدوا  
 أصحابه نياماً هنالك ، وقد تسلل من بينهم هو ويَلْبُغا الناصري<sup>(١)</sup>  
 من أكابر اليلبغاوية ؛ فقطعوا رؤوسهم جميعاً ، ورجعوا بها تسيل  
 دماً . ووجهوا لفقدان الأشرف ، وتابَعُوا النِّدَاءَ عليه ، واذا بامرأة  
 قد دَلَّتْهم عليه في مكانٍ عَرَفَتْهُ ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه  
 لوقته بخلع أكتافه ، وانعقدت بيعة ابنه المنصور . وجاء طشتمر  
 الدَّوَادَار من الغد بمن بقي بالعقبة من الحَرَمِ ، وخلف السلطان ،  
 واعتزم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فدافعوه  
 وغلبوه وحصل في قبضتهم ؛ فخلعوا عليه بناية الشام ، وصرفوه  
 لذلك ، واقاموا في سلطانهم . وكان أَيْنَبُكُ أميراً آخر من اليلبغاوية<sup>(٢)</sup>

(١) يلبغا بن عبد الله الناصري الأتابكي الأمير سيف الدين ، وهو صاحب الواقعة مع الملك  
 الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤ / ٤٤٠ - ٤٤٢ .

(٢) أينبك بن عبد الله البدري الأمير سيف الدين ، كان هو وقرطاي صاحبي الحل والعقد  
 في الدولة . استبد بالمنصور بن الأشرف ، ثم تغلب عليه يلبغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

قد ساهم قُرطاي في هذا الحادث ، وأصهرَ إليه في بعض حُرَمه ؛  
فاستنام له قُرطاي ، وطمع هو في الاستيلاء . وكان قُرطاي مواصلاً  
صَبُوْحه بَغْبُوْقه ، ويستغرق في ذلك ؛ فركب في بعض أيامه ؛  
وأركب معه السلطان عليا ، واحتاز الأمر من يد قُرطاي ،  
وصيره إلى صَفَد<sup>(١)</sup> ، واستقلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشام مع  
سائر امرائه ؛ فخرج أَيْنَبَك في العساكر ، وسرَّح المقدمة مع جماعة  
من الأمراء ؛ وكان منهم بَرْقُوق وبركة المستوليان عَقِب ذلك ؛  
وخرج هو والسلطان في السَّاقَة<sup>(٢)</sup> ؛ فلما انتهوا إلى بُلَيْيس ،  
ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه ، ورجع اليه أخوه مُنْهَزِما ؛ فرجع  
إلى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب في قُبَّة  
النَّصر ؛ فسرح العساكر لذلك ؛ فلما فصلوا فرَّ هو هارباً ، وقُبِضَ  
عليه وثُقِفَ بالأسكندرية . واجتمع أمراء اليُلبغاوية يقدمهم  
قطلقتمر العلاني ، ويُلْبغا النَّاصري ودُمُرْدَاش اليوسفي وبركة  
وبَرْقُوق ؛ فتصدى دُمُرْدَاش ويُلْبغا وبركة وبَرْقُوق ، إلى الاستقلال  
بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالأسكندرية .  
وفوضوا الأمر إلى يُلْبغا النَّاصري ، وهم يرونه غيرَ خبير ، فأشاروا

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشَّمال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود  
سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .

(٢) ساقَة الجيش : مؤخره .



باستدعاء طشتمر ، وبعثوا اليه ، وانتظروا . فلما جاءه الخبر بذلك  
 ظنّها مُنيّةً نفسه ، وسار الى مصر ؛ فدفعوا الامر اليه ، وجعلوا له  
 التولية والعزل وأخذ برقوق ، وبركة يستكثران من الماليك ،  
 بالاستخدام والجاه ، وتوفير الاقطاع ، إكشافاً لعصبيتها ؛ فانصرفت  
 الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه  
 بالتوثب ؛ ولما كان الاضحى في سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه  
 على غير رويّة ، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا .  
 وتقبض على طشتمر ، وحبس بالاسكندرية ، وبعث معه يلبيغا  
 الناصري ، وخذلت الدولة للأميرين برقوق وبركة من المنازعين ،  
 وعمّروا المراتب بأصحابيها . ثم كثر شغب التركمان والعرب  
 بنواحي الشام ، فدفعوا يلبيغا الناصري إلى النّياحة بحلب ليستكفوا  
 به في تلك النّاحية . ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال ،  
 وأضمر كل واحد منها لصاحبه ، وخشي منه ؛ فقبض برقوق على  
 بطانة بركة من عصابته ليحضر بذلك جناحه ؛ فارتاع لذلك بركة ،  
 وخرج بعصابته إلى قبة النصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب  
 هنالك ، ورجا ان تكون الدائرة له . وأقام برقوق بمكانه من  
 الاسطبل ، وسرّب أصحابه في جموعهم إلى محاولة أولئك . وأقاموا  
 كذلك أياماً يُغادونهم ويرأون حوزتهم ثلاثاً ، الى أن عَضَّتْ بركة  
 وأصحابه الحرب ؛ فانفضوا عنه ، وجي ببركة ، وبعث به إلى

الاسكندرية ؛ فحُيِسَ هنالك الى ان قتله ابن عَرَّام نائب الاسكندرية . وارتفع أصحابه الى برقوق شاكين ؛ فشأروهم منه بإطلاق أيديهم في النِّصْفَة ؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة ، بعد أن سُمِرَ ، وُحْمِلَ على جَمَلٍ عقاباً له ؛ ولم يُقْنِعْهم ذلك ، فأطلق أيديهم فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق — بعد ذلك — بجَمَلِ الدَّوْلَةِ ينظر في أعطافها <sup>(١)</sup> بالتهديد ، والتَّسْديد ، والمُقَارَبَة <sup>(٢)</sup> ، والحرص على مكافأة الدُّخْلِ بالخَرْجِ . ونَقَّصَ ما أفاض فيه بنو قَلَاوُن من الامعان في التَّرفِ ، والسَّرْفِ في العوائد والنِّفقات ، حتى صار الكيلُ في الخَرْجِ بالمكيال الرَّاجِحِ ، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كُلُّه برقوق ، ونظر في سدَّ خَلَلِ الدَّوْلَةِ منه ، وإصلاحها من مَفسدِها ، يَعْتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخْتِ ، وحيَازة اسم السلطان من أولاد قَلَاوُن ، بما أَفسَدَ التَّرفُ منهم ، وأحال الدولة بسببهم ، الى أن حصل من ذلك على البُغْيَةِ ، ورَضِيَ به أصحابه وعصابته ؛ فجلَسَ على التَّخْتِ في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين ، وتلقَّبَ بالظاهر . ورتَّبَ أهل عصابته في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولة من آل قلاون الى برقوق الظاهر وبنيه . واستمرَّ الحال على ذلك ،

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

ونافسه اليلبغاوية - رَفَقَاؤُهُ فِي وَلَاءِ يَلْبُغَا - فيما صار اليه من الأمر ،  
وخصوصاً يَلْبُغَا نَائِبَ حَلَبَ ، فاعتزم على الانتقاض . وشعر به  
الظاهر فبعث باستدعائه ؛ فجاء ، وَحَبَسَهُ مُدَّةً ، ثم رجعته الى نيابة  
حَلَبَ ، وقد وَغَرَ صَدْرُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ . وارتاب به الظاهر ؛  
فبعث سنة تسعين دَوَادِرَهُ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ بِالْحَاجِبِ .  
وَانْتَقَضَ ، وَاسْتَدْعَى نَائِبَ مَلَطِيَّةَ <sup>(١)</sup> ، وهو منطاش من امراء  
اليلبغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودعا نواب الشام الى المسير الى  
مصر إلباً على الظاهر ؛ فأجابوه ، وساروا في جملته ، وتحت لوائه ؛  
وبلغ الخبر الى الظاهر برقوق ؛ فأخرج عساكره مع امراء اليلبغاوية  
من أصحابه : وهم الدوادار الأكبر يونس <sup>(٢)</sup> ، وَجِهَرَ كَسْ  
الخليلي أمير الاسطبل ، والأتاكي ايتمش ، وأيدكار حاجب الحجاب <sup>(٣)</sup>  
وَأَحْمَدُ بْنُ يَلْبُغَا اسْتَأْذَنَهُمْ <sup>(٤)</sup> . وخرج الناصري من حلب في عسكره ،

(١) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامية تكسر الطاء ، وتشدد الياء .  
تقع في الشمال الغربي لدير بكر من الجمهورية التركية . ياقوت ٨ / ١٥٠ - ١٥١ ، تاج العروس  
( ملط ) .

(٢) يونس بن عبد الله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر للملك الظاهر ، ويعرف  
بالنوروري ( نسبة الى معتقه الامير جرجي النوروري ) . كان من أعظم دولة الظاهر برقوق ،  
حارب منطاش ، والناصري ، وعاد في جيش منهزم الى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن  
نيف وسنين سنة . خطط المقر يزي ٢ / ٤٢٦ بولاق .

(٣) أيدكار بن عبد الله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة  
الحجاب . ثم انحاز الى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق الى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .  
(٤) الامير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكاً لوالده ، ولذلك  
عفا عنه حين انحاز الى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ؛ فانضم  
اليهم احمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ؛ فانتصر عليهم ، وقبض على احمد بن يلبغا ،  
فقتله في سنة ٨٠٢ .

واستنفر العرب والتركمان وامراء الشام ؛ ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق ، نَزَعَ كثير من عسكر السلطان اليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فانفضُّوا . ونجا ايتمش الى قلعة دمشق ؛ فدخلها ، وقتل جَهْرَ كَس . ويونس ، ودخل الناصري دمشق ؛ ثم أجمع المسير الى مصر ، وعميت أنباؤهم حتى أطلُّوا على مصر .

وفي خلال ذلك أطلق السلطانُ الخليفةَ من حَبْسِهِ كان بعض الغواة أنمى عنه ، أنه داخله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقرط<sup>(١)</sup> في قتل السلطان يوم ركوبه الى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صَحَّ الخبر أمر بقتله ، وحَبَسَ الخليفةَ سبعا الى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل الى قِطا اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غَشِيَ الليل ، ثم دخل الى بيته وخرج متنكراً ، وتسرب في غيابات المدينة ، وباكر الناصري وأصحابه القلعة ، وأمير حاج بن الأشرف ؛ فأعادوه الى التخت ولقبوه المنصور . وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وكان فيهم الطنبغا الجوباني الذي كان أمير مجلس<sup>(٢)</sup> ، وقبض السلطان الظاهر عليه ،

(١) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان له اقدام وشجاعة وصل بهما الى مرادفة الامراء في مذاهبهم . قتل سنة ٧٨٥ .

(٢) معناه صاحب الشورى في الدولة ، وهو ثاني الأتابك ، وتلو رتبته . العبرمه صبح الاعشى . ٤٥٥ / ٥

وحبسه أياماً ، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق ، ثم ارتفعت عنه  
 الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخل الناصري نائب حلب في ذلك ،  
 وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة  
 والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالاسكندرية ؛ فلما ملك  
 الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن الأشرف<sup>(١)</sup> على التخت ، بعث  
 عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا في البحث  
 عنه ، فاستدعى الجوباني واستناب له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف  
 له ، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصري في المضي إليه  
 وتأمينه . وحبسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار  
 أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله ، وبالع في ذلك منطاش ، ووصل نعيم  
 أمير بني مهنا<sup>(٢)</sup> بالشام للصحابة بينه وبين الناصري ، فحضهم على قتله ،  
 ومنع الجوباني من ذلك وفاءً بيمينه ، فقلت صدورهم منه .  
 واعتزموا على بعثه إلى الكرك ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى  
 الاسكندرية ، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ،

(١) الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالنصور  
 ( غير لقبه من الصالح إلى المنصور ) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق إلى الملك .

(٢) نعيم بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبيته القدم الراسخة في الإمارة .  
 وفي ظفر برقوق به ، ومنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :

الملك الظاهر في عزه      أذل من ضل ومن طاشا  
 ورد في قبضته طائماً      نعيماً العاصي ومنطاشا

فقد له عند المرساة ، وخالفوا به الطريق الى الكرك ، وولوا عليها  
 نائباً وأوصوه به ، فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبر في اغتيال الدولة ،  
 وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه ، وحسبه  
 بالأسكندرية ، وركب مُنْتَقِضاً ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن  
 يحاصر الناصري بالقلعة . واستحاش هو بأمراء اليلبغاوية ؛ فداهنوا  
 في إجابته ، ووقفوا بالرُّميلة امام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً  
 حتى انفضَّ جمع الناصري ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق  
 بفارسكو ، وردُّوه ؛ فحبسه منطاش بالأسكندرية مع صاحبه ،  
 واستقلَّ بأمر الملك . وبعث الى الكرك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النائب ،  
 واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة . وبثَّ الظاهر  
 عطاءه في عامة اهل الكرك ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي  
 الذي جاء في ذلك ؛ فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا .  
 واستألف أفارين من العرب ، واتصل به بعض مماليكه ، وسار الى  
 الشام . واعترضه ابن باكيش <sup>(١)</sup> نائب غزّة <sup>(٢)</sup> ، فأوقع به الظاهر ،  
 وسار الى دمشق ، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه امير حاج ،  
 وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق . وسبقه الظاهر فمنعه

(١) الحسن بن باكيش الامير بدر الدين التركماني ، نائب غزّة من قبل منطاش . قتله الظاهر  
 بالقاهرة سنة ٧٩٣ ، وكان مشهوراً بالشجاعة .

(٢) مدينة فلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي ، ويروى له فيها شعر . ياقوت

جنتمر نائب دمشق<sup>(١)</sup>؛ فواقعه، وأقام محاصراً له. ووصل اليه كمشبقا<sup>(٢)</sup> الحموي نائب حلب، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهز للقاءه بعسكره؛ فلقىه وأزال عِلَّه، فأقام له أُبَّهة المالك. وبيناهم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطائه وعساكره لقتالهم، فلقىهم الظاهر بشَقْحَب<sup>(٣)</sup>، فلما تراءى الجمعان، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضَّهم، وانهزم كمشبقا إلى حلب. وسار منطاش في اتِّباعه؛ فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج؛ ففضَّها، واحتاز السلطان، والخليفة والقضاة، ووكل بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عَمِيَاء من امرهم، وفرَّ منطاش إلى دمشق. واضطرب الظاهر أخبِيتَه<sup>(٤)</sup>، ونزل على دمشق محاصراً لها. وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه، وجمع القضاة والخليفة؛ فشهدوا على أمير حاج بالخلع، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه. ورحل إلى مصر فلقى بالطريق خبر القلعة بمصر، وتغلَّب ممالِكُه عليها؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان ممالِكُ السلطان محبوسين هنالك في مُطَبَقٍ أُعِدَّ لهم، فتناجوا في

(١) الأمير جنتمر التركاني.

(٢) كمشبقا بن عبد الله الحموي اليلغاوي الأمير سيف الدين. توفي سنة ٨٠١.

(٣) شَقْحَب (كجعفر): موضع قرب دمشق، نسب إليه جماعة من المحدثين. (تاج العروس).

(٤) كذا في الأصول، وهي مكررة في أماكن متعددة من تاريخ العبر. وأظنها محرفة أثناء

النسخ عن كلمة (ضرب). فتصبح العبارة: «وضرب الظاهر أخبِيتَه».

التَّسَوُّرُ منه الى ظاهره ، والتوثُّبُ على القلعة والملك ، فخرجوا ،  
وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية .  
وملك ممالك الظاهر القلعة ، ورأسهم مملوكه بَطَّاء<sup>(١)</sup> ، وساس أمرهم ،  
وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك الى الظاهر ، أغدَّ السَّير  
الى مصر . وتلقَّاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره . ودخل  
مُنْتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين ، ووَلَّى بَطَّاء دواداراً ، وبعث  
عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وأعتبهم ، وأعادهم الى مراتبهم .  
وبعث الجوباني الى دمشق ، والناصري الى حلب كما كانا ، وعادت  
الدولة الى ما كانت عليه . ووَلَّى سودون على نيابته ، وكان ناظراً  
بالخانقاه التي كنت فيها ، وكان يَنْقِمُ عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما  
يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه ، ومن تصرُّفات  
دواداره بالخانقاه ، وكان يستنبيه عليها ؛ فوَغَرَ صدره من ذلك ؛

(١) الأمير بطا الطولوني ، خلع عليه الظاهر برقوق في سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب  
دمشق ، ولها من قبل استاذة في ذم ، القعدة سنة ٧٩٣ الى ان توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل  
ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في « العبر » م ٥ .



وكان الظاهر يَنْقِم علينا معشر الفقهاء فتاوى<sup>(١)</sup> استدعائها مِنَّا مَنْطَاش ، وأكرهنا على كتابها ؛ فكتبناها ، وورئنا فيها بما قدرنا عليه . ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً علي ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنِّي ، فوَلَّى فيها غيري وعزَلني عنها . وكتبت الى الجوباني بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعه بها ؛ فتغافل عنها ، وأعرض عني مُدَّة ، ثم عاد الى ما أعرف من رضاه وإحسانه ، ونصُّ الأبيات :

سيدي والظنونُ فيكَ جَمِيلَة      وأياديكَ بالأُماني كَفِيلَة

(١) في السلوك : « في ٢٥ قعدة ، احضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر ، وزيد فيها : « واستعان على قتل المسلمين بالكفار ، وحضر الخليفة المتوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن ابي البقاء الشافعي . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملحق الشافعي ، وعدة ذون هؤلاء ، في القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت اليهم الفتوى ، فكتبوا عليها باجمعهم ، وانصرفوا » .

وفي تاريخ ابن الفرات :

« وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الأبلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقيني ، وولده القاضي جلال الدين عبدالرحمن قاضي العسكر ، وقاضي القضاة بدر الدين بن ابي البقاء الشافعي ، وقضاة العسكر ، ومفتون ( كذا ) دار العدل ، وكتبت فتاوى تتضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر برقوق ام لا ؟ وذكروا في الفتاوى اشياء تخالف الشرع الشريف ، ومما تضمنته الفتاوى : انه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، فسألوم ( كذا ) الجماعة عن ذلك ، فقبل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره ، ولم يكن الأمر كذلك ، وانما ارادوا التلبس على العلماء المقتنين ، فعند ذلك وضعوا ( كذا ) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في القاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر احد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

لَا تَحُلْ عَنْ جَمِيلِ رَأْيِكَ إِنِّي مَالِي الْيَوْمَ غَيْرُ رَأْيِكَ حِيلَةَ  
 وَاصْطَلَعَنِي كَمَا اصْطَلَعْتَ بِأَسَدًا ۖ يَدٍ مِنْ شِفَاعَةِ أَوْ وَسِيلَةِ  
 لَا تُضِغْنِي فَلَسْتُ مِنْكَ مُضِيعًا ۖ ذِمَّةُ الْحَبِّ ، وَالْأَيَادِي الْجَمِيلَةِ  
 وَأَجْرَنِي فَالْخُطْبُ عَضٌّ بِنَابِيهِ وَأَجْرَى إِلَى حِمَايَ خِيُولَهُ  
 وَلَوْ أَنِّي دَعَا بِنَصْرِي دَاعٍ ۖ كُنْتُ لِي خَيْرَ مَعَشَرٍ وَفَصِيلَةٍ  
 أَنَّهُ أَمْرِي إِلَى الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ أُمُورَ الدُّنْيَا لَهُ مَكْفُولَةً  
 وَأَرَاهُ فِي مُلْكِهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَوَلَاهُ ثُمَّ كَانَ مُدِيلَهُ  
 أَشْهَدْتَهُ عُنَايَةَ اللَّهِ فِي التَّمَحِيصِ أَنْ كَانَ عَوْنَهُ وَنُيْلَهُ  
 الْعَزِيزُ السُّلْطَانُ وَالْمَلِكُ الظَّاهِرُ ۖ هَرُّ فَخْرٍ الدُّنْيَا وَعِزُّ الْقَبِيلَةِ  
 وَنَجِيرُ الْإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ ۖ كَادَ زَلْزَالُ بَأْسِهِ أَنْ يُزِيلَهُ  
 وَمُدِيلُ الْعَدُوِّ بِالطُّعْنَةِ النَّجْلَا ۖ ۚ تُفَرِّي مَاذِيهِ وَنُصُولَهُ <sup>(١)</sup>  
 وَشُكُورُ لَأَنْعَمَ اللَّهُ يُفْنِي فِي رِضَاهُ غُدُوَّهُ وَأَصِيلَهُ  
 وَتَلَطَّفَ فِي وَصْفِ حَالِي وَشَكْوَى خَلَّتِي <sup>(٢)</sup> يَا صَفِيَّهُ وَخَلِيلَهُ  
 قُلْ لَهُ وَالْمَقَالُ يَكْرُمُ مِنْ مِثْلِكَ فِي تَحْفِلِ الْعُلَا أَنْ يَقُولَهُ  
 يَا خَوْنَدَ الْمُلُوكِ يَا مَعْدِلَ الدِّ ۖ هَرُّ إِذَا عَدَلَّ <sup>(٣)</sup> الزَّمَانُ فُصُولَهُ  
 لَا تَقْصِرْ فِي جَبْرِ كَسْرِي فَمَا زِلْتُ أَرْجِيكَ لِلْأَيَادِي الطَّوِيلَةِ

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والمأذي ( بالمعجمة ) : كل سلاح  
 من الحديد . والنصول جمع فصل ؛ وهو حديدة السهم .  
 (٢) الحلة ( بالفتح ) : الحاجة ، والفقر .  
 (٣) عدل الحكم : أقامه ، والميزان سواء .

أنا جَارٌ لَكُمْ منعم حماء ونهَجْتُمْ إِلَى المعَالِي سَبِيلَهُ  
وْغَرِيبٌ أَنْتُمْوهُ عَلَى الْوَحْشَةِ وَالْحَزْنِ بِالرَّضَى وَالسُّهُوَلَةِ  
وَجَمَعْتُمْ مِنْ شَمْلِهِ فَقَضَى اللَّهَ فِرَاقًا وَمَا قَضَى مَأْمُولَهُ  
غَالَهُ الدَّهْرُ فِي الْبَنِينَ وَفِي الْأَهْلِ لَمْ وَمَا كَانَ ظَنُّهُ أَنْ يَغُولَهُ <sup>(١)</sup>  
وَرَمَتْهُ النَّوَى <sup>(٢)</sup> فَقِيدًا قَدْ انْجَتَّاحَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُهُ وَأُصُولُهُ  
فَجَذَبْتُمْ بِضَبْعِهِ <sup>(٣)</sup> وَأَنْتُمْ كُلُّ مَا شَاءَتِ الْعُلَا أَنْ تُنِيلَهُ  
وَرَفَعْتُمْ مِنْ قَدْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْكُو إِلَيْكُمْ عِيَاءَهُ وَخُمُولَهُ  
وَفَرَضْتُمْ لَهُ حَقِيقَةً وَدَّيْ حَاشَ لِلَّهِ أَنْ تُرَى مُسْتَحِيلَةً  
هَمَّةٌ مَا عَرَفْتُهَا لِسِوَاكُمْ وَأَنَا مِنْ خَبَرَتِ دَهْرِي وَجِيلِهِ  
وَالْعِدَا نَمَّقُوا أَحَادِيثَ إِفْكِ كُلِّهَا فِي طَرَائِقِ مَعْلُولَةٍ  
رَوَّجُوا فِي شَأْنِي غَرَائِبَ زُورٍ نَصَبُوهَا لِأَمْرِهِمْ أَحْبُودَةً  
وَرَمَوْا بِالَّذِي أَرَادُوا مِنَ السَّبْهَتَانِ ظَنًّا بِأَنْهَا مَقْبُولَةٌ  
زَعَمُوا أَنِّي أَتَيْتُ مِنَ الْأَقْوَا لَمْ مَا لَا يُظَنُّ بِي أَنْ أَقُولَهُ  
كَيْفَ لِي أَغْمَطُ الْحَقُوقَ وَأَنِّي شَكَرْتُ نِعْمَا كَمْ عَلَيَّ الْجَزِيلَةُ ؟  
كَيْفَ لِي أَنْكُرُ الْأَيَادِي الَّتِي تَعْرِفُهَا الشَّمْسُ وَالظِّلَالُ الظِّلِيلَةُ ؟  
إِنْ يَكُنْ ذَا فَقْدِ بَرُثْتُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَخُنْتُ جَهْرًا رَسُولَهُ

(١) يشير إلى غرق أهله في المركب الذي أقبلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هذا .

(٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثه لا غير .

(٣) الضبع : العضد .

طوقونا أمر الكتاب فكانت لقداح الظنون فينا <sup>(١)</sup> مجيلة  
لا ورب الكتاب أنزله الله على قلب من وعى تنزيله  
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جنأه طوعاً ولا اقتفينا دليله  
إنما سامنا الكتاب ظلوم لا يرجى دفاعه بالحيلة  
سخط ناجز وحلم بطي <sup>(٢)</sup> وسلاح <sup>(٣)</sup> للوخز فينا صقيلة  
ودعوني ولست من منصب الحكم ولا ساجباً لديهم ذيوله  
غير أنني وشى بذكرى واش يتقسي أوتاره وذحوله <sup>(٤)</sup>  
فكتبنا معولين على حلمك تمحو الاصار عنا الشقيلة  
ما أشرنا به لزيد ولا عمرو ولا عيئوا لنا تفصيله  
إنما يذكرون عمن وفيمن منبهات أحكامها منقولة  
ويظنون أن ذاك على ما اضمروا من شناعة او رذيلة  
وهو ظن عن الصواب بعيد وظلام لم يحسنوا تأويله  
وجناب السلطان نزّهه الله عن العاب <sup>(٤)</sup> بالهدى والفضيلة  
وأجل الملوك قدراً صفوح يرتجي ذنب دهره ليقله  
فاقبلوا العذر إننا اليوم نرجو بحياة السلطان منكم قبوله

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن المقرئى وابن الفرات .

(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .

(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة ، والجمع ذحول .

(٤) العاب : العيب .

واعينوا على الزمان غريباً  
 جاركم ضيفكم نزيل حاكم  
 جدّدوا عنده رسوم رضاكم  
 داركوه برحمة فلقد أم  
 وانحلوه جبّراً فليس يرجي  
 يا حميد الآثار في الدهر يا  
 كيف بالخانقاه ينقل عني  
 بل تقلدتها شهوراً بمرسو  
 ولقد كنت آملاً لسواها  
 وتوثقت للزمان عليها  
 أبلغن قصتي فثلك من ية  
 واغنموا من مثوبي ودعائي  
 يشتكي جدب عيشه ومحو له  
 لا يضيع الكريم يوماً نزيله  
 فرسوم الكرام غير محيلة  
 ست عقود اضطباره محلولة  
 غير إحسانكم لهذي النحيلة  
 الطنبغايا روض العلا ومقيله  
 لا لذنب أو جنحة منقولة  
 م شريف وخلعة مسدولة  
 وسواها بوعدة ان ينيله  
 بعقود ما خلتها محلولة  
 صد فعل الحسنى بمن ينتمي له  
 قرينة عند ربكم مقبولة

وفي التعريض بسفره الى الشام :

واصحب العز ظافراً بالأمان  
 واعتل في سعادة الملك الظا  
 وتعيد الدنيا لأحسن شمل  
 واطلب النصر من سعادته يصحبك دأباً في الظعن والخلولة  
 واترك العصابة العدا مفلولة  
 هر أن تمحو الأذى وتري له  
 حين تضحني بسعده مشؤولة  
 واطلب النصر من سعادته يصحبك دأباً في الظعن والخلولة

وَارْتَقِبْ مَا يُحِلُّهُ بِالْأَعَادِي فِي جُمَادَى أَوْ زِدْ عَلَيْهِ قَلِيلَهُ  
وَاخْذُوهُ فَأَلَّا بِحُسْنِ قَبُولٍ صَدَّقَ اللَّهُ فِي الزَّمَانِ مَقُولَهُ  
فَلَقَدْ كَانَ يَحْسُنُ الْقَالَ عِنْدَ الْمُصْطَفَى دَائِمًا وَيَرْضَى جَمِيلَهُ

### السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالاتحاف بَطَرْفِ  
أوطانهم ، للمواصلة والاعانة متى دعا إليها داع . وكان صلاح الدين  
ابن أيوب هادي يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن ،  
واستجاش به بأسطوله في قطع مَدَدِ الفرنج عن سواحل الشام حين  
كان مَعْنِيًّا بِإِرْجَاعِهِمْ عَنْهَا ، وَبَعَثَ فِي ذَلِكَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنِ  
مُنْقِذٍ <sup>(١)</sup> مِنْ أَمْرَاءِ شَيْزَر <sup>(٢)</sup> ، فَأَكْرَمَ الْمَنْصُورُ رَسُولَهُ ، وَقَعَدَ عَنْ  
إِجَابَتِهِ فِي الْأَسْطُولِ لِمَا كَانَ فِي الْكِتَابِ إِلَيْهِ <sup>(٣)</sup> مِنَ الْعَدُولِ عَنْ

(١) هكذا سماه ابن خلدون هنا ، وفي «المقدمة» ؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٢/ ٤٣٣) ،  
والروضتين لأبي شامة ١٧٣/ ١ ، والاستقصاء ١٧٤/ ١ ، ان اسمه عبدالرحمن .

وهو شمس الدين ابو الحرث ( وكناه في الروضتين ابا الحزم ) ، عبدالرحمن بن نجم الدولة ابي  
عبدالله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

(٢) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الامراء من بني  
منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، وذلك في  
سنة ٤٧٤ . ياقوت ٥/ ٢٣٤ ، وفيات ١/ ٤٦٤ ، تاريخ ابي الفداء ٢/ ٣٥٢ ( سنة ٥٠٢ ) .  
وانظر اخبار بني منقذ في تاريخ ابي الفداء ايضاً ٣/ ٣٢ وما بعدها .

(٣) جاء في الروضتين ( ٢/ ١٧٠-١٧٥ ) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل الى المنصور  
الموحدي ، ونص رسالة اخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين .

تخطيطه<sup>(١)</sup> بأمير المؤمنين ؛ فوجدَهَا غُصَّةً في صدره مَنَعَتْهُ من إجابته الى سؤاله ؛ وكان المانع لصالح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني<sup>(٢)</sup> بما كان يُشاوره في أموره ، وكان مُقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر ؛ فرأى الفاضل أن الخلاف لا تنعقد لاثنين في الملة كما هو المشهور ، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك ، لما يرون أن الخلاف ليست لقباً فقط ، وإنما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالسند والحماية ؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق . فلما انقرضت دولة الموحدين ، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم ، وصار كبرائهم ورؤسائهم يتعاهدون قضا ، فرضهم لهذه البلاد الشرقية ، فيتعاهدهم ملوكها بالاحسان اليهم ، وتسهيل طريقهم ؛ فحسن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلة ، بالاتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية ؛ فسنت لذلك طرائق وأخبار مشهورة ، من حقها أن تذكر ؛ وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين ، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة<sup>(٣)</sup> ، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاون ، هدية ضخمة ، أصحابها كريمة من كراتم داره ، احتفل فيها ما شاء من أنواع

(١) تخطيطه .

(٢) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسقلاني ، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل

مجير الدين ( ٥٢٩-٥٩٦ ) . وفيات ٣٥٧/١ وما بعدها .

(٣) انظر العبرم ٥ ، والاستقصا ٢/٤٠ - ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

الطُّرَف ، وأصناف الذَّخَائِر ، وخصوصاً الخيل والبغال .

أخبرني الفقيه ابو إسحق الحَسَنَوي ، كاتب الموحِّدين بتُونِس ، أنه عاين تلك الهدية عند مُرورها بتُونِس ، قال : وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمئة ، وسكت عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، ابو الحسن التَّشِيَّ كَبِيرُ أَهْلِ الْفُتْيَا بِتِلِمَسَانَ . ثم كافأ النَّاصِرُ عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل<sup>(١)</sup> مع أميرين من أمراء دولته ، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يُحاصر تِلِمَسَانَ ، فبعثهما الى مَرَّاكُشَ لِلنَّزَاهَةِ<sup>(٢)</sup> في محاسنها ، وأدركه الموت في مَغِيبِهما ، ورجعا من مَرَّاكُشَ ؛ فجهَّزهما حافده ابو ثابت المالك بعده ، وشيَّعهما الى مصر ؛ فاعترضتهما قبائل حُصَيْنَ وَنَهَبُوهُمَا<sup>(٣)</sup> ، ودخلا بِجَايَةَ ، ثم مَضَيَا الى تُونِس ، ووصلا من هنالك الى مصر .

ولما ملك السلطان ابو الحسن تِلِمَسَانَ ، اقترحت عليه جاريةُ أبيه

(١) جاء في الاستقصا : ٢ / ٤١ : « .... وأما الملك الناصر ، فانه كفاً السلطان يوسف على هديته ، بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل الفيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عظماء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٢) استعمال النَّزَاهَةِ ، والنزوة بهذا المعنى محتمل فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، حيث تجد اقوالهم .

(٣) في الاستقصا : ٢ / ٤٢ : « .... ولما انتهوا الى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب بالفقر ، فانتهبوهم ، وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا اليه بوجهاً ، وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .



أبي سعيد ، وكانت لها عليه تربية ، فأرادت الحج في أيامه وبعنايته ، فأذن لها في ذلك ، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سُويد ، وجماعة من امرائه وبطانته ، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العتاق ، والمطايا الفُره وقماش الحرير والكتان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كلُّ مصرٍ من المغرب بأصناف من صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا انه كان فيها مَكيلة من اللالي ، والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بغير ، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس ، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف المحلاة بالذهب والآلي ، كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ، وتدرجت على الولا ، إلى آخر الخمس مائة ، فكانت قيمته مائة دينار . تحدث الناس بهذه الهدية دهراً ، وعرضت بين يدي الملك الناصر ، فأشار إلى خاصيته بانتهابها فنهبت بين يديه ، وبُولغ في كرامة أولئك الضيوف ، في إنزالهم وقرآهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم ، وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم ، وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . ولما فصل<sup>(١)</sup> أرسل ملك المغرب ،

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في أماكن متفرقة من كتاب العبر .

وقد قَضَوْا فرَضَهُمْ ، بعثَ المَلِكُ النَّاَصِرَ مَعَهُمْ هَدِيَّةً كَفَاءَ هَدِيَّتِهِمْ ، وكانت أصْنَافُهَا حَمَلُ القُمَاشِ من ثِيَابِ الحَرِيرِ والقَمَاشِ المَصْنُوعَةِ بِالأَسْكَندَرِيَّةِ ، تُحْمَلُ كُلُّ عَامٍ إِلَى دارِ السُّلْطَانِ ، قِيَمَةُ ذَلِكَ الحَمَلِ خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَخِيَمَةٌ مِنْ خِيَامِ السُّلْطَانِ المَصْنُوعَةِ بِالشَّامِ عَلى مِثَالِ القُصُورِ ، تَشْتَمِلُ عَلى بِيوتٍ لِلْمَراقِدِ ، وَأَوَاوِينَ لِلجُلُوسِ وَالطَّابِخِ ، وَأَبْرَاجٍ لِلإِشْرَافِ عَلى الطَّرِقاتِ ، وَأَبْرَاجٍ أَحَدُهَا لِلجُلُوسِ السُّلْطَانِ لِلْعَرَضِ ؛ وَفِيهَا تَمَثَّلُ مَسْجِدٌ بِمَحْرَابِهِ ، وَعَمَدُهُ ، وَمَأذَنَتُهُ ؛ حَوَائِطُهَا كُلُّهَا مِنْ خَرَقِ الكَتَّانِ المَوْصُولَةِ بِحَبِّكَ الحِياطَةِ مَفصَّلَةً عَلى الأشْكالِ الَّتِي يَقتَرِحُهَا المَتَّخِذُونَ لَهَا . وَكَانَ فِيهَا خِيَمَةٌ أُخْرَى مُسْتَدِيرَةٌ الشَّكْلِ ، عَالِيَةُ السَّمَكِ ، مَخْرُوطَةُ الرَأْسِ ، رَحْبَةُ الفِئَاءِ ، تَظَلُّ خَمْسَ مِائَةِ فَارَسٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَعِشْرَةَ مِنْ عِتَاقِ الخَيْلِ بِالمِراكِبِ الذَّهَبِيَّةِ الصَّقِيلَةِ ، وَلِجْمُهَا كَذَلِكَ ؛ وَمرَّتْ هَذِهِ الهَدِيَّةُ بِتُونِسَ ، وَمَعَهَا الخُدَّامُ القَائِمُونَ بِنَصبِ الأَبْنِيَةِ ، فَعَرَضُوهَا عَلى السُّلْطَانِ بِتُونِسَ وَعَايَنَتْ يَوْمَئِذٍ أَصْنَافَ تِلْكَ الهَدِيَّةِ ، وَتَوَجَّهُوا بِهَا إِلَى سُلْطَانِهِمْ ، وَبَقِيَ التَّعَجُّبُ مِنْهَا دَهْرًا عَلى الأَلْسِنَةِ . وَكَانَ مَلُوكُ تُونِسَ مِنَ المُوَحِّدِينَ ، يَتَعَاهَدُونَ مَلُوكَ مِصرَ بِالهَدِيَّةِ فِي الأَوَاقَاتِ .

وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مِصرَ ، وَاتَّصَلَتْ بِالمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَغَمَرَنِي بِنِعْمِهِ وَكَرَامَتِهِ ، كَاتَبَتْ السُّلْطَانُ بِتُونِسَ يَوْمَئِذٍ ، وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا عِنْدَ المَلِكِ

الظاهر من التَّشَوُّفِ الى جِيَادِ الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها [من  
تحمُّل] الشِّدَّةِ والصَّبْرِ على المتاعب، وكان يَتَوَلَّى لي مثل ذلك، وأنَّ خيلَ  
مصر قصَّرت بها الرَّاحَةَ والتَّنْعَمَ، عن الصَّبْرِ على التَّعب؛ فحَضَضْتُ  
السلطانَ بَتُونِسَ على إتحاف الملك الظاهر بما يَنْتَقِيهِ من الجِيَادِ الرَّائِعَةِ،  
فبعث له خمسةً انتقاها من مراكبه، وحملها في البَحْرِ في السَّفينِ الواصلِ  
بأهلي وولدي؛ ففرقت بمرسى الأسكندرية، ونفقت تلك الجِيَادَ  
مَعَ ما ضاع في ذلك السَّفينِ، وكلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ.

ثم وَصَلَ إلينا عامَ ثلاثة وتسعين شيخُ الأعرابِ : المَعْقِلُ  
بالمغرب، يُوسُفُ بنَ عليّ بن غانم، كبير أولاد حُسَيْنِ نَاجِيَاً من سَخَطِ  
السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، من ملوك بني مَرِينِ بفاس،  
يَروم قَضَاءَ فَرَضِهِ، ويتوسَّلُ بذلك لِرَضَى سُلْطَانِهِ؛ فوجد السلطان  
غائِباً بالشام في فِتْنَةِ مَنْطَاشٍ؛ فَعَرَضَتْهُ لِمَصْحَبِ المَحْمَلِ. فلَمَّا عَادَ من  
قَضَاءِ فَرَضِهِ، وكان السلطانُ قد عادَ من الشام، فَوَصَلَتْهُ بِهِ، وحضَرَ  
بين يَدَيْهِ، وشكَّابَتْهُ؛ فكتب الظاهر فيه شفاعَةً لسلطانِ وطنه  
بالمغرب، وحمله مع ذلك هدية إليه من قُماشٍ وطيبٍ وقِسيٍّ،  
وأوصاه بانتقاء الخيل له من قُطرِ المغرب، وانصرف؛ فقبِلَ سُلْطَانُهُ  
فيه شفاعَةَ الظَّاهِرِ، وأعادَه الى مَنزِلَتِهِ. وانتَقَى الخيولَ الرَّائِعَةَ  
لمهاداة الملك الظاهر، وأحسَّن في انتقاء أصناف الهدية؛ فعاجلته المنية

دُونِ ذَلِكَ ، وَوَلِي ابْنُهُ أَبُو فَارِس ، وَبَقِيَ أَيَّاماً ثُمَّ هَلَكَ ، وَوَلِي أَخُوهُ  
أَبُو عَامِر ، فَاسْتَكْمَلَ الْهَدِيَّةَ ، وَبَعَثَهَا صُحْبَةَ يُوسُفَ بْنِ عَلِيٍّ الْوَارِدِ  
الْأَوَّلِ .

وَكَانَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ ، لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ وَصُولُ الْخَيْلِ مِنَ  
الْمَغْرِبِ ، أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مِنْ أَمْرَائِهِ مَنْ يَنْتَقِي لَهُ مَا يَشَاءُ بِالشِّرَاءِ ،  
فَعَيَّنَ لِذَلِكَ مَمْلُوكاً مِنْ مَمَالِيكِهِ مَنْسُوباً إِلَى تَرْبِيَةِ الْخَلِيلِيِّ ، اسْمُهُ  
قُطْلُوبُغَا<sup>(١)</sup> ، وَبَعَثَ عَنِّي ، فَحَضَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَشَاوَرَنِي فِي ذَلِكَ  
فَوَافَقْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ يَكُونُ طَرِيقُهُ ، فَأَشْرْتُ بِالْكِتَابِ فِي ذَلِكَ  
إِلَى سُلْطَانِ تُونِسَ . مِنَ الْمُوَحِّدِينَ<sup>(٢)</sup> ، وَسُلْطَانِ تِلِمَسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ  
الْوَادِ ، وَسُلْطَانِ فَاسَ وَالْمَغْرِبِ مِنْ بَنِي مَرِينٍ ، وَحَمَّلَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ  
مِنْهُمْ هَدِيَّةً خَفِيفَةً مِنَ الْقُمَاشِ وَالطِّيبِ وَالْقِسِيِّ ، وَأَنْصَرَفَ عَامَ تِسْعَةِ  
وَتِسْعِينَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَشَيَّعَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ مُلُوكِهِ إِلَى مَأْمَنِهِ ، وَبَالَغَ  
فِي إِكْرَامِهِ بِمَا يَتَعَيَّنُ . وَوَصَلَ إِلَى فَاسَ ، فَوَجَدَ الْهَدِيَّةَ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ ،  
وَيُوسُفَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى الْمَسِيرِ بِهَا عَنْ سُلْطَانِهِ أَبِي عَامِرٍ مِنْ وَلَدِ السُّلْطَانِ  
أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُخَاطَبِ أَوَّلًا . وَأَظْلَمَهُمْ عِيدُ الْأَضْحَى بِفَاسَ ، وَخَرَجُوا

(١) هُوَ قُطْلُوبُغَا بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّوْفِي سَنَةَ ٨٢١ . تَوَلَّى نِيَابَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْحِجَابَةِ أَيَّامَ الظَّاهِرِ ،  
وَنِيَابَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَيَّامَ الْمُؤَيَّدِ . قَالَ فِي الْمَنْهَلِ : وَأُظْهِرَ مِنِّي مَمَالِيكَ جَارِكْسَ الْخَلِيلِيِّ أَمِيرَ أَخُورَ ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَفْصٍ الْمُوَحِّدِي .

متوجهين الى مصر ، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه ، على  
الرسول قُطْلُوْبُغا ومن في جملته بما أقرَّ عيونهم ، وأطلق بالشكر  
السنتهم ، وملاً بالثناء ضيائهم ، ومرثوا بتليمان ، وبها يومئذ ابو  
زيان ، ابن السلطان ابي حمو من آل يغمراسن بن زيان ، فبعث  
معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوك الشعر ، فامتدح  
الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، ونصها من أولها الى آخرها :

لن الرّكائب سيرهن ذميل<sup>(١)</sup> والصبر - إلا بعدهن - جميل  
يا أيها الحادي رويدك<sup>(٢)</sup> إنها ظعن<sup>(٣)</sup> يميل القلب حيث تميل  
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها فالحسن فوق ظهورها محمول  
لله آية أنجم : شفافه تنجاب عنها للظلام سدول  
شهب بأفاق الصدور طلوعها ولها بأستار الجدول أفول  
في الهودج المزروع منها عادة ترع الدجى بجبينها فيحول  
فيكأنها قر على غصن على متني كئيب والكئيب مهيل  
نارت مطايا فثار بي الهوى واعتاد قلبي زفرة وغليل  
أومت لتوديعي فغالب عبرتي نظرت تخالسه العيون كليل

(١) الذميل : ضرب من سائر الإبل فوق التزيد .

(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .

(٣) جمع ظعينة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

دمع أغْيَضَ منه خوف رقيبها طوراً وَيَغْلِبُنِي الأَسَى فَيْسِيلُ  
 وَيَبِخَ المحبِّ وَشَتَّ به عِبْرَاتُهُ فَكَأَنَّهَا قَالَ عليه وَقِيلُ  
 صَانَ الهَوَى وَجَفَوْنَهُ يَوْمَ النَّوَى لِمَصُونِ جَوْهَرِ دَمْعِيهِمْ تَذِيلُ  
 وَتَهَايَ به أَسَدُ الشَّرَى فِي خَيْسِهَا<sup>(١)</sup> وَيَرُوْعُهُ ظَنِّي الْحَمَى الْمَكْحُولُ  
 تَأَبَّى النفوسُ الضَّيْمَ إِلَّا فِي الهَوَى فَالْحَرْ عِبْدٌ وَالْعَزِيزُ ذَلِيلُ  
 يَا بَانَةَ الوَادِي وَيَا أَهْلَ الْحَمَى هَلْ سَاعَةٌ تَصْفَيْنِ لِي فَأَقُولُ  
 مَا لِي إِذَا هَبَّ النِّسِيمُ مِنَ الْحَمَى أَرْتَاحُ شَوْقاً لِلْحَمَى وَأَمِيلُ  
 خَلُّوا الصَّبَا يَخْلُصْ إِلَى نَسِيمِهَا إِنْ الصَّبَا لَصَابَتِي تَعْلِيلُ  
 مَا لِي أَحَلَّا عَنْ وَرُودِ مَحَلِّهِ وَأَذَادُ عَنْهُ وَوَرْدُهُ مَنُهَوْلُ<sup>(٢)</sup>  
 وَالبَابُ لَيْسَ بِمَرْتَجٍ<sup>(٣)</sup> عَنْ مَرْتَجٍ<sup>(٤)</sup> وَالظَّنُّ فِي المَوَالِي الْجَمِيلِ جَمِيلُ

..

من لي بزورة روضة الهادي الذي ما مثله في المرسلين رسول  
 هو أحمد ومحمد والمصطفى والمجتبى وله انتهى التفضيل  
 يا خير من أهدى الهدى وأجل من أثنى عليه الوحي والتّزِيلُ

(١) الخيس : موضع الأسد .

(٢) حلأ الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

(٣) باب مرتج : مغلق .

(٤) من الرجاء .

وحي<sup>١</sup> من الرّ من يُلقيه على قلب النبي محمد جبريل  
مدحتك آيات الكتاب وبشرت بقدومك التّوراة والانجيل  
صلة الصلاة عليك تحلو في فيهما تكرر ذكرك المفسول  
فور بيعك المأهول إن بأضلعي قلباً بحبك ربّعه مأهول  
هل من سبيل للسرى حتى أرى خير الورى فهو المنى والسؤل  
حتم تطلني اللّياالي وعدّها إن الزّمان بوّعه لبخيل  
ما عاقني إلاّ عظيم جرأتي إن الجرائم حملهنّ ثقل  
أنا مُغرم فتعطّفوا أنا مُذنب فتجاوزوا أنا عاثر فأقبلوا  
وأنا البعيد فقرّبوا والمستجير فأمنوا والمرتجى فأزايوا  
يا سائقاً نحو الحجاز حمولة<sup>(١)</sup> والقلب بين حمولة<sup>(٢)</sup> محمول  
لمحمد بلغ سلام سميّه فذمّاه بمحمد موصول  
وسلّ الاله له اغتفار ذنوبه يُسمع هناك دعاؤك المقبول

..

وعن المليك أبي سعيد فلتنبّ فلکم له نحو الرسول رسول  
متحمّل لله كسوة بيته يا حبّذاك المحمل المحمول  
سعد المليك أبي سعيد إنّه سيف على أعدائه مسلول

(١) الحمولة ( بالفتح ) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .

(٢) المحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

مَلِكٌ يَحْجُجُ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بِهِ فَلَهُمْ بِهِ نَحْوَ الرَّسُولِ وَصُولٌ<sup>(١)</sup>  
 مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنَامُ وَأُمِنْتَ سُبُلَ الْمَخَافِ<sup>(٢)</sup> فَلَا يَخَافُ سَبِيلُ  
 فَأُمْلِكْ ضَخْمَ وَالْجَنَابِ مَوْمَلٌ وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلٌ  
 وَالصَّنْعُ أَجْمَلُ وَالْفَخَارُ مَوْثَلُ وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلُ  
 يَا مَالِكَ الْبَحْرَيْنِ بُلِغْتَ الْمَنَى قَدْ عَادَ مِصْرُ عَلَى الْعِرَاقِ يَصُولُ  
 يَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ حَقٌّ لَكَ الْهَنَاءُ فَعَلَيْكَ مِنْ رَوْحِ<sup>(٣)</sup> الْإِلَهِ قَبُولُ  
 يَا مُتَحَنِّنِي وَمُفَاتِحِي بَرَسَالَةٍ سَلَسَالَةٍ يُزْهِى بِهَا التَّرْسِيلُ  
 أَهْدَيْتَهَا حَسَنَاءَ بَكْرًا مَا لَهَا غَيْرِي، وَإِنْ كَثُرَ الرَّجَالُ، كَفِيلُ  
 ضَاءِ الْمِدَادِ مِنَ الْوِدَادِ بِصُحْنِهَا حَتَّى اضْمَحَلَّ<sup>(٤)</sup> عُيُوسُهُ الْمَجْبُولُ  
 جُمِعَتْ وَحَامِلَهَا بِحُضْرَتِنَا كَمَا جُمِعَتْ بُشَيْنَةُ فِي الْهَوَى وَجَمِيلُ<sup>(٥)</sup>  
 وَتَأَكَّدَتْ بِهَدِيَّةٍ وَدِيَّةٍ هِيَ لِلْإِخَاءِ الْمُرْتَضَى تَكْمِيلُ  
 أَطْلَعْتَ فِيهَا لِلْقِسِيِّ أَهْلَةً يَرْتَدُّ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كَلِيلُ  
 وَحَسَامَ نَصْرٍ زَاهِيًا بِنُضَارِهِ رَاقَ الْعَيُونَ فِرْنَنْدُهُ الْمَعْسُولُ  
 مَاضِي الشَّبَابِ<sup>(٦)</sup> لِمَصَابِهِ تَعْنُو الظُّبَا فِيهِ تَصُولُ عَلَى الْعِدَا وَتَطُولُ

(١) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمنعاب في سفره . صح الأعشى ٩ / ٢٥٠ .

(٢) المخاف : موضع الخوف .

(٣) روح الاله : رحمته .

(٤) يعني : اضمحل العيوس الطبيعي .

(٥) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبشينة صاحبة التي عشقها منذ أيام صباه .

(٦) الشبابة : حد السيف وطرفه ، والجمع شباب .



وَبَدَائِعِ الْحَلَلِ الْيَمَانِيَةِ الَّتِي رَوَى مُعَاطِفَهَا بِصَبْرِ النَّبِيلِ  
فَأَجَلْتُ فِيهَا نَظْرِي فَرَأَيْتُهَا تُحَفًّا يَجُولُ الْحَسَنُ حَيْثُ تَجُولُ  
جَلَّتْ مُحَاسِنُهَا فَأَهْوَى نَحْوَهَا بِقَمِّ الْقَبُولِ اللَّثْمُ وَالْتَقْبِيلُ  
يَا مُسَمِّدِي وَأَخِي الْعَزِيزَ وَمُنْجِدِي وَمَنْ الْقُلُوبَ إِلَى هَوَاهُ تَمِيلُ  
إِنْ كَانَ رَسْمُ الْوُدِّ مِنْكَ مَذْيَلًا بِالْبَرِّ وَهُوَ بِذِيْلِهِ مُوَصُولُ  
فَنظِيرُهُ عِنْدِي وَلَيْسَ يَضِيرُهُ بِمُعَارِضٍ وَهُمْ وَلَا تَخِيلُ  
وَدُّ «يَزِيدُ» وَ«ثَابِتُ» شَهِدَا بِهِ وَ«لُخَالِدُ» بِخُلُودِهِ تَذِيلُ  
وإِلَيْكُمَا تُنَبِّئُكَ صَدَقَ مَوَدَّتِي صَحَّ الدَّلِيلُ وَوَافَقَ الْمَدْلُولُ  
فَإِذَا بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سَمْتُ فَلَدَيْكَ إِقْبَالٌ لَهَا وَقَبُولُ  
دَامَ الْوَدَادُ عَلَى الْبِعَادِ مُوَصِّلًا بَيْنَ الْقُلُوبِ وَحَبْلُهُ مُوَصُولُ  
وَبَقِيَتْ فِي نَعْمٍ لَدَيْكَ مَزِيدُهَا وَعَلَيْكَ يَضْفُو ظِلُّهَا الْمَسْدُولُ

ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَهَا بِتُونِسَ ، فَبَعَثَ سُلْطَانُ تُونِسَ أَبُو فَارِسٍ عَبْدُ  
الْعَزِيزِ ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ ، هَدِيَّةً ثَالِثَةً  
اِنْتَقَى لَهَا جِيَادَ الْخَيْلِ ، وَعَزَّزَ بِهَا هَدِيَّةَ السُّلْطَانَيْنِ وَرَآه ، مَعَ  
رَسُولِهِ مِنْ كِبَارِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ تَافَرَاكِينَ ، وَوَصَلَتْ  
الْهَدَايَا الثَّلَاثُ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ فِي آخِرِ السَّنَةِ ، وَعُرِضَتْ  
بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ ، وَانْتَهَبَ الْخَاسِكِيَّةُ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَقْمِشَةِ

والسيوف والبُسُط ومراكب الخيل ، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتبط الباقيات .

وكانت هديةُ صاحبِ المغربِ تشتمل على خمسةٍ وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللَّجُم الذهبية ، والسيوف المحلَّاة ، وخمسةٍ وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتَّان والصوف والجلد ، منتقاةً من أحسن هذه الأصناف .

وهديةُ صاحبِ تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموَّهة ، وأحمالاً من الأقمشة .

وهديةُ صاحبِ تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُغشَّاةً ببراقع الثياب من غير مراكب ، وكلها أنيق في صنعه مُستطَرَف في نوعه ؛ وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه ، وحضر الرُّسل ، وأدَّوا ما يجب عن ملوكهم . وعاملهم السلطان بالبرِّ والقَبول ، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضَّخمة . ثم حضر وقت "خروج الحاج" ؛ فاستأذنوا في الحجِّ مع تحمُّل السلطان ، فأذن لهم ، وأرغد أزودتهم . وقضوا حجَّهم ، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرَّته . ثم انصرفوا

إلى مواطنهم ، وشيَّعهم من برّ السلطان وإحسانه ، ما ملأ حقائبهم ،  
وأسنى ذخيرتهم ، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكرٌ جميلٌ  
بما تناولتُ بين هؤلاء الملوك من السَّعي في الوُصلة الباقية على الأبد ،  
فحمدت الله على ذلك .

## ولاية القضاء الثانية بمصر

ما زلتُ ، منذُ العزل عن القضاء الأوّل سنة سبعٍ وثمانين ،  
مكبّاً على الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ؛ والسلطان يولي في  
الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه الى ذلك داع ، من موت القائم  
بالوظيفة ، او عزله ؛ وكان يراني الأوّل بذلك ، لولا وجودُ الذين  
شَغَبُوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، وكبار حاشيته ، حتى  
انقرضوا . واتفقت وفاةُ قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن  
التَّسِي<sup>(١)</sup> ، وكنتُ مقيماً بالفيوم لضمّ زرعي هنالك ؛ فبعث عني ،  
وقلّدتني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانائة ؛  
فجريتُ على السنن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً  
وعادة ؛ وكان رحمه الله يَرْضَى بما يسمع عني في ذلك . ثم أدركته

(١) هو احمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيري الاسكندري المالكي المشهور بابن  
النسي ( بفتح التاء والدون وكسر السين المهملة ) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١ .

الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأحضر الخليفة والقضاة والأمرأ ،  
وعهد الى كبير أبنائه فرج ، ولاخوته من بعده واحداً واحدا ،  
وأشهدهم على وصيته بما أراد . وجعل القائم<sup>(١)</sup> بأمر ابنه في سلطانه الى  
أتابكه أيتمش<sup>(٢)</sup> ، وقضى رحمة الله عليه ، وترتبت الأمور من بعده  
كما عهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان  
يعرف بتم<sup>(٣)</sup> ، وسمع بالواقعات بعد السلطان فغص أن لم يكن هو  
كافل ابن الظاهر بعده ، ويكون زمام الدولة بيده . ووفق  
سائرة الفتن يغروا به بذلك ، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة  
الأتابك<sup>(٤)</sup> أيتمش ، وذلك أنه كان للأتابك دوا دار غر يتناول الى  
الرئاسة ، ويرفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه ، وما له من  
الكفالة على السلطان ؛ فنقموا حالهم مع هذا الدوا دار ، وما يسوهم  
به من الترفع عليهم ، والتعرض لاهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان  
بالخروج عن ربه الحجر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاة بمجلسه

(١) كذ بالأصل ؛ ولعلها « القيام بأمر » ،

(٢) هو أيتمش بن عبدالله الأسندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين ؛ أتابك العساكر  
بالديار المصرية ؛ أصله من ممالك اسندمر البجاسي الجرجاني (نسبة الى جرجي نائب حلب) وكان  
ملك أيتمش قبل أن يحرره الظاهر برقوق .

(٣) الأمير سيف الدين تم بن عبد الله الحسني الظاهري ؛ اسمه الاصل تنيك ؛ وغلب عليه  
« تم » ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من ممالك الظاهر برقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق .

(٤) يطلق « أتابك » في أيام الممالك ؛ على مقدم العساكر او القائد العام ؛ على انه ابو  
العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين : « أتا » بمعنى « أب » ؛ و « بك » ومعناها  
أمير . صبح الأعشي ٤ / ١٨ ، ١ / ٦ .

للدّعى على الأتابك باستغناؤه عن الكافل ، بما عُليم من قيامه بأمره  
وُحسن تصرفاته . وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة ، وأهل  
المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبلها القضاة . وأعذروا الى الأتابك  
فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم ، ونفذ الحكم يومئذ برفع الحجر  
عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه ، وانفضّ الجمع ، ونزل  
الأتابك من الاسطبل الى بيت سُكناه . ثم عاود الكثير من  
الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يروه صواباً ، وحملوا الأتابك  
على نقضه ، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه .  
وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي ، وقاتلهم أولياء  
السلطان فرج عشيّ يومهم وليلتها ؛ فهزموهم ، وساروا الى الشام  
مستصرخين بالنائب تنم ، وقد وقر في نفسه ما وقر من قبل ؛ فبرّ  
وفادتهم ، وأجاب صريحهم . واعتزموا على المضي الى مصر . وكان  
السلطان لما انفضت جموع الأتابك ، وسار الى الشام ، اعتمله في  
الحركة والسفر لخضد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جمادى  
حتى انتهى الى غزّة ، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تنم ، والأتابك ،  
والأمراء الذين معه ، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان ، وقد  
احتشدوا وأوعبوا ، وانتهوا قريباً من الرملة<sup>(١)</sup> ؛ فراسلهم السلطان

(١) الرملة : مدينة بفلسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلاً ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب

الصليبية ؛ ياقوت ٤ / ٢٨٦ .

مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي <sup>(١)</sup> ، وناصر الدين الرّمّاح ، أحد المعلّمين لشقافة الرّمّاح ، يُعذر اليهم ، ويَحْمِلُهُمْ على اجتماع الكلّمة ، وتركِ الفِتنة ، وإجابتهم الى ما يطلبون من مصالحهم ؛ فاشتطّوا في المطالب ، وصمّموا على ما هم فيه . ووصل الرّسولان بنجرهم ، فركب السلطان من الغد ، وعبّى عساكره ، وصمّم لمعاجلتهم ؛ فلتيمهم أثناء طريقه ، وهاجمهم فهاجموه ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين . وصرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فما غشّهم الليل إلّا وهم مصفّدون في الحديد ، يقدّمهم الأمير تيم نائب الشام وأكابرهم كلهم . ونجا الأتابك أيتمش الى القلعة بدمشق ، فأوى إليها ، واعتقله نائب القلعة . وسار السلطان الى دمشق ؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغرّ ، وأقام بها أياما ، وقتل هؤلاء الأمراء المعتقلين ، وكبيرهم الأتابك ذنجاً ، وقتل تيم من بينهم خنقا ، ثم ارتحل راجعاً الى مصر .

و كنتُ استأذنت في التقدّم الى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس ، فأذن لي في ذلك . ووصلتُ الى القدس ودخلت المسجد ، وتبرّكت بزيارته والصلاة فيه ، وتعفّفت عن الدخول الى القمامة <sup>(٢)</sup> لما فيها من الاشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناء أم

(١) صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي .

(٢) القمامة ( بالضم ) ؛ كنيسة كبرى بيت المقدس . تاج العروس ( قم ) ؛ ياقوت ١٥٨/٧ .

النصرانية على مكان الصليب برعهم ، فنكرته نفسي ، ونكرت الدخول اليه . وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب ، وانصرفت الى مدفن الخليل عليه السلام . ومررت في طريقي اليه بيت لحم ، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيدت القياصرة عليه بناء بساطين من العمدة الصخور ، منجدة مصطفة ، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة ، وتواريخ دولهم ، ميسرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم . ثم ارتحلت من مدفن الخليل الى غزة ، وارتحلت منها ، فوافيت السلطان بظاهر مصر ، ودخلت في ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنين وثمانمائة . وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال<sup>(١)</sup> ، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية ؛ فحرّضه بعض أصحابه على السعي في المنصب ، وبذل ما تيسر من مآجده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك ، فتمت سعايته في ذلك ، وليس منتصف المحرم سنة ثلاث ؛ ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه ، الى ان كان السفر لمدافعة قمر عن الشام .

(١) علي بن يوسف بن عبدالله ( او ابن مكّي ) الدميري ( او الزبيري ) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

### سفر السلطان الى الشام لمدافعة الططر عن بلاده

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقد اتفق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة أوفرَ منها عدداً ، هؤلاء في جنوب الارض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم ، فتارةً يملك العرب ويَزْحلون<sup>(١)</sup> الأعاجم إلى آخر الشمال ، وأخرى يزْحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سنة الله في عباده .

فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الططر<sup>(٢)</sup> ، واستقرت الدُّول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتَمَره بأصناف البشر على وَجْه الأرض ، في وَسْط البُقْعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه ، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يُسمونها الأقاليم ، مبتدأةً من

(١) زحل عن مكانه : زل ، وبمعد .

(٢) كذا بالأصل ، وهي : التتر .



خط الاستواء بين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤس السكان ، إلى تمام السبعة أقاليم . وهذا الخط في جنوب المعمور ، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله . وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف ، لافراط الحر فيه ، وهو يمنع من التكوين ؛ وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة ، لافراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضاً . ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة ، في مدخل فسيح ، وانساح مع خط الاستواء مغرباً ؛ فمر بالصين ، والهند والسند واليمن ، في جنوبها كلها . وانتهى إلى وسط الأرض ، عند باب المندب<sup>(١)</sup> ، وهو البحر الهندي والصيني ، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب ، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامة والحجاز ومدن<sup>(٢)</sup> وآيلة<sup>(٣)</sup> وفاران<sup>(٤)</sup> ،

(١) باب المندب : هو المضيق الواقع في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر .

(٢) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى مبدأ خليج العقبة ، وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٣) آيلة ( Aila أو Ailat ) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة ، وكان في القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى ، وقد ورد ذكرها في التوراة ؛ في سفر الملوك ٩ : ٢٦ ، ٢٧ . خطط المقرئزي ٢٩٨ / ١ ( طبع مصر ) .

(٤) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور ، ويقول المقرئزي في الخطط ( ٣٠٤ / ١ طبع مصر ) : « ... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم ، وبها نخل كثير مشر ، أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهي خراب يمر بها العربان » .

وانتهى إلى مدينة القلزم<sup>(١)</sup> ، ويُسمى بحر السويس ، وفي شرقيه بلاد الصعيد إلى عيذاب<sup>(٢)</sup> ، وبلا البجاة<sup>(٣)</sup> ؛ وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يُسمى الخليج الأخضر<sup>(٤)</sup> ، ومرّ شمالاً إلى الأبله<sup>(٥)</sup> ، ويسمى بحر فارس<sup>(٦)</sup> ، وعليه في شرقيه بلاد فارس<sup>(٧)</sup> ، وكرمان<sup>(٨)</sup> ، والسند<sup>(٩)</sup> ؛ ودخل الماء أيضاً ، من جهة الغرب في خليج متضايق في الاقليم الرابع ، ويُسمى بحر الزقاق<sup>(١٠)</sup> ،

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليه ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت ١٤٥ / ٧ : « ... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار الميناء الى مدينة قربها يقال لها السويس » .

(٢) عيذاب : مدينة مصرية على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وكانت في العصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهندية التي كانت تأتي من عدن ، ولتجار افريقية الوسطى ، ياقوت ٢٤٦ / ٦ .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها « البجة » قديم يرجع الى ما قبل الاسلام ، الخطط ( طبع مصر ١ / ٣١٣-٣١٩ ) . صبح الأعشى ٥ / ٢٧٣ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة . ياقوت ١ / ٨٩ - ٩٠ ، صبح الأعشى ٤ / ٣٣٦ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، او بلاد المعجم : هي التي تعرف اليوم باسم ايران اشتقاقاً من كلمة « آرية » وتدل الآن على المملكة الفارسية . ياقوت ٦ / ٣٢٤ .

(٨) كرمان : احدى المدن الجبلية من مدن ايران : وكانت في القديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب ، وصحارى لوط في الشرق . ياقوت ٨ / ٢٤١ - ٢٤٤ .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من اقليم السند بلاد امكران الواقعة في جنوب فارس . ياقوت ٥ / ١٥١ .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

تكون سمته هنالك ثمانية عشر ميلاً . ويمر مُشرقاً ببلاد البربر ،  
من المغرب الاقصى والأوسط وأرض إفريقية والأسكندرية  
وأرض التيه<sup>(١)</sup> وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلاد الافرنج  
كلها ؛ وخرج منه في الشمال خليجان : الشرقي منها خليج القسطنطينية<sup>(٢)</sup>  
والغربي خليج البنادقة<sup>(٣)</sup> ، ويُسمى هذا البحر البحر الرومي ،  
والشامي .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقيها وغربيها  
بنصفين : فنصفها الغربي في وسطه البحر الرومي ، وفي النصف الشرقي  
من جانبه الجنوبي البحر الهندي ؛ وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة  
من النصف الشرقي ، لأن البحر الرومي المتوسط فيه ، انفسح في  
انسياحه ، فغمر الكثير من أرضه . والجانب الجنوبي منه قليل  
العمارة لشدة الحر ؛ فالعمران فيه من جانب الشمال فقط ، والنصف  
الشرقي عمران أكثر بكثير ، لأنه لا بحر في وسطه يزاحم . وجانبه  
الجنوبي فيه البحر الهندي ، وهو متسع جداً ؛ فلطف الهواء فيه  
بمجاورة الماء ، وعدل مزاجه للتكوين ؛ فصارت أقاليمه كلها قابلة

(١) أرض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(٢) يتحدث الآن عن بحر ايجة الذي يصل البحر الابيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور  
بالبحر الأسود .

(٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح  
الأعشى ٥ / ٤٠٤ وما بعدها .

للعمارة ؛ فكثُرُ عمرانه . وكان مبدأ هذا العمران في العالم ، من لدُن آدمَ صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولدهُ أولاً في ذلك النصف الشرقي ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نَعلم شيئاً من أخبارها ، لأن الكتب الالهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبنيه ؛ وأما ما قبل نوح فلم نَعرف شيئاً من أخباره ؛ وأقدم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراة ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي ؛ وأما الأخبار فهي تدرُس بدروس أهلها .

واتفق النسابون على أن النسل كُلُّه منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سام ، وحام ، ويافث ؛ فمن سام : العرب ، والعبرانيون ، والسبائيون<sup>(١)</sup> ؛ ومن حام : القبط ، والكنعانيون ، والبربر ، والسودان ؛ ومن يافث : الترك ، والروم ، والخزر<sup>(٢)</sup> ، والفرس ، والدَّيلم ، والجيل .

ولا أدري كيف صحَّ انحصارُ النَّسَب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بعيدٌ كما قدَّمناه ، أو هو رأي

(١) كذا في الأصل . واعلمها : « السريانيون » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الحاء والزاي ؛ وفي « تنقيف اللسان » لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي « ... ويقولون لقبيلة من الترك الخزر بفتح الحاء والزاي والصواب الخزر بضم الحاء واسكان الزاي ، ويقال انهم سوا بذلك خزر أعينهم » أي ضيقها .

تفرّع لهم من انقسام جماعة المَعْمُور ؛ فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نسب واحد يشتركون فيه ؛ فجعلوا الجنوب لبني سام ، والمغرب لبني حام ، والشمال لبني يافث . إلا أنه المتناقل بين النسابة في العالم ، كما قلناه ، فلنعمده ونقول : أول من ملك الأرض من نسل نوح عليه السلام ، النمرود بن كنعان بن كوش ، بن حام ووقع ذكره في التوراة . وملك بعده عابر بن شالخ الذي ينسب إليه العبرانيون ، والسريانيون ، وهم النبط ؛ وكانت لهم الدولة العظيمة ، وهم ملوك بابل ، من نبط بن آشور بن سام ، وقيل نبط بن ماش بن إرم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسعودي . وغلبهم الفرس على بابل ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، وللقبط بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحرية ، ويعولون عليها في كثير من أعمالهم ، وبرأي مصر<sup>(١)</sup> ، وفلاحة ابن وحشية ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفرس على بابل ، استقل لهم ملك المشرق ، وجاء موسى صلوات الله عليه - بالشرعية الأولية ، وحرّم السحر وطرقه ،

(١) كان القدماء يعتقدون ان الرسوم التي توجد على البراي ، والمعابد المصرية القديمة ، ليست الا طلائيم ، وأوفاقاً ، نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين . خطط المقرئزي ٤٨/١ طبع مصر ، معجم البلدان « براي » .

وغلَب الله له القِبْط بِإِغْرَاقِ فرعونَ وقومه ؛ ثم مَلَكَ بنو إسرائيل  
الشَّامَ ، واختَطُّوا بيت المقدسَ ، وظهر الرومُ في ناحية الشمال  
والمغرب ، فغلبوا الفُرسَ الأوَّلَى على مُلكهم . ومَلَكَ ذو القرنين  
الاسكندر ما كان بأيديهم ؛ ثم صار ملك الفرس بالشرق الى ملوكهم  
السَّاسانية ، ومَلَكَ بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا  
ذلك كله من قبل . وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتا العالم بما  
فيه . ونازع التركُ ملوك فارس في خراسان<sup>(١)</sup> ، وما وراء النهر<sup>(٢)</sup> ،  
وكانت بينهم حروبٌ مشهورة ، واستقرَّ ملكهم في بني أفراسياب ؛  
ثم ظهر خاتمُ الأنبياء محمد صلوات الله عليه ، وجمع العرب على  
كلمة الاسلام ، فاجتمعوا له ، « لو أنْفَقْتَ ما في الأرض جميعاً ما  
ألَفْتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم »<sup>(٣)</sup> ، وقبضه الله اليه ، وقد  
أمرَ بالجهاد ، ووعد عن الله بأن الأرض لأُمته ، فزَحَفُوا الى  
كسرى ، وقِيَصَرَ بعد سنتين من وفاته ، فانتزعوا المُلْك من  
أيديها ، وتجاوزوا الفُرسَ الى التُّرك ، والرومَ الى البربر والمغرب ،  
وأصبح العالم كله مُنْتَظِماً في دعوة الاسلام . ثم اختلف أهل الدين

(١) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقى لایران ، الذي يتصل بأفغانستان . وقد فتحت  
خراسان سنة ٣١ هجرية في أيام عثمان رضي الله عنه . ياقوت ٣ / ٤٠٧ .

(٢) ما وراء النهر : إقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون « وهو المراد بالنهر » . ياقوت  
٣٧٠ / ٧ - ٣٧٣ .

(٣) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

من بعده في رجوعهم الى من ينظم أمرهم ، وتشيع قوم من العرب  
 فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمه علي ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ،  
 وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه ، فمضى على ذلك السلف في دولة بني  
 أمية التي استفحل الملك والاسلام فيها ، وتناقل التشيع بتشعب  
 المذاهب ، في استحقاق بني علي ، وأيهم يتعين له ذلك ، حتى انساق  
 مذهب من مذاهبهم الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس<sup>(١)</sup> ؛ فظهرت  
 شيعته بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلها ، والعراق بأسره . ثم  
 غلبوا على بني أمية ، وانتزعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكهم ،  
 والاسلام باستفحاله ، وتعدّد خلفاؤهم . ثم خامر الدولة ما يخامر  
 الدول من الترف والراحة ؛ ففسلوا . وكثر المنازعون لهم من بني  
 علي وغيرهم ؛ فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب ، وهم  
 العبديون<sup>(٢)</sup> بنو عبّيد الله المهدي بن محمد ، قام بها كتامة وقبائل  
 البربر ، واستولوا على المغرب ومصر ؛ ودولة بني العلوي  
 بطبرستان ، قام بها الدّيلم وإخوانهم الجليل ؛ ودولة بني أمية  
 النائية بالأندلس ، لأن بني العبّاس لما غلبوهم بالشرق ، وأكثروا  
 القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ،

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٩ / ٨٢ وما بعدها ،

تاريخ أبي الفداء ١ / ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ هـ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

ونجا الى المغرب . ثم ركب البحر الى الأندلس ؛ فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية ، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم ، وانقسمت الملة الاسلامية بين هذه الدول الأربع الى المائة الرابعة . ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان<sup>(١)</sup> ، وانتقل الى الديلم ، فاقسموا خراسان وفارس والعراق ، وغلبوا على بغداد ، وحجّر الخليفة بها بنو بويه منهم<sup>(٢)</sup> . وكان بنو سامان - من أتباع بني طاهر - قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر ، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي ، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً<sup>(٣)</sup> ، وكان آخرهم محمود بن سبكتكين من مواليهم ، فاستبد عليهم ، وملك خراسان ، وما وراء النهر الى الشاش ، ثم غزنة<sup>(٤)</sup> ، وما وراءها جنوباً الى الهند . وأجاز الى بلاد الهند ؛ فافتتح منها كثيراً ، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحد قبله . وأقامت الملة على هذا النمط الى انقضاء المائة الرابعة ، وكان الترك

(١) طبرستان : إقليم متسع في غربي خراسان ، ويقول ياقوت انه الذي يسمى ايضاً بجازندران . وهو إقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . ياقوت ١٧/٦ - ٢١ .  
(٢) بنو بويه دولة اسسها اترك من الديلم في خلافة الرازي بالله ( ٣٢٢ - ٤٤٧ هـ ) . تاريخ ابي الفداء ٨٣/٢ ، ١٥٢ ، والعبر ٩٠٩/٤ وما بعدها .

(٣) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بني العباس ، ثم استقلت . وقد تحدث عنها ابن خلدون ٧١٢/٤ ، أبو الفداء ١٢٣/٢ ، ١٤١ ، صبح الأعشى ٤٤٦/٤ .  
(٤) غزنة : مدينة من مدن افغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي اسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنة ٣٦٦ هـ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هـ جرية . العبر ٤٠٤ .



منذُ تعَبَدُوا للعرب، وأَسْلَمُوا على ما بأيديهم وراء النهر، من كَاشَغَر<sup>(١)</sup>،  
والصَّاعُونَ الى فَرغانة<sup>(٢)</sup>، وولَّاهم الخلفاء عليها؛ فاستحدثوا بها  
مُلُكا، وكانت بَوادي التُّرك في تلك النواحي مُنتَجِمةً أُمطارَ  
السَّماء، وُعُشْب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة النُّزَّ من شعوبهم،  
وَهُم الخُوزُ، إلا أن استعمال العرب لها عَرَّبَ خاءها المعجمة غينا،  
وأدغمت واوها في الزَّاي الثانية؛ فصارت زايًا واحدة مشددة.  
وكانت رياسة الغز هُوَلاء في بني سَلْجُوق بن ميكائل، وكانوا  
يُستَخدمون لملوك التُّرك بترُكستان تارة، وملكوك بني سامان في  
بُخارَى أخرى. وتَحَدَّث بينها الفتنة؛ فيتألفون مَنْ شَاءُوا منها<sup>(٣)</sup>؛  
ولما تغلب محمود بن سُبُكْتِكِين<sup>(٤)</sup> على بني سامان، وأجاز من خراسان  
فَنَزَلَ بُخارَى<sup>(٥)</sup>، واقتعد كَرَسِيَّهم، وتقبَّض على كبار بني سَلْجُوق  
هَؤُلاء، وحبسهم بخراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مَسْعُود<sup>(٦)</sup>،

- (١) كانت كاشغر قاعدة « التركستان » وكانت تسمى ايضاً « أزدوكند » وهي اليوم في الصين . ياقوت ٢٠٧/٧ صبح الأعشى ٤/٤٤٠ :  
(٢) فرغانة كورة واسعة فيا وراء النهر ، متاخة لبلاد تركستان . ياقوت ٦/٣٦٤ .  
(٣) انظر كلمة موجزة عن الغز في تاريخ ابي الفداء ٣/٢٧ وما بعدها .  
(٤) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين ( ٣٦١ - ٤٢١ ) ، يلقب سيف الدولة ، وعين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ « اليميني » الذي افه له ابو نصر الغتي . ترجمة عين الدولة في « الوفيات » ٢/١١٠ - ١١٤ ، وانظر تاريخ ابي الفداء ٢/١٦٥ العبرم ٤ طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت ، راجع الفهارس لتعيين الصفحات .  
(٥) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ هـ ، ٥٥ هـ ، في ايام معاوية . ياقوت .  
(٦) هكذا في الاصل : « اخوه مسعود » . وهو سبق قلم ، والصواب : « ابنه مسعود » العبرم ٤ ، « تاريخ دولة آل سلجوق » ص ٨ .

فملك مكانه ، وانتقض عليه بنو سلجوق<sup>(١)</sup> هؤلاء ، وأجاز الغز  
إلى خراسان فلكوها ، وملكوا طبرستان من يد الدَّيْلَم ، ثم  
إصبهان<sup>(٢)</sup> وفارس ، من أيدي بني بُويّه ، وملكهم يومئذ  
طغرل بك<sup>(٣)</sup> بن ميكائيل من بني سلجوق ، وغلب على بغداد<sup>(٤)</sup> من  
يد بني مُعزّ الدولة بن بُويّه المستبدّين على الخليفة يومئذ المطيع<sup>(٥)</sup> ،  
حجّره عن التصرف في أمور الخلافة والملك ، ثم تجاوز إلى عراق  
العرب ، فغلب على ملوكه ، وأبادهم ، ثم بلاد البحرين وُعمان ، ثم على  
الشّام ، وبلاد الرّوم ، واستوعب ممالك الإسلام كلّها ، فأصارها في  
ملكه ؛ وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز ، مسلوّبة من الملك ،  
كأن لم يكن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوام الأربعين والأربعمائة ؛

(١) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٣٢ هـ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ هـ . تاريخ أبي الفداء ١٧١/٢ وما بعدها ، العبر ١/٥ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العماد الاصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العماد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٢) كذا بالأصل ، اصبهان ، وكذا في أكثر الكتب القديمة . وهي : أصفهان بفتح الهمزة وكسرهما : مدينة جبلية عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق أصفهان على الاقليم أيضاً . فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب . ياقوت ٣٦٩/١ .

(٣) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرل بك ( ٣٨٥ - ٤٥٥ ) . وفيات الأعيان ٥٩/٢ - ٦٠ .

(٤) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ هـ . وفيات الأعيان ٦٠/٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٥) كذا بالأصل : « المطيع » والصواب : « القائم » لأنه الذي عاصر طغرل بك . وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ هـ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ هـ ، وتوفي سنة ٤٦٧ هـ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ - ١٦٩ .

وخرج الأفرنج على بقايا بني أُمِّية بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها ، وضاق النطاق على العبيديين بالقاهرة بملوك الغزّ يزاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود ابن زنكي وغيره<sup>(١)</sup> من أبنائهم ومماليكهم ، وملك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الأسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية ، والملثمين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، والمصامدة الموحدين بعدهم كذلك ، وأمام الغزّ والسلجوقية في ملك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدهم الى انقضاء القرن السادس ؛ وقد فشل ربح الغزّ ، واختلت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغل من شعوب الططر<sup>(٢)</sup> ، وكان كاهنا ، وجدّه النجر كاهناً مثله . ويزعمون أنه ولد من غير أب<sup>(٣)</sup> ؛ فغلب الغزّ في المفازة ، واستولى على ملك الططر ،

(١) رسمه ، على قاعدته التي قررهما في اول « المقدمة » بصاد وسطها زاي اشارة الى ان الصاد تشم - عند النطق بها - زاي . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابي الفداء ٥٨٠ / ٣ .

(٢) ولد جنكيز خان ( ويقال جنكس قان ) في سنة ٥٤٩ هـ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثيات من أشهر قبائل المغل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه - حين بلغ من العمر ١٣ سنة - تموجين ثم أصاروه : « جنكيز » ؛ و « خان » تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبرم هـ .

(٣) ينتهي نسبه الى : « بوذنجرخن ألان قوي » ؛ وألان قوي اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت متزوجة ثم مات زوجها ؛ وتأميت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأت بعض الأيام ان نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطراً عليها الحمل بعد ذلك ، وقالت ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت برامتها ، بزعمهم ، وكان ثاك التوائم « بوذنجرخن » جد جنكيز خان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة الى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبرم هـ .

وزحف الى كرسى الملك بنخوارزم . وهو علاء الدين خوارزم شاه ، سلفه من موالي طغرل بك ، فغالبه على ملكه ، وفرأ امامه ، واتبعه الى بحيرة طبرستان ؛ فنجأ الى جزيرة فيها ، ومرض هنالك ومات<sup>(١)</sup> ، ورجع جنكيزخان الى ما زندران ، من أمصار طبرستان فترها ، وأقام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز ، وأزل ابنه طولي<sup>(٢)</sup> بكرسى خراسان ، وابننه دوشىخان<sup>(٣)</sup> بصرآي وبلاد الترك ، وابننه جقظاي<sup>(٤)</sup> بكرسى الترك فيما وراء النهر ، وهي كاشغر وتركتستان ، وأقام بما زندران الى أن مات جنكيزخان ودفن بها<sup>(٥)</sup> ، ومات ابنه طولي وله ولدان ، قبلاي<sup>(٦)</sup> وهولاكو<sup>(٧)</sup> ، ثم هلك قبلاي ، واستقل هولاكو

(١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان ، كان من علماء الملوك وعظمائهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيزخان في تاريخ ابى الفداء ٣/ ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٥٤ - ١٥٨ .

(٢) هو الابن الاصغر لجنكيز خان ، وكان عاقلاً كيساً ، ولذلك امره ابوه ان يرأس اخويه : جوجي ، وجفتاي في حرب قلعة الطالقان التي استمضى عليها الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : « تولوي » . وانظر العبره .

(٣) ويقال طوشي خان ( بين التاء والطاء ) ، ويقال جوجي خان .

(٤) جقظاي ، ويقال « جفتاي » ، ويسمى ايضاً كداي ، وجداي .

(٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاته جنكيزخان ، تجده في السلوك ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٦) قبلاي بن تولي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات - بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٧) يكتبه ابن خلدون : « هولاوو » بواوين أحياناً ، وأحياناً أخرى يكتبه : « هولاكو » بنقطة تحت الكاف إشارة الى ان الكاف تنطق كلاً فارسية . وقد ابتداء امر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٠٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بركة بن دوشرخان<sup>(١)</sup> فتنة بالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصروا ، وصرف هولاء كو وجهه إلى بلاد أصبهان ، وفارس ، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النواحي ، واقتحم بغداد<sup>(٢)</sup> على الخليفة المستعصم ، آخر بني العباس<sup>(٣)</sup> وقتله ، وأعظم فيها العيث والفساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسية ، ثم تخطاه إلى الشام ، فملك أمصاره وحواضره إلى القدس ، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استعاضوا ببركة صاحب صراي ، فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزه هولاء كو عن الشام ومصر . وبلغ خبره إلى هولاء كو فحرد<sup>(٤)</sup> لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرّ راجعاً إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمداقة بركة . وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاء كو سنة ثلاث وستين من المائة السابعة ، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب ، وكبيرهم يومئذ قطز ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاء كو انتزعها من أيدي بني أيوب ، واحدة واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم

(١) ويقال أيضاً : بركة بن توشي بن جنكيزخان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم أهل العلم ، وكان يميل إلى الملك الظاهر بيبرس .  
 (٢) دخل هولاء كو بغداد في سنة ٦٥٦ هـ .  
 (٢) هو أبو أحمد عبد الله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .  
 (٤) حرد : اغناط وغضب

هدى الله أبغابن هولاكو إلى الاسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصرآي من بني دوشي خان على يد مُريد من أصحاب شمس الدين كُبرى<sup>(١)</sup> ، فتواطأ هو وأبغابن هولاكو على الاسلام . ثم أسلم بعد ذلك بنو جقاي وراء النهر ؛ فانتظمت ممالك الاسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الططر ، ولم يخرج عن مُلكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وأصبحوا ، وكأنهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز . واستمر الامر على ذلك لهذا العهد ، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة<sup>(٢)</sup> . وافترقت دولتهم بين عمال الدولة وقرابتها من المغل ؛ فملك عراق العرب ، وأذربيجان<sup>(٣)</sup> وتوريز<sup>(٤)</sup> ، الشيخ حسن سبط هولاكو<sup>(٥)</sup> ، واتصل مُلكها في بنيه

(١) هو ابو الجناح احمد بن عمر بن نجم الخيوفي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ١١/٥ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه في تاريخ جنكيز خان بأنه : « شيخ المتأينخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبرى » ، وذكر انه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : « الكبرى على صيغة فعلى كعظمى » .

(٢) هو ابو سعيد بن خربند بن ارغو بن ابغابن هولاكو . وانظر اخباره في العبره (٣) آذربيجان ، واسمها القديم أثروياتان : اقليم يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين ( بحر الخزر ) ويحده في الشمال اقليم داغستان ، واطليم جورجيا ، ومن الغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة ارمنية . ياقوت ١٥٩/١ - ١٦١ .

(٤) توريز ( تبريز ) : احدى مدن ايران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان ياقوت ٣٦٣/١ .

(٥) يسمى ايضاً الشيخ حسن الصغير .

لهذا العهد؛ ومَلِكُ خِرَاسَانِ وَطَبْرِ سَتَانِ شاه وليّ من تابعة بني  
 'هولاكو؛ ومَلِكُ إصْبَهَانَ، وفارس، بنو مُظفَّر البردي<sup>(١)</sup> من  
 عُمَّالِهِمْ أَيْضاً؛ وأَقَامُوا بَنُو دُوشِي خَانٍ فِي مَمْلَكَةِ صَرَائِيْ وَأَخْرَجُوهُمْ  
 بِهَا طَقَطْمَشَ بْنَ بُرْدِي بَك<sup>(٢)</sup>؛ ثُمَّ سَمَّا لِبَنِي جَقَطَّايِ وَرَاءَ النَّهْرِ،  
 وَمَلَوْا كِهِمْ أَمَلٌ فِي التَّغْلِبِ عَلَى أَعْمَالِ بَنِي هَوْلَاكُو، وَبَنِي دُوشِي  
 خَانٍ، بِمَا اسْتَفْعَلَ مَلِكُهُمْ هُنَالِكَ، لَعَدَمِ التَّرَفِّ وَالتَّنْعَمِ، فَبَقُوا عَلَى  
 الْبَدَاوَةِ؛ وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ اسْمُهُ سَاطَمَش<sup>(٣)</sup> هَلَكَ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَأَجْلَسُوا  
 ابْنَهُ عَلَى التَّخْتِ مَكَانَهُ، وَأُمَرَاءُ بَنِي جَقَطَّايِ جَمِيعاً فِي خِدْمَتِهِ،  
 وَكَبِيرُهُمْ تَيْمُورُ الْمَعْرُوفُ بِتَمَرِ بْنِ طَرَغَايِ<sup>(٤)</sup> فَقَامَ بِأَمْرِ هَذَا الصَّبِيِّ  
 وَكَفَلَهُ، وَتَرَوَّجَ أُمُّهُ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى مَمَالِكِ بَنِي دُوشِي خَانِ الَّتِي كَانَتْ  
 عَلَى دَعْوَتِهِمْ وَرَاءَ النَّهْرِ، مِثْلَ سَمَرْقَنْدِ<sup>(٥)</sup>، وَبُخَارَى، وَخَوَارِزْمَ، وَأَجَازَ  
 إِلَى طَبْرِ سَتَانِ وَخِرَاسَانِ فَلَمَّا كَهَا. ثُمَّ مَلِكُ أَصْبَهَانَ، وَزَحَفَ إِلَى  
 بَغْدَادٍ؛ فَلَمَّا كَهَا مِنْ يَدِ أَحْمَدَ بْنِ أُوَيْسٍ. وَفَرَّ أَحْمَدُ مُسْتَجِيراً بِمَلِكِ مِصْرَ،

(١) ورد في العبر ٥ : « اليزدي » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة  
 تحتية ساكنة ، ثم باء موحدة مفتوحة .

(٣) كذا في الأصل ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : « سيورغتمش » وكتب فوقها  
 كلمة : « أصح » .

(٤) في نسخة : « طرغان » ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : « ترغاي » وكتب فوقها  
 كلمة : « أصح » .

(٥) مدينة مشهورة ، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفيتي ، وكانت في القديم عاصمة بلاد

الصغد . ياقوت ٥ / ١٢١ - ١٢٦ .

وهو الملك الظاهر برقوق ، وقد تقدم ذكره ؛ فأجاره ، ووعدته النصر من عدوه . وبعث الأمير تمر رُسُلًا إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتِّحاد ، وحسَّن الجوار ؛ فوصلوا إلى الرُّخبة ؛ فلقَّيهم عاملها ، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأزَلَّهم ، فبيَّتَ جميعهم ، وقتلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمَعَ العرب والترُّكمان ، وأناخ على الفرات ، وصَرَخ بطقطمش من كرسيه بصَرَأي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب<sup>(١)</sup> . ثم زحف تمر إلى الشام سنة ست وتسعين ، وبلغ الرُّها<sup>(٢)</sup> ، والظاهر يومئذ على الفرات ، فخَام<sup>(٣)</sup> تمر عن لقائه . وسار إلى محاربة طقطمش ؛ فاستولى على أعماله كلِّها ، ورجعت قبائل المَغل إلى تَمر ؛ وساروا تحت رايته . وذهب طقطمش في ناحية الشمال ، وراء بُلغار ، متذمِّماً بقبائل أُرُوس من شعوب التُّرك في الجبال . وسارت عصائب التُّرك كلِّها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهند ، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر ؛ فسار اليهم في عساكر المَغل ، ومَلِك دِلِّي<sup>(٤)</sup> ، وفرَّ صاحبها إلى كَنبَاية<sup>(٥)</sup>

(١) يريد بالأبواب المضائق والممرات التي في الجبال الفاصلة بين إقليم مازندران والعراق العجمي .

(٢) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

(٣) خام عنه : نكص ، وجبن .

(٤) هي دهلي اليوم . صبح الأعشى ٥ / ٦٨ - ٦٩ .

(٥) كَنبَاية ، أو كَنبَايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون ، وباء مفتوحة بعدها الف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٥ / ٧١ : أنه ينسب إليها فيقال أنبائي وعلى ذلك قاسمها « أنبَايت » ببدال الكاف همزة . وهي مدينة على ساحل بحر الهند .



مرسى بحر الهند ، وعاثوا في نواحي بلاد الهند . ثم بلغه هنالك مهلك الظاهر . برقوق بمصر ؛ فرجع الى البلاد ، ومرّ على العراق ، ثم على أرمينية<sup>(١)</sup> وأرزنكان<sup>(٢)</sup> ، حتى وصل سيواس<sup>(٣)</sup> فخرّبها ، وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة . ونازل قلعة الروم<sup>(٤)</sup> ، فامتنعت ، وتجاوزها الى حلب ؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ؛ ففضّهم ، واقتحم المقل المدينة من كل ناحية . ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم ، ما لم يعهد الناس مثله ؛ ووصل الخبر الى مصر ، فتجهز السلطان فرج بن الملك الظاهر<sup>(٥)</sup> الى المدافة عن الشام ، وخرج في عساكره من الترك مسابقة المقل ومليّكهم قمر أن يصدّهم عنها .

(١) أرمينية : اقليم واقع في غرب آذربيجان ، وفي شماله الغربي يقع اقليم جورجيا . صبح

الأعشى ٣٥٣/٤ ، ياقوت ٢٠٣/١ - ٢٠٦ .

(٢) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : بلدة كانت تعد قديماً من بلاد ارمينية ، وهي الآن من بلاد

الجمهورية التركية . صبح الأعشى ٣٥٤/٤ .

(٣) سيواس : مدينة في تركيا ، تبعد ستين ميلاً نحو الشرق من « قيسارية » السلوك ص ٣١٣

(٤) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل « البيرة » . ياقوت ١٥٠/٧ - ١٥١ .

(٥) هو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر . المقرئ ٣٩٢/٣ =

٣٩٣ طبع مصر .

## لقاء الأمير تمر ساطان المهمل والططر

لما وصل الخبر الى مصر بأن الأمير تمر<sup>(١)</sup> مَلَكَ بلاد الروم ،  
وخرَّب سيواس ، ورجع الى الشَّام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح  
ديوان العطاء ، ونادى في الجند بالرحيل الى الشام ، وكنْتُ أنا يومئذ  
معزولاً عن الوظيفة<sup>(٢)</sup> ؛ فاستدعاني دوا داره يشبَّك<sup>(٣)</sup> ، وأرادني

(١) في عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : « ... اسمه تيمور بقاء مثناة مكسورة ساكنة ، فثناة تحت ، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء همزة ، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية اذا تدارلها صولجان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء اوزانها ..... فقالوا تارة تمور ، وأخرى تمرلنك » . وضبطه البدر العيني في « عقد الجمان » بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف .

(٢) في عقد الجمان ، في حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضي شعبة كذلك : « ... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ودمه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوي الشافعي ، والناضي نور الدين علي بن الحلال المالكي ، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي ؛ وأما القاضي جمال الدين المالطي الحنفي فنه ما سار لكونه ضعيفاً ، وشار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي ، وهو معزول » .

(٣) هو الأمير يشبك الشعباني كان من امراء الملك الظاهر ، تقلب في مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على اولاده ؛ وفي أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوا دار كبير ، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٢ / ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في « عقد الجمان » بكسر الباء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

على السَّفَر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهر العزم عليّ بَلَّيْنِ القول ، وجزيل الانعام فأصغيتُ ، وسافرت معهم مُنتصفَ شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ؛ فوصلنا الى غَزَّة ، فأرحنا بها أياما نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا الى الشام مسابقين الطَّطَر الى أن نزلنا شَقْحَب<sup>(١)</sup> ، وأسرينا فَصْبَحْنَا دمشق ، والأمير تَمُرُ في عساكره قد رحل من بَعْلَبَك<sup>(٢)</sup> قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قُبَّة يَلْبُغا . ويُسّ الأمير تَمُرُ من مهاجمة البلد ، فأقام بمَرَقَب على قُبَّة يَلْبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربُهم سجالاً ؛ ثم نُمي الخبر الى السلطان وأكابر أَمْرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الهَرَب الى مصر للثورة بها ؛ فأجمع رأيهم للرجوع الى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم ، واختلال الدَّولة بذلك ، فأَسْرُوا ليلة الجمعة من شهر [.....]<sup>(٣)</sup> وركبوا جَبَل الصَّاحِيَّة ، ثم انْحَطُّوا في شِعباه ، وساروا على شافة البحر الى غَزَّة ،

(١) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما ( كجعفر ) ، ويقول المقرئ في الخطط ٣ / ٣٩٩ ( طبع مصر ) : « ... انها بظاهر دمشق » ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : « تحت جبل غباغب » ؛ فهي - بناء على هذا - في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس ( شقْب ) .  
(٢) بعلبك : احدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زحلة . ياقوت

٢ / ٣٣٦ - ٣٣٨ .

(٣) بياض بالأصل ، ولعله يريد ( شهر جادى الآخرة ) . وانظر تاريخ ابن اياس ١ / ٣٢٩ .

وركب الناس لئلا يعتقدون أن السلطان سارَ على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصباً وجماعات على شُحْب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق مُتَحَيِّرِينَ قد عميت عليهم الأنباء.

وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تَمُر على بيوتهم وحرَمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره؛ فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي<sup>(١)</sup> ومعه شيخ الفقهاء بزاوية [....]<sup>(٢)</sup> فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلين من السور بما صَبَّحهم من التقديم، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرَّف الناس في المعاملات، ودخول أمير ينزل بمحل الإمارة منها، ويملك أمرهم بعز ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقيمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت،

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ - ٨٠٣)، وكان يحسن اللغتين: التركية، والفارسية، ولعلمهم - لذلك - اختاروه للسفارة. وانظر ابن أبياس ١/ ٣٣٦.  
(٢) بياض في الأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذه الزاوية.

وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ؛ فحدث بين بعض الناس  
تشاجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى  
القول . وبلغني الخبر من جوف الليل ؛ فخشيت البادرة على نفسي ،  
وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو  
التدلي من السور ، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ؛ فأبوا عليّ  
أولاً ، ثم أصغوا لي ، ودلوني من السور ؛ فوجدت بطانته عند الباب ،  
ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك ، من بني  
جقطي أهل عصابته ، فحييتهم وحيوني ، وفديت وفدوني ، وقدم  
لي شاه ملك ، مر كوباً ، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصالي  
إليه . فلما وقفت بالباب خرج الأذن بإجلّاسي في خيمة هنالك تجاور  
خيمة جلوسه ، ثم زيد في التعريف باسمي أنّي القاضي المالكي المغربي ،  
فاستدعاني ، ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ،  
وصحاف الطعام تمرّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَب المُغل جلوساً  
أمام خيمته ، حلقاً حلقاً . فلما دخلت عليه فاتحتُ بالسلام ، وأوميتُ  
إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومدّ يده إليّ فقبلتها ، وأشار بالجلوس  
فجلستُ حيث انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن

النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم<sup>(١)</sup> ، فأقعدَه يترجم ما بيننا ، وسألني من أين جئت من المغرب ؟ ولِمَا<sup>(٢)</sup> جئت ؟ فقلت : جئت من بلادي لقضاء الفرض ركبْتُ إليها<sup>(٣)</sup> البحر ، ووافيتُ مرسى الأسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من هذه المائة الثامنة ، والمفرحاتُ بأسوارهم جلوس الظاهر على تحت الملك لتلك العشرة الأيام بعددِها . فقال لي : وما فعلَ معك ؟ قلت كل خير ، برّ مقدّمي ، وأرغد قراي ، وزودني للحجّ ، ولما رجعت وفرّ جرايتي ، وأقمت في ظلّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليته إياك القضاء ؟ فقلت : مات قاضي المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظنُّ بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة ، وتحرّري المعدلة والحق ، والاعراض عن الجاه ، فولّاني مكانه ، ومات لشهر بعدها ، فلم يرضَ أهل الدولة بمكاني ، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله . فقال لي : وأين ولدك ؟

(١) هو : ( عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد ) . ذكره علاء الدين في ( تاريخ حلب ) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكياً فاضلاً ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في ( الرياض ) وقال : ( كان له معرفة بالفتة ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء وينظرهم بين يدي اللّك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ هـ ) .

(٢) كذا في الاصل باثبات الف ( ما ) المجرورة عند الاستفهام ؛ وهي لغة حكوها عن الأخفش .

(٣) كذا بالأصل .

فقلت : بالمغرب آجواًني كاتب<sup>(١)</sup> للملك الأعظم هنالك . فقال وما معنى آجواًني في وصف المغرب ؟ فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه ؛ فالأقرب إلى هنا برقة ، وإفريقية<sup>(٢)</sup> ؛ والمغرب الأوسط<sup>(٣)</sup> : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى آجواًني . فقال لي : وأين مكان طنجة من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمى بالزقاق ، وهو خليج البحر الشامي ؟ فقال : وسبته ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق ، ومنها التّعدية إلى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسط التلّول ، وكريسي ملوك المغرب من بني مرين . فقال : وسجلهاسة ؟ قلت : في الحد ما بين الأرياف والريمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقنعني هذا ، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كآني أشاهده . فقلت : يحصل ذلك بسعادتك ؛ وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبت الغرض فيه في

(١) كذا في الأصل .

(٢) هي الملكة التونسية اليوم .

(٣) مكانه اليوم بلاد ( الجزائر ) .

مختصرٍ وجيزٍ يكون قدرَ اثنتي عشرة من الكراريس المنصّفة القطع .  
ثم أشار الى خدَمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشته ،  
وُيُخَكِّمُونَهُ على أبلغ ما يمكن ؛ فأحضرت الأواني منه ، وأشار  
بِعَرْضِهَا عليّ ، فمَثَلْتُ قائماً ، وتناولتها وشربتُ واستطبت ؛ ووقع  
ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلستُ وسكتنا ، وقد غلبني الوجَلُ  
بما وقع من زكبة قاضي القضاة الشافعية ، صدر الدين المناوي ،  
أسرّه التابعون لعسكر مصر . بشمّحَب ، وردّوه ؛ فحُبِسَ عندهم  
في طلب الفدية منه ؛ فأصابنا من ذلك وجَل ؛ فزوّرتُ في نفسي  
كلاماً أخاطبه به ، وأتلفه بتعظيم أحواله ، ومُلكه . وكنت قبل  
ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدّثان في ظهوره ، وكان  
المنجّمون المتكلّمون في قرانات العلويّين <sup>(١)</sup> يترقبون القرآنَ  
العاشرَ في المثلثة الهوائية <sup>(٢)</sup> ، وكان يُترقب عام ستة وستين من  
المائة السابعة . فليّقت ذات يوم من عام أحدٍ وستين بجامع القرويين  
من فاس ، الخطيبَ أبا عليّ بن باديس خطيب قسنطينة ، وكان ماهراً

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشتري ؛ والمراد بالقران - عند الإطلاق - اجتماع  
المشتري ، وزحل خاصة ( مفاتيح العلوم ص ٢٣٢ ) .  
(٢) المثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . ( مفاتيح  
العلوم ص ٢٢٦ ) .

ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك ( كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقرّ بهم  
ويدينهم ، حتى انه كان لا يتحرك بحركة الا باختيار فلكي ) ، فحدثه بهذا الحديث .



في ذلك الفن ، فسألته عن هذا القرآن المتوقع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدل على نأثر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي ، من أمة بادية أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وتستولي على أكثر المعمور . فقلت : ومتى زمنه ؟ فقال : عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زر زرار اليهودي ، طبيب ملك الأفرنج ابن أذفونش ومُنَجِّمُهُ . وكان شيخني رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاضته في ذلك ، أوسايلته عنه يقول : أمره قريب ، ولا بُدَّ لك إن عشت أن تراه .

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن ، ويرون أن القائم به هو الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية<sup>(١)</sup> من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يحيى بن عبد الله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب ، أن الشيخ قال لهم ذات يوم ، وقد انفتل من صلاة الغداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترقب له .

فوقع في نفسي لأجل الوجَل الذي كنت فيه أن افأوضه في شيء من ذلك يستريح إليه ، ويأنس به مني ، ففاتحته وقلت :

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

أيدك الله الي اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمنى لقاءك . فقال لي  
الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت : أمران ، الأول أنك  
سلطان العالم ، ومليك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ  
آدم لهذا العهد ملك مثلك ، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف ،  
فإني من أهل العلم ، وأبين ذلك فأقول :

إن الملك إنما يكون بالعصية ، وعلى كثرتها يكون قدر  
الملك ؛ واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد ، أن أكثر أمم البشر  
فرقتان : العرب والترك ، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما  
اجتمعوا في دينهم على نبيهم ، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك  
الفرس ، وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد  
بنصابهم من الملك . ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الارض  
من كسرى ، أو قيصر ، أو الاسكندر ، أو بُخْتَنَصْر ، أما - كسرى  
فكبير الفرس ومليكهم ؛ وأين الفرس من الترك ؟ وأما قيصر  
والاسكندر فملوك الروم ، وأين الروم من الترك ؟ وأما بُخْتَنَصْر  
فكبير أهل بابل ، والنبط . وأين هؤلاء من الترك ؟ وهذا برهان  
ظاهر على ما ادّعيته في هذا الملك .

وأما الامر الثاني مما يحملني على تمنى لقائه ، فهو ما كنت  
أسمعه من أهل الحدّثان بالمغرب ، والاولياء ، وذكرت ما قصصته من

ذلك قبل . فقال لي : وأراك قد ذكرت بُخْتَنْصَرَ مع - كسرى ،  
وقيصر ، والاسكندر ، ولم يكن في عدادهم ، لانهم ملوك أكابر .  
وَبُخْتَنْصَرَ قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صاحب  
التَّخت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصفِّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً  
معه ، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش ،  
فلم يُلِفْه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصف أنه خرج عنهم .

فرجع اليّ فقال : ومن أي الطوائف هو بُخْتَنْصَرَ ؟ فقلت : بين  
الناس فيه خلاف ، فقل من النبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس  
الاولى ، فقال : يعني من ولد مَنُوشِهر<sup>(١)</sup> . قلت نعم هكذا ذكروا ،  
فقال : ومَنُوشِهر له علينا ولادة من قبل الامهات . ثم أفضت مع  
الترجمان في تعظيم هذا القول منه ، وقلت له : وهذا مما يجعلني على  
بني لقائه .

فقال الملك : وأي القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت إنه من  
عقبة ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلت : يعكّر  
تقليد رأي الطبري ، فإنه مؤرخ الامة ومحدثهم ، ولا يرجح غيره ،

(١) كذا بالأصل وهو : منو جهر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس ، الأول  
ومعناه فضي الطلعة ، وذلك لبهائه ؛ فان مينو بالفارسية : الفضة ، فاقترضوا على حذف الياء وقالوا  
منو . وجهر : الطلعة .

فقال : وما علينا من الطبري ؟ نُحْضِرُ كُتُبَ التَّارِيخِ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ،  
ونناظرُكَ . فقلتُ : وانا ايضا اناظرُ على رأي الطبري ، وانتهى بنا  
القول ، فسكت ، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة ، وخروج القضاة  
وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان ، فرُفِعَ من بين  
أيدينا ، لما في رُكْبَتِهِ من الداء ، وُحْمِلَ على فرسه فقُبِضَ شكائمه ،  
واستوى في مركبه . وُضِرَتِ الآلاتُ حِفافِيهِ حتى ارتجَّ لها الجو .  
وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة مَنجَك عند باب الجابية ، فجلس  
هناك ، ودخل اليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ في جملتهم ، فأشارَ  
اليهم بالانصراف ، والى شاه مَلِكٍ نائبه أن يخلعَ عليهم في وظائفهم ،  
وأشار إليّ بأجلُّوس ، فجلستُ بين يديه . ثم استدعى أمراء دولته  
القائمين على أمر البناء ، فأحضروا عُرَفَاءَ البُنْيَانِ المهندسين ، وتناظروا  
في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة ، لعلهم يعثرون بالصِّناعة على مَنفَذِهِ ،  
فتناظروا في مجلسه طويلا ، ثم انصرفوا ، وانصرفتُ الى بيتي داخلَ  
المدينة بعد أن استأذنته في ذلك ، فأذن فيه . وأقمت في كسر البيت ،  
واشتغلتُ بما طَلَبَ مني في وصف بلاد المغرب ، فكتبته في أيام  
قليلة ، ورفعته اليه فأخذه من يدي ، وأمرُ مَوقِعَهُ بترجمته الى اللسان  
المغلي . ثم اشتدَّ في حصار القلعة ، ونَصَبَ عليها الآلاتِ من  
المجانيق ، والنُفُوط ، والعَرَّادات ، والنقب ، فنصبوا لأيام قليلة  
سِتِينَ منجنيقا الى ما يُشَاكِلُها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار

بأهل القلعة ، وتهدم بناؤها من كل جهة ، فطلبوا الأمان .

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه ، فأمنهم السلطان تمر ، وحضروا عنده . وخرّب القلعة وطمس معالمها ، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك ، من الأموال والظهور والخيام . ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة ، فاستوعبوا أناسيها ، وأمتعته ، وأضرّموا النار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرثي ، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب ؛ فلم تزل تتوقد الى أن اتصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت الى سقفه ؛ فسال رصاؤه ، وتهدّمت سقفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مبالغته في الشناعة والقبح . وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في ملكه ما يشاء .

وكان أيام مقامي عند السلطان تمر ، خرج اليه من القلعة يوم  
أمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذرية الحاكم العباسي<sup>(١)</sup>  
الذي نصبه الظاهر بيبرس ؛ فوقف الى السلطان تمر يسأله النصفة في  
أمره ؛ ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان  
تمر : أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة ، فإن حكموا لك بشيء أنصفتك

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القطبي المتوفى سنة ٧٠١ .

فيه . واستدعى الفقهاء والقضاة ، واستدعاني فيهم ؛ فحضرنا عنده  
وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة ، فقال له عبد الجبار :  
هذا مجلس النصفة فتكلم . فقال : إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا ، وإن  
الحديث <sup>(١)</sup> صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا ، يعني أمر  
الخلافة . وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين  
ورثتهم كانوا قد استحقوه ، وصار إلى هذا بغير مستند ؛ فاستدعى  
عبد الجبار كلاً مبنياً في أمره ، فسكتنا برهة ، ثم قال : ما تقولون  
في هذا الحديث ؟ فقال برهان الدين بن مفلح : الحديث ليس بصحيح .  
واستدعى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلتم من أنه غير  
صحيح ، فقال السلطان تمر : فما الذي أصرار الخلافة لبني العباس إلى  
هذا العهد في الاسلام ؟ وشافهني بالقول ، فقلت : أيدك الله ! اختلف  
المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين  
ولاية رجل منهم يقوم بأموارهم في دينهم ودنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟  
فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهب الجماعة إلى  
وجوبه ، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلهم  
إلى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعلي ،  
واختلفوا في تنقلها عنه إلى عقبه إلى مذاهب كثيرة تشذ عن الحصر .

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ ، ١٠١ بعض الآثار التي تمسك بها العباسيون في  
خلافتهم .

وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية ، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقہ والعدل ، يُفَوِّضُونَ اليه النظرَ في أمورهم .

ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية الى بني العباس ، أوصى بها ابو هاشم بن محمد بن الحنفية الى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس ، وبثَّ دُعَاةَ بَخْرَاسَانَ . وقام ابو مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup> بهذه الدعوة ؛ فملك خراسان والعراق ، ونزل شيعتهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفَّاح<sup>(٢)</sup> ابنَ صاحب هذه الدعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة ، فكتبوا كبار الأئمة يومئذ ، وأهل الحل والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به ، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق . ثم عهد بها الى أخيه المنصور<sup>(٣)</sup> ، وعهد بها المنصور الى بنيه ؛ فلم تزل مُتَنَاقِلَةً فيهم ، إما بِعَهْدٍ او بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَصْرِ ، الى أن كان المستعصمُ آخرهم ببغداد . فلما استولى عليها هولاءكو

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان

١/ ٣٥٢ - ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس<sup>(٤)</sup> (١٠٤ - ١٣٦) وانظر

تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (٩٥ - ١٥٨) . تاريخ الخلفاء

١٠١ - ١٠٦ .

---

وَقَتْلَهُ ، افترق قَرَابَتُهُ ، ولحق بعضهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من  
عقب الرّاشد ، فنصبه الظّاهر بَيْبَرس بمصر ، بمالأة اهل الحلّ والعقد  
من الجند والفقهاء . وانتقل الأمر في بيته الى هذا الذي بمصر ، لا  
يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرّافِع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهل  
الفتيا ، وظاهر أنه ليس لك حقّ تطلبه عندي . فانصرف راشدا .



## الرجوع عن هذا الأمير ثم إلى مصر

كنت لما لقيته ، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ أشار عليّ بعض الصّحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدّمت له من المعرفة بهم ؛ فأشار بأن أطرفه ببعض هدية ، وإن كانت نزرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم ، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محذو ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيري<sup>(١)</sup> في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ، فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إليّ عن يمينه ؛ فجلستُ وأكابر من الجقطيّة حفاّفة ؛ فجلستُ قليلاً ، ثم استدرت بين يديه ، وأشارت إلى الهدية التي ذكرتها ، وهي بيد خدامي ؛ فوضعتها ، واستقبلني ؛ ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه ، قام مُبادراً

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاحي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ - ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ - ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ١/٣٦٠

فوضعه على رأسه . ثم ناولته البردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها . ثم ناولته السجادة ، فتناولها وقبلها . ثم وضعت علب الحلوى بين يديه ، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبل ذلك كله ، وأشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أصحاب لي هنالك . فقلت أيدك الله ! لي كلام أذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلت أنا غريب بهذه البلاد غربتين ، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأى وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلت في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي ، فقال : قل الذي تريد أفعله لك ، فقلت : حال الغربه أنستني ما أريد ، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردن<sup>(١)</sup> عندي ، وأنا إن شاء الله أوفي كنه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بإمضاء ذلك ، فشكرت ودعوت وقلت : وبقيت لي أخرى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر . من القراء ، والموقعين ، والدواوين<sup>(٢)</sup> ، والعمال ، صاروا إلى إيالتك والملك لا يُفعل مثل هؤلاء . فسلطانكم كبير ، وعمّالاتكم متسعة ، وحاجة ملككم إلى

(١) الأردن : المعسكر ( تركية ) .

(٢) كذا في الاصل . ولعلها : ( بالدواوين ) او ( واصحاب الدواوين ) .

المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم ، فتأال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ، ويعورلون في أحوالهم عليه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك <sup>(١)</sup> ، فشكرت ودعوت . وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان ، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفت إلى منزلي . ولما قرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام ، دخلت عليه ذات يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلي وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلت نعم ، قال وتبيعها ؟ فأنا أشتريها منك ، فقلت أيدك الله امثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدمك بها ، وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : أنا أردت أن أكافئك عنها بالاحسان ، فقلت : وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به ، اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محل خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكت وسكت وحميت البغلة — وأنا معه في المجلس — إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر ؟ فقلت أيدك الله ، رغبتني إنما هي أنت ، وأنت قد آويت وكفلت ، فان كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وإلا فلا بغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأهلك ، فالتفت إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى

(١) ذكر هذه الشفاعة المقريري في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

شَقَّحَبَ لِمَرْبَاعِ دَوَائِبِهِ ، وَاشْتَغَلَ يُجَادِثُهُ ، فَقَالَ لِي الْفَقِيهَ عَبْدُ الْجَبَّارِ  
الَّذِي كَانَ يَتَرَجَّمُ بَيْنَنَا : إِنَّ السُّلْطَانَ يُوصِي ابْنَهُ بِكَ ، فَدَعَوْتُ لَهُ ؛ ثُمَّ  
رَأَيْتُ أَنَّ السَّفَرَ مَعَ ابْنِهِ غَيْرُ مُسْتَبِينِ الْوَجْهَةِ ، وَالسَّفَرُ إِلَى صَفَدٍ  
أَقْرَبِ السَّوَا حِلِّ إِلَيْنَا أَمْلَكُ لَأَمْرِي ، فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ ؛ فَأَجَابَ إِلَيَّ ،  
وَأَوْصَى بِي قَاصِداً كَانَ عِنْدَهُ مِنْ حَاجِبِ صَفَدِ ابْنِ الدَّأَوِيدَارِيِّ<sup>(١)</sup> ،  
فَوَدَعْتُهُ وَانْصَرَفْتُ ، وَاخْتَلَفْتُ الطَّرِيقَ مَعَ ذَلِكَ الْقَاصِدِ ، فَذَهَبَ عَنِّي ،  
وَذَهَبْتُ عَنْهُ . وَسَافَرْتُ فِي جَمْعٍ مِنْ أَصْحَابِي ؛ فَاعْتَرَضَتْنا جَمَاعَةٌ  
مِنَ الْعَشِيرِ قَطَعُوا عَلَيْنَا الطَّرِيقَ ، وَنَهَبُوا مَا مَعَنَا ، وَنَجَوْنَا إِلَى قَرْيَةٍ  
هُنَالِكَ عَرَايَا . وَاتَّصَلْنَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ بِالصَّبِيَّةِ فَخَلَفْنَا بَعْضَ  
الْمَلْبُوسِ ، وَأَجْزْنَا إِلَى صَفَدٍ ، فَأَقْمْنَا بِهَا أَيَّاماً . ثُمَّ مَرَرْنَا بِمَرْكَبٍ مِنْ  
مَرَاكِبِ ابْنِ عُثْمَانَ سُلْطَانِ بِلَادِ الرُّومِ ، وَصَلَ فِيهِ رَسُولٌ كَانَ سَفَرَ  
إِلَيْهِ عَنِ سُلْطَانِ مِصْرَ ، وَرَجَعَ بِجَوَارِ رِسَالَتِهِ ؛ فَرَكِبْتُ مَعَهُمُ الْبَحْرَ  
إِلَى غَزَّةَ ، وَنَزَلْتُ بِهَا ، وَسَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ ، فَوَصَلْتُهَا فِي شَعْبَانَ  
مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَهِيَ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَمَانِمِائَةٌ ؛ وَكَانَ السُّلْطَانُ صَاحِبَ  
مِصْرَ ، قَدْ بَعَثَ مِنْ بَابِهِ سَفِيرًا إِلَى الْأَمِيرِ تُمُرْ أَجَابَةً إِلَى الصِّلَحِ الَّذِي  
طَلَبَ مِنْهُ ؛ فَأَعْقَبَنِي إِلَيْهِ . فَلَمَّا قَضَى رِسَالَتَهُ رَجَعَ ، وَكَانَ وَصُولُهُ بَعْدَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَفِي عَجَائِبِ الْمَقْدُورِ ص ١١٣ : « ... وَكَانَ فِي صَفَدٍ تَاجِرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ  
أَحَدِ الرُّؤَسَاءِ وَالتَّجَارِ ، يَدْعَى عَلَاءُ الدِّينِ ، وَيَنْسَبُ إِلَى دَوَادَارٍ ، كَانَ تَقَدَّمَتْ لَهُ خِدْمَةٌ عَلَى السُّلْطَانِ  
فَوَلَّاهُ حِجَابَةَ ذَلِكَ الْمَكَانِ » .

وصولي؛ فبعث اليّ مع بعض أصحابه يقول لي : ان الأمير تمر قد بعث معي اليك ثمن البغلة التي ابتاع منك ، وهي هذه فخذها ، فإنه عزم علينا من خلاص دُمتِه من مالِك هذا . فقلت لا أقبله الا بعد اذن من السلطان الذي بعثك اليه ، وأما دون ذلك فلا . ومضيت الى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال وما عليك ؟ فقلت ان ذلك لا يجملُ بي أن أفعله دون اطلاعكم عليه ، فأغضى عن ذلك ، وبعثوا اليّ بذلك المبلغ بعد مدّة ، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك ، وحمدت الله على الخلاص .

وكتبت حينئذ كتاباً الى صاحب المغرب ، عرّفته بما دار بيني وبين سلطان الطّطر تمر ، وكيف كانت واقعة معنا بالشّام ، وضمنت ذلك في فصل من الكتاب نصّه :

« وان تفضّلتُم بالسؤال عن حال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجهتُ صُحبة الرّكاب السلطاني الى الشام عندما زحف الطّطر اليه من بلاد الروم والعراق ، مع مَلِكهم تمر ، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك ، وخرّبها جميعاً ، وعاثت عساكره فيها بما لم يُسمع أشنع منه . ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق الى دمشق ، وأقام في مقابله نحواً من شهر ؛ ثم قفل راجعاً الى مصر ، وتخلّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنت في المخلفين . وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني ؛ فلم يسع

إِلَّا لِقَاؤَهُ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ ، وَحَضَرَتْ مُجْلِسَهُ ،  
وَقَابَلَنِي بِخَيْرٍ ، وَاقْتَضَيْتُ مِنْهُ الْأَمَانَ لِأَهْلِ دِمَشْقَ ، وَأَقَمْتُ  
عِنْدَهُ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ يَوْمًا ، أَبَاكَرَهُ وَارَاوَحَهُ . ثُمَّ صَرَفَنِي ، وَوَدَّعَنِي  
عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ ، وَرَجَعْتُ إِلَى مِصْرَ . وَكَانَ طَلَبُ مَنِّي بَغْلَةً كُنْتُ  
أُرْكِبُهَا فَأَعْطَيْتَهُ إِيَّاهَا ، وَسَأَلَنِي الْبَيْعَ فَتَأَفَّفْتُ مِنْهُ ، لَمَّا كَانَ يُعَامِلُ بِهِ  
مَنْ الْجَمِيلُ ، فَبَعْدَ انْصِرَافِي إِلَى مِصْرَ بَعَثَ إِلَيَّ بِشَمْنَهَا مَعَ رَسُولٍ كَانَ  
مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ هُنَالِكَ ، وَحَمَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْخِلَاصِ مِنْ وَرَطَاتِ  
الدُّنْيَا .

وَهُؤُلَاءِ الطُّطَرُ هُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
الصِّينِ ، أَعْوَامٌ<sup>(١)</sup> عَشْرِينَ وَسِتِّمِائَةً مَعَ مُلْكِهِمُ الشَّهِيرِ جَنْكَزْخَانَ  
وَمَلِكِ الْمَشْرِقِ كُلِّهِ مِنْ أَيْدِي السَّلْجُوقِيَّةِ وَمَوَالِيهِمْ إِلَى عِرَاقِ الْعَرَبِ ،  
وَقَسَمَ الْمَلِكُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ وَهُمْ جَقَطَايَ ، وَطُولِي ، وَدُوشِي  
خَانَ :

فَجَقَطَايَ كَبِيرُهُمْ ، وَكَانَ فِي قِسْمَتِهِ تُرْكِيْسْتَانَ وَكَاشْغَرَ ،  
وَالصَّأْغُونَ ، وَالشَّاشَ وَفَرَّغَانَةَ ، وَسَائِرُ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ مِنَ الْبِلَادِ .

وُطُولِي كَانَ فِي قِسْمَتِهِ أَعْمَالُ خِرَاسَانَ ، وَعِرَاقُ الْعَجْمِ ، وَالرَّيَّ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ مَأْلُوفٌ فِي اسْلُوبِ ابْنِ خَلْدُونَ . وَرَدَّ كَثِيرًا فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ  
مِنْ كِتَابِهِ .

الى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند . وكان أبناؤه :  
قبلاي ، وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبيجق ، ومنها صراي ،  
وببلاد الترك الى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي  
كبيرهم ، ويسمونه الخان ، ومعناه صاحب التخت ، وهو بمشابة  
الخليفة في ملك الاسلام . وانقرض عقبه ، وانتقلت الخانية الى  
قبلاي ، ثم الى بني دوشي خان ، أصحاب صراي . واستمر ملك  
الطغر في هذه الدول الثلاث ، وملك هولاكو بغداد ، وعراق  
العرب ، الى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحف الى الشام وملكها ،  
ورجع عنها ، وزحف اليها بنوه مراراً ، وملوك مصر من الترك  
يدافعونهم عنها ، الى أن انقرض ملك بني هولاكو أعوام أربعين  
وسبعمئة ، وملك بعدهم الشيخ حسن النونين وبنوه . وافترق  
ملكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نقيمتهم عن ملوك  
الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين او الثمانين وسبعمئة ، ظهر في بني  
جقاي وراء النهر أمير اسمه تيمور ، وشهرته عند الناس تمر ، وهو  
كافل لصبي متصل النسب معه الى جقاي في آباء كلهم ملوك ،  
وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم ، كفّل صاحب التخت منهم اسمه  
محمود ، وتزوج أمه صرغتمش ، ومدّ يده الى ممالك التتر كلها ،

فاستولى عليها الى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاشت  
عساكره في نواحيها ، وخرب حصونها ومدنها ، في أخبار يطول  
شرحها . ثم زحف بعد ذلك الى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالب  
على أمره . ثم رجع آخرأ الى بلاده ، والأخبار تتصل بأنه قصد  
سمرقند ، وهي كرسيه .

والقوم في عدد لا يسعه الاحصاء ، إن قدرت ألف ألف فقير  
كثير ، ولا تقول أنقص ، وإن خيموا في الأرض ملأوا السّاح ، وإن  
سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ، وهم في الغارة  
والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما  
يحصلونه من فئاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه  
الى العلم ، وآخرون الى اعتقاد الرّفص ، لما يرون من تفضيله لأهل  
البيت . وآخرون الى انتحال السّحر ؛ وليس من ذلك كلّ في شيء ؛  
انما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللّجاج بما يعلم وبما لا  
يعلم ، عمره بين السّتين والسّبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم  
أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني ، فيجرّوها في قريب المشي ،  
ويتناولها الرّجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له ؛  
والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .



## ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت - لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت -  
 طال مغيبي عن مصر ، وشيئت الأخبار عني بالهلاك ، فقدم للوظيفة  
 من يقوم بها من فضلاء المالكية ، وهو جمال الدين الأفهسي<sup>(١)</sup> ،  
 غزير الحفظ والذكاء ، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس ،  
 ورع في دينه ؛ فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة .

فلما رجعت إلى مصر ، عدلوا عن ذلك الرأي ، وبدأ لهم في  
 أمري ؛ فولوني في أواخر شعبان من السنة . واستمرت على الحال  
 التي كنت عليها من القيام بالحق ، والاعراض عن الأغراض ،  
 والانصاف من المطالب ؛ ووقع الإنكار عليّ ممن لا يدين للحق ،  
 ولا يُعطي النصفة من نفسه ؛ فسعوا عند السلطان في ولاية شخص  
 من المالكية يُعرف بجمال الدين البساطي<sup>(٢)</sup> ، بذل في ذلك لسعاة

(١) هو عبد الله بن مقداد بن اسماعيل بن عبد الله الأفهسي ، جمال الدين المالكي المتوفى

سنة ٨٢٣ هـ .

(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي ، جمال الدين .

دَاخَلُوهُ ، قِطْعَةً مِنْ مَالِهِ ، وَوُجُوهاً مِنْ الْأَغْرَاضِ فِي قِضَائِهِ . قَاتَلَ  
 اللَّهُ جَمِيعَهُمْ ؛ فَخَلَعُوا عَلَيْهِ أَوَاخِرَ رَجَبٍ ، سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ . ثُمَّ رَاجَعَ  
 السُّلْطَانُ بَصِيرَتَهُ ، وَانْتَقَدَ رَأْيَهُ ، وَرَجَّعَ إِلَى الْوِظِيفَةِ خَاتَمَ سَنَةِ  
 أَرْبَعٍ ، فَأَجْرِيَتْ الْحَالُ عَلَى مَا كَانَ . وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ سَنَةً وَبَعْضُ  
 الْأُخْرَى . وَأَعَادُوا الْبِسَاطِي إِلَى مَا كَانَ ، وَبِمَا كَانَ ، وَعَلَى مَا كَانَ ،  
 وَخَلَعُوا عَلَيْهِ سَادِسَ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ<sup>(١)</sup> ، ثُمَّ أَعَادُونِي عَاشِرَ  
 شَعْبَانَ سَنَةِ سَبْعٍ<sup>(٢)</sup> ، ثُمَّ أَدَالُوا بِهِ مَنِي أَوَاخِرَ ذِي الْقَعْدَةِ<sup>(٣)</sup> مِنْ السَّنَةِ  
 وَبَيَدَ اللَّهِ تَصَارِيفَ الْأُمُورِ .

(١) انظر « عقد الجمان » للعيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .

(٢) في صبح الأعشى ١٨٩/١١ نص « التقليد » الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن خلدون .

(٣) الذي في « عقد الجمان » للعيني في حوادث سنة ٨٠٧ ، أن الذي خلف ابن خلدون هو جمال الدين الأفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بعده .

# الفهرس

الموضوع	صفحة
ابن خلدون - بيته - نسبه	٤
سلفه بالاندلس	٦
سلفه بافريقية	١٠
نشأته ومشيجته ، وحاله	١٧
ولايته العلامة بتونس ، ورحلته الى المغرب وتوليه الكتابة عن ابي عنان	٥٢
حدوث النكبة من السلطان ابي عنان	٦٩
كتابه عن السلطان ابي سالم	٧٠
شعره ٦٩ ، ٧٣ - ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٩ - ٩٥ ، ١٤٢ ، ٢٥٠ - ٢٦١ ، ٣٦٥ - ٣٧٠	
رحلته الى الاندلس	٨٤
رسالة لابن الخطيب يرحب فيها بمقدم ابن خلدون الى الاندلس	٩٥
رسالة من انشاء ابن الخطيب على لسان ابن الاحمر تتضمن تشييع	
ابن خلدون والتوصية به حين عزم على العودة الى بجاية	٩٦
عودة ابن خلدون الى بجاية ، وتوليه الحجابة بها	٩٩
مشايعته للسلطان ابي حمو صاحب تلمسان	١٠٧
رسالة لابن الخطيب يعاتب بها ابن خلدون	١١٢
رسالة لابن خلدون يحيب فيها عن رسائل ابن الخطيب	١٣٠
رساله من ابن الخطيب الى ابن خلدون	١٣٧
مشايعة ابن خلدون للسلطان عبدالعزيز صاحب المغرب	١٤٤
رسالة لابن الخطيب يودع فيها ابن الاحمر حينما سافر الى المغرب	١٤٩
رسالة من انشاء ابن الخطيب على لسان ملكه ابن الاحمر	١٥٨

## الملاحضات

### صفحة

١٦٧	فضل الوزير ابن الخطيب
٢٣٢	عودة ابن خلدون الى المغرب الأقصى
٢٤٣	اجازته الى الاندلس ثانية وعودته الى تلمسان. واقامته عند اولاد عريف
٢٤٦	فيئته الى السلطان ابي العباس الحفصي بتونس ، واقامته بها
٢٦٤	رحلته الى المشرق وولايته القضاء بمصر
	رسالة الملك الظاهر برقوق الى ابي العباس الحفصي يتشفع في اولاد
٢٦٧	ابن خلدون ويطلب منه ارسالهم الى مصر
٢٨١	سفر ابن خلدون لقضاء فريضة الحج :
٢٨٢	رسالة لابن زمرك يخاطب فيها ابن خلدون
٢٩٨	رسالة لابي الحسن علي بن الحسن البني يخاطب فيها ابن خلدون
٣٠٤	ولاية ابن خلدون التدريس والخوانق
٣٢٣	خطبة له انشأها عند ولايته التدريس بالمدرسة القمحية .
٣٢٨	خطبة له انشأها عند تدريسه لكتاب « الموطأ »
٣٤٣	ولايته خانقاه ببيرس وعزله عنها
٣٤٥	فتنة الناصري
٣٧٠	سعايته في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر
٣٨٣	ولايته القضاء بمصر مرة ثانية
٣٨٨	سفر السلطان الناصر فرج الى الشام لمداغة التتر
٤٠٦	لقاء ابن خلدون لتيمورلنك
٤٢١	رجوعه عن تيمورلنك الى مصر
٤٢٥	رسالة ابن خلدون الى ملك المغرب يخبره فيها باحوال تيمور
٤٢٩	ولايته القضاء بمصر مرة ثالثة ، ورابعة ، وخامسة